النوابغ
8

سيرة المسيح

تأليف
جيوفانّي بابّيني

ترجمه عن الفرنسيّة
أديب مصلح

عنوان الكتاب بالفرنسيّة
(وفقاً للترجمة الوحيدة المرخّصة)

HISTOIRE DU CHRIST
PAYOT- PARIS
1923

إهداء

إلى حفيدي الغالي، الفاتن، مارك
فليحمِك يسوع،
و ليحوّل "دهاءَك" العذب حكمةً وفطنةً، ودفقَ حيويّتك اندفاعاً في خدمته، وخدمة إِخوته، فتكون له شاهداً أميناً، على غرار شفيعك مرقس

أديب

تمهيد

مذ زار يسوع كوكبنا، غدا، هو، محوره ومركزه، ولم يعد بوسع أيّ عبقريٍّ تجاهله. كثيرون وقفوا منه وقفة دهشةٍ وخشوع، وسخّروا ما أوتوا من مواهب فكرٍ وفنٍّ للتعبير عن إعجابهم به، وحبّهم له، ولأداء ما يتوجّب عليهم، حياله، من تسبيح وعبادة. وبعضهم أعمى بصيرتهم الغرور، وصوّر لهم ذهنهم العليل أنّهم بتصدّيهم لهذا العظيم الفذّ، قد يثبتون عظمتهم، فتردّوا إلى أدنى دركات الإسفاف والمغالطة.

و جيوفانّي بابّيني (1881– 1956) هو أحد عباقرة إيطاليا، ومواطني الحاضرة التوسكانيّة، مدينة الأدب والفنّ، فلورنسا، التي تفخر بمولد عباقرةٍ أمثال دانتي، وميكل أنجيلو، وليوناردو دافنشي، وكردوتشي، وجاليليو، على أرضها.

و قد تسنّم بابّيني قمماً شامخة في ميادين الأدب، شعراً، وروايةً، وصحافةً؛ و في مضامير الفكر، فلسفةً وبحثاً؛ وضرب في مسالك المذاهب الفكريّة المختلفة، والمتضاربة، أحياناً، منقّباً، متنقّلاً من أيديولوجيّة إلى أُخرى، ناشداً، بكلّ طاقات فكره، وحوافز إرادته، الحقيقة، التي عثر عليها، أخيراً، عقب بحثٍ متمادٍ، وصراعٍ نفسيٍّ مضنٍ، في شخص يسوع المسيح، الذي بنور حقيقته اهتدى، وعلى دروب سراطه سار، ومنه استمدّ الحياة الحقّة، واقتسمها مع قرّائه.

و لا بدْعَ إن سخّر بابّيني سحر بيانه لمن احتلّ من قلبه حبّته، ومن ذهنه مركزه، ودبّج، في سيرته، أحد أشهر آثاره وأروعها، وسكب فيه فيض حبّه لمن امتلك عليه كلّ نفسه.

في مقدّمة هذا الكتاب قال بابّيني : " كثيرون ممّن يدّعون " التحرّر الفكريّ "، يتحرّقون شوقاً إلى اغتيال يسوع ثانية، وإلى قتله في قلوب البشر. فيتخيّلون، من أجل إنكاره وإنكار عجائبه، كلّ ضروب الترّهات، والحذلقات، ومبتكرات الهذيان، ويحاولون إنشاء مسيحيّة بلا إله، بلا يسوع، بلا المسيح.

غير أنّ تلك التخرّصات الهزيلة لم تفلح في اقتلاع يسوع من القلوب.

سيبقى يسوع المبدأ والمنتهى، وهوّة السرّ الإلهيّ التي تنحفر بين شطرين من تاريخ البشر. وهو، وحده، بين من صنعوا التاريخ، ما انفكّ يحيا في قلوب البشر، ويلهبها.

ربّما لم ينأَ عصرٌ عن يسوع مثلما نأى عصرنا، ولكن ما من عصرٍ في حاجةٍ حارقة إلى يسوع مثل عصرنا.

و ما من "سيرة يسوع" مهما سما نبوغ كاتبها، تبلغ روعة الأناجيل، في بساطتها الشفّافة. ولكن كثيراً ما تاهت جهود الباحثين واللاهوتيّين في التعليق على لفظةٍ هنا، والتشكيك

في لفظةٍ هناك، وفي افتراضاتٍ لغويّة وتاريخيّة، لا تؤتي القلوب ما تنشده من غذاء وحيـــاة، في حين أنّ هذه تتدفّق من خلال كلّ سطرٍ وعبارةٍ من سطور الأناجيل وعباراته.

هدف هذا الكتاب أن يكون كتاب حياةٍ وحبّ، يبرز، لعيون الأحياء، يســـوع الحـــيّ، ويشيع لديهم حضوره الأبديّ، ويشيد بعظمته الفذّة، ويرسم قسمات وجهه الحقّ الذي لا يمكن إلاّ عشقه، ويثبت التعاليم والأحداث التي ستظلّ، لكلّ جيل، وللأبد، منبع نور، ومعين حياة "

إنّ كتابات بابّيني، عامّة، تحفل بالتحليقات الشعريّة : نظرته إلى العالم هـــي نظـــرة شاعر أكثر منها نظرة فيلسوف. وهو سواء كتب نثراً أو شعراً، حَسْبه أن يتناول مواضيع لها مساس بالغنائيّة، حتّى يُضفي الزخم الشعريّ حياةً وقوّةً على إلهامه. وقد انطوى كتاب "سيرة المسيح" على بعض أروع صفحات شعره المنثور، حيث يمتزج الشـــعر، والحـــسّ الـــدينيّ، والرقّة، والشفافيّة الداخليّة، وتبرز حساسيةٌ مرهفة تتلقّف أصوات الخليقة، وتـــتلمّس صـــوت الخالق، وتستنبط من أكثر الأشياء صغراً وهشاشة، نغماً عذباً.

أسلوبه مزيج خيالٍ خصبٍ جيّاش، وتعبيرٍ ناريٍّ صلبٍ كجلمود صخر، وعذوبة نغمةٍ نادرة، وغنائيّةٍ تتفجّر من نبعٍ صافٍ فيّاض، وشعرٍ دافئ طليق.

و شعره يستمدّ من الطبيعة الحيّة إلهامه، تلك الطبيعة الساحرة التي غذّت خياله فـــي الريف التوسكانيّ الرائع، الضاجّ بجمالٍ بسيطٍ حميم، يربط الكائن بالواقع المحيق به، بوشائج رقيقة عذبة، هذه الطبيعة تتجلّى باطّراد من خلال صفحات بابّيني بكلّ ألوانهـــا، وروائحهـــا، وزخم حيويّتها، وسحرها الذي يبرع بابيني في إبرازه.

يعترف النقّاد بأنّ بابّيني يتبوّأ مركزاً مرموقاً بين شعراء إيطاليا، بين أرفع مبدعيهم، وأكثرهم أصالة، لأنّه كان دائماً شاعراً، شاعراً بكلّ نفسه، شاعراً من أرقى مستوى؛ وقد قيل فيه " إنّه الغنائيّ الأعظم، والكاتب الأمتن "

بهذه المواهب الفذّة، والأسلوب الفريد، كتب بابّيني " سيرة المسيح " حيث اقترن الحسّ الدينيّ المتأجّج بحبّ الطبيعة المضطرم، وتضافرا على سبك نشيد حبّ، مستفيضاً، لا متناهياً، ليسوع الثائر على البلادة، والجمود، والرداءة، يسوع إله السلام.

هذا الكتاب كان قد نُشر للمرّة الأولى، في إيطاليا، عام 1918، ولا ريب أنّ ســـنوات الحرب العالميّة الأولى كانت قد آلمت، في الصميم، قلب الشاعر بابّيني، فالتفت بكلّ عواطفـــه وذهنه إلى من رآه كفيلاً بتوفير السلام للبشر، أخيراً، وقد توجّه إليه، في ختام كتابه بصـــلاةٍ مؤثّرة، مضطرمة، عابقة بالحبّ.

ذات يوم أعطاني من أعتزّ بأن كنت لـــه تلميذاً، واتّخذت منه قـــدوةً ومـــثلاً أعلـــى، المرحوم الأب جورج فاخوري، نسخة من كتاب بابّيني هذا، في ترجمته الفرنسيّة، وأعرب لي عن رغبته في أن أترجمه إلى العربيّة، وقد ترجمت بضعة فصولٍ منه، نُشرت فـــي مجلّـــة

"المسرّة" التي كان يديرها الأب جورج فاخوري، آنذاك، ثمّ أقصتني عنه دوّامة اهتمامات أُخرى.

و راودتني، مؤخّراً، رغبة في العودة إلى مطالعة سِيَر يسوع التي خلّفت في نفسي أثراً باقياً، وكان أوّل ما تناولته، من مكتبتي، كتاب بابّيني، فإذ بصفحاته قد أخذت تتناثر، وبأوراقه شرعت تتفتّت، ولكن ما إن بدأت أستقري سطوره، حتّى هزّ كياني ما كان ينبعث منه من دويّ رعود، ووميض بروق، وحمَم نار، ولوحاتٍ أخّاذة.

و ذكرت رغبة الأب جورج فاخوري، وخامرني يقين بأنّ هذه الرغبة إنّما هي دَينٌ له في ذمّتي، لا فرار لي من سداده، فأقبلت على ترجمة الكتاب، وجلّ رجائي أن أُرضي روحه، وأخدم يسوع.

أديب مصلح

الزريبة

وُلد يسوع في زريبة !

والزريبة ليست ذلك الرواق المضياف، الرشيق الهندسة، الذي شيّده لابن داود رسّامون مسيحيّون خجلوا من قذارة المرقد الزريّ الذي ثوى فيه إلههم. وليست الزريبة تلك المغارة من الجصّ التي يتصوّرها عَبَث خيال بائعي التماثيل الصغيرة، المغارة النظيفة، المنضّدة باتّساق، وقد راح فيها الحمار والثور، في غيبوبةٍ من الذهول المشبع بالتقوى، فيما الملائكة ينشرون أعلامهم فوق سطحها، وقد جثا، في تقابلٍ محكم الانتظام، فريقا الملوك المتدثّرين بمعاطفهم، والرعاة معتمري القبّعات.قد تصلح تلك المغارة موضوع أحلامٍ للإكليريكيّين المبتدئين، وترفٍ للكهنة، أو دميةً للأطفال، أو قصيدة للشاعر "منتزوني"، ولكنّها ليست هي الزريبة التي وُلد فيها يسوع.

فالزريبة هي مأوى البهائم، بل سجن البهائم التي تكدح في سبيل الإنسان. والزريبة العتيقة والفقيرة، في بلاد يسوع، تفتقر إلى الأعمدة المتوّجة بالزخارف، وتجهل كلّ شيءٍ عن ترف اسطبلاتنا؛ وهي تختلف، أيضاً، عن ذلك الكوخ الأنيق الذي بات مألوفاً عشيّة عيد الميلاد، فهي خالية إلاّ من جدرانٍ أربعة، وأرضٍ قذرة، وسقفٍ قائم على بضعة عوارض وبعض آجرّ؛ وهي غارقةٌ في العتمة، تفوح منها روائح السائمة، ولا شيء فيها نظيف سوى المعلف، حيث يُعدّ السيّد العليق لبهائمه.

لقد قُصّت أعشاب المروج – النديّة، منها، في الأصباح الزاهية، والمتموّجة في الريح، الدافئة تحت أشعّة الشمس، أو المبلّلة – وهوت، تحت المناجل، أوراقها السامقة الدقيقة، بأزهارها المتفتّحة، بيضاء، أو زرقاء، صفراء، أو حمراء، وذوت جميعها، وجفّت، وارتدت لون العلف الشاحب، وجلست الأبقار إلى مائدة رُفات الربيع الميت. وها هي ذي الأعشاب والأوراق، وقد احتفظت، في جفافها، بعطر أريجها، قد أمست في المعلف، كي تشبع جوع البهائم المستعبدة التي تمدّ إليها، على مهل، مشافرها الغليظة السوداء، فتجعل المرج المزهر، سماداً طريّاً.

تلك هي، في الواقع، الزريبة التي قدم يسوع، فيها، إلى العالم، فكان أكثرُ المطارح نجاسةً أوّلَ منزل حلّ فيه الكائن الطاهر الأوحد الذي ولدته امرأة. وكان أوّل مهدٍ رقد فيه ابن الإنسان، الذي قُيِّض له أن يُصبح، في ما بعدُ، فريسة بهائم تحمل اسماً بشريّاً، ذلك المذود الذي تسحق فيه البهائم، بأضراسها، أزهار الربيع الرائعة.

و لم يتمّ ذلك مصادفة: أفليست الأرض معلفاً ضخماً، يدأب فيه الإنسان على الالتهام والهضم ؟ أوَلا تحيل كيمياء جهنّميّة أكثر الأشياء بهاءً وطهراً سماويّاً إلى دِمَن زبل، وإلى ركامٍ من القذارة، يُصبح، في ما بعد، أسرّة للرقاد ؟ أوَليس هذا ما يُدعى في لغة البشر، "التمتّع بالحياة"؟

في عالمٍ مثل هذا، في الكوخ الزريّ، الذي تعجز زخارفه عن إخفاء أرجاسه، ظهر يسوع، ذات ليلة، مولوداً من عذراء، لا لوثة فيها، مسلّحاً بالبراءة، فحسب.

الثور والحمار

عبدة يسوع الأوائل كانوا من البهائم لا من البشر. فهو كان يبحث، بين البشر، عن البسطاء، وبين البسطاء عن الأطفال، وقد رحّبت به حيوانات أليفة، أوفر بساطةً من الأطفال، وأكثر وداعة؛ ولو أنّ الحمار والثور، ذيْنك المخلوقَيْن الوضيعين الطيّعيْن، كانا قد شاهدا، في ما مضى، جموعاً غفيرة تسجد أمامهما. فشعب يهوه، الشعب المقدّس، الذي كان يهوه قد أعتقه من عبوديّة مصر، ما كاد موسى يتركه في الصحراء، كي ينصرف إلى مخاطبة اللّه، حتّى أرغم هارون على إقامة نُصبٍ لثورٍ ذهبيّ.

و الحمار كان مكرّساً في اليونان للآلهة آريس، وديونيسيُس، وأبولّو القاطن في الشمال. أمّا أتان بلعام، وقد فاقت الحكماء حكمةً، فبكلامها أنقذت النبيّ. وكان "أوخوس" ملك فارس، قد أمر بعبادة حمار في معبد " فتا ".

و لسنوات قلائل سبقت ولادة المسيح، فيما كان أوكتافيوس، في طريقه لركوب البحر، عشيّة معركة "أكسيوم"، صادف حمّاراً يقود دابّته. وكان اسم الحمار "نيكون" أي المنتصر، وحين تمّ للأمبراطور النصر، نصب، في المعبد المعدّ لتخليد نصره، حماراً من النحاس الأحمر.

حتّى ذلك العهد، كان الملوك والشعوب يؤدّون العبادة للثور والحمار، ولكنّهم كانوا ملوك الأرض وشعوبها؛ ويسوع ما جاء كي ينافسهم في هذا الميدان. فمعه ستنقرض عبادة البهيمة، وينتهي ضعف هارون، وإيمان أوغسطس بالخرافات؛ وستقتله بهائم أورشليم؛ أمّا اليوم، فبهائم بيت لحم تبعث، بأنفاسها، الدفء في أوصاله. وعندما سيدخل يسوع، لقضاء فصحه الأخير، مدينة الموت، سيكون ممتطياً جحشاً. ولكنّه، وهو أعظم من بلعام، وقد جاء لخلاص البشر، لا العبرانيّين وحدهم، لن يحيد عن طريقه، عندما يتعالى نهيق بغال أورشليم العدائيّ.

الرعاة

بعد البهائم، جاء حرّاس البهائم. فحتّى لو لم يكن الملاك قد بشّر بالمولد العظيم، لكان الرعاة قد هرعوا إلى الزريبة، لمشاهدة ابن المرأة الغريبة.

فالرعاة يعيشون في مطاوي الوحدة، جاهلين كلّ ما يخصّ العالم وملذّاته. وهم يتأثّرون بأدنى الأحداث شأناً ممّا يجري في جوارهم. كانوا يقضون الليل، في تلك الفترة من السنة، حيث يبلغ الليل أقصى طوله، ساهرين على قطعانهم، عندما مسّتهم رعشة الضياء، وهزّتهم كلمات الملاك.

و ما كادوا يكتشفون، في ظُلَيْل الزريبة، امرأةً صبيّةً وجميلة، عاكفةً على وليدها، في تأمّلٍ صامت، وما كادوا يلمحون الطفل، وهو ما برح يفتح عينيه للنور، وبشرته الرقيقة، وفمه الذي لم يذقْ، بعدُ، طعاماً، حتّى ترقرقت قلوبهم حناناً. إنّ مشهد الولادة، ولادة إنسانٍ جديد، ونفسٍ لم تتجسّد إلاّ منذ لحظات فقط، نفسٍ قادمة لتشارك العذاب نفوساً أُخرى، لسرٌّ يحمل من الألم ما يوقظ الرأفة في قلوب البسطاء. وكانت السماء قد أنذرت أولئك الرجال، بأنّ الطفل الذي يشاهدونه، ليس وليداً كالآخرين، بل هو ذاك الذي ما انفكّ شعبهم ينتظر مجيئه في توقّعٍ وجيع، منذ ألف عام.

و قدّم الرعاة الزهيد الذي كانوا يملكونه، ذلك الزهيد الذي يُضحي جمّاً، عندما يهبه الحبّ، تقدمات بيضاء من خيرات القطيع : لبناً وجبناً، وصوفاً وحملاناً. وحتّى يومنا هذا، ما زال شائعاً في جبالنا، حيث آخر آثار الأخوّة التليدة آخذةٌ في الاندثار، تقليدٌ يجمع حول الزوجة التي تضع وليداً، أخوات الرعاة المجاورين، وبناتهم، وزوجاتهم، وبيد كلٍّ منهنّ تقدمة : بضع بيضات طازجة، أو جرّة حليب ما زال فاتراً، أو بضعة أقراص جبن ما برحت طريّة، أو فرخة تصلح حساءً للنفساء : فقد ولج العالمَ كائنٌ جديد، وأُطلقت صرخة بكاء جديدة، وكأنّ ما يُقدّم للأمّ من هدايا، عزاءٌ يُسكب في نفسها.

الرعاة القدامى كانوا فقراء، ولم يألفوا ازدراء الفقراء. وفي بساطتهم التي تجعلهم يحاكون الأطفال، كانوا يحبّون تأمّل الأطفال. كانوا ينحدرون من شعبٍ أنجبه راعي "أور" وأنقذه راعي "مدين". وكان ملوكه الأوائل، شاول وداود، هم أنفسهم رعاة مواشٍ، قبل أن يمسوا رعاة شعوب. غير أنّ ذلك التاريخ ما كان يوحي لرعاة بيت لحم بأيّة كبرياء. إنّ فقيراً قد وُلد بين ظهرانيهم، وكانوا يرمقونه بحبّ، وينفحونه، بحبّ، مقتنياتهم الفقيرة. وكانوا يدركون أنّ هذا الطفل الذي جاء إلى العالم فقيراً وبسيطاً، في مثل فقر الشعب وبساطته، كان

مهيّأً ليصبح فادي المتواضعين، أولئك القوم الطيّبي النوايا، الذين بشّرهم الملاك بقوله : " على الأرض السلام "...

الملك المجهول، "أوليس" المتشرّد، لم يلقَ، قطّ من الترحاب والاحتفال، مثلما لقي في زريبة خنازير " إيمي ". ولكنّ " أوليس " كان عائداً إلى منزله في " إيتاك "، كي ينقع غليل ثأره، ويقضي بالموت على أعدائه. أمّا يسوع، فقد جاء إلى العالم، كي ينهى عن الثأر، ويأمر بالتسامح. وهذا الفرق هو الذي جعل سجود رعاة بيت لحم يُسبل على برّ راعي خنازير " إيثاك " المضياف، سجف النسيان.

المجوس

بعد بضعة أيّام، وصل ثلاثة مجوس من بلدان الكلدانيّين، وجثوا أمام يسوع.

ربّما كانوا قادمين من أقباطان، أو من سواحل بحر الجرجان؛ وقد اجتازوا على متون جمالهم، التي تدلّت من رحالها أكياسهم المنتفخة، معابر دجلة والفرات، وقطعوا صحارى البدو، وحاذوا البحر الميّت. وكان دليلهم إلى بلاد اليهود نجمٌ جديد، شبيهٌ بتلك الشُّهب التي كانت، أحياناً، تنذر بمولد نبيّ، أو بوفاة قيصر. وقد قدموا كي يؤدّوا فروض العبادة بين يدي ملك، وإذ بهم يُلفون رضيعاً مستلقياً في مذود.

حوالي ألف عام، من قبلهم، كانت ملكةٌ من المشرق قد جاءت اليهوديّة، وهي، أيضاً، كانت مثقلة بالهدايا : من ذهب، وعطور، وجواهر ثمينة. إلاّ أنّها وجدت، على عرش اليهوديّة، أعظم ملكٍ حكم، يوماً، إسرائيل، وتلقّنت منه ما لم يعلّمها أحدٌ، قطّ. أمّا المجوس، ولهم من الشهرة، في العلم، أكثر ممّا للملوك، فلم يجدوا سوى طفلٍ، لم يتجاوز، بعدُ، من العمر أيّاماً، عاجزٍ عن السؤال والجواب، ولكنّه، عندما سيبلغ مبالغ الرجال، سيزدري الكنوز المادّيّة، وعلوم المادّة.

ما كان المجوس، في فارس وماداي، هم الملوك، بل كانوا معلّمي الملوك. كانوا هم الذين يرشدون حكّام الشعوب، وهم الذين ينحرون، ويقدّمون الأضاحي، ويفسّرون الأحلام، ويتنبّأون بالغيب، ويؤدّون وظيفة الوزراء، وهم، وحدهم، كانوا مؤهّلين للاتّصال بأهورا مازدا، الاله الخيّر، ووحدهم كانوا يُلمّون بخفايا المستقبل. بأيديهم كانوا يقتلون الحيوانات التي تناصب الإنسان العداء، كالأفاعي والحشرات الضارّة، والطيور المشؤومة؛ ويطهّرون النفوس والحقول، إذ لم يكن الإله يتقبّل سوى ضحاياهم. وما كان ملكٌ يقرّر إعلان حرب إلاّ بعد

استشارتهم. وبصفتهم القابضين على نواصي أسرار الأرض والسماء، كانوا يسيطرون على أبناء جلدتهم، باسم الدين والمعرفة، وكانوا، بين ظهراني شعب يعيش في سبيل المادّة، يمثّلون جانب الروح.

و كان بالتالي، من العدل، أن يشخصوا للسجود أمام يسوع. فبعد البهائم التي تمثّل الطبيعة، والرعاة الذين يمثّلون الشعب، كان على تلك السلطة، أَيضاً، سلطة المعرفة، أن تجثو أمام مغارة بيت لحم. وبذلك أعلنت طبقة كهنوت المشرق العريقة خضوعها للمعلّم الجديد، الذي سيتلقّى الغرب رسالته، فانحنى كهنتها أمام من سيُخضع علمَ الألفاظ والأرقام إلى العلم الجديد، علم الحبّ.

إنّ مجيء المجوس إلى بيت لحم يعني اعتراف علوم اللاهوت القديمة بالوحي النهائيّ. وجثوّ المعرفة أمام البراءة، وارتماء الثروة عند أقدام الفقر.

لقد قدّموا ليسوع ذلك الذهب الذي سيزدريه. لم يقدّموه بُغية سدّ عَوَز العيلة المرتحلة، بل كي يطيعوا، قبل الأوان، نصيحة الإنجيل : "بعْ ما تملك، وأَعطِه للفقراء". ولم يقدّموا البخور درأً لنفثات النتَن الفائحة من الإسطبل، بل لأنّ طقوسهم كانت تحتضر، فما عادت هياكلهم بحاجةٍ إلى الدخان المتصاعد والعطور. وقدّموا المرّ الذي يُستعان به في تحنيط الأموات، لأنّهم كانوا يدركون أنّ الابن سيموت، وأنّ الأمّ المشرقة، اليوم، بالبشْر، سيترتّب عليها تحنيط جثمانه.

وهم، جاثين على القشّ، متدثّرين بمعاطفهم الفاخرة، قدّموا، أَيضاً، ذواتهم، هم الأقوياء، والعلماء، والعارفين بالغيب، عربوناً لإذعان العالم وطاعته.

لقد قُلّد يسوع، حتّئذٍ، كلّ ما كان يحقّ له من تولية. ولكن، ما إن توارى المجوس، حتّى شرع في اضطهاده أولئك الذين كانوا يبغضونه، وسيُقيمون على بغضه حتّى الموت.

أوكتافيُس

يوم هبط يسوع أرضنا، كانت البسيطة خاضعة لحكم المجرمين. وقد وُلِد خاضعاً لحكم سيّدَيْن : أحدهما، وهو الأقوى والأبعد، كان يقيم في روما؛ والآخر، وهو الأكثر لؤماً، والأقرب، كان سيّد اليهوديّة. أحدهما مكّنته مغامراته الموفّقة، والدماء الغزيرة التي سفكها، من اغتصاب مقاليد الأمبراطوريّة؛ والآخر، بفضل مجازره، استلب عرش داود وسليمان.

كلاهما بلغا أربهما بوسائل لا شرعيّة مختلفة: الحروب الأهليّة، والخيانات، وأساليب الوحشيّة. كانا قد وُلدا ليتوافقا، وباتا صديقَيْن ومتواطئين، بقدر ما يتيحه خضوع أحدهما لإقطاعيّة الآخر.

كان أوكتافيُس ابن مرابٍ في مدينة فيلّتري، وقد اتّضح كونه جباناً في ساحات الوغى، حقوداً إذا انتصر، وحشاً إذا انتقم، خائناً للصداقات. وقد التمس منه أحد المحكومين، يوماً، ألاّ يضنّ عليه بدفنٍ لائق، فأجاب أنّ تلك هي مهمّة العقبان... ولمجرّد ظنٍّ، همّ بانتزاع عيني الحاكم غاليّس، قبل أن يأمر بذبحه. وبعد أن تحقّقت مطامعه، وتبدّد أعداؤه، استطاع ارتداء قناع الرحمة، ولم يبقَ ظاهراً من رذائله السابقة سوى الفجور... وكانت ملذّات كهولته هي طلاقاته المتعدّدة، وزواجاته الجديدة بنساءٍ كان ينتزعهنّ من أحضان أصدقائه، وأفعال زنى شبه علنيّة.

ذلك الرجل الذي كان يحكم الغرب، عند مولد المسيح، ظلّ يجهل ولادة من كان كفيلاً، في نهاية المطاف، بتدمير عمله. وكان يكتفي بفلسفة اليُسر التي علّمها هوراسيُس: فرح اللحظة الحاضرة، والخمرة، والنكاح؛ إذ إنّ موتاً لا رجاء بعده يترصّد بنا، فحذارِ من هدر اليوم الذي يمرّ.

عبثاً نظم قصائده فرجيليُس، رجل الحقول، وصديق الأبقار الهادئة، والنحلات الذهبيّة، الذي انحدر، مع إنيوس إلى الجحيم، ونفث، بكلماتٍ موزونة، قلقه الحزين، معلناً حقبةً جديدة، ونظاماً جديداً، وجنساً جديداً، وملكوتاً سماويّاً، لا ريب أنّه ملكوتٌ شاحب إن قورن بذاك الذي سيعلنه المسيح، ولكنّه أنبل بما لا يُقاس، وأطهر من ملكوت الشرّ الذي كان يترسّخ على الأرض. عبثاً : لأنّ قيصر لم يرَ في تلك الأشعار سوى عبث راعٍ، وربّما خطر له أنّه، هو، أمير الفاسدين، كان المخلّص المعلن عنه، الذي سيعيد ملك زُحل.

بيد أنّ ذلك الهاجس بولادة يسوع، وبدنوّ مجيء الملك الحقيقيّ، لم يُفلت منه، قبل موته، عميل أوغسطُس الشرقيّ الكبير، ووالِيه في اليهوديّة، هيرودُس.

هيرودس الكبير

كان هيرودُس وحشاً، ومن ألأم من تقيّأتهم صحارى الشرق. لم يكن يهوديّاً، ولا يونانيّاً، ولا رومانيّاً، بل كان إيدوميّاً بربريّاً، يزحف عند أقدام روما، ويقلّد اليونانيّين، لكي يُحكم سطوته على اليهود. كان ابن خائن، واستلب عرش الأشمونيّين السيّئي الطالع. ولكي

يضفي شرعيّة على ملكه، تزوّج واحدةً من قريباتهم، ماريمن، التي قتلها، من بعدُ، بناءً على ظنونٍ باطلة، ولم تكن تلك جريمته الأولى، إذ كان قد أمات غرقاً أخاها أريستوبول، وحكم بالموت على أخيها الآخر يوسف، وكذلك على هيرقان الثاني، آخر ملوك السلالة المالكة المهزومة. ثمّ أَمرَ بقتل حماته ألكسندرا، وكأنّه لم يرتوِ بقتل ابنتها. وأمر، أَيضاً، بقتل أبناء بابا، لأنّ صلة قرابة بعيدة كانت تربطهم بالملوك القدامى. وفي تلك الأثناء، كان قد أحرق يهوذا الصاريفيّ، وماتياس المارغلوثيّ، وعدداً من الفرّيسيّين، وهم أحياء. وفيما بعد، ساورته خشيةُ أن تراود ابنيه من ماريمن فكرة الاثّئار لأمّهما، فأمر بخنقهما؛ وقُبيْل وفاته أمر بقتل أرخلاوس ابنه الثالث.

كان داعراً، ريّاباً، عديم الرحمة، متعطّشاً إلى الذهب والمجد، ولم يعهد السلام، قطّ، لا في اليهوديّة، ولا في بيته، ولا في سريرة نفسه. ولكي يسدل على جرائمه سجف النسيان، تبرّع لشعب روما بثلاث مئة تالان[1]، كي تنفق على الاحتفالات. وتذلّل أمام سيّده أوغسطس لكي يشركه في مخازيه، وخلّف له، عند وفاته، فضلاً عن عشرة ملايين دراخمة، سفينةً من ذهبٍ، وأُخرى من فضّة، من أجل "ليفية".

ذلك الإيدوميّ، غير المتحضّر، توهّم مصالحة الهيلّينيّين والعبرانيّين، وخطب ودّهم جميعاً؛ ولئن هو أفلح في شراء أحفاد سقراط المنحطّين، بيد أنّ اليهود ما انفكّوا يبغضونه. وعبثاً حاول إعادة بناء السامرة، ورمّم هيكل أورشليم، إذ ظلّوا يعدّونه وثنيّاً ومغتصباً.

كان رعديداً نظير الأمراء الجُدد، والأشرار الدالفين إلى الشيخوخة، تخيفه النسمة العابرة، أو حفيف أوراق الشجر. وكان شرقيّاً متطيّراً، مؤمناً بالخرافات، والتنبّؤات، فصدّق، تلقائيّاً، المجوس الثلاثة الذين قادتهم نجمةٌ من بلاد الكلدانيّين إلى البلاد التي استولى عليها، خديعةً. كان مجرّد فكرة مطالبٍ بالعرش يرعبه. وعندما علم من المجوس أنّ ملكاً لليهود قد رأى النور، خفق قلبه البربريّ هلعاً. ولمّا تبيّن أنّ الفلكيّين لم يعودوا كي يرشدوه إلى المكان الذي ظهر فيه ابن داود، أمر بقتل جميع أطفال بيت لحم.

لم يورد المؤرّخ فلافيُس يوسيفُس شيئاً عن فعلة هيرودس الأخيرة هذه. ولكن ألم يكن من شأن من أودى بحياة أبنائه، أن يضحّي بأبناء الآخرين ؟

الأبرياء

[1] وحدة نقد تساوي من 20 إلى 27 كيلو غراماً ذهباً .

لم يعرف أحدٌ، قطّ، عدد الأطفال الذين قضوا نحبهم، ضحايا هلع هيرودُس. ولم تكن تلك هي المرَّة الأولى، في بلاد اليهود، حيث يُقضى، بحدّ السيف، على أطفالٍ رُضّع: ففي الأزمنة الغابرة، كان الشعب العبريّ قد عاقب المدن المعادية بتقتيل الشيوخ، والزوجات، والشباب، والأولاد، غير موفّر أسباب النجاة إلاّ للعذارى اللائي كنّ يصبحنَ عبدات وخليلات. وكان اليهود يدّعون أن يهوه نفسه، الإله الغيور، هو الذي أمر بالمجزرة، وإذ بالإيدوميّ ينفّذ شريعة العين بالعين الموسويّة، في الشعب الذي ارتضاها.

إنّنا نجهل عدد الأبرياء، ولكنّنا نعلم، إن كان المؤرّخ مكروبُس أَهلاً بالتصديق، أنّه كان بينهم أحد أبناء هيرودُس، وقد أُودع لدى مرضعةٍ في بيت لحم. ومن يعلم هل ساور الملك الشيخ، قاتل ذويه، أيّ ألمٍ عندما أُحيط علماً بذلك الخطأ ؟ إلاّ أنّه ما لبث أن فارق الحياة، بدوره، رازحاً تحت وقر الأمراض المخزية، إذ كانت الديدان تلتهم خصيتيه، وقد تورّمت رجلاه، وضاق نفسه، وبات بَخَر فمه المنتن لا يُطاق. لقد اشمأزّ من ذاته، بحيث حاول طعن نفسه بسكيّن، وهو على مائدة الطعام. وقبل أن يقضي نحبه، أمر صالومي بالقضاء على العديد من الشبّان المودعين في السجون.

مجزرة الأبرياء كانت آخر فعال هيرودُس. وإنّ لهذه التضحية بأبرياء حول مهد بريء، ولهذا الدم المراق من أجل وليدٍ كان عليه أن يفتدي بدمه الخاطئين، ولهذه الأَضاحي البشريّة لمن سيكون هو نفسه ضحيّة، مغزى نبويّاً. إنّ آلاف الأبرياء سيموتون، بعد موته، وجريمتهم الوحيدة إيمانهم بقيامته. كان، هو، يولد لكي يضحّي بذاته عن الآخرين. وها إنّ آلاف الأطفال الحديثي الولادة، يموتون عنه، ولكأنّهم يكفّرون عن مولده.

إنّ لفي هذه التقدمة الدامية، وفي تصفية أولئك الأطهار، لسرّاً رهيباً. فهم كانوا ينتمون إلى ذلك الجيل الذي سيخون يسوع وسيصلبه. ولكنّهم، هم الذين قضوا نحبهم، في ذلك اليوم، تحت ضربات هيرودُس، لم يشهدوا موت الربّ. كانوا أبرياء، وظلّوا أبرياء. آباؤهم وإخوتهم الناجون سيثأرون لهم، يوماً، ولكن سيُغفر لهم، "لأنّهم لا يدرون ما يفعلون".

المنفى المصريّ

شاعرٌ مسيحيّ إيطاليّ أنشد ليسوع الوليد هذه التهويدة : "نمْ، أيّها الطفل، ولا تبكِ؛ نمْ أيّها الطفل الإلهيّ، فالعواصف لا تجرؤ أن تزمجر فوق رأسك".

بيد أنّ ابن مريم لم يتجسّد كي ينام. وبوسع العواصف أن تزمجر، ولكنّها لن تخيفه. إنّه، أكثر من يستحقّ لقب " المتيقّظ ". فهو لن يجد إلى النوم سبيلاً في الزريبة، وسط خوار الثور، ونهيق الحمار المنذر بضروب كثيرة أُخرى من النهيق، ستلي؛ ووسط أحاديث الرعاة، ودعوات المجوس. لن يقوى على النوم، في حين يقترب وقع أقدام قتلة هيرودُس. لن ينام أبداً، حتّى الليلة الأخيرة، حتّى ضيق وحدته في بستان الزيتون.

مريم، أَيضاً، لا تجد إلى النوم سبيلاً. وذات مساء، مع هبوط أولى سجوف الليل، واشتعال أولى قناديل بيت لحم، ستمضي الأمّ خلسة، مثل شريدة، مثل سارقةٍ مطاردَة: مختلسةً، من الملك، حياةً، وحافظةً للشعب رجاءً، ضامّةً، على قلبها، طفلها.

تسير صوب مصر، وتجتاز أرض كنعان، قاطعةً، كلّ يوم، مراحل قصيرة، فالوقت شتاء، إلى أن تراءى لها النيل، في تلك البقعة من مزرائيم التي استمطرت من آبائها دموعاً غزيرة.

و يسوع، متمّم موسى، وفي الآن عينه مقاوم موسى، يقتفي، في الاتّجاه المعاكس، درب المنقذ الأوّل. كان العبرانيّون، تحت عصا المصريّ، عبيداً مسحوقين، فاقدي الصبر. وبات راعي مدين راعياً لإسرائيل، واقتاد، عبر الصحراء، الشعب البطيء الفهم، صوب الأردنّ والكروم الرائعة. إنّ شعب يسوع، الذي انطلق من بلاد الكلدانيّين مع إبراهيم، وصل إلى مصر، مع يوسف؛ ثمّ أعاده موسى من مصر إلى أرض كنعان. وهاهوذا، اليوم، المحرّر الأكبر، يلتمس ملجأً عند ضفاف النهر حيث أُنقذ المنقذ الأوّل من الماء، وخلّص أبناء جلدته.

مصر، أَرض المخازي والروائع القديمة، تلك الهند الأفريقيّة، حيث كانت أمواج التاريخ تأتي لتضيع في مطاوي الموت... بلد المعجزات، الذي وُلد من الماء، وأَحرقته الشمس، وروته دماء الشعوب، وسكنته وحوشٌ من كلّ شكل، بلدٌ يتحدّى العقل، ويفوق الطبيعة، مصر هذه، من جرّاء تناقضاتها، كانت الملجأ المعدّ للشريد...

فُقد ووُجد

كان أمد النفي قصيراً، وأُعيد يسوع، بين ذراعيْ أمّه، مهدهداً على وقع خطوات الحمار الهادئة، إلى المنزل الأبويّ في الناصرة، ذلك الحانوت الصغير الوضيع، حيث المطرقة لا تني تدقّ، والمبرد لا يني يصرّ، حتّى غروب الشمس.

الأناجيل القانونيّة لا تقول شيئاً عن تلك السنوات، أمّا الأناجيل المزيّفة، فقد بلغت ثرثرتها حدّ التشنيع. وقد اقتصر لوقا، الطبيب الحكيم، على قول أنّ يسوع "كان ينمو ويتقوّى". لم يكن، إذن، هزيلاً ولا عليلاً، بل سليماً معافى كما يليق بمن سيشفي المرضى بمجرّد لمسة يده.

و يروي لوقا أنّ والدي يسوع كانا يقصدان أورشليم، كلّ سنة، من أجل عيد الفطير. وكانوا يمضون إليه كثُراً، في موكبٍ يضمّ الجيران والأصدقاء، من أجل التغلّب على سأم الطريق وطوله. كانوا يمضون جذلين، وكأنّهم يحتفلون بعيد، ويستذكرون خروجهم الموجع من مصر. وقد بات الفصح، في أورشليم، الاجتماع الضخم والعلنيّ لجميع اليهود المبعثرين في أَرجاء الأمبراطوريّة.

إثنا عشر فصحاً تعاقبت منذ مولد يسوع. وفي تلك السنة، بعد أن غادر حجّاج الناصرة المدينةَ المقدّسة، تبيّنت مريم غياب ابنها. فبحثت عنه، طيلة النهار، مستوضحةً معارفها هل شاهدوه. ولكنّهم ما كانوا يعرفون عنه شيئاً. وفي اليوم التالي، عادت الأمّ أدراجها، وجابت شوارع أورشليم وساحاتها، محدّقةً بعينيها السوداوين في كلّ صبيٍّ تصادفه، مستجوبةً النساء القابعات عند عتبات الأبواب، متوسّلةً القرويّين الذين ما برحوا في الطرقات مساعدتها في العثور على أثر الولد المفقود. فالأمّ التي فقدت ابنها تفقد العهد بالراحة حتّى تجده. تُغفل ذاتها، وتجهل النَّصَب والجوع. لا تأبه بفضول الآخرين، ولا بالغبار الذي يكسو ثيابها، ولا بشعرها المتشعّث. عيناها لا تبصران سوى صورة من لم يعد إِلى جانبها.

و أخيراً، في اليوم الثالث، صعدت إلى الهيكل، وتحرّت كلّ فناءٍ فيه، إلى أن وقع بصرها على جماعةٍ من الشيوخ يتحدّثون، في ظلّ رواق. ودنت، في خَفَر، (فأولئك الرجال الطويلو اللحى، والمتلفّعون بالمعاطف الفضفاضة، كانوا يبدون على جانبٍ كبيرٍ من رفعة الشأن، بحيث لا يتنازلون إلى سماع امرأة جليليّة فقيرة) واكتشفت، وسط حلقتهم، عيني ابنها المتألّقتين، ووجهه الأسمر، وثغره النديّ. كان الشيوخ يتحدّثون معه عن الشريعة والأنبياء؛ كانوا يستجوبونه، فيجيب؛ ثمّ يأتي دورهم للردّ على أسئلته، ويعجبون لعمق إِلمام فتى، في مثل تلك السنّ، بأقوال اللّه.

و تأمّلته مريم برهة، وهي تكاد لا تصدّق ما ترى. قبل لحظات كان قلبها يخفق هلعاً، وها هو الآن يخفق دهشةً، ويزداد خفقانه شدّة. وبغتة، لم تعد تقوى على تمالك نفسها، فصاحت باسمه. فتنحّى الشيوخ، وأخذت المرأة ابنها، وضمّته بصمت، وبلّلت وجهه الدموع التي تجاسرت، حينئذٍ، على ذرفها.

و أمسكت بيده ومضت به. وإذ اطمأنّت بالعثور عليه واستعادته، وبوجوده إلى جانبها، تذكّرت الأمُّ السعيدة الأمَّ اليائسة، وقالت: "لمَ فعلتَ بنا هكذا ؟ ها إنّ أباك وأَنا، نبحث عنك

متألّمين". "وعلام تبحثان عنّي؟ ألا تعلمان أنّ عليّ الاهتمام بشؤون أبي؟" كلمات خطيرة، عندما يوجّهها ولدٌ في الثانية عشرة إلى أُمّ تألّمت ثلاثة أيّام، بسبب غيابه. ويضيف الإنجيليّ: "وهما لم يُدركا معنى قوله ". ولكنّه من الأيسر علينا، نحن، بعد عشرين قرناً من الخبرة المسيحيّة، أن نفقه هذه الكلمات التي بدت قاسية، متعجرفة. ولكأنّ يسوع كان يقول:

لمَ تبحثان عنّي ؟ أتجهلان أنّني لن أضيع أبداً، ولن يفقدني أحد، حتّى أولئك الذين سيواروني التراب ؟ بل سأكون، أبداً، حيثما يؤمن بي أيّ إنسان، حتّى ولو خفيتُ عن الأنظار. كلّ من يحفظني في قلبه، لن يفقدني أبداً. لن أُفقد حتّى وأَنا وحيدٌ في الصحراء، وحيدٌ على مياه البحيرة، وحيدٌ في بستان الزيتون، وحيدٌ في اللحد. إن اختفيت فسأظهر من جديد، وإن متّ، فسأقوم، ولا بدّ من أن يجدني من يفقدني.

و من هو ذاك الأب التي تحدّثوني عنه ؟ إنّه أبٌ حسب شريعة البشر. أمّا أبي الحقيقيّ فهو في السماء: وهو الذي تكلّم إلى الآباء وجهاً لوجه، وأوحى بأقوال الأنبياء. وواجبي أن أعرف ما قال لهم عنّي، وأطّلع على مشيئته الأبديّة، وعلى الشريعة التي فرضها على شعبه، وعلى العهد الذي عقده مع البشر. ولكي أكون متوافقاً مع وصيّته، عليّ أن أُعنى بما يخصّه حقّاً. وأيّ شأنٍ لعلاقةٍ شرعيّة زمنيّة، بالقياس إلى علاقةٍ روحيّةٍ وصوفيّة، علاقةٍ أبديّة ؟

النجّار

لكنّ ساعة انطلاقة يسوع النهائيّة لم تكن قد حانت بعد : إذ لم يكن قد تنامى، بعدُ، إلى سمعه صوت المعمدان. فاستأنف، مع والديه طريق الناصرة، وعاد إلى الحانوت كي يساعد يوسف في عمله.

لم يغشَ يسوع مدارس الكتبة، ولامدارس اليونانيّين، ولكنّه عرف معلّمين ثلاثة، أعظم شأناً من العلماء : الطبيعة، والعمل، والكتاب المقدّس.

فلا يغيبنّ أبداً عن بالنا أنّ يسوع كان عاملاً، وابناً، بالتبنّي، لعامل. ولا نُخفينّ أنّه وُلد فقيراً، بين ظهراني قوم يكسبون عيشهم بكدّ سواعدهم، وأنّه، هو نفسه، قبل أن يحمل رسالته، قد كسب، بيديه، خبزه اليوميّ. هاتان اليدان اللتان باركتا البسطاء، وأبرأتا البُرْص، وأضاءتا عيون العميان، وأنهضتا الأموات؛ اليدان اللتان ثُقّبتا بالمسامير على الخشب، كانتا قد خبرتا

عرق الجهد، والانقباض، والتكلكل، واستخدام أدوات العمل، وأحسنتا إثبات المسمار في الخشب : لقد كانتا يَديْ عامل.

لقد عالج يسوع المادَّة قبل أن يعالج الروح؛ وخَبَر الفقر قبل دعوته الفقراء إلى وليمة ملكوته. كان سليل ملك، ولكنّه لم يولد وسط الثروات، في سرير موشّى بالأرجوان؛ وكان ابن اللّه، ولكنّه ولد في زريبة. لم ينتمِ، يوماً، إلى نادي العظماء، وأرستقراطيّة المحاربين، وجمعيّة الأثرياء، وسنهدرين الكهنة. وُلد في حضن أدنى طبقات الشعب، التي لا تتدنّى عنها سوى طبقة المتسوّلين، والمشرّدين، والعبيد، والمجرمين، والمومسات. وعندما بات عامل الروح، تردّى، أكثر فأكثر، في حمأة الشعب الدنيا. وقبل انحداره إلى جحيم الأموات، انحدر إلى جحيم الأحياء. ولم يكن في السلّم البشريّ الأَبديّ سوى فقير.

مهنة يسوع مهنةٌ قديمةٌ ومقدّسة. فالفلاّح، والحدّاد، والبنّاء، والنجّار هم العمّال الأربعة الذين تلتصق فنونهم اليدويّة بالحياة البشريّة، وهم الأكثر براءةً، وتقوى. فقد ينقلب الجنديّ لصّاً، والبحّار قرصاناً، والتاجر مغامراً، أمّا هم فلن يستطيعوا أن يخونوا أو يفسدوا. إنّهم يعالجون الموادّ المألوفة الأكثر شيوعاً، وعليهم تحويلها، على مرأى الجميع، من أجل خدمة الجميع، إلى أعمالٍ مرئيّة، متينة، ملموسة. فالفلاّح يشقّ التربة ويستمدّ منها الخبز، غذاء البارّ والقاتل؛ والبنّاء ينحت الحجر، ويُشيد لكلٍّ بيتاً : للفقير، وللملك، وللّه؛ والحدّاد يشوي الحديد ويلويه، فيجعل منه سيفاً، أو محراثاً، أو مطرقة؛ والنجّار ينشر الخشب، ويثبّته بالمسامير، ويبني به الباب الذي يحمي البيت، والسرير الذي سيرقد عليه البريء والمجرم.

هذه الأشياء العاديّة، المألوفة، المستخدمة، المتعدّدة الاستعمالات، والشائعة بحيث ما عدنا نشاهدها، إذ إنّها تتوارى عن أبصارنا المعتادة على تحفٍ أكثر تعقيداً، هي أبسط إبداعات الإنسان، ولكنّها الأكثر ضرورةً وإعجازاً.

و قد أمضى يسوع النجّار شبابه وسط هذه الأشياء التي كان يصنعها بيديه، ومن خلالها استهلّ تواصله مع البشر. لقد أنشأ المائدة التي يحلو الجلوس إليها، مع الأصدقاء، حتّى عندما يندسّ بينهم خائن؛ والسرير حيثُ يستنشق المرء نفسه الأوّل و يلفظ نفسه الأخير؛ والصندوق الذي تحشر فيه الزوجة القرويّة أسمالها، ووزراتها، ومناديل أيّام العيد، وقمصان جهازها؛ والمعجن حيث يُعجن الدقيق قبل خبزه في التنّور؛ والمقعد الذي يجلس عليه الشيوخ إلى جانب النار، في المساء، ويتحدّثون عن شبابهم الضائع. وفيما كانت نفايات الخشب المجعّدة تتطاير بفعل المسحاج، والنشارة تتهاوى على وقع صرير المبرد، لطالما أجال يسوع، في خَلَده، وعود الآب، وأقوال الأنبياء، وتطلّع إلى عملٍ غير عمل المساطر والعوارض، عمل روحٍ وحقّ.

مهنته علّمته أنّ الحياة هي تحويل الأشياء الميتة النافلة إلى أغراضٍ نافعة وحيّة؛ وأنّ المادّة الأكثر خسَّة، إن هي طُرقت ونُحتت، قد تصبح ثمينة، صديقة، مجدية؛ وعلّمته أخيـــراً، أنّ الخلاص هو تحوّل : فمثلما يُستنبط من جذع شجرة الزيتون الملتوي المغبّر سريرٌ لطفل أو لزوجة، كذلك يمكن أن يُستخرج من البغيّ، ومن جابي الضرائب الخسيس، مواطنـــان فـــي ملكوت اللّه.

أُبوّة

في الطبيعة، حيث الشمس تضيء الصالحين والأشرار، وحيث القمح ينبت وينضج لإطعام الوثنيّ واليهوديّ، والنجوم تتلألأ فوق السجن وفوق بيت الراعي، وحيث الكرمة تجود بخمرتها لمأدبة العرس، ولنشوة القاتل، والعصافير تغرّد، طليقة، في السماء، وتعثر على طعامها بلا عناء، وحيث تخفي الثعالب مسروقاتها، وتزدان زنابق الحقل بأفخر من ثياب الملوك، وجد يسوع تأكيداً أرضيّاً لقناعته الأبديّة بأنّ اللّه ليس السيّد الذي يعاقب، ألف عام، زكاة يومٍ واحد، ولا هو يهوه الشرس، الذي يأمر بإبادة الأعداء، ولا هو المليك الذي يبتغي أن تخدمه علّيّة القوم، الحريص على التقيّد الدقيق بنظام الطقوس المحكم في هيكله الذي انقلب دائرةً ملكيّة.

كان يسوع يعلم، لأنّه ابن اللّه، أنّ اللّه أبٌ؛ أبٌ لجميع البشر، لا لشعب إبراهيم فحسب. إنّ حبّ الزوج شديد، ولكنّه مشوب بالغيرة والجنس؛ وحبّ الأخ غالباً ما يسمّمه الحسد؛ وحبّ الابن غالباً ما يلوّثه التمرّد؛ وحبّ الصديق قد تلطّخه المكيدة، وحبّ السيّد ينفخه تنازلٌ متكبّر. وحده، حبّ الأب لأبنائه، هو حبٌّ كامل، فهو متجرّد وطاهر. إنّ الأب يفعل لابنه ما لن يفعله لأيّ إنسانٍ آخر. فابنه هو نتاجه، لحمٌ من لحمه، وعظمٌ من عظامه، جزءٌ منه، ينمو إلى جانبه، يوماً إثر يوم؛ إنّه امتدادٌ له، وإكمالٌ لكيانه؛ في شباب ابنه يستعيد شبابه، وفي مرآته يتأمّل ذاته. هو قد قضى عمره، فيضحّي بذاته في سبيل من ما زالت الحياة مفسوحةً أمامه. إنّ الأب يعيش من أجل ابنه، وبه يسعد، ويعظم شاناً... من أجله سكب دموعاً وعرقاً؛ وشاهده يكبر، بين قدميه، ثمّ إلى جانبه. بيديه أدفأ يديه الصغيرتين المقرورتين. لقد سمع كلمته الأولى، تلك المعجزة الأبديّة، والمتجدّدة دائماً. لقد راقب خطواته الأولى المتعثّرة، عند عتبة البيت. وفي ذلك الجسد، الذي انبثق منه، رأى نفساً تولد، رويداً رويداً، وتنبت، وتتجلّى، نفساً بشريّة جديدة : كنزاً فريداً لا يعادله كنز.

على محيّاه لاحظ عودة قسمات وجهه مقرونة بقسمات وجه زوجته، التي أصبح، معها، واحداً، حقّاً، في هذه الثمرة المشتركة... ، فما التمسه في العناق يجده في ابنه. وحيال هذا الكائن الجديد الذي أبدعه، يشعر أنّه خالق، محسن، قدير، سعيد. فالابن يتوقّع من أبيه كلّ شيء، ولا يثق إلاّ به، ولا يطمئنّ إلاّ في جواره. والأب يعلم أنّ عليه أن يحيا، ويتألّم، ويدأب في سبيل ابنه. الأب، لابنه، إلهٌ أرضيّ، والابن، لأبيه، شبه إله.

الحبّ الأبويّ منزّه من الاعتياد الأخويّ، ومن حسابات الصديق ومنافسته، ومن شهوة العشيق الشبِقة، ومن تفاني الخادم المتصنّع؛ فحبّ الأب هو الوحيد الخليق بأن يُدعى حبّاً، لأنّه خالصٌ من كلّ شائبة غريبة عن جوهره، وجوهره هو سعادة التضحية في سبيل الغير.

رؤية اللّه أباً، هذه، التي تمثّل كبرى بُشريات المسيح، تلك الرؤية الدافقة بالعزاء، التي، بها، نؤمن أنّ اللّه أبٌ يحبّنا حبّ الأب لأبنائه، لا حبّ ملكٍ لعبيده، ويهب الجميع خبزهم اليوميّ، ويرحّب حتّى بالذين خطئوا عندما يعودون ويلقون بجبينهم على صدره؛ هذه الرؤية التي تُقفل العهد القديم، وتستهلّ عهداً جديداً، قد استقاها يسوع من الطبيعة. بصفته ابناً للّه، وواحداً مع الآب، لقد وعى دائماً هذه الأبوّة، التي استشفّها أثقب الأنبياء بصيرةً، استشافاً مُبهَماً. وها هو ذا يسوع، الآن، وقد بات شريكاً في التجربة البشريّة، يشهدها منعكسة ومتجلّية في الكون؛ وهو، بفضل صورة عالَم الطبيعة، سيبلّغ البشر رسالة الفرح التي جاءهم بها.

البرّيّة

أَحبّ يسوع الحقول. الخاطئ الذي ينشد التطهّر، والقدّيس الذي ينشد عبادة اللّه، والشاعر الذي ينشد إلهام الإبداع، يلجأون إلى الجبال، وظلال الأشجار، ووسوسة المياه عبر الحقول، أو انسكاب الشمس على سفحٍ هاوٍ. ويسوع استعار من الطبيعة لغتها، فهو لا يستخدم أبداً ألفاظاً مجرّدةً مبهمة، وتعابير علميّة، وأفكاراً عديمة اللون. بل، في أقواله المضمّخة بشذا الحقول والخمائل، تعيش الحيوانات والنباتات الأليفة. ففي جليله، شهد التينة تنتفخ وتنضج مكسوّة بأوراقها الكبيرة الداكنة؛ ورأى غصون الكرمة الرفيعة الجافّة تزدان بالقضبان الخضراء وتثقل بالعناقيد البنفسجيّة التي تثلج صدر القطّافين؛ ولحظ أغصان الخردل النحيلة تنبثق من بذرةٍ خفيّة؛ وسمع، ليلاً، صفير القصب الحزين، بفعل عبث الريح؛ ورأى الحبّة تدفن، ثمّ تنبثق سنبلة؛ والزنابق الجميلة، البيضاء، والسوداء، والحمراء، تنبعث مع أولى نفثات الهواء الفاترة، وسط خضار القمح الخجول؛ والعشب الذي كان، ذات يومٍ، كثيفاً وزاهياً، يجفّ ويحرق في التنّور.

لقد شاهد الحيوانات المسالمة، والحيوانات الشرّيرة : الحمام الذي يسجع، عشقاً، على السطح، مزدهياً، بعض الشيء، بعنقه المتغيّر الألوان؛ والنسر الذي ينقضّ للمجزرة، باسط الجناحين؛ وعصافير السماء التي لا تستطيع أن تسقط، كالأباطرة، إلاّ بإذن اللّه؛ والغربان آكلة الجيف؛ والدجاجة الأمّ التي تضمّ فراخها، تحت جناحيْها، لدى أولى نُذُر العاصفة؛ والثعلب الذي يسرق ويتوارى في جحره؛ والكلاب التي تتململ تحت مائدة السيّد، بانتظار التقاط لقمة، أو عظمة، تلقى لها؛ ورأى الحيّة تتسحّب في العشب، والأفعى السوداء تتوارى بين أحجار القبور المفكّكة.

لقد وُلد بين الرعاة كي يضحي راعياً للبشر، وراقب النعاج وأحبّها؛ النعاج الأُمّهات التي تبحث عن الحمل الضائع؛ والحملان التي تثغو، وراء أمّها، وتتوارى عن الأبصار عندما ترضع تحت بطن أمّها المكسوّ بالصوف؛ والخراف التي ترعى أعشاب التلال الهزيلة الدافئة. وبحبٍّ واحد أحاط الحبّة الصغيرة، التي تكاد لا ترى، وهي ثاوية على راحة الكفّ المنبسطة، والتينة العتيقة التي تظلّل بيت الفقير؛ وعصافير السماء التي لا تزرع ولا تحصد، والأسماك الفضيّة المتلاطمة في الشباك، والتي ستشبع أتباعه. وشاهد، وهو يرفع أبصاره، في الأمسيات الخانقة التي تحضن العاصفة، البرق الذي يسوط السماء الداكنة من الشرق إلى الغرب.

و لكنّ يسوع لم يقتصر على مطالعة كتاب الطبيعة المفتوح والمزركش. فقد كان يعلم أنّ اللّه تحدّث إلى البشر بواسطة الملائكة، والآباء، والأنبياء، وأنّ أقواله، وشرائعه، وانتصاراته مدوّنة في الكتب. ويسوع يعرف الإشارات السوداء السحريّة التي ينقل، بها، الأموات إلى من لم يولدوا، بعدُ، حكمة الأزمنة الغابرة وذاكرتها. إلاّ أنّ يسوع لم يطالع، من الكتب، سوى ذاك الذي دوّن فيه أجداده تاريخ شعبه، وإرادة الربّ، ورؤى الأنبياء؛ ولكنّه أدرك، من ذلك الكتاب، حرفه وروحه، خيراً من العلماء والكتبة، بحيث انقلب، هو الطالب، معلّماً.

المعاهدة القديمة

كان اليهود أكثر الشعوب سعادة، وأكثرها تعاسة. تاريخهم سرٌّ يبدأ بغزليّة الفردوس الأرضيّ، وينتهي بمأساة الجلجلة.

آباؤهم الأوائل، عجنتهم يدا اللّه المضيئتان، وجعلت منهم أسياد عدن، موطن الصيف الدائم، المرويّ والخصب، حيث ثمار الشرق اليانعة، المثقلة باللذّة، تتدلّى، بمتناول أيديهم، في ظلال الأوراق المخضلّة. وكانت السماء، في طراوة أيّامها الأولى، التي لم تعهد، بعد، لوثة الغيوم، وجروح البروق، وتعاقب الأغساق المتمادي، تسهر عليهم بكلّ نجومها.

و كان على آدم وحوّاء أن يحبّا اللّه ويتحابّا. وتلك كانت المعاهدة الأولى. لا وَجَع، ولا تعب؛ ولا موت، ولا خوفَ من الموت.

و قد استجرّ العصيانُ الأوّل العقابَ الأوّل : النفي. فحكم على الرجل بالعمل، وعلى المرأة بالولادة. العمل شاقّ، ولكنّه يكافأ بالغَلّة؛ والولادة أليمة، ولكنّها تؤتي عزاء الأولاد. بيد انّ هذه السعادات الدنيا والناقصة قد تلاشت، هي أيضاً، بسرعة، كما تُلتهم الثمرة.

و للمرَّة الأولى قتل الأخ أخاه. وفسد الدم المسفوك، ومن الأرض تصاعدت رائحة الخطيئة. واقترنت بنات البشر بالأباسلة، فأنجبن المردة : صيّادين شرسين، ومتوحّشين قتلة، حوّلوا العالم جحيماً. حينئذٍ أرسل اللّه العقاب الثاني : ولكي يطهّر الأرض بعمادٍ جمّ، أغرق بمياه الطوفان البشر وجرائمهم. إنسانٌ واحد، بارّ، نجا، ومعه عقد اللّه معاهدة ثانية.

و مع نوح استُهلّ عهد الآباء السعيد : رعاة رحَّل، وزعماء يعيشون مئات السنين، يرتحلون من بلاد الكلدانيّين إلى مصر، بحثاً عن المراعي، والينابيع، والسلام. بلا بيت ولا وطن، كانوا يجرّون، في إثرهم، وفي قوافل طويلة، زوجاتهم المخصبات، وأبناءهم، وكنّاتهم المطيعات، وأحفادهم الذين لا يُحصون، وأبناء أبناء إخوتهم؛ وعبيدهم، وثيرانهم، وأبقارهم المنتفخات الضروع، وعجولهم المهتاجة الشقراء، والكباش والتيوس التي تفوح منها روائح كريهة، والنعاج المثقلة بالصوف، والجمال التي يحاكي لونها لون التراب ، والخيول ذات الأرداف المتينة، والماعز ذوات الرقاب المستدقّة والقوائم المتوثّبة؛ وأخيراً أواني الذهب والفضّة، والأصنام المألوفة، من حجر أو معدن.

و في غاية المطاف، كانت تُنصب الخيام إلى جانب بئر ماء، فيتسنّى لسيّد القبيلة، وهو جالس في ظلّ أشجار السنديان والجمّيز، أن يتأمّل المخيّم الفسيح الذي تتصاعد منه أدخنة المواقد؛ ويسمع انهماك النسوة في ذهابهنّ ومجيئهنّ، ووقع أقدام الرعاة، وجلبة القطيع. وتُثلج صدره رؤية جميع أولئك النسوة، وجميع أولئك الأولاد الذين انبثقوا من بذاره، وكلّ تلك القطعان التي هو سيّدها : أُسرة بشريّة، وأُسرة حيوانيّة تنموان وتتكاثران تحت بصره.

و في المساء، كان يرفع جبينه كي يحيّي النجمة الأولى المتلألئة، نوراً أبيض، عند قمّة التلّة، وكانت، أحياناً لحيته البيضاء المجعّدة تتألّق بضوء القمر الذي ما انفكّ يتجلّى له من السماء الليليّة، منذ أكثر من مئة عام.

و كان يزوره، أحياناً، ملاك الربّ، ويتناول الطعام على مائدته قبل أن يبلّغه رسالته، وأحياناً كان الربّ نفسه يوافي، ساعة الظهيرة، في زيّ حاجّ، ويجلس إلى جانب الشيخ في ظلّ خيمة، فيتحدّثان معاً، وجهاً لوجه، مثل صديقين منذ أيّام الشباب. وحينئذٍ كان زعيم القبيلة، وسيّد الخدم، يتحوّل، بدوره، خادماً، كي يسمع أوامر سيّده الإلهيّ، ونصائحه، ووعوده. وعقدت بين يهوه وإبراهيم المعاهدة الثالثة، وكانت أكثر علنيّةً من سابقتيها.

و أصبح ابن أحد الآباء، بعد أن باعه إخوته، صاحب نفوذ في مصر، حيث استقدم ذويه، وخُيّل للعبرانيّين أنّهم عثروا على وطن، وتناموا عدداً، وثراءً. ولكنّهم استسلموا لغواية آلهة مصر، وأعدّ لهم الربّ العقاب الثالث : فاستعبدهم المصريّون الحاسدون. ولكي يطيل الربّ محنتهم قسّى قلب فرعون، ولكنّه استفزّ لهم مخلّصاً ثانياً كفيلاً بانتزاعهم من البؤس والحمأة.

غير أنّ محنتهم لم تنتهِ. بل تاهوا، أربعين سنة، في الصحراء، ودليلهم عمود دخانٍ نهاراً، وعمود نارٍ ليلاً. وقد وعدهم اللّه بأرضٍ رائعة، وفيرة المياه والأعشاب، تظلّلها أشجار الزيتون والكروم. ولكنّهم كانوا يفتقرون إلى الماء والخبز، يفتقدون بصل مصر؛ وقد فجّر لهم اللّه ينبوع الماء من الصخر، وأنزل لهم المنّ من السماء. غير أنّ العبرانيّين، في إرهاقهم وقلقهم، خانوه وعبدوا العجل الذهبيّ. وبات موسى حزيناً نظير كلّ نبيّ، غير مفهوم نظير كلّ منقذ، متّبَعاً، على غير قناعة، نظير كلّ مكتشف أرضٍ جديدة، يجرّ وراءه، بمشقّة، ذلك الشعب الجموح المشاكس، متوسّلاً اللّه أن يهبه نعمة الرقاد الأخير. غير أنّ اللّه كان حريصاً على إبرام المعاهدة الرابعة مع شعبه. وانحدر موسى من سيناء حاملاً اللوحين الحجريّين اللّذين دوّنت عليهما إصبع اللّه الوصايا العشر.

لن يُكتب لموسى رؤية الأرض الموعودة، والفردوس الجديد البديل عن جنّة عدن المفقودة. ولكنّ وعد اللّه يتحقّق، إذ إنّ يشوع والأبطال الآخرين اجتازوا الأردنّ، وولجوا أرض كنعان، منتصرين على الشعوب؛ وسقطت المدن على أصوات الأبواق؛ وتسنّى لدبورة أن تنشد نشيد النصر. واحتفظ الشعب اليهوديّ بإله المعارك على عربةٍ تجرّها الثيران، بيد أنّ الأعداء الكُثر أبوا تسليم المكان. فتاه اليهود هنا وهناك، رعاةً أو لصوصاً، منتصرين عندما يخضعون للشريعة، ومهزومين عندما يتخلّون عنها.

أحد الجبابرة كان طويل الشعر وقتل بمفرده آلاف الفلسطينيّين والعموريّين، إلاّ أنّ امرأة خانته: فاقتلع أعداؤه عينيه وأجبروه على إدارة رحى الطاحون. وما عاد الأبطال بكافين، بل برزت الحاجة إلى ملوك. واتّفق أن التقى شابٌّ من قبيلة بنيامين، فارع القامة وجميلها، فيما كان يبحث عن أُتن ضلّت من قطيع أبيه، نبيّاً سكب الزيت المقدّس على جبينه، وكرّسه ملكاً. واكتسب شاول قوّة، وهزم العمّونيّين والعموريّين، وأسّس مملكةً محاربةً مرهوبة الجانب. غير أنّ النبيّ ذاته الذي كرّسه، استنكر أفعاله، واستفزّ له منافساً.

و قتل الراعي الشابّ، داود، جبّاراً كان عدوّاً للملك، وبأنغام قيثارته هدّأ غضب الملك، فأحبّه ابن الملك البكر، وزوّجه ابنته، فحارب في جيشه، إلاّ أنّ شاول في سَوْرة ظنّه، التمس موته. واختبأ داود في مغاور الجبال، وأصبح زعيم قطّاع طرق، وخدم الفلسطينيّين؛ وعندما انتصر هؤلاء وقتلوا شاول على تلال جلبوْع، تولّى داود ملك إسرائيل. ذلك الراعي الجريء، والشاعر الكبير، والملك العظيم، كان، أيضاً، فاسقاً قاسياً، وقد أسّس بيته في أورشليم، بمساعدة الجبّارين، وكسر شوكة الشعوب المجاورة. وللمرَّة الأولى بات العبرانيّ مُرعباً، وسيظلّ، طوال قرون، يتوسّل عودة داود؛ وكلّ رجائه أن ينقذه أحد أحفاد داود من المهانة.

داود هو ملك السيف والغناء؛ وسليمان ملك الذهب والحكمة. بيته يتلقّى ذهب المكلّفين بالضرائب؛ وقد زيّن بيت يهوه الفخم، الأوّل، بالذهب. بواخر تبحث عن الذهب في أوفير البعيدة، وملكة سبا ألقت عند قدميه أكياساً من النضار. ولكن كلّ تلك الحكمة، وكلّ ذلك الذهب، لم ينقذا الملك من النجاسة، ولا المملكة من الدمار. فقد تزوّج نساءً أجنبيّات، وعبد آلهة غريبة. وقد غفر اللّه لشيخوخته، ذاكراً ماضيه؛ ولكن، من بعده، انشطرت مملكته، وبدأت قرون الانحطاط القاتمة المخزية. وقد حفلت حقبة الانفصال بالمكائد، وجرائم قتل الملوك، والثورات، والحروب البشعة بين الإخوة، وأيّام عبادة أوثانٍ وقحة، تتلوها أيّام توبةٍ زائفة. الأمراء لا يصغون إلى صوت الأنبياء؛ وأعداء إسرائيل يستعيدون شجاعتهم : فغزا الفينيقيّون، والمصريّون، والأشّوريّون، والبابليّون، شيئاً فشيئاً، المملكتَيْن المنفصلتين، وأخضعوهما للجزية. وأخيراً، نحو ستّ مئة سنة قبل مولد المسيح، دُمِّرت أورشليم، ودُمّر الهيكل، واقتيد العبرانيّون عبيداً إلى ضفاف أنهار بابل. كان ذاك هو العقاب الرابع، والأَرهب، إذ لن يكون له نهاية، فمنذئذٍ سيظلّ اليهود مشتّتين في بلادٍ غريبة، وخاضعين لنير الغرباء، بعضٌ منهم سيؤوبون من أجل إعادة بناء المدينة والهيكل، ولكنّ بلادهم سيغزوها الشيثيّون، وسيخضعها الفرس، وسيحتلّها اليونانيّون؛ وفي أعقاب جهاد المكّابيّين الأخير، ستسلم إلى أيدي سلالة برابرة، من زبانية روما.

هذا الشعب الذي قضى قروناً في الصحراء، غنيّاً وحرّاً، وبسط ملكه، يوماً، على أرض، وخُيِّل إليه أنّه، تحت وصاية إلهه، هو الأوّل بين الشعوب، غدا هالكاً، مسحوقاً، مقطَّع الأوصال، وشيئاً فشيئاً، ضحيّة الأمم، وموضع سخريتها. وفي أعقاب موت يسوع، أمسى مصيره أشدّ عنتاً : فأورشليم ستدمّر للمرّة الثانية؛ وفي ذلك الإقليم الخرِب، سيبسط اليونانيّون والرومانيّون سلطتهم، وستتناثر آخر أوصال إسرائيل على الأَرض، مثل غبار الطرقات الذي تذروه ريح الجنوب.

ما من شعبٍ أحبّه اللّه مثله، وعاقبه مثله؛ اختاره ليسود، ولكنّه أصبح عبداً للعبيد. لقد ابتغى لنفسه وطناً ونصراً، فنُفي وأُسِر على أرض الآخرين.

كان شعب رعاة أكثر منه شعب محاربين، ولكنّه لم يعرف، يوماً، السلام، لا مع ذاته، ولا مع الآخرين. لقد حارب جيرانه، وضيوفه، وأُمراءَه؛ وحارب أنبياءه وربّه. أفسدته الجريمة، وحكمه أسيادٌ قَتَلة، خَوَنة، زناة، مرتكبو محرّمات، يتاجرون بالمقدّسات، ويعبدون الأوثان. ومع ذلك أنجبت نساؤه أعظم قدّيسي الشرق : أبراراً، ومتوحّدين، وأنبياء، إلى أن قدم أبو القدّيسين الجُدد، ذاك الذي أعلن جميع الأنبياء مجيئه.

هذا الشعب الذي لم يمتزْ لاّ بماورائيّاته، ولا بعلمه، ولا بموسيقاه، ولا بنحته، ولا برسمه، ولا بهندسته، أبدع أعظم شعرٍ قديم : هو تارة براءةٌ سامية في المزامير، وفي

الأنبياء، وطوراً، رقّة لا متناهية في قصص يوسف راعوت، وأحياناً إندفاع، وهوى ليليّ، في نشيد الأناشيد.

لقد نشأ وسط عبادات آلهة محلّيّين همجيّين، وانتهى إلى محبّة اللّه الشامل، الأب الأوحد. ارتوى من الأراضي والذهب، وأزدهى بكون أنبيائه أوائل المدافعين عن الفقراء، وانتهى باستنكار المال : ذلك الشعب عينه الذي كان يذبح على هياكله ضحايا بشريّة، ويقتل سكّان مدنٍ برمّتهم، أعطى تلاميذ لمن علّم حبّ الأعداء. هذا الشعب الذي كان يغار من إلهه الغيور، قد خانه باطّراد، كي يقتفي آثار آلهةٍ أُخرى؛ ومن هيكله الذي بُني ثلاث مرّات، ودُمّر ثلاث مرّات، لم يبقَ سوى حائط مشوّه، يكاد لا يكفي لطابور البكّائين الذين يسندون إليه رؤوسهم كي يخفوا دموعهم.

غير أنّ هذا الشعب المثير للقلق والذي يستغلق فهمه، الذي يفوق البشر أحياناً، ويتردّى إلى بؤر البؤس، الأوّل والأخير، أسعد الشعوب وأتعسها، مع أنّه عبدٌ للأمم، ما زال يسود الأمم بماله وأقواله. طيلة عشرين قرناً، حُرم من وطن، ولكنّه اليوم يتحكّم بجميع الأوطان؛ ومع أنّه سفك دم أعظم أبنائه، شطر، بهذا الدم، تاريخ العالم إلى شطرين؛ وأصبح أبناء قتلة الآلهة أكثر الشعوب حقارة، وأكثر الأجناس قدسيّة.

الأنبياء

ما من شعبٍ أُنذر مثل الشعب اليهوديّ؛ أكثر من أيّ شعبٍ آخر أوقظ، وحُذّر : منذ إنشاء أمبراطوريّته حتّى تفكّكها، منذا أيّام الملوك المنتصرة، إلى أيّام النفي والعبوديّة الأليمة، وحتّى يوم التشتّت الحزين.

لقد كان للهند نسّاكها الذين كانوا ينشدون عزلة الغابات كي يقهروا أجسادهم، ويُغرقوا نفوسهم في اللامحدود؛ وللصين حكماؤها الأليفون وهم شيوخٌ هادئون يعلّمون الآداب المدنيّة للفلاّحين والاباطرة؛ وكان للإغريق فلاسفتهم الذين يخلقون، في ظلال الأروقة، أنظمةً فكريّةً متناغمة، أو جدليّات ماكرة؛ وكان لروما فقهاؤها الذين حفروا على النحاس، للشعوب والأجيال، قواعد أسمى عدلٍ يليق بأمبراطوريّة؛ وكان للقرون الوسطى وُعّاظها الذين جهدوا في هزّ المسيحيّة الغافية، بذكرى آلام المسيح، والتخويف من جهنّم؛ وكان للشعب اليهوديّ أنبياؤه.

ليس النبيّ ساحراً يسكن مغارة، وينتصب على منصّةٍ كي يسكب لعابه وأقواله. إنّه يتكلّم عن المستقبل، ولكنّه لا يقتصر عليه. إنّه يتذكّر المستقبل، ولكنّه يكشف، أيضاً، عن أسرار الماضي. مراحل الوقت الثلاث هي له : الماضي الذي يستجلي غوامضه، والحاضر

الذي ينيره، والمستقبل الذي يهدّده. والنبيّ اليهوديّ صوتٌ يتكلّم، أو يدٌ تكتب. صوتٌ يتكلّم في القصور والمغاور، في ساحات العاصمة، وعند عتبة الهيكل. صوتٌ يصلّي، وصلاةٌ تهدّد، وتهديدٌ يفيض رجاءً إلهيّاً. قلبه يذوب حزناً، وفمه مليءٌ تأنيباً، وذراعه ترتفع للعقاب؛ إنّه يتألّم عن شعبه، ويقرّعه بدافع الحبّ؛ ويرشده إلى الآلام المطهّرة، ومن خلال الحديد والنار يدلّه إلى القيامة والحياة، والنصر، والسعادة، وحكم داود الجديد، والمعاهدة التي لن يُحنَث بها، بعد.

النبيّ يعيد إلى اللّه الحقّ عبدةَ الأوثان، ويذكّر الخائنين بالإيمان الذي أقسموا عليه، والفاسدين بالطهر، والقساة بالرحمة، والملوك بالعدل، والمتمرّدين بالطاعة، والخطأة بالعقاب، والمتكبّرين بالتواضع. إنّه يمثل أمام الملك ويؤنّبه؛ يخزي الشعب، ويلوم الكهنة، وينددّ بالأغنياء. يعلن للفقراء العزاء، وللمنكوبين المكافأة، وللجرحى الخلاص، وللعبيد الحرّيّة، وللشعب المهان مجيء المنتصر.

ليس النبيّ ملِكاً، ولا أميراً، ولا كاهناً، ولا كاتباً، بل هو إنسانٌ وحيد، لا سلاح له ولا مقتنيات، ولا سلطان، ولا أتباع. إنّه صوتٌ وحيد، صوتٌ قلقٌ ينوح؛ صوتٌ جهوريّ يجأر ويستنكر، يدعو إلى التوبة، ويعد بالأبديّة.

و هو ليس فيلسوفاً، ولا يحفل بكون العالم مصنوعاً بالماء أو بالنار، إن لم يكن الماء والنار يرقيان بالنفوس؛ إنّه شاعرٌ يجهل ذاته، عندما تلهمه سيول الاستنكار أو روعة الحلم، تلك الصور القويّة التي لن يفلح معلّم بلاغة في إبداع ما يماثلها. وهو ليس كاهناً، لأنّه لم يتلقّ الزيت المقدّس من حرّاس تابوت العهد المرتزقة؛ وليس ملكاً لأنّه لا يقود جيوشاً، ولا سيف له سوى الكلمة التي تأتيه من فوق؛ وهو ليس جنديّاً، ولكنّه متأهّب للموت في سبيل إلهه وشعبه.

النبيّ صوتٌ يتكلّم باسم اللّه، ويدٌ تدوّن ما يمليه عليها اللّه؛ رسولٌ يُنفذه اللّه إلى من ضلّ السبيل، ونسي العهد، وأهمل الأمانة. بصفته ترجمان اللّه ورسوله، يتفوّق على الملك الذي لا يخشى اللّه، وعلى الكاهن الذي لا يصغي إلى صوت اللّه، وعلى الفيلسوف الذي ينكر اللّه، وعلى الشعب الذي يهجره ليلحق أصناماً من خشبٍ وحجارة.

النبيّ هو الذي يلمح بقلبٍ واجف، وعينين صافيتين، الشرّ المنتصر، والعقاب القريب، وملكوت السعادة الذي سيعقب القصاصَ والتوبة.

إنّه الصوت العاجز عن الكلام، واليد التي تجهل الكتابة؛ إنّه الذائد عن حياض الشعب، والمحامي عن الفقراء، والمنتقم للمتواضعين. لا يقف إلى جانب من يمارس الطغيان، بل إلى جانب من يكابده، ولا إلى جانب المتخمين والبخلاء، بل إلى جانب البائسين والجياع.

صوتٌ مزعج؛ صوتٌ هادر، يبغضه الكبار، ويزدريه سواد الشعب؛ وغالباً ما يعجز عن فهمه تلاميذه أنفسهم؛ نظير ضبعٍ يشتمّ جيفة، وغرابٍ يطلق، دائماً، النعيق عينه، وذئبٍ جائعٍ يعوي على الجبال، هكذا يجوب النبيّ دروب إسرائيل تلاحقه الظنون واللعنات. وحدهم

الفقراء والمسحوقون يباركونه، ولكنّهم ضعفاء، ولا قِبل لهم سوى على الإنصات إليه صامتين.

و مثل كلّ الذين يجهرون بالحقيقة، مقلقين راحة النيام وسلام الأسياد، إنّه الأبرص الذي يتحاشى عنه القوم، والعدوّ الذي يضطهدونه. الملوك لا يطيقونه، والكهنة يناصبونه العداء، والأغنياء يمقتونه.

إيليّا هرب من غضب جيزابيل، التي أمرت بالقضاء على الأنبياء، وعاموس نُفي من أرض إسرائيل بأمر أماسياس كاهن بيت إيل. ويوريا قُتل بأمرٍ من يواكيم؛ وأشعيا بأمرٍ من منسّى. وزكريّا ذُبح بين الهيكل والمذبح؛ وأُلقي بيونان في البحر؛ وبالسيف قُطع رأس يوحنّا المعمدان؛ والصليب أُعدّ لجسد يسوع. النبيّ يتّهم، ولكنّ البشر لا يعترفون بذنوبهم؛ إنّه يتشفّع، ولكنّ العميان يرفضون يد البصير. إنّه مبشّر ولكنّ الصُمّ لا يسمعون وعوده؛ إنّه مخلّص، ولكنّ المدنفين راضون عن تفسّخهم، ويأبون الخلاص. ومع ذلك صوت الأنبياء هو الذي سيشهد أبداً لصالح ذلك الشعب الذي أبادهم، ولكن كان له الفضل في إنجابهم؛ وسيكفي موت نبيٍّ أعظم من الأنبياء كي يكفّر عن ذنوب جميع الشعوب الأخرى، المتمرّغة في الحمأة البشريّة.

ذاك الذي سيأتي

في منزله بالناصرة، كان يسوع يتأمّل في وصايا الشريعة، بيد أنّ دموع الأنبياء، وأقوالهم الملتهبة هي التي كانت تدلّه إلى مصيره الحقّ. فالوعود ملحاحة، مثل ضرباتٍ متلاحقة على بابٍ يظلّ موصداً؛ مكرّرة، معادة، غير محنوثٍ بها أبداً، ولا مكذّبة، بل مؤكّدة دائماً، رهيبة الوضوح، مخيفة الدقّة : تاريخٌ مسبق، وشهادة لا تقبل الطعن.

عندما قدّم يسوع نفسه للعالم، وهو في الثلاثين من العمر، على انّه ابن البشر، كان عليماً بما ينتظره حتّى الساعة الأخيرة؛ فقد كتبت سيرته، يوماً فيوماً، قبل مولده الأرضيّ. كان يعلم أنّ اللّه وعد موسى بنبيٍّ جديد : " سأستنهض من بين إخوتهم نبيّاً مثلك؛ وسأضع كلماتي في فمه، وسينبئهم بكلّ ما سأوصيهم به ". إذ إنّ اللّه سيعقد مع شعبه المعاهدة الجديدة: لا كتلك التي عقدتُها مع آبائهم... لكنّني سأطبع شريعتي في أحشائهم، وسأدوّنها في قلوبهم... وسأصفح عن معاصيهم، ولن أذكر خطاياهم ". معاهدة مدوّنة في النفوس، لا في الحجر، معاهدة غفران، لا معاهدة عقاب. وسيكون للمسيح سابق : "ها إنّني سأنفذ رسولي الذي سيعدّ

السبيل أمامي". وأشعيا يهتف: " لقد ولد صبيّ، وسيكون اسمه المدهش، المشير، القويّ، أبا الدهر القادم، أمير السلام ".

و لكنّ الشعوب ستكون أمامه عمياء، ولن تصغي إليه : " قسِّ قلوبهم، وسدّ آذان هذا الشعب، واحجب البصر عن عيونه، لكي لا يرى، ولا يسمع، ولا يفهم، ولا يرتدّ أبداً "، "سيكون حجر عثار ومثار شكّ لبيتَيْ إسرائيل، وحبلاً وخراباً لقاطني أورشليم". لن يلتمس العظمة و الفخامة، و لن يأتي فاتحاً منتصراً: " تهلّلي، يا ابنة صهيون، واهتزّي فرحاً يا ابنة أورشليم ! فها هو ذا مليكك يأتيك، بارّاً ومنتصراً؛ إنّه فقير ويركب أتاناً وجحشاً "

سيحمل العدل، وسيؤاسي البائسين : " لقد مسحني الربّ، لكي أُبشّر المساكين، وأرسلني لإبراء المحطّمي القلوب، وأُنادي بتحرير العبيد، وأُعلن للمسجونين فتح أبواب السجون... وتعزية جميع الباكين ". " حينئذٍ ستفتح عيون العميان، وسيُنزع الوقر من آذان الصمّ. وحينئذٍ سيثب الأعرج وثب الأيّل، ولسان الأخرس سينشد منتصراً".

" أنا، الأزليّ، دعوتك في عدلي... كي تفتح عيون العميان، وتعتق المسجونين من حبسهم، وتنتزع من مُعتَقلهم القابعين في الظلمات ". ولكنّ الذين جاء كي ينقذهم، هم أنفسهم سيزدرونه وسيعذّبونه. " لا شكل له ولا وهج، عندما نحدّق فيه، ولا شيء فيه يجعلنا نحبّه عندما ننظر إليه، إنّه آخر البشر : رجل آلام، ويعرف ما هو الألم. لقد أخذ، حقّاً، على عاتقه كلّ آلامنا، وحمل أوجاعنا. لقد عددناه أبرص، مجلوداً من اللّه ومهاناً. ولكنّه أُحزن من جرّاء آثامنا، وضُرب من جرّاء معاصينا. ونحن بجرحه شفينا... لقد قُدّم بمشيئته، ولم يفتح فاه؛ اقتيد إلى الذبح كما يُقتاد الحَمل، ومثل نعجةٍ صامتةٍ أمام الذي يجزّها، ولم يفتح فاه... لقد أراد الأبديُّ ضربه، ورماه في الآلام؛ ولكن بعد أن يجعل من نفسه قرباناً عن أخطائنا، سيرى لنفسه ذرّيّةً ممتدّةً جدّاً. بتعليمه سيبرّر كثيرين من أبناء البشر، وسيأخذ على عاتقه أوزارهم ". لن يتراجع أمام أسوأ الشتائم: " عرضت ظهري لمن كانوا يضربوني، وخدّيّ لمن كانوا ينتفون لحيتي؛ ولم أُخفِ وجهي لكي أتفادى المهانة والبصاق ". وسيقوم الجميع عليه، في الساعة الحاسمة: "ألسنتهم الكاذبة نالت منّي، وقد أحاطوني بكلمات البغض، وشنّوا عليّ الحرب، بلا سبب... ردّوا عليّ الخير شرّاً، والحبّ بغضاً". "و يهتف الابن لأبيه : إنّها معروفة لديك : العار، والخزي، والشنار التي أحاطت بي... انتظرت الرأفة فلم تأتِ، والتعزية، فلم أجدها؛ وقد أعطوني العلقم طعاماً، وسقوني خلاًّ ".

و أخيراً سيسمّرونه وسيقتسمون ثيابه: "رهطٌ من الكلاب أحاق بي، وعصابةٌ من الأشرار التفّت من حولي. وثقبوا يديّ ورجليّ. اقتسموا ألبستي فيما بينهم، واقترعوا على ردائي". وسيتبيّنون، بعد فوات الأوان، فعلتهم، وسيتوبون: "وسينظرون إليّ، أنا الذي ثقبوه، وسيحدّون حدادهم على ابنٍ وحيد، وسيشعرون بالمرارة، كما لو فقدوا ابناً بكراً "

"وجميع الملوك ستسجد أمامه، وكلّ الأمم ستخدمه، لأنّه سيحرّر الفقير من المتسلّط، وسيخلّص نفوس الفقراء"، " أبناء الذين أهانوك سينحنون أمامك، والذين كانوا يشتمونك سيعبدون آثار أقدامك"....

هذه الأقوال سيذكرها يسوع عشيّة انطلاقه، وهو عارفٌ، مسبقاً، بكلّ شيء، غير متخاذلٍ دون مصيره. إنّه يعلم ما في القلوب من نكرانٍ للجميل، وصمم الأصدقاء، وبغض ذوي السلطان، والصفعات، والبصقات، والشتائم، والازدراء، والمهانات، والمسامير في اليدين والرجلين، وسكرات الموت. يعرف محنة **رجل الآلام** الرهيبة، ولكنّه لا يتخاذل.

يعلم أنّ العبرانيّين الجسديّين، المادّيّين، الغارقين في شؤون العالم، المشبعين إذلالاً، المفعمين نقمةً وتطلّعات انتقام، لا ينتظرون مسيحاً ممقوتاً، فقيراً، ووديعاً، بل جميعهم، خلا المستبصرين والأنبياء، يحلمون بمسيحٍ أرضيّ، بملكٍ مسلّح، داود الثاني، محارب يُعمل في الأعداء تذبيحاً، ويسفك دماً حقيقيّاً، دم العدوّ القاني؛ يعيد قصر سليمان، وهيكله إلى سابق عزّهما، ويؤدّي له جميع الملوك الجزية، لا جزية احترامٍ وحبّ، بل جزية ذهبٍ رنّان، وفضّةٍ معدودة. وملك الأرض والحياة الحاضرة هذا، سيعاقب أعداء إسرائيل، والذين سبّبوا لها الآلام، واستعبدوا شعبها. وسينقلب العبيد أسياداً، والأسياد عبيداً؛ وستصبح أورشليم عاصمة الأمم، وسيجثو الملوك المتوّجون أمام مليكها؛ وستكون حقول إسرائيل أخصب الحقول جميعاً، وبراريها أدسم نتاجاً؛ وستتكاثر قطعانها بلا حدود؛ وسيكون موسما حصاد للقمح والشعير؛ وستكون السنابل أكثر اكتنازاً بالحبوب؛ وسينوء رجلان تحت وقر عنقود عنبٍ واحد؛ ولن تتوفّر زقاقٌ كافية للخمرة الجديدة، ولا جرار لحفظ الزيت؛ وسيُعثر على العسل في تجاويف الأشجار، وعلى أسوار الطرقات. وسيتحطّم غصن الشجرة تحت ثقل الفواكه، وستكون الفواكه أغزر اكتنازاً باللبّ وأشدّ حلاوة ممّا كانت قطّ.

هذا ما كان يتوقّعه اليهود الجسديّون المحيطون بيسوع. وهو كان يعلم أن لا قِبَل له على منحهم ما يسعون إليه؛ وأنّه لن يكون المحارب المنتصر، ولا الملك الذي يطغى على الملوك بكلّ قامته. يعلم أنّ مملكته ليست من هذا العالم، وأنّه لن يقوى إلاّ على تقديم الزهيد من الخبز، وكلّ دمه، وكلّ حبّه. وهم لن يؤمنوا به، وسيسومونه العذاب، وسيقتلونه بتهمة التضليل والشعوذة. إنّه يعرف كلّ ذلك، كما لو أنّه شاهده بعينيه، وكما لو أنّه كابده في جسده وفي نفسه. ولكنّه يعرف، أيضاً، أنّ بذرة أقواله، التي ستُلقى في التربة وسط الأشواك، وستُداس بأرجل القتلة، ستنبت، شيئاً فشيئاً، وستبرز في أوّل ربيع آتٍ، وستنمو، هزيلةً، أوّل الأمر، تحت العاصفة، وستصبح، أخيراً، الشجرة التي ستطاول أفنانها أجواز السماء، الشجرة التي ستغطّي بظلالها الوارفة البسيطة كلّها، والتي سيتحلّق جميع البشر حول جذعها، كي يذكروا موت الذي غرسها.

نبيّ النار

فيما كان يسوع، في الناصرة، يُعمل الفأس والكوس، كان صوتٌ يتعالى في الصحراء، نحو الأردنّ والبحر الميّت. وكان آخر الأنبياء، يوحنّا المعمدان، يدعو اليهود إلى التوبة، معلناً دنوّ الملكوت السماويّ، متنبّئاً بمجيء المسيح الوشيك، مقرّعاً الخطأة الذين كانوا يأتون إليه ومغطّساً إيّاهم في مياه النهر، جاعلاً من غسل الأجساد هذا تمهيداً لتطهير النفوس.

في تلك الحقبة الهيرودُسيّة المضطربة، كانت بلاد اليهوديّة الهرمة، التي دنّسها الغاصبون الإيدوميّون، ونفث فيها التسرّب اليونانيّ عدوى أوصابه، وسحقها العسكر الرومانيّ، اليهوديّة التي أضحت لا ملك لها، ولا وحدة، ولا مجد، وشرعت تتفتّت، بعد أن خانها كهنتها أنفسهم، والتي ما انفكّت تنعي سلطانها المفقود منذ ألف عام، وترجو، بعناد، ثأراً كبيراً، وقيامةً عجيبة، وعودة النصر، نصر إلهها، ومجيء مخلِّص مكرَّسٍ بالزيت، معدٍّ للسيادة على أورشليم جديدة، أمنع من أورشليم سيلمان، وللسيطرة، انطلاقاً من أورشليم، على جميع الأُمم، وللقضاء على الأمراء، ولإخضاع الممالك، ولتوفير السعادة لشعبه وللبشر أجمعين؛ تلك اليهوديّة الهرمة، الغاضبة على أسيادها، وعلى كتبتها المأجورين، وعلى فرّيسيّيها الورِعين، الخاضعة لابتزاز العشّارين، المجزّأة، المهانة، المسلوبة، ولكنّها، مع كلّ تلك المخازي،ما برحت مفعمةً إيماناً بالمستقبل، منصتةً، برضىً، إلى الصوت القادم من الصحراء، هارعة إلى ضفاف النهر.

و كان وجه يوحنّا كفيلاً بافتتان الخيال، فهو ابن الشيخوخة والمعجزة، المنذور منذ المهد، الطاهر؛ الذي لم يُحلَق شعره، قطّ، ولم يشرب، قطّ، خمراً، أو أيّ شرابٍ مسكر، ولم يقرب امرأة، ولم يعهد حبّاً سوى حبّ اللّه.

هجر أباه وأُمّه، وهو، بعدُ، فتى، وتوارى في الصحراء، حيث كان يعيش وحيداً، منذ سنوات، بلا بيت، ولا خيمة، ولا خادم، وبلا أيّ شيءٍ يملكه سوى ثيابه، متسربلاً بجلد جملٍ كان يشدّه إلى وسطه بحزامٍ من جلد؛ فارع الطول، نحيلاً، لوَّحته الشمس وأحرقته، مكسوّ الصدر بشعر كثيف، وشعر رأسه مسترسل على كتفيه، كثّ اللحية، ويطلق من تحت حاجبيه الأَشعثين نظراتٍ مثقلة بالعواصف، فيما كانت تتدفّق اللعنات من فمه...

و تنامى إلى يسوع الحديث عن يوحنّا ممّن كانوا يعودون من الأردنّ، ويستأنفون حياتهم المألوفة، مثلما يعود المرء، في الصباح، إلى ارتداء ملابس العمل التي خلعها في المساء؛ فأدرك أنّ ساعته قد أَذنت.

كان، آنذاك، في الثلاثين، وهو العمر المناسب، الأمثل. قبل الثلاثين، الإنسان ما يزال محاولةً، مشروعاً، تتحكّم به المشاعر الشائعة بين القوم؛ ومعرفته للناس ناقصة، بحيث لا يستطيع أن يشعر، نحوهم، بذلك الحبّ الرقيق، الرؤوف، الذي يجدر به إظهاره لهم، وهو ما برح لا يملك حقّ التحدّث إليهم حديث معلّم، ولا سلطة حملهم على الإصغاء إليه، ولا موهبة إنقاذهم.

الرسالة الأولى

يوحنّا، الذي حرقت جسمَه شمسُ الصحراء، وحرقت نفسَه رغبةُ **الملكوت**، هو نذير النار. إنّه يرى، في المسيح الآتي، سيّد اللهب. الملك الجديد سيكون فلاّحاً عنيفاً : فالشجرة التي لا تؤتي ثمراً طيّباً، ستُقطع ويُلقى بها في النار، والقمح سيذرّى على البيدر، فيُحرق التبن والعصافة بنارٍ لا تنطفئ. وهو الذي سيعمّد بالنار.

كان يوحنّا صارماً، متوتّراً، نافد الصبر، سريعاً إلى الشتيمة، لا يداعب من يأتون إليه، وإن حقّ له الافتخار باجتذابهم. وعندما يتقدّم للعماد فرّيسيّون، وصدّوقيّون، وأعيان، مستبحرون في علوم الكتاب، ذائعو الصيت، ومسموعو القول، كان يخزيهم أكثر من سواهم: "يا نسلَ الأَفاعي، من دلّكم إلى سبيل الهرب من الغضب الآتي ؟ ألا أثمروا ثمراً يليق بالتوبة. ولا يخطرنّ لكم أن تقولوا في بالكم: "إنّ أَبانا إبراهيم ! " فإنّي أقول لكم إنّ اللّه قادرٌ أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم".

أنتم، يا من يختبئون في بيوتهم المصنوعة من حجر، كما تختفي الأفاعي تحت الصخور، أنتم الفرّيسيّين والصدّوقيّين، أنتم أشدّ قسوة من الحجر. متحجّرٌ فكركم في حرف الشريعة وفي الطقوس؛ متحجّر قلبكم الأنانيّ؛ الجائع الذي يسألكم خبزاً تتفحونه حجراً، وبحجرٍ ترجمون من أخطأ أقلّ منكم. أنتم تماثيل حجر متكبّرة لا يقوى على قهرها سوى النار... ولكنّ اللّه الذي عجن الأرض وصنع آدم، قادرٌ أن يصنع من حصباء الشاطئ، وحصوات الطرقات، وحجار الصخور، بشراً أحياء، وأبناء له، وأن يحوّل الصوّان لحماً ونفساً، في حين أنّكم، أنتم، حوّلتم النفس والجسد إلى جلمود صخر. فقليلٌ هو، إذن، ماء الأردنّ؛ وما الغسل سوى الخطوة الأولى؛ غيّروا مسار حياتكم، إفعلوا نقيض ما فعلتموه حتّى الآن، وإلاّ أحالكم من يعمّد بالنار رماداً".

و هم كانوا يسألون: "ما الذي يتوجّب علينا فعله؟ " فكان يجيبهم: "من كان له جلبابان، فليعطِ أَحدهما لمن لا جلباب له؛ وكذلك فليفعل من يتوفّر لديه الطعام".

ووافى، أيضاً، عشّارون كي يعتمدوا، وقالوا: "يا معلّم، ماذا سنفعل ؟ " فقال : "لا تستوفوا أكثر ممّا حُدّد لكم"

و كان الجند، أيضاً، يسألونه: "و نحن ماذا علينا أن نفعل؟" – "لا تسلبوا أحداً، ولا تزوّروا، ولا تفتروا على أحد، واكتفوا بأجر وظيفتكم".

و هكذا كان يوحنّا العظيم، بل الذي يكاد يتخطّى البشر، عندما يعلن الخيار الرهيب بين الصالحين والأشرار، ما إن ينحدر إلى تفاصيل الحياة، حتّى يبدو وكأنّه يهبط إلى بينَ بينَ التقليد الفرّيسيّ؛ فلم ينصح سوى بالإحسان: التبرّع بالنافل. ولم يطالب العشّارين إلاّ بمجرّد العدل : أن يستوفوا المطلوب منهم، ولا شيء سواه. ولم ينصح الجند، تلك الفئة الشرسة الكلفة بالسلب، إلاّ بالقناعة : أرضوا بأجركم، ولا تسرقوا. ولكأنّنا في ملء الموسويّة. عاموس وأشعيا كانا قد توغّلا إلى أبعد من ذلك.

لقد حان لمدّعي البحر الميت أن يخلي المكان لمحرّر بحر طبريّا.

إنّه لمحزنٌ مصير السابقين : إنّهم يعرفون، ولكنّهم لن يروا. سيصلون إلى ضفاف الأردنّ، ولكنّهم لن يطأوا أرض الميعاد؛ إنّهم يمهّدون الطريق لمن يسير وراءهم، والذي سيتخطّاهم. يخدمون سيّداً، قلّما يعرفونه. قد يبرّر عنفَ يوحنّا وعيُه هذا بأنّه مجرّد سفير، فحسب. هذا الوعي لا يدفعه إلى الحسد، ولكنّه يخلّف شعوراً دفيناً بالحزن حتّى في غور تواضعه.

و جاء من أورشليم من استوضحه عن هويّته: "أَأَنت إيليّا ؟" – "لا". "أَأنت النبيّ؟" – "لا" –"أَأنت المسيح؟"– "لا، بل أَنا صوتٌ يصرخ في الصحراء. وفي إثري سيأتي من لا أستأهل أن أحلّ سير حذائه، أو أن أحمل خفّه"

في تلك الأثناء كان، في الناصرة، عاملٌ مغمورٌ يتأهّب لربط سير حذائه بيديه، كي يمضي إلى صحراء تردّد فيها صوت الذي قال، ثلاثاً: "لا".

الطاهر

كان يوحنّا يدعو إلى التوبة، ووافى يسوع ليعتمد؛ فهل، في ذلك، اعترافٌ بأنّه خاطئ؟...

إنّ جهلنا لحياة يسوع الممتدّة بين الثانية عشرة والثلاثين من عمره – سنوات المراهقة المحفوفة بالمخاطر، وسنوات الشباب المضطرمة والعاصفة بالأهواء – قد أوهم البعض أنّه، ربّما كان، أو، أقلّه ظنّ نفسه، خاطئاً كالآخرين.

بيد أنّ ما نعرفه عن السنوات الثلاث من الحياة التي كانت ما برحت مفسوحة أمامه (تلك الحقبة التي تنيرها أقوال أربعة شهود، ولا سيّما أنّ خير ما يُذكر عن الأموات هو أيّامهم وأقوالهم الأخيرة)، لا يسفر عن أيّة إشارة توحي بعبور الخطيئة بين البراءة الأولى والمجد النهائيّ.

إنّه يستحيل لحظ أيّ أثر تحوّل لدى المسيح. فنبرة كلماته الأولى هي نبرة كلماته الأخيرة. وهي، منذ اليوم الأوّل، تتدفّق من نبعٍ صافٍ، خاليةً من أيّة رواسب موحلة أو عكرة. تبشيره بدأ واثقاً من ذاته، مطلقاً. وهو كان يتحلّى، على نحوٍ جليّ، بسلطة ما هو ظاهر. صوته مجلجلٌ، حرٌّ، منطلق. إنّه نشيدٌ عذب النغم، نشيد من لم يتعتعه سُكر العشيّة، ولا يحدّ من منعته ندمٌ على خطايا سالفة. شفافية النظرة، والبسمة، والفكرة، لديه، ليست الصفاء الذي يلي العاصفة، ولا براءة الفجر المبهمة، المنتصرة، ببطء، على الظلام الخبيث. بل هو نقاء من وُلد مرَّة واحدة، وظلّ، في كهولته طفلاً : صفاء، وشفافيّة، وسجوٌّ ساكن، في نهارٍ سيعقبه الليل، ولكن لن تغشاه ظلمةٌ قبل المساء. نهارٌ أبديّ، نهارٌ ثابت، طفولةٌ بكر، لم تكدّرها شائبة حتّى الموت.

إنّه يخالط الفاسدين في بساطة من لم يفقد، يوماً، طهره، ويخالط الخطأة مدعوماً بمنعة البراءة الأصيلة؛ ويخالط المرضى بالجرأة المتأصّلة لدى من لم تعرف العلّة إلى صحّتهم سبيلاً.

إنّ الذي ضلّ وارتدّ يخفي، دائماً، شيئاً من القلق. قطرة مرارة ظلّت لاصقة بالشفتين، أو طيف قذارة، أو آثار ندم، أو نسمة تجربة، كافية لإيقاظ اضطرابه. إنّه يحتفظ، دائماً، بخشية ألاّ يكون قد انسلخ عن كامل جلد الإنسان العتيق؛ وأن يكون قد اقتصر على زعزعة الآخر الذي كان يقطن جسده، ولكنّه لم يقضِ عليه؛ لقد أدّى ثمن خلاصه، وتألّم؛ وخلاصه، له، كنزٌ ثمين، ولكنّه هشّ، وهو يتوجّس، أبداً، خوفاً من فقده. إنّه لا يجافي الخطأة، ولكنّه يقترب منهم برعشةٍ لا يقوى على ضبطها؛ برعدةٍ من هجمة عدوى جديدة، قد يكتمها أحياناً؛ بمخافة أن يرى طيف عاره الذي لا يُطاق، يُبعث ثانية، لدى مشاهدة الدنس، الذي كان، هو أيضاً، قد تمرَّغ فيه، وتمتّع به، ممّا قد يحمله على القنوط، مجدّداً، من خلاصه.

الخادم الذي أصبح سيّداً، لا يرفق بخدّامه؛ والفقير الذي أثرى لا يجود على الفقراء؛ والتائب قد يفتقر، أحياناً، إلى الرأفة بالخاطئ. بقيّة الكبرياء هذه، الثاوية في قلب القدّيسين، تشوب ورعهم بخميرة ازدراء : فعلامَ لا يفعل الآخرون ما وجدوا، هم، السبيل إلى فعله ؟ إنّ درب الخلاص مشرَع للجميع، للفاسدين، ولأَعتى المتحجّرين، والمكافأة ثمينة، فعلامَ يمكثون في أعماق الظلمات ؟

و عندما يتحدّث التائب إلى إخوته، بغية ردّهم إلى السراط القويم، لا يستطيع الامتناع عن التذكير بكبوته وتحرّره. وهو، رغبةً في الإقناع، بلا ريب، أكثر منه بدافع الكبرياء، يقدّم ذاته مثالاً للنعمة حيّاً، وشهادة حقّة لعذوبة الخلاص. إنّ بوسع المرء إنكار ماضيه، ولكن ليس بوسعه تدميره؛ وهذا الماضي، يطفو على السطح، في غفلةٍ ممّن يبدأون حياةً جديدة، إثر ولادة التوبة الثانية.

و لكن، عند يسوع، لا ظلّ أثرٍ لماضي المهتدي هذا، ولا أثر لتلميحٍ إليه، من خلال أيٍّ من أعماله، أو أقواله الأشدّ غموضاً. حبّه للخطأة منزّه من حمّى التبشير المضطرمة لدى المهتدين حديثاً. إنّه حبٌّ فطريّ، لا حبٌّ يمليه الواجب؛ رقّة أخويّة، فطريّة، متحرّرة من كلّ لومٍ مستتر، وكلّ نفورٍ تمّ التغلّب عليه. إنّه انجذاب القادر على التطهّر نحو الدنِس؛ حبّ مجرّد من المآرب؛ حبّ القدّيسين في ذرى تصوّفهم؛ حبّ يبدو، بالقياس إليه، كلّ حبٍّ آخر، تافهاً. حبّ لم يُعرف له نظير، قبل يسوع؛ وقلّما يتكرّر، تمثّلاً به، أو إحياءً لذكراه. حبٌّ يدعى "مسيحيّاً" ولا يمكن لأيّ وصفٍ آخر أن يعبّر عنه. حبٌّ إلهيّ. حبّ يسوع. الحبّ، فحسب.

كان يسير بين الخطأة، ولكنّه كان منزّهاً عن الخطيئة. ووافى للاغتسال في نهر العماد، ولكنّه كان بلا لوثة. كانت نفسه من الطفولة بحيث كان يتخطّى الحكماء حكمةً، والقدّيسين قداسة.

كان يجهل صرامة المتزمّتين، وخوف الغريق الذي نجا بجهدٍ شديد. قد تتجلّى الخطيئة، لدى بعض المتشكّكين المهووسين، في أدنى ثغرةٍ بجسم الكمال، أو في إهمالٍ غير إراديّ لواحدة من وصايا الشريعة الستّ مئة. ويسوع ليس فرّيسيّاً مهووساً. بل كان يميّز الخير من الشرّ، من غير أن يتيه فكره في سراديب الحرف. كانت الحياة تعرفه. وهو كان يتقبّل الحياة التي ليست، في ذاتها، خيراً، ولكنّها شرطٌ لكلّ خير. الشرّ لا يثوي في الأكل والشرب، ولا في إلقاء نظرة على العالم، حتّى ولو كانت نظرة رأفة إلى سارقٍ يتوارى في طوايا الظلام، أو إلى امرأة تصبغ شفتيها كي تمحو آثار قبلةٍ خاليةٍ من الحبّ.

العماد

و مع ذلك وافى يسوع، مع الخطأة، كي يغطس في مياه الأردنّ. هذا السرّ يتجرّد من غلالة سرّيّته لمن يرى، في الطقس الذي جدّده يوحنّا، أكثر من معناه المألوف.

حالة يسوع فريدة. فعماده، الذي يبدو وكأنّه لا يتميّز عن عماد الآخرين، تبرّره أسبابٌ أُخرى. فالعماد ليس مجرّد تنظيف الجسد، ورمزٍ لتطهّر النفس، وفقاً لتماثلٍ بدائيّ بين اللوثات

المادّيّة، وأدناس الروح. هذه الاستعارة الملموسة، التي قد تدعم منطقاً رمزيّاً شائعاً، وهذا الاحتفال الضروريّ لعينيْ من يحتاج إيمانهم في اللامادّيّ إلى دعم سندٍ مادّيّ، ما كانا هما ما يحتاج إليه يسوع.

و لكنّه مضى إلى يوحنّا لكي تتحقّق نبوءة السابق، الذي عندما جثا أمام نبيّ النار، اعترف برسالة المُعلِن، وبأمانة المُرسَل، الذي، في أعقاب أداء واجبه، يستطيع القول بأنّه فرغ من مهمّته. ويسوع، بخضوعه لهذا التقليد الرمزيّ، إنّما ابتغى أن يثبّت يوحنّا في مهمّة السابق التي كان جديراً بها.

أمّا من شاء أن يضفي معنى آخر على عماد المسيح، فباستطاعته التلميح إلى أنّ التغطيس هو تذكيرٌ بالتضحية البشريّة. فقد أَلفت شعوبٌ قديمة التضحية بأحد أعدائها ، لا بل بأحد أبنائها، بهذا الأسلوب، لإهماد غضب الآلهة، تكفيراً عن جرم، أو التماساً لنعمةٍ استثنائيّة، أو لخلاصٍ ميؤوسٍ منه. وكان اليهود يكرّسون للربّ حياة أبكارهم، ولم يُحترم، فيما بعد، دائماً، الأمر الإلهيّ الذي ألغى هذا التقليد، في زمن إبراهيم.

وكان التغطيس أحد أَساليب قتل الضحايا. ففي قيرينيا بقبرص، وفي تيرّاسين، ومرسيليا، في أزمانٍ غابرة، كان، في كلّ سنة، يُلقى برجلٍ إلى البحر، من أَجل خلاص المدينة. والعماد هو أَثر من التغطيس الطقسيّ : ففي هذه التضحية الاستعطافيّة للماء، التي كان شائعاً أنّها تفيد المضحيّن، وتوفّر الثواب للضحيّة، كان من اليسير رؤية مبدأ حياةٍ جديدة. فالذي غرق في الماء يموت لصالح الجميع، ويستأهل أن يُبعث لحياةٍ جديدة.

و قد ظلّ العماد، حتّى بعد نسيان هذا الأصل العنيف، رمزاً للقيامة.

و يسوع كان مقبلاً على مرحلةٍ جديدة من حياته، على مباشرة حياته الحقّة. وبانغماسه في الماء شهد على إرادته الموت، وعلى يقينه بالقيامة. وإنّما انحداره إلى الأُردنّ دليل بدء حياته الثانية، وإشارة إلى أنّ موته لن يكون إلاّ ظاهريّاً، مثلما هذا التطهير هو ظاهريٌّ صرف.

الصحراء

حالما خرج من مياه الأُردنّ، شخص يسوع إلى الصحراء : لاذ من ضجيج الحشود إلى صمت العزلة، ومن حقول الجليل ومروج ضفاف الأردنّ المخضلّة، إلى حصباء التلال، حيث لا نبعٌ يتدفّق، ولا قمحٌ ينمو، ولا تتكاثر سوى الأشواك والزواحف. بعد مجتمعات صنّاع

الناصرة، وتائبي المعمدان : تلالٌ موحشة، حيث لا يُشاهَد وجهٌ بشريّ، ولا يُسمع صوت إنس. بينه وبين البشر، أَقام الإنسانُ الجديد الصحراء.

إنّ قائل "الويل للمتوحّد" إنّما يعبّر عن خوفه، فحسب. فالمجتمع تضحيةٌ يُقاس ثوابها بكلفتها. أمّا الوحدة فهي، للنفس الغنيّة، مكافأةٌ، لا تكفير، وهي وعدٌ بخيرٍ محقّق، وإبداعٌ داخليّ للجمال، ومصالحةٌ حرَّة مع الغائبين. في الوحدة، فقط، نحيا مع نظرائنا، أَي مع الذين عثروا، وحدهم، على الأفكار السامية التي تعزّي عن هجر المقتنيات كلّها.

الرديء لا يطيق الوحدة، فهو لا يملك ما يعطيه، ويخشى نفسه وفراغه، ومحكومٌ عليه بوحدة الروح الأبديّة، وبصحراء داخليّة حيث لا ينمو سوى عشبٍ مسموم تنتجه الأراضي القاحلة. يجتاح نفسه القلق والرعدة حالما يعجز عن نسيان ذاته في خضمّ الغير، وتعليل ذاته بالثرثرة، وتبادل أوهام حياةٍ زائفة مع آخرين. وهو لا يقوى على العيش ما لم يمتزج، كلّ يوم، ذرّةً غير فاعلة، في جمهور الشوارع القذر.

لقد كان يسوع بين البشر، وسيعود إليهم، لأنّه يحبّهم. ولكنّه غالباً ما ينأى عنهم، لكي يختلي بذاته، بعيداً حتّى عن تلاميذه. إنّ محبّة البشر تقتضي هجرهم، أحياناً. فبعيداً عنهم نلتقيهم. الرديء لا يذكر منهم سوى الشرّ الذي ألحقوه به، فتؤرّق ليلَه الضغينة، ويجفّف حلقَه الغضب. أمّا العظيم، فلا يذكر منهم سوى الخير، وإكراماً للخير الزهيد ينسى كلّ سيّئاتهم. وحتّى الشرّ الذي لم يصفح عنه، في ساعته، يمحوه عن قلبه، ثمّ يعود إليهم عودته إلى إخوته.

ليسوع، كانت أَيّام الخلوة الأَربعون هذه، فترة تأهّبه الأخير. لقد كان على الشعب العبرانيّ أن يتيه أَربعين سنة في الفلاة، وعلى موسى أن يلازم اللّه أَربعين يوماً، كي يسمع الشريعة؛ وعلى إيليّا أن يضرب، أربعين يوماً، في الصحراء هرباً من انتقام ملكته.

كذلك، كان على المحرّر الجديد أن ينتظر أَربعين يوماً قبل إعلان الملكوت الموعود، وأن يظلّ أَربعين يوماً مع اللّه، كي يتلقّى منه الإيحاءات الأخيرة.

و لكنّه لم يكن وحيداً، بل برفقة الحيوانات المفترسة والملائكة، الكائنات الدنيا، والكائنات التي تسمو على البشر، فئة من هم مادّةٌ صرف، وفئة من هم روحٌ صرف.

الإنسان بهيمة ينبغي أن تصبح ملاكاً : مادّة تتحوّل إلى روح. فإن تغلّبت البهيمة تردّى الإنسان إلى أدنى من البهائم، لأنّه يضع ما بقي له من ذكاء في خدمة بهيميّته؛ أمّا إن تغلّب الملاك، فالإنسان يساوي الملائكة، بل يصبح أكثر من جنديٍّ للّه، لأنّه يشترك في الطبيعة الإلهيّة.

بيد أنّ الملاك المنحطّ الذي قُضي عليه باتّخاذ صورة بهيمة، هو العدوّ العنيد اللدود للبشر الذين يبتغون التسامي فوق الذرى التي أُقصي عنها، وأُسقط منها.

و يسوع هو عدوّ حياة العالم البهيميّة. وقد جاء لكي تصبح البهائم بشراً، ويصبح البشر ملائكة. إنّه وُلد كي يغلب العالم، ويصارع ملك العالم، خصم اللّه والبشر، الشرّير، المفسد، والغاوي : لكي يطرد إبليس من الأرض، مثلما طرده الآب من السماء.

و في نهاية الأربعين يوماً، قدم إبليس إلى الصحراء، كي يجرّب عدوّه.

الخصم

إنّ الحاجة اليوميّة إلى تغذية البطن هي دليل استعباد المادّة للإنسان. وبُغية يسوع هي قهر المادّة. وهو بين ظهرانيْ البشر سيشرب وسيأكل، مؤانسةً لرفاقه، إذ لا بدّ من إعطاء الجسد ما هو جسديّ، واحتجاجاً، أمام عيون الجميع، على صوم متصنّعي التقوى المنافقين. ولكن، إن كان العشاء الأخير، هو آخر عملٍ في رسالته، فعمله الأوّل، بعد العماد، كان الصوم. لقد كان هناك وحيداً، لا يُحرج رفاقه البسطاء، ولا يظهر بمظهر الفرّيسيّ، فصدف عن الطعام.

و لكنّه، عقب أربعين يوماً، جاع، وكان إبليس المتربّص، ينتظر تلك اللحظة : فطالما تطلّبت المادّةُ المادّة، فكلّ أملٍ متاح. وتكلّم الخصم : " إن كنت ابن اللّه، فاجعل من هذه الحجارة أرغفة خبز ". وجاءه الردّ تلقائيّاً : " ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ من كلام اللّه ".

و لم يستسلم إبليس، بل إنّه أشار، من قمّة تلّة، إلى ممالك الأرض، وقال ليسوع : "سأوليك كلّ هذا السلطان، ومجد هذه الممالك، لأنّها أُعطيت لي، وأنا أهبها لمن أشاء. فإن أنت سجدت لي باتت هذه كلّها ملكك ". وأجاب يسوع : " تبّاً لك يا إبليس، هيّا انصرف عنّي، فقد كتب : للربّ إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد ".

حينئذٍ انتقل به إبليس، بالفكر، إلى أورشليم، وأقامه على ذروة الهيكل وقال: "إن كنت ابن اللّه، فألق بنفسك إلى أسفل ". ولكنّ يسوع ردّ، في الحال : " لقد قيل : لا تجرّب الربّ إلهك "

و يضيف لوقا : " بعد أن استنفد إبليس كلّ تجربة ممكنة، انصرف عنه، حتّى اللحظة المناسبة ". وسنشهد عودته، ومحاولته الأخيرة.

للوهلة الأولى، يبدو هذا الحوار وكأنّه معركةٌ سلاحها نصوصٌ كتابيّة. فإبليس ويسوع لا يبتكران شيئاً من عندهما، بل يقتصران على إيراد أقوالٍ مأثورة، و لكأنّ الأمر جدال

لاهوتيّين. بيد أنّ هذا الحوار هو، في الواقع، المثل الأوّل المصوّر، غير المرويّ، من أمثال الإنجيل.

لا غرابة في أن يكون إبليس قد جاء إلى يسوع يحدوه أملٌ أخرق بإغوائه، بصفته إنساناً معرَّضاً للتجربة. فالشيطان لا يجرّب إلاّ العظماء والأنقياء؛ أمّا الآخرون، فهو يوفّر على نفسه مؤونة حتّى تشجيعهم على الخطيئة، فهم له، منذ خروجهم من الطفولة، يخضعون له طوعاً، وقبل أن يدعوهم، يرتمون بين ذراعيه. بل إنّ كثيرين يجهلون وجوده لأنّه لم يحتج إلى مراودتهم. ولأنّهم لم يلتقوه، قطّ، ينزعون إلى إنكاره. فالشيطانيّون لا يؤمنون بالشيطان. وقد قيل أنّ حيلة الشيطان الكبرى هي نشر إشاعة موته. إنّه يرتدي كلّ زيّ، وأزياؤه من الجمال بحيث تموّه حقيقته...

و إن كان الكثيرون يجهلونه أو يسخرون من ذكره، ولكأنّه خيالٌ اختُرع لحمل الناس على التوبة، فلأنّه يصارع، بضراوة، أولئك الذين يعرفونه ويرفضون اتّباعه. هو الذي أغوى براءة آدم وحوّاء، وأفسد داود الجبّار، وسليمان الحكيم، وشكا أمام اللّه أيّوب البارّ. جميع القدّيسين المتوارين في الصحراء، وجميع محبّي اللّه تعرّضوا لامتحانه. وكلّما نأينا عنه، اشتدّ التصاقه بنا، وكلّما سمونا عالياً جهد في اجتذابنا إلى أسفل. إنّه لا يقوى على تدنيس إلاّ ما هو طاهر، فعلامَ يحفل بالدمَن التي تتخمّر تلقائيّاً بلفح هجير الملذّات ؟ إنّ التعرّض للتجربة هو دليل طهرٍ وعظمة. وكلّ من عرف إبليس، ورآه وجهاً لوجه، يسعه أن يرجو من نفسه خيراً. وقد استحقّ يسوع هذا التكريس أكثر من أيٍّ سواه، فقد واجهه إبليس بتحدّيَيْن وقدّم له عرضاً طلب منه تحويل المادّة الميتة مادّةً محيية، وإلقاء نفسه من قمّة الهيكل، كي يثبت الله، بإنقاذه إيّاه، اعترافه به ابناً له. وعرض عليه الممالك و أمجادها، شرط أن يلتزم بخدمة إبليس، ويقلع عن خدمة الله. طلب منه الخبز المادّيّ، والمعجزة المادّيّة، و عرض عليه القدرة المادّيّة. ولكنّ يسوع ردّ التحدّي وازدرى العرض.

فيسوع ليس المسيح الجسديّ والزمنيّ الذي كان ينتظره سواد الشعب اليهوديّ، ويتخيّله، في حقارته، المجرّب. لم يأتِ كي يوفّر طعام الجسد، بل طعام النفس، وقوامه الحقيقة فحسب. ولكن عندما يفتقر إخوته إلى الخبز، و هم بعيدون عن كلّ بيت ، يقتسم معهم الزهيد المتوفّر ، بحيث يشبعون جميعهم ، و تفضل سلالٌ ملأى ، و لكن إن لم تكن ، ثمّة، ضرورة ، فهو لا يوزّع هذا الخبز الذي يأتي من الأرض وإليها يعود. فلو هو كان يحوّل حجار الطرقات خبزاً لاتّبعه الجميع، حبّاً بأجسادهم، ولتظاهروا بتصديق كلامه، ولتقاطرت الكلاب إلى مأدبته. في حين أنّ المطلوب ممّن يؤمن به أن يزدري الجوع، والألَم، والبؤس؛ لا بل على من يتبعه أن يهجر الحقل الذي ينبت القمح، والمال الذي يبتاع الخبز، وألاّ يحمل جراباً، مكتفياً بالثوب الذي يلبسه، حرّاً كعصافير السماء، فاركاً سنابل الحقول، أو متسوّلاً على

الأبواب. يمكن الاستغناء عن الخبز الأرضيّ، والاستعاضة عنه بتينةٍ منسيّة على شجرة، أو بسمكةٍ تُصطاد في البحيرة. أمّا الخبز السماوي فلا سبيل إلى الاستغناء عنه إلاّ لمن يبتغون موتاً أبديّاً، نظير أولئك الذين لم يذوقوه، قطّ.

لا يحيا الإنسان بالخبز وحده، بل، أَيضاً، بالحبّ، والاندفاع، والحقيقة. ولم يكن يسوع ليتردّد في تحويل ملكوت الأرض إلى ملكوت سماوات، ولكنّه ربأ بنفسه أن يحوّل الحجارة إلى أرغفة خبز، والمادّة إلى مادّةٍ أُخرى.

لأسبابٍ مماثلة، ردّ يسوع التحدّي الآخر. إنّ البشر كلِفون بالعجيب، العجيب المظهر، المعجز، المستحيل مادّيّاً الذي يصبح ممكناً؛ لديهم جوعٌ وعطشٌ إلى كلّ هائل، ويسجدون، راضين، أمام كلّ صانع معجزات، حتّى ولو كان الشيطان، أو أيّ دجّال. والجميع سيطلبون من يسوع **علامةً** أي لعبة وهمٍ ضخمة. ولكن يسوع سيأبى، دائماً، إغواءهم بهذه الذريعة. إنّه سيبرئ المرضى، ولا سيّما مرضى الروح، والخطأة، ولكنّه سيطالبهم بالكتمان، لا بل إنّه يتجنّب مناسبات مثل هذه المعجزات. وسيُحجم أبداً عن استخدام سلطانه، حتّى إنقاذاً لنفسه: حتّى في الجلجلة، عندما راوده إبليس كي يبعد عن شفتيه كأس الآلام، وحتّى، وهو على الصليب، عندما كرّر أبليس تحدّيه بلسان اليهود: "إن كنتَ ابن اللّه، حقّاً، فانزل عن الصليب". في عشيّة الآلام، وفي نهار الموت، سيقاوم إبليس، ولن يلجأ إلى المعجزة لكي يخلّص ذاته. فعلى البشر أن يؤمنوا، رغم كلّ بيّنة، بعظمته، في أفظع ساعة مهانته، وبألوهته، في تهالك جسده البشريّ. ليس من شأن يسوع أن يقذف نفسه من أعلى الهيكل، طالما لم يكن ذلك ضروريّاً لتخفيف آلام الغير، ولمجرّد اجتذاب الناس في إثره بالإدهاش والرعب؛ ولم يعبأ بقسر اللّه على إجراء معجزة، لكيلا يربح إبليس رهانه اللئيم. فيسوع قلب، ويتوخّى محادثة القلوب؛ إنّه روحٌ طاهر، ويريد تطهير الأرواح؛ إنّه حبّ، ويريد إضرام الحبّ؛ إنّه نفسٌ عظيمة، ويبتغي جعل النفوس المهجورة أَعظم رفعة. وهو عوضاً عن قذف نفسه، مثل ساحرٍ مبتذَل، إلى الهوّة المشرعة تحت الهيكل، سيصعد من الهيكل إلى الجبل، لكي يعلّم تطويبات الملكوت الإلهيّ.

لا ريب أن راع يسوع عرض إبليس لممالك الأرض، وراعه أكثر الثمن الذي اقتضاه لذلك. فلإبليس الحقّ في عرض ما يملكه؛ وممالك الأرض قائمة على القوّة، وصامدة بالمكيدة؛ ذلك هو ميدانه، وفردوسه المستعاد. إنّه يرقد، كلّ ليلة، على وسادة ذوي السلطان، الذين يؤدّون له، كلّ يوم، ضريبة عبادتهم له، من أفكارهم وأفعالهم. ولو شاء يسوع أن يوفّر للجميع الخبز، بلا عمل؛ أو، نظير بهلوانٍ مدهش، افتتاح مسرح للعجائب الشعبيّة، لانتزع من الملوك ممالكهم، من غير أن ينحني لإبليس. ولو شاء أن يكون المسيح الذي يحلم به اليهود، في توق

العبيد الذي يؤرّقهم، لهان عليه إفساد البشر بإغداق الخيرات عليهم؛ ولحوّل الأرض إلى بلدانٍ مسحورة، ولتبوّأ عرش ولاة جهنّم.

و لكنّ يسوع يأبى ترميم المملكة المنهارة، أو الاستيلاء على الممالك المعادية؛ ويزدري السلطة والمجد. والملكوت الذي يبشّر به، ويُعدّه، ليس من هذا العالم، وهدفه القضاء على الممالك الأرضيّة. إنّ ملكوت السماوات فينا؛ وكلّما تابت نفسٌ اغتنى هذا الملكوت بمواطنٍ جديد، على حساب ممالك الأرض. وعندما يصبح كلّ فردٍ طيّباً وصالحاً، وعندما سيحبّ الجميع إخوتهم مثلما يحبّ الآباء أبناءهم، وعندما سيحبّون أعداءهم، إن بقي، ثمّة، أعداء، وعندما سيطردون من بالهم الحسد واشتهاء مقتنيات الغير، والاختصام على الثروات، بل يهبون الجائع خبزاً، والعاري ثوباً، أين ستكون، حينئذٍ، ممالك الأرض ؟ وما نفع الجند، عندما لا يرغب أحدٌ في توسيع رقعة ممتلكاته باستلاب ملك الجار ؟ وما الحاجة إلى القضاة والشرطة عندما ستنتفي الجريمة بين الناس ؟ وما جدوى الملوك، عندما يُصبح القانون مدوّناً في الضمائر وتنتفي الحاجة إلى جيوشٍ لبسط السلطة، وإلى حكّامٍ ينبغي تعيينهم ؟ وأيّة حاجةٍ إلى المال والضرائب، عندما يكتفي كلّ فردٍ بخبزه اليوميّ، ولن يبقى مرتزقة في حاجة إلى راتب ؟ عندما ستتحوّل النفوس، سيتلاشى كلّ ما ندعوه مجتمعاً، ووطناً، وعدلاً، مثل هلوسات ليلٍ متمادي الطول. إنّ كلام المسيح لا يحتاج إلى مالٍ وجنود؛ بل فليصبح حياةً شاملة في الضمائر، وحينئذٍ سيتبخّر، مثل غمام الصباح تحت سطوة الشمس ونفحات الريح، كلّ ما يشدّ الإنسان ويعميه: السلطة الظالمة الضروريّة، ومجد المعارك الإجراميّ. وسيحلّ ملكوت السماوات الواحد، محلّ ممالك الأرض المتعدّدة، فينسى الروح المتحرّر طغيان تلك الممالك. ولن يكون بين البشر ملوكٌ ورعايا، أسيادٌ وعبيد، أغنياء وفقراء، خطأة مراؤون، أو خطأة وقحون، خطأة مهانون، أو فاضلون صلِفون. وستشرق شمس اللّه على الجميع، وسيمسي البشر أجمعون أسرةً واحدة، آباء وإخوة، وستُشرع أبواب الفردوس، ثانيةً، أمام أبناء آدم، الذين استعادوا صورتهم الإلهيّة.

لقد هزم يسوع إبليس في ذاته، وهاهوذا الآن يبارح الصحراء، كي يهزمه في قلوب البشر.

العودة

فور عودته وسط البشر، علم يسوع أن الملك، زوج هيروديا الثاني، كان قد سجن يوحنّا في قلعة ماخيرونت.

الصوت الصارخ في البرّيّة كان قد أُخمد، وتوارى عن مياه الأردنّ طيف المعمدان العظيم. لقد أدّى دوره، وأخلى مكانه للأقوى. وهو ينتظر، في سجنه، أن يقدّم رأسه النازف، في طبقٍ ذهبيّ، على مائدة العرس، طعاماً أخيراً للخيانة.

و كانت تلك إشارة ليسوع بأنّ يومه قد أَذن. فاجتاز السامرة، عائداً إلى الجليل، كي يعلن دنوّ ملكوت اللّه. لم يشخص إلى أورشليم مدينة الملك الأكبر، فهو قد جاء لكي يدمّر أورشليم الحجر والكبرياء تلك، الجاثمة بتعالٍ على تلالها الثلاث، والقاسية القلب كالجلمود. لقد جاء ليحارب أولئك الذين تمجّدهم المدن الملكيّة، أورشليمات العالم.

في أورشليم يعيش متنفّذو الأرض : الرومانيّون أسياد العالم واليهوديّة، مع جنودهم المدجّجين بالسلاح، وممثّلو الأباطرة: تيبيريُس السكّير الحقير، الذي خلف، بجدارة، أكتافيوس اللوطيّ، وقيصر الزاني.

و في أورشليم يعيش رؤساء الكهنة، حرّاس الهيكل، والفرّيسيّون، والصدّوقيّون، والكتبة واللاويّون؛ أحفاد الذين طردوا الأنبياء وقتلوهم؛ عبيد الحرف الأتقياء، وأمناء شريعة متحجّرة، متعجرفون.

في أورشليم، خَزنة اللّه وقيصر، حرّاس الكنوز، عاشقو الثروات، الجباة وطفيليّوهم، الأثرياء وخدّامهم وخليلاتهم، التجّار في مكاتبهم أو في مصارفهم في الهواء الطلق، وقد امتلأت محافظهم بالشواقل الرنّانة على صدروهم، والتي يترجّع صدى رنينها في قلوبهم.

لمقاومة هؤلاء جميعاً جاء يسوع. جاء كي يقهر أسياد الأرض، وهي ملك الجميع، وكي يخزي أسياد الكلام، الذي يلهمه اللّه لمن يشاء، وكي يدين أسياد الذهب.

جاء ليدكّ حكم عسكر روما، الذين يسحقون الأجساد، وحكم كهنة الهيكل، الذين يسحقون النفوس؛ وملك مكدّسي المال، الذين يسحقون الفقراء. جاء كي يخلّص الأجساد، والنفوس، والفقراء، ولكي يدعو إلى الحرّيّة في مواجهة روما، وإلى الحبّ في مواجهة الهيكل، وإلى الفقر في مواجهة الأغنياء.

لم يشأ بثّ دعوته الأولى في أورشليم حيث التأم أعداؤه، وباتوا هم الأقوى. بل آثر أن يلتفّ عليها، وأن يأخذها من الخارج، وأن يصل إليها بعد حين، متقدّماً شعباً يؤمن به ويسير في إثره، بعد أن يكون ملكوت السماوات قد حلّ فيها بتؤدة.

اقتحام أورشليم هو معركته الأخيرة، معركته الكبرى، المعركة الرهيبة التي يتصدّى بها أعظم الأنبياء لمدينة تلتهم الأنبياء. في أورشليم التي سيدخلها دخول ملك، وحيث سيدفن

دفن مجرم، كان من شأنه أن يسجن، يومها، فيتعذّر عليه المضيّ ليزرع كلمته في أرضٍ أقلّ جدباً.

إنّ أورشليم، نظير جميع الحواضر التي تتقاطر إليها حثالة الأمم، تقطنها جموعٌ خسيسة من العاطلين عن العمل، واللامبالين، والمتشكّكين؛ وزعامةٌ دينيّة لم يبقَ منها سوى الفخفخة الخارجيّة، والطقوس التقليديّة، ونقمة الانحطاط؛ وأرستقراطيّة المضاربين: قطيع "مامّون"؛ وشعب متمرّد، مضطرب، جاهل، ممزّق بين خرافات الهيكل وخشية السيوف الأجنبيّة. بالإجمال، لم تكن أورشليم الحقل الملائم لزرع بذار يسوع.

و هكذا آثر ابن الريف، السليم والوحيد، العودة إلى ريفه، متوخّياً نقل البشرى الطيّبة إلى الذين ينبغي أن يتلقّوها قبل الجميع، أي إلى الفقراء، والصغار، والمتواضعين : فرسالته موجّهة، أوّلاً، إلى الذين انتظروها أكثر من سواهم، والذين سيفرحون بها أكثر من الآخرين.

يسوع يبحث عن الفقراء، لذلك نأى عن أورشليم، ودخل الجليل، ومضى يعلّم في المجمع.

ملكوت اللّه

أقوال يسوع الأولى بسيطة ومقتضبة، وتذكّر بأقوال يوحنّا : لقد أذن الزمان؛ ودنا ملكوت اللّه، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

كلماتٌ عارية يجعلها إيجازها نفسه غير مفهومة لدى الحديثين. وفي سبيل إدراكها، وتبيّن مدى ابتعاد رسالة يسوع عن رسالة يوحنّا، لا بدّ من ترجمتها ترجمةً جديدة، ومن ملئها، ثانية، بفحواها الأبديّة الحيويّة.

لقد حلّ ملء الزمان : الزمان المنتظر، المتنبّأ به، المعلن. كان يوحنّا ينبئ بمجيءٍ وشيك لملكٍ كفيلٍ بتأسيس ملكوت اللّه. وقد وافى الملك، وأنبأ أنّ أبواب الملكوت باتت مشرعة، وأنّه هو الدليل، والسبيل، واليد، قبل كونه ملكاً في مجده السماويّ.

و زمن الملكوت ليس سنةً محدّدةً من ملك تيبيريُس، بل زمن يسوع هو الآن ودائماً، إنّه الأبديّة، إنّه لحظة ظهوره، ولحظة موته؛ إنّه زمن عودته، وزمن انتصاره الكامل الذي لم يحِنْ بعد. في كلّ لحظة يحلّ زمنه، وفي كلّ ساعة يتحقّق ملؤه، إن كان العامل دؤوباً؛ كلّ يوم هو يومه، وحقبته لا تدوّن بأرقام؛ فليس للأبديّة تسلسل زمنيّ. وكلّما جهد إنسانٌ في دخول

الملكوت وإغنائه، والذود عن حياضه، وإعلان وجوده، وقداسته الدائمة، وأولويّته الأبديّة على جميع الممالك الأُخرى – لأنّها جميعها بشريّة وليست إلهيّة، أرضيّة وليست سماويّة – حينئذٍ يحلّ ملء الزمان. وهذا الزمان يدعى عهد يسوع، العهد المسيحيّ، العهد الجديد. أقلّ من ألفي عام يفصلنا عنه، أي أقلّ من يومين، فلله وللعارفين، ليس ألف عام أكثر من يومٍ واحد. لقد أذن الزمان، وما زلنا، اليوم، في ملء الأزمنة، إذ ما برح يسوع يدعونا، ولم ينقضِ، بعدُ، يومه الثاني، بل ما انفكّ ملكوته في مستهلّه. نحن الذين يحيون في هذه السنة، في هذا القرن (نحن المعرَّضين للموت الذين قد لا يشهدون نهاية هذه السنة، ولن يشهدوا بالتأكيد نهاية هذا القرن) نحن الأحياء في الحاضر، يسعنا أن ننال حصّتنا من ملكوت السماوات، وولوج هذا الملكوت، والظفر بالحياة والفرح. فهذا الملكوت ليس حلماً منسيّاً حلمه يهوديّ مسكين منذ عشرين قرناً؛ وليس غرضاً عتيقاً، ذكرى ميتة، مسَّ جنون عفا عليه الزمن. بل هو موجود اليوم، وغداً، ودائماً. إنّه واقعٌ مستقبليّ؛ وواقعٌ حاضر، واقعنا. إنّه عملٌ شُرِع في إنجازه حديثاً، وبوسع كلّ إنسان أن يسهم فيه ويتابعه. قد يبدو القول، بعد أصداء ألفين من السنين، عتيقاً، أمّا الملكوت، بصفته واقعاً وتحقيقاً، فهو جديد،، فتيّ، ابن الأمس، معدٌّ للنموّ، والازدهار. لقد ألقى يسوع بذرته في التربة، بيد أنّ ألفي عام انقضيا مثل شتاءٍ بطيء؛ والبذار، بعد ستّين جيلاً من البشر، بدأ الآن ينبت. فهل سيأتي، أخيراً، بعد طوفان الدم، الربيع المنتظر ؟

ما هو هذا الملكوت ؟ إنّنا نتبيّنه، من خلال أقوال يسوع نفسها، صفحةً فصفحة. ولكن ينبغي ألاّ نتخيّله فردوس ملذّات جديداً، "أركاديا[1]"، مملّة مثل جوقة طوباويّين جاثمين على السُّحب، ملامسين بجباههم النجوم.

إنّ ملكوت اللّه، في أقوال المسيح، هو نقيض ملكوت إبليس، وملكوت السماوات هو نقيض ملكوت الأرض. ملكوت إبليس هو ملكوت الشرّ، والمكر، والشراسة، والكبرياء. ملكوت اللّه يعني، إذن، ملكوت الخير، والصدق، والحبّ، والتواضع.

ملكوت الأرض هو ملكوت المادّة والجسد؛ ملكوت الذهب والحسد، ملكوت البخل والفسق، ملكوت كلّ ما يعشقه بشرٌ مجانين وفاسدون.

أمّا ملكوت السماوات، فسيكون، على نقيض ذلك، ملكوت الروح والنفس، ملكوت التجرّد والطهر، ملكوت تلك الخيرات التي ينشدها البشر بعد إدراكهم بطلان كلّ ما سواها.

إنّ اللّه أبٌ، وهو عطف. والسماء هي ما يسمو عن الأرض، أي الروح. السماء مقام اللّه، والروح هو موطن العطف.

---

[1] منطقة في اليونان القديمة ، جعل منها التقليد الشاعريّ بلاد الغزل الرعويّ

البهيمة تزحف على الأرض، وتلتذّ بالمادّة، أمّا القدّيس فيرنو إلى السماء، ويرغب في السماء، ويرجو العيش فيها أبديّاً. والبشر، في معظمهم، بهيميّون. ولكنّ يسوع يريدهم أن يصبحوا قدّيسين. ذلك هو معنى وعد ملكوت السماوات، في بساطته وحيويّته.

ملكوت اللّه ملكٌ للبشر: " إنّ ملكوت السماوات في داخلنا ". إنّه عملنا، وسعادتنا في هذه الحياة، على هذه الأرض. إنّه رهنٌ بإرادتنا، بقولنا نعم أو لا. كونوا كاملين، وسيعمّ ملكوت السماوات الأَرض، وسيستقرّ بين البشر.

و يضيف يسوع: "توبوا". وقوله، في الأصل، يعني تغييراً للروح، وتحوّلاً للنفس، أي تجديداً للإنسان الداخليّ، وارتداداً.

إنّ شرط دخول ملكوت السماوات –بل جوهر النظام الجديد– كان، وفق إرادة يسوع، التحوّل الكامل، وإعادة تقييم القِيَم، وتغييراً شاملاً في أسلوب الحياة، وفي الشعور، والأحكام، والنوايا : أي ما أوجزه يسوع، في حديثه مع نيقودمُس، بعبارة : " الولادة الثانية".

و سيفسّر يسوع، شيئاً فشيئاً، بأيّ معنى، وبأيّة وسيلة، ينبغي أن يتحقّق تحوّل النفس البشريّة هذا، وسيكرّس حياته كلّها لكي يعلّم هذا التحوّل، وسيضرب فيه المثل. ولكنّه، في ذلك اليوم، اقتصر على هذه الخلاصة فحسب : " آمنوا بالإنجيل ".

لقد اعتدنا أن نفسّر كلمة الإنجيل على أنّه الكتاب المجلّد الذي طبعت فيه قصّة يسوع الرباعيّة. ولكنّ يسوع لم يكتب، ولم تكن الكتب تجول في خاطره. وإنّما قصد، بكلمة الإنجيل، معناها البسيط والعذب، أي ما يدعوه التقليد البشريّ، وما يجدر تسميته بالرسالة السعيدة. فيسوع رسول السعادة، وهو يحمل هذه الرسالة السعيدة : المرضى سيبرأون، والعميان سيبصرون، والفقراء سيرثون كنوزاً لا تنضب، والحزانى سيُعزّون، وخطايا الخطأة ستُغفَر لهم، والناقصون سيصبحون كاملين. وسيكون بوسع البهيميّين أن يصبحوا قدّيسين، وبوسع القدّيسين أن يصبحوا ملائكة، ويتمثّلوا باللّه.

و لكي يحلّ الملكوت، ولكي يعمل كلّ فرد من أجل مجيئه، لا بدّ من الإيمان بهذه الرسالة، وبأنّ الملكوت قريب. فمن لا يؤمن بهذا الوعد، لن يفعل ما هو مطلوب منه لكي يتحقّق. بل، وحده، اليقين بأنّ البشارة ليست خداعاً، وبأنّ الملكوت ليس كذبة مغامر، أو هلوسة حالم، ووحده الإيمان بصدق الرسالة وفاعليّتها كفيلان بدفع البشر إلى الإسهام في عمل التأسيس العظيم.

بهذه الكلمات القليلة، التي قلّما فُهمت، وضع يسوع مبادئ تعليمه: تحقيق ملء الزمان الذي يقتضي الشروع بالعمل من غير تلكّؤ؛ وحلول الملكوت بانتصار الروح على المادّة، والخير على الشرّ؛ وتحوّل النفوس تحوّلاً كاملاً؛ الإنجيل : أي البشرى بأنّ كلّ ذلك حقيقيّ، وممكنٌ أبديّاً.

كفرناحوم

هذا ما كان يعلّمه يسوع للجليليّين، عند عتبات البيوت المبيّضة، أو في ساحات المدن الظليلة، أو عند ضفاف البحيرة، وهو متّكئ على سفينةٍ سُحبت إلى الشاطئ، وقدماه غارقتان بين الحصى، ساعة الغروب، عندما تدعو الشمس المضرّجة بالحمرة إلى الراحة.

كثيرون كانوا يسمعونه ويتبعونه لأنّه كان يتكلّم بسلطان، على حدّ قول الإنجيليّ مرقس. وإن لم تكن كلّ كلماته جديدة للجميع، إلاّ أن المتكلّم كان جديداً؛ وذلك الصوت الدافئ المنعش الذي كان ينبعث من القلب وينفذ إلى القلوب، لم يكن أحدٌ قد سمعه قطّ؛ جديدةً كانت نبرة أقواله، وقشيبةً كانت المعاني، عندما ينطق بها فمه وتنيرها نظرته. لم يكن مثل الأنبياء الذين يصيحون على القمم الجرداء، ويجبرون القوم على المجيء نحوهم لسماعهم. بل إنّ ذلك النبيّ الجديد كان إنساناً وسط البشر، صديقاً للجميع؛ محبّاً لمن ينفر منهم الجميع، رفيقاً طيّباً، صديقاً أنيساً، يسعى باحثاً عن إخوته، حيث هم: في عملهم، في منزلهم، في الشارع. يأكل الخبز ويرتشف الخمرة على مائدتهم، ويمدّ يده إلى الصيّاد المحتاج إلى من يعينه في سحب شباكه، ومغدقاً كلمات العزاء على المحزون، والسقيم، والمتسوّل.

إنّ القوم البسطاء، على غرار الحيوانات الأليفة والأطفال، يتعرّفون، بالسليقة، من يحبّهم، ويثقون به؛ يكسو البِشْر أساريرهم لدى مجيئه، ويحزنون لغيابه. وأحياناً لا يقوون على مبارحته، فيتبعونه حتّى الموت.

بين ظهراني هؤلاء البسطاء، أمضى يسوع أيّامه، مرتحلاً من قريةٍ إلى أُخرى، أو جالساً متحدّثاً إلى أصدقاء الساعة الأولى. لقد كان، دائماً، كلِفاً بتلك الضفّة المشمسة، المحاذية للبحيرة الساكنة، الصافية، التي تكاد لا تحرّك أديمها ريح الصحراء، وحيث تسري سفن صامتة، تبدو، من بعيد، وكأنّ أصحابها هجروها. تلك كانت مملكته، حيث التقى جمهوره الأوّل، وطلائع المؤمنين به ، و تلاميذه الأُوَل.

صحيحٌ أنّه ظهر في الناصرة، ولكنّه لم يمكث فيها طويلاً. وسيعود إليها لاحقاً، يواكبه الاثنا عشر، وتسبقه أصوات معجزاته؛ ولكنّ الناصرة ستعامله مثلما عاملت جميع حواضر العالم، (حتّى أنبلها، مثل أثينا وفلورنسا) نخبةَ أبنائها الذين بنوا عظمتها إلى الأبد. فالناصريّون، بعد أن يسخروا منه قائلين لقد عرفناه صبيّاً، فمن أين جاء بالنبوّة، سيحاولون القذف به إلى هوّة مميتة.

لم يمكث يسوع في أيّة مدينة، بل كان رحّالة، وربّما اعتبره بعض الحضريّين، أصحاب الكروش، القابعون عند عتبات بيوتهم، مشرّداً. حياته سفَرٌ دائم. رأى النور وأمّه الحامل على سفر، لم تستطع أن تجد لنفسها مكاناً حتّى في أحد خانات بيت لحم. ورضيعاً،

حُمل على طرقات مصر الحارقة القيظ، ومن مصر أُعيد إلى الجليل المخضوضل المنعش. ومن الناصرة كان يشخص، غالباً، إلى أورشليم للاحتفال بالفصح؛ إلى ضفاف الأردنّ دعاه صوت المعمدان؛ وإلى الصحراء دفعه صوتٌ داخليّ. وبعد أربعين يوماً من الجوع والتجربة، بدأ ارتحاله القلق من مدينةٍ إلى مدينة، ومن قريةٍ إلى قرية، عبر فلسطين الممزّقة. غالباً ما نجده في الجليل، في كفرناحوم، وغورازيم، وقانا، ومجدلا، وطبريّة. ولكنّه يجتاز، أيضاً، السامرة، ولا يتحرّج من الجلوس، عند بئر سيخار؛ وسنقتفي أثره، أحياناً، في تيتررخيّة فيليبّس، وفي بيت صيدا، وغدارا، وقيصريّة، أو بيرية هيرودس أنطيباس. أمّا في اليهوديّة، فهو يؤثر التوقّف في بيت عنيا، على مقربةٍ من أورشليم، أو في أريحا. لا بل إنّه يتجرّأ فيجتاز تخوم المملكة القديمة، وينحدر إلى ديار الوثنيّين. فنحن نجده في صور وصيدا الفينيقيّتين، ونراه يتجلّى على قمّة الحرمون في سوريّة، وبعد قيامته يظهر في عمّاوس؛ وأخيراً، على مقربة من بيت صديقه أليعازر الذي أقامه من الموت، في بيت عنيا، يغادر أصدقاءه إلى الأبد.

إنّه الحاجّ الذي لا عهد له براحةٍ أو بيت؛ منفيّ الحبّ، المنفيّ طوعاً، في قلب وطنه، والذي يقرّ، بنفسه، أنّه لا يملك حجراً يسند إليه رأسه، ولا سريراً يستلقي عليه، كلّ ليلة، ولا بيتاً يسعه القول أنّه يخصّه. بيته الحقيقيّ هو الطريق حيث يسير مع رفاقه بحثاً عن أصدقاء جدُد. فراشه تلمٌ في حقل، أو مرسى سفينة، أو ظلّ زيتونة. وأحياناً يرقد تحت سقف من يحبّونه، ضيفاً لأيّامٍ معدوداتٍ، سريع الارتحال.

في مطلع تبشيره، غالباً ما أقام في كفرناحوم. فتلك المدينة، "مدينته"، حسب قول متّى الإنجيليّ،هي منطلقه ومثابه. لقد غدت "كفرناحوم"، في لغاتنا، مرادفاً للفوضى والاضطراب. فقرية الصيّادين والفلاّحين العتيقة تلك قد امتدّت وانتفخت. ومن جرّاء وقوعها على طريق القوافل المنطلقة من دمشق عبر إيتوريا، شطر البحر، كانت قد انقلبت، شيئاً فشيئاً، مركزاً تجاريّاً ذا شأن، يستقرّ فيه الحرفيّون، والبائعون، والتجّار والمصدّرون. ومثلما يتكوّم الذباب فوق الإجّاص المتعفّن، تقاطر إلى كفرناحوم رجال المال... وإذ بالقرية الصغيرة تصبح مدينةً تمثّل فيها المجتمع المدنيّ كلّه، حتّى بنات الهوى والجنود. غير أنّ كفرناحوم المتطلّعة في مرآة البحيرة، والتي ينعشها نسيم الماء وريح القمم القريبة، لم تتعفّن بكاملها مثل أورشليم، وسائر المدن. وظلّ الهواء فيها عليلاً، وبقي، بين سكّانها، فقراء، وقومٌ طيّبون، بسطاء، ودودون، فلاّحون يشخصون كلّ يوم إلى حقولهم، وصيّادون يمتطون كلّ يومٍ سفنهم.

و في يوم السبت، كان يسوع يشخص إلى المجمع، وهو بيتٌ بسيطٌ وعارٍ، مشرعٌ للجميع، حيث يتاح لكلّ فرد أن يقرأ ويعلّق على ما قرأ. وكانوا يؤمّونه جماعات، وإخوةً، للتحدّث معاً، وللحلم في اللّه.

و كان يسوع ينهض، ويطلب لفائف الكتب المقدّسة –مؤثراً كتب النبوءات على كتب الشريعة– ويقرأ بعض آياتها بصوتٍ هادئ، ثمّ يشرع يتكلّم، في فصاحةٍ جريئة تخزي الفريسيّين، وتمسّ قلوب الخطأة، وتجتذب الفقراء، وتسحر النساء. وبغتةً، كان النصّ القديم يتألّق، وتتّضح جوانبه، وينبض حياةً في عقول الجميع، ويمسي حقيقةً جديدةً تُكتَشف، وتُسمَع للمرّة الأولى. والألفاظ التي جمّدها الزمن، وجفّفها التكرار، كانت تستعيد حياةً ولوناً. شمسٌ جديدة كانت تضفي عليها ضياءها، مقطعاً مقطعاً؛ وكلماتٌ نديّةً جديدة، سُكّت في الحال، كانت تتألّق في كلّ العيون، مثل وحيٍ غير متوقّع.

قومٌ بسطاء

لم يكن سكّان كفرناحوم قد سمعوا، قطّ، مثل هذا "الرابيّ". وكلّما تكلّم، كان المجمع يكتظّ بالحضور، وتزدحم الطرقات بمن لم يجدوا إلى الدخول إليه سبيلاً.

ففي يوم السبت، كان البستانيُّ يلقي بمعوله جانباً، ويُقلع عن امتياح ماء البئر لسقاية مزروعاته؛ ولا يعود حدّاد القرية ذلك الرجل المصبوغ بقتام الدخان، وغبار البرادة، المتعرّق، القذر، الواقف أمام نار كوره، بل يغتسل فيبدو محيّاه، الذي ما زال مسمرّاً، نظيفاً؛ وكذلك تبدو يداه نظيفَتيْن، ولحيته ممشّطة، مضمّخة بعطرٍ رخيص الثمن، ولكنّه طيّب الرائحة مثل عطر الأغنياء، وهكذا يشخص إلى المجمع كي يستمع إلى كلام إله آبائه، تدفعه، لارَيْبَ، تقواه، ولكن، أيضاً، رغبته في التقاء ذويه، وأصدقائه، وجيرانه : فالمجمع هو مكان اللقاء الوحيد في كفرناحوم. غير أنّ أيّام العطلة هذه، في منأى عن المطرقة والكتيفة، تبدو له متمادية الطول.

و المعماريّ –ذاك الذي أسهم في بناء المجمع، وبناه صغيراً، لأنّ زعماء الطائفة، قومٌ طيّبون، ولكنّهم على شيءٍ من البخل– المعماريّ الذي ما برح ساعداه موجعَيْن، منهكَيْن بعد ستّة أيّام كدّ، والذي بات عاجزاً عن عدّ الحجارة التي حملها، وأحلّها في أمكنتها، وثبّتها بالملاط في الجدار، خلال الأسبوع؛ ذاك الذي، في سائر الأيّام، يظلّ واقفاً، ساهراً على حسن سير العمل، وعلى إرضاء صاحب البناء، هو، أيضاً، هنا، اليوم، في ثوبه الجديد، جالسٌ على الحضيض. لقد جاء إلى بيتٍ هو، بعض الشيء، بيته.

و جاء الصيّادون : الشابّ والشيخ، وقد لوّحتهما الشمس؛ عيونهما شبه مغمضة من جرّاء عادةٍ رسّخها انعكاس النور في أمواج البحيرة؛ والشيخ هو الأجمل بفضل ابيضاض شعر رأسه، ولحيته المحيقة بوجهٍ داكنٍ مغضّن. لقد قلبا سفينتهما على رمال الشاطئ، وشدّا وثاقها إلى وتد، ووضعا شباكهما على السطح، وجاءا إلى المجمع. لا ريب أنّهما غير مرتاحين بين جدرانه، لأنّهما يتوقان توقاً مبهماً إلى تلاطم الموج على مقدّم السفينة.

وهاهم أصحاب الحقول، فلاّحون شبه أغنياء،غير خجولين من جلابيبهم، ويرجون حصاداً وفيراً. هؤلاء لا يريدون نسيان إلههم الذي يُنبت الشعير، ويجعل الكرمة تزهر. وها هم رعاة الأغنام والماعز الذين يجرّون في إثرهم روائح السائمة. لقد قضوا الأسبوع كلّه على المرتفعات، ولم يقع نظرهم على إنسان، وحيدين مع قطعانهم التي ترعى، بهدوء، العشب النديّ.

صغار الملاّكين، والتجّار، ووجهاء كفرناحوم هم، أيضاً،هنا،قومٌ محترمون وورعون، ينتصبون في الصفوف الأماميّة، وقورين، غاضّي الأبصار، راضين عن أعمالهم، وعن ضمائرهم. فقد نفّذوا، بلا خَلَل، وصايا الشريعة. تمكن مشاهدة رتل ظهورهم المغطّاة بالثياب الفاخرة؛ ظهور منحنية، ولكنّها عريضة ووقورة، ظهور أسياد، ظهور قومٍ على علاقاتٍ طيّبة مع العالم ومع اللّه، ظهور ممتلئة سلطةً وتديّناً.

و ها هم الغرباء، عابرو السبيل، القادمون من طبريّا، أو الماضون إلى سوريّة. لقد تنازلوا ودخلوا، ربّما بحثاً عن عميل، وهم يتلفّتون من حولهم، بصَلَفٍ متعالٍ يوحيه المال للنفوس الفقيرة.

و في القسم الخلفيّ من القاعة – فالمجمع ليس سوى قاعةٍ طويلة، بيضاء الجدران، تكاد لا تكبر حجماً عن قاعة درسٍ أو عن مطبخ – يقبع، إلى جانب الباب، مثل كلاب تتوقّع الطرد في كلّ لحظة، فقراء البلد، الأكثر فقراً، الذين يعتاشون من الأعمال الوضيعة، أو من إحسانٍ يُلقى إليهم، أو –يا للبؤس!– من سرقاتٍ صغيرة. ويحيط بهم البؤساء، رثّو الثياب، المقمّلون، أولئك الذين ينفر منهم الناس ويصدّونهم؛ والأيتام الذين لم يتعلّموا بعد كسب عيشهم؛ والعجائز اللواتي سافر أبناؤهنّ بعيداً؛ والمحدودبون الهرمون الذين ينبذهم الجميع؛ والمرضى، والمصابون بعِلَلٍ لا شفاء منها، والذين باتوا عاجزين عن العمل، لأنّ الفوضى دبّت في رؤوسهم؛ واهنو العقول والأجساد، المهجورون؛ الذين يأكلون يوماً، ويبيتون على الطوى في اليوم التالي، ولا يشبعون أبداً؛ الذين يلتقطون نفايات الآخرين، الخبز الجافّ، ورؤوس الأسماك، والقشور؛ الذين يرقدون حيثما يتسنّى لهم، ويقاسون قرّ الشتاء، ويتطلّعون إلى الصيف، فردوس الفقراء، إذ إنّ الثمار تنبت حينذاك عند حافّات الطرق. والمتسوّلون الفقراء، أيضاً، والجربون يمضون إلى المجمع، يوم السبت، لسماع أقوال الكتب. ولا يمكن طردهم، إذ إنّهم يتمتّعون بمثل حقوق الآخرين، فهم أبناء الأب عينه، ويخدمون الربّ نفسه. في ذلك اليوم يذوقون بعض العزاء، والأقوال ذاتها التي يسمعها الأصحّاء والأغنياء تجد سبيلها إلى آذانهم. هنا يتناولون الطعام عينه الذي يتناوله الآخرون، لا كما يحدث عند عتبات البيوت حيث يتناول السيّد أفخر الأطعمة، فيكتفون هم بالفضلات؛ هنا تقدّم الوجبة عينها لمن يملك كلّ شيء، ومن لا يملك شيئاً. فكلمات موسى هي، أبديّاً، واحدة لمالك أسمن قطيع، ولمن لا يملك قطعة لحمٍ

صغيرة تمكّنه من الاحتفال بالفصح. بيد أنّ كلام الأنبياء هو أفضل من ذلك، لأنّه يرفق بالصغار، ويقسو على الكبار. فلا بدع إن انتظر الفقراء، كلّ أسبوع، تلاوة فصلٍ من أشعيا، أو من عاموس. فالأنبياء كانوا يناصرون العراة، ويُنذرون بالعقاب، ويعلنون عالماً جديداً. "و ذاك الذين كان يرفل بالأرجوان سيتمرّغ في الأقذار".

و ها هو، في ذلك السبت، من جاء من أجلهم، وتكلّم من أجلهم. لقد هجر الصحراء، كي يعلن البشرى للفقراء والمرضى. لم يتحدّث أحدٌ عنهم مثله، ولم يُظهر لهم أحدٌ من الحبّ بقدرما أظهر لهم. نظير الأنبياء القدامى، الذين لم يرجع أحدٌ منهم كي يعزّيهم، ثانية، كان يبدي من التحيّز لهم ما يثير حنق الأغنياء، ولكن ما يفعم قلوبهم، هم، عزاءً ورجاءً.

و عندما كان يسوع يتوقّف عن الكلام، كان الوجهاء، والبورجوازيّون، والسادة، والفرّيسيّون، يهزّون رؤوسهم استياءً. هؤلاء الذين كانوا يجيدون القراءة وأساليب الاغتناء، كانوا ينهضون، زامّي الشفاه، ويتبادلون إشارات تواطؤ خبيث. ولا يكادون يصيرون في الخارج حتّى تهمس لحاهم الكبيرة السوداء، أو الرماديّة، دمدمات استنكار حذرة، معبّرةً عن غضبهم واستفظاعهم لما سمعوا. ولكن، لم يكن أحدٌ منهم يضحك.

و كان التجّار يلحقون بهم، رافعي الهامات، وهم يُعدّون خطط الغد. ويبقى، وحدَهم، العمّال والفقراء: الرعاة، والفلاّحون، والحدّادون، والصيّادون، تليهم طغمة البائسين، والأيتام الذين لا إرث لهم، والمرضى المسنّون، والذين لا مأوى لهم، ولا صديق، ولا فلس؛ والعرج، والجُرْب. ما كانوا يقوون على نزع أنظارهم عن يسوع، متمنّين الاّ يكفّ عن الكلام، وأن يعلن عن يوم الملكوت الجديد، ذلك اليوم الذين سيعوّضهم، أخيراً، عمّا قاسوا من بؤس... كلمات يسوع كانت تجعل قلوبهم المتعبة تخفق بسرعةٍ كبرى، وتولّد في نفوسهم النبيلة نوراً قشيباً، وباباً مشرعاً على مجد السماء، ورؤى قطاف، ومآدب. ربّما هم، أيضاً، لم يدركوا، إدراكاً صحيحاً، ما كان الربّ يعنيه...

و لكن لم يكن أحدٌ يحبّه مثلهم، ولن يحبّه، أبداً، أحدٌ مثل أولئك الجليليّين الجائعين إلى الخبز والحقيقة. والفقراء الأقلّ إملاقاً، الذين كانوا يعملون، ولا يعانون، بقدر أولئك، من الجوع، كانوا يحبّونه، حبّاً بإخوتهم أولئك.

و لدى خروجه من المجمع، كانوا، جميعهم، ينتظرونه في الطريق، كي يروه ثانية؛ ويتعقّبون أثره، وكأنّهم يتعقّبون حلماً. وإن هو دخل بيت صديقٍ ليأكل، كانوا ينتظرون، عند الباب، ظهوره من جديد. وحينئذٍ، كانوا يتجرّأون، فيدنون منه، ويمضون معه إلى ضفّة البحيرة، وينضمّ إليهم آخرون، وكان بعضهم يستمدّون من السماء المشرعة الجرأة، فيجسرون على طرح أسئلة على يسوع. وكان، هو، يتوقّف، ويجيب ذلك الجمع المُغْفَل، بكلماتٍ لن تُنسى أبداً.

الأربعة الأوّلون

من صيّادي كفرناحوم اختار يسوع تلاميذه الأوّلين. كان يشخص، كلّ يوم، إلى ضفّة البحيرة، ويشهد سفناً تمضي، أحياناً، إلى العُرْض، ويشهدها، أحياناً، عائدة، وقد نفخت الريح أشرعتها، والرجال ينحدرون منها، حفاةً، ويسيرون في الماء الذي يغمر سيقانهم، حاملين شباكاً تقطر ماء، وسلالاً ملأى بالأسماك، الجيّد منها والرديء، مختلطة، ملتمعة مثل فضّةٍ رطبة.

و عندما كانوا ينطلقون في الليالي المقمرة، ويعودون قبل شروق الشمس، غالباً ما كان يسوع بانتظارهم عند الشاطئ، وأوّل المرحّبين بهم. ولكنّ الصيد لم يكن دائماً موفّقاً، وعندما كانوا يؤوبون خالي الوفاض، منهكين، مقطّبي الجبين، كان يستقبلهم بكلماتٍ تشيع في نفوسهم العزاء. وحينئذٍ، رغم خيبتهم وسهادهم، كان يطيب لهم الإصغاء إليه.

و ذات صباح، عادت سفينتان إلى كفرناحوم، فيما كان يسوع جالساً على الحصباء يحدّث جماعةً من الرجال الذين تحلّقوا من حوله. وانحدر الصيّادون، وشرعوا يطوون شباكهم. حينئذٍ استقلّ يسوع إحدى السفينتين، وطلب من أصحابها الابتعاد بها بضع خطوات عن الشاطئ. ولمّا بعد عن الجمع، وقف إلى جانب الدفّة، وشرع يعلّم الذين بقوا على اليابسة. وعندما فرغ من خطابه قال لسمعان : " إنطلق إلى العُرض وارمِ الشباك ". وردّ سمعان بن يونا، ربّان السفينة: " يا معلّم، لقد كدحنا الليل بطوله، ولم نُصِب شيئاً. ولكن، امتثالاً لأمرك، سنلقي الشباك ".

و ما كادوا ينأون قليلاً عن اليابسة حتّى ألقى سمعان وأخوه أندراوس شبكةً كبيرة، في اليمّ، ولمّا سحبوها كانت من الامتلاء بحيث أخذت تتمزّق، فاستنجدوا برفاقهم في السفينة الأُخرى؛ وألقوا الشباك ثانية، ولمّا سحبوها، كانت، أيضاً، غاصّةً بالأسماك.

و أشاد سمعان وأندراوس والآخرون بالمعجزة، وأعربوا عن شكرهم ليسوع الذي دانوا له بتلك الحظوة. وارتمى سمعان، ذو الفطرة الجيّاشة، عند قدمي ضيفه، هاتفاً: "ابتعد عنّي، ياربّ، فإنّني خاطئ، ولا أستأهل أن أستضيف بارّاً في سفينتي ". ولكنّ يسوع ابتسم وقال : " تعالَ معي، وآمن بأقوالي، فأجعل منك صيّاد بشر ".

و عندما عادوا، وسحبوا السفينة إلى اليابسة، ترك الأخوان سمعان وأندراوس شباكهما، وتبعا يسوع. وبعد أيّام قليلة، رأى يسوع أخوين آخرين : يعقوب ويوحنّا، ابني زبدا، وكانا شريكين لسمعان. وفيما كانا يُعدّان شباكهما، دعاهما يسوع، فودّعا، هما أيضاً، أباهما ورفاقهما، وتبعاه.

ما عاد يسوع وحيداً، إذ بات زوجان من الإخوة، الذين اكتسب إخاؤهما عمقاً، بفضل الإيمان المشترك، متأهّبين لمواكبته، حيثما شاء المضيّ، ولا قتسام خبزه، ونشر كلامه، وإطاعته إطاعتهم لأب، بل لأفضل من أب. أربعة من صيّادي البحيرة المساكين، أربعة رجالٍ بسطاء يجهلون القراءة، ويتكلّمون كلاماً بسيطاً، متواضعون، لم يميّزهم، يوماً، أَحدٌ،عن سواهم، استدعاهم يسوع لكي يؤسّسوا معه ملكوتاً سيغشى المسكونة كلّها. وهم، من أجله، هجروا سفنهم التي طالما دفعوها إلى الماء، وطالما ربطوا فلسها، ومن أجله هجروا شباكهم وقففهم التي التقطوا بها ملايين الأسماك، وهجروا ذويهم، وبيوتهم، وأُسَرهم، وكلّ شيء، لكي يسيروا في إثر من لم يكن يعِدُهم لا بمالٍ ولا بأرض، ولم يكن يتحدّث إلاّ عن الحبّ، والفقر، والكمال.

ومع أنّ فكرهم ظلّ غليظاً، وبعيداً عن بلوغ مستوى فكر المعلّم، ومع أنّهم ارتابوا، أحياناً، في كلامه، أو لم يدركوا مغزى أمثاله، ومع أنّهم، في الساعات الحرجة هجروه، إلاّ أنّ كلّ ذلك غُفِر لهم، إكراماً لاندفاعهم البريء الواثق الذي، به، استجابوا للدعوة الأولى.

من منّا، أبناء اليوم، كفيلٌ بالسلوك على غرار شبّان كفرناحوم الفقراء الأربعة أولئك؟ فلو وافى نبيٌّ وقال لتاجر : دع عنك متجرك وصندوقك؛ أو قال للمعلّم : انحدر عن منصّتك، وأحرق كتبك؛ أو قال للوزير : تخلَّ عن مركزك وأكاذيبك؛ أو قال للعامل دع، جانباً، أدواتك، فأنا سأوفّر لك عملاً آخر؛ أو قال للفلاّح: دع محراثك في الثلم الذي شرعت بشقّه، وأَنا أعدك بغلّة أكثر روعة؛ أو قال لمن يقود آلة: أوقف آلتك واتبعني، فالروح خير من المعدن؛ أو قال للغنيّ : وزّع أموالك وأَنا سأجعلك مالكاً لخيراتٍ لا تُحصى؛ لو أنّ نبيّاً حدّثنا جميعاً على هذا النحو، فكم منّا كانوا سيسيرون في إثره، بمثل التلقائيّة البسيطة التي اتّبع بها صيّادو طبريّة يسوع ؟ غير أنّ يسوع لم يستدعِ تجّاراً يعقدون الصفقات في الساحات العامّة، ولا قوماً مفرطي التقوى يحفظون، عن ظهر قلبهم، أصغر آيات التوراة؛ ولا فلاّحين شديدي التعلّق بأرضهم وبدوابّهم، ولا، بالحريّ، الأغنياء المتخمين الذين لا يأبهون بملكوتٍ آخر، فملكوتهم قد رسّخوه، منذ زمنٍ بعيد.

لم يختر يسوع رفاقه الأوائل، اعتباطاً، من بين الصيّادين. فالصيّاد الذي يُمضي شطراً كبيراً من أيّامه في عزلةٍ بحريّة، هو رجلٌ يجيد الانتظار. إنّه الرجل الصبور غير المستعجل الذي يلقي شبكته ويسلم للّه أمره. إنّ للبحيرة نزواتها، والأيّام المشؤومة تلي، فيها، الأيّام الطيّبة. والصيّاد قد يعود منها بسفينةٍ مثقلة، وقد لا يصيب سمكةً واحدة يشويها لعشائه. إنّه لا يعرف لجهده نتيجة، ومع ذلك يمضي؛ إنّه بين يدي اللّه الذي قد يعطي أو قد يمسك؛ وعزاؤه عن أيّام الخيبة هو ترقّبه ليومٍ أفضل آتٍ؛ وهو لا يتوقّع من غنائمه ثراء، بل حَسْبه أن يستبدل

بنتاج صيده شيئاً من الخبز والخمر. إنّه طاهر النفس والجسد؛ يغسل يديه بالماء، ويغسل فكره بالعزلة.

من هؤلاء الصيّادين الذين كان من شأنهم أن يقضوا نحبهم، في الخفاء، مُغفَلين، ولا يدري بشأنهم سوى جيرانهم في كفرناحوم، استنهض يسوع قدّيسين ما انفكّوا يعيشون اليوم في ذاكرة البشر وفي صلواتهم. إنّ من بلغ قمّة العظمة يستفزّ عظماء، ومن شعبٍ غافٍ يستفزّ موقظين، ومن قومٍ مترهّلين يستفزّ محاربين، ومن قومٍ جهلاء يستنهض معلّمين. لقد كانت، أبداً، النار تشبّ بيد من يُجيد إضرامها...

لم ينشُد يسوع محاربين يقتلون الناس، ويحتلّون الأراضي. وكان على تلاميذه أن يجاهدوا الجهاد الحسن: جهاد الكمال في مواجهة الفساد، والقداسة في مواجهة الخطيئة، والصحّة في مواجهة المرض، والروح في مواجهة المادّة، والمستقبل في مواجهة الماضي العقيم؛ وكان عليهم مساعدة يسوع في نشر رسالة الفرح إلى المحزونين، وجَوْب الأماكن التي لم يستطع زيارتها بنفسه، ناشرين كلامه؛ وباسمه سيتابعون عمله، بعد مماته.

الجبل

عظة الجبل هي أعظم حجّة تولي البشر حقّاً بالوجود، وتولي الإنسان حقّ الحضور في الكون اللامتناهي. حسبنا بها تبريراً، فهي براءة كرامتنا ككائنين مزوّدين بنفس، وضمان قدرتنا على تجاوز ذواتنا، وتخطّي بشريّتنا، وهي الوعد بهذه الإمكانيّة القصوى، بهذا الرجاء، بهذا التسامي.

لو أنّ ملاكاً وافانا من عالمٍ علويّ، واستوضحنا عن أفضل وأثمن ما نملك، عمّا يثبت واقعنا، عن رائعة الفكر في أسمى قدراته، لما أريناه آلاتنا، تلك المعجزات الميكانيكيّة التي نستمدّ منها كبرياء حمقاء، مع أنّها استعبدت حياتنا، وزادتها لهاثاً، ومع أنّها ليست سوى مادَّة في خدمة المادّة، بل لقدّمنا له عظة الجبل، وفقط بعدها، بضع مئات الصفحات المنتزعة من شعراء جميع الشعوب. بيد أنّ "العظة" تبقى، أبداً، هي الماسة الوحيدة، والسنى الشفّاف، والضياء الصافي، وسط وضاعة ألوان الزمرّد والياقوت.

و لو استُدعي البشر أمام محكمةٍ علويّة، وطُلب منهم، أمام القضاة، أداء الحساب عن أخطائهم التي لا تكفير عنها، عن دناءاتهم القديمة والمتجدّدة في كلّ يوم، عن المجازر الدهريّة، عن كلّ الدم المسفوك، عن كلّ الدموع التي سكبها أبناء البشر، عن قسوة قلبنا، وخبثنا الذي لا يضاهيه، ربّما، سوى وهننا، لما أدلينا، أمام تلك المحكمة، بحجج الفلاسفة

الحكيمة والمُحكمة الاستنتاج، ولا بعلومنا، تلك الأنظمة السريعة الزوال، القائمة على وصفاتٍ ورموز، ولا بشرائعنا، تلك التسويات المشبوهة بين الشراسة والخوف. لا، بل، في مقابل كلّ الشرور، وفي دفعةٍ على حساب دَيننا، في اعتذارٍ عن ستّين جيلاً من التاريخ المريع، وبمثابة سببٍ وحيدٍ مخففٍ من تبعات جرائمنا، لن يسعنا أن نقدّم سوى بضع آيات من عظة الجبل.

من قرأها مرّة، ولم يشعر، ولو في فترة قراءته الوجيزة، برعشة شكرٍ وحنان، أو لم تختلج في حلقهِ رغبةٌ في البكاء، أو لم يساوره قلق حبٍّ وندم، وحاجةٌ مبهمة، ولكن حارقة، لعمل شيءٍ لكيلا تظلّ هذه الكلمات كلماتٍ فحسب، ولكيلا يظلّ الخطاب مجرّد ضجّة وإشارة، بل أن يتحوّل إلى أملٍ وشيك التحقيق، وإلى حياة كلّ حيّ، إلى حقيقةٍ ماثلة، حقيقة أبديّة. من قرأها مرّةً واحدة ولم تخالجه هذه المشاعر كلّها، يستأهل أكثر من أيٍّ سواه، عطفنا، فحبّ البشر أجمعين لن يعوّضه عمّا فقد.

الجبل الذي ألقى منه يسوع عظته كان أقلّ ارتفاعاً من الجبل الذي كشف له إبليس من قمّته، ممالك الأرض. ولم يكن المنظر يمتدّ منه إلاّ إلى الريف المضطجع تحت شمس المساء المداعبة، وإلى البحيرة البيضاويّة الشكل، حيث امتزج اللون الأخضر بالفضّيّ، وإلى قمّة الكرمل المديدة حيث قضى النبيّ إيليّا على خدّام البعل. ولكن، من هذه التلّة الوضيعة التي لم تصبح جبلاً إلاّ بفضل مغالاة المؤرّخين، من تلك الهضبة التي يكاد لا يبدو لها ارتفاع، أظهر يسوع الملكوت الذي لا نهاية له ولا تخوم، ودوّن في صميم القلوب، لا على حجر، كما فعل يهوه، نشيد الإنسان الجديد،، نشيد العبور المنتصر إلى ما يتخطّى البشريّ. "ما أجمل أقدام الذي، على التلال، يعلن السلام ويبشّر به". لم يكن، يوماً، أشعيا نبيّاً مثلما كان لحظة تفجرّت هذه الكلمات من نفسه.

طوبى للفقراء

كان يسوع جالساً على هضبة وسط تلاميذه الأوّلين، يحيق به جمع، والعيون كلّها محدّقة في عينيه. واستفسر أحدهم عمّن سيرث ملكوت السماوات الذي غالباً ما يتحدّث عنه.

وأجاب يسوع بالتطويبات التسع، التي تمثّل أعمدة العظة "المتألّقة بالصاعقة ".

هذه التطويبات التي ما انفكّ يردّدها، اليوم، من فقدوا معناها، غالباً ما هي غير مفهومة، ومشوّهة، ملوّثة، محطّمة، ملويّة، مع أنّها تختصر اليوم الأوّل، يوم عيد تعليم المسيح.

"**طوبى للفقراء بالروح، فإنّ لهم ملكوت السماوات** ".

الإنجيليّ لوقا أغفل عبارة " بالروح "، واقتصر على ذكر الفقراء فحسب، ونهج كثيرون نهجه. ثمّ اقترح بعض الحديثين الخبثاء استبدال لفظة "الفقراء" بلفظة "البسطاء"، ويعنون بهم الواهني الذهن، ولكأنّ علينا الخيار بين المُعدَمين والمخبولين.

و لكنّ يسوع لم يقصد لا هؤلاء ولا أولئك. لم يكن يحبّ الأغنياء، وكان يبغض، بكلّ نفسه، الجشع إلى المال، فهو الحاجز الأوّل دون اغتناء النفس. وكان يحبّ الفقراء، ويعزّيهم، لأنّهم يفتقرون إلى العزاء؛ وكان يدنو منهم، لأنّهم، أكثر من سواهم، في حاجةٍ إلى من يدفئهم؛ وكان يحدّثهم لأنّهم يفتقرون إلى كلمات الحبّ؛ ولكنّ يسوع لم يكن من الحمق بحيث يعتقد أنّه حَسْب المرء أن يكون فقيراً ماديّاً، دنيويّاً، اجتماعيّاً، لكي يستحقّ سعادة الملكوت الإلهيّ.

و لم يبدِ يسوع، يوماً، إعجاباً بالفكر الذي ليس سوى تصوّراتٍ عقليّة، وذكرياتٍ لفظيّة. ولم يكن من شأن المنظّرين الماورائيّين، وباني الأنظمة الفلسفيّة، والسفسطيّين، والمنقّبين عن الطبيعة، وملتهمي الكتب، أن يجدوا حظوة لديه. غير أنّ الإدراك، أي القدرة على استيعاب دلالات المستقبل ومغزى الرموز– إدراك المستنير والنبيّ، أي عناق الحقيقة بحبّ – فكان يرى فيه نعمةً، وغالباً ما نعى على مستمعيه وتلاميذه افتقادهم لـه. الفهم الأسمى، في نظره، هو إدراك أنّ ذكاء العقل وحده لا يكفي، وأنّ تحوّلاً كلّيّاً في النفس لا بدّ منه لأجل الظفر بالسعادة، وأنّ ذكاء العقل هو إحدى وسائل هذا التحوّل الكلّيّ. ولم يكن بوسعه أن يدعو البلاهة والغباء إلى فرح ملكوت السماوات.

فقراء الروح، إذن، هم من يعون، وعياً تامّاً ووجيعاً، فقرهم الروحيّ، ونأيهم عن الكمال النفسيّ، وقلّة الخير في داخلنا، والإملاق الأخلاقيّ الكامن في معظم البشر. وحدهم الفقراء الذين يعون فقرهم يتألّمون منه، ويحاولون الانعتاق منه. وما أبعدهم عن الأغنياء المزيّفين، الذين يدّعون كمالاً لا يشوبه نقص ولا يحتمل مزيداً، ويعدّون ذواتهم مرضيّين لدى اللّه والبشر، فلا تساورهم رغبة في تسنّم قمّة يعتقدون أنّهم بلغوها، ولن يغتنوا أبداً لعجزهم عن سبر عمق فقرهم!

أولئك الذين يقرّون بفقرهم، ويتألّمون جاهدين في سبيل الظفر بالثروة الحقيقيّة المتمثّلة في الكمال، سيصبحون قدّيسين على غرار قداسة اللّه، وسيكون ملكوت اللّه لهم.

أمّا الذين، على نقيض ذلك، يبدون راضين عن ذواتهم، فلن يلحظوا أبداً القذارة التي يخفيها معطف كبريائهم، ولن يجتازوا عتبة الملكوت.

"**طوبى للودعاء فإنّهم سيرثون الأرض**": هذه الأرض الموعودة ليست حقلاً يُحرَث، ولا مملكة تنتصب فيها المدن. ففي لغة المسيح إرث الأرض يعني المساهمة في الملكوت

الجديد. على الجنديّ الذي يجاهد في سبيل أرضٍ أرضيّة أن يكون شرساً. أمّا من يندرج الصراع في داخله، من أجل غزو الأرض الجديدة والسماء الجديدة، فلا يستسلم للغيظ الذي يدفع إلى الشرّ، ولا إلى القسوة التي تنفي الحبّ. الوداعة هي احتمال جوار الأشرار، وجوار الشرّ في داخلنا الذي قد يكون أدهى. هي إيجاد السبيل إلى قهر الشرّ بالحلم والوداعة، مع تجنّب الثورة على الأشرار؛ هي كبح سورة الغضب لدى أوّل صدامٍ أو معاكسة وهي السيطرة على الذات في تصميمٍ هادئ ينمّ عن قوّة شكيمةٍ، أكثر ممّا تفعله سورات الهياج المباغتة العقيمة؛ إنّها تحاكي الماء العذب الملمس، والذي ينفرج لاستقبال أيّ شيء، ولكنّه يصعد رويداً رويداً، ويجتاح كلّ شيء بصمت، وفي هدوءٍ يدمّر، بفضل جهده الصبور، أعتى الصخور.

" **طوبى للباكين فإنّهم يُعزَّوْن** "

الحزانى الذين يشمئزّون من ذواتهم، ويرأفون بالعالم، الذي لا يعيشون في نشوة الحياة المجتمعية البليدة والتافهة، الذي يبكون افتقادهم وافتقاد إخوتهم للسعادة، والذين يندبون الجهود العقيمة، والمحاولات الفاشلة، والعمى الذي يؤخّر انتصار النور (فنور السماء لا ينفذ إلى البشر إلاّ إذا عكسته عيونهم)؛ الذين يؤلمهم غياب ذلك الخير الذي طالما حلموا به، ووُعدوا به، والذي تقصيه عنّا، أكثر فأكثر، خطايانا، جميعاً؛ الذين يتوجّعون من الإهانات التي يتلقّونها، ولكنّهم لا يضاعفون آلامها باللجوء إلى الاثّئار؛ الذين ينتحبون للشرّ الذي اقترفوه، وللخير الذي كان من شأنهم فعله لو كانوا أقلّ تخاذلاً؛ الذين لا يفجعهم فقدان كنزٍ مرئيّ، ولكنّهم يتطلّعون، بقلق، إلى الكنز غير المنظور؛ دموع هؤلاء الباكين تعجّل التحوّل، ومن العدل أن يصيبوا العزاء، يوماً.

"**طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنّهم سيرتوون**". البرّ الذي يعنيه يسوع ليس عدل البشر، والخضوع للشرائع البشريّة، والتوافق مع القوانين، واحترام العادات والتقاليد الراسخة، بل إنّ البارّ، في لغة أصحاب المزامير والأنبياء، والقدّيسين، هو من يحيا وفقاً لمشيئة اللّه، المثال الأسمى لكلّ كمال؛ لا وفق الشريعة التي دوّنها الكتبة، وأذابتها الاجتهادت التلموديّة، ولفّتها بالغموض تأويلات الفرّيسيّين؛ بل وفق الشريعة الوحيدة والبسيطة التي اختزلها يسوع في وصيّةٍ واحدة: أحبّوا البشر أجمعين، القريبين والبعيدين، المواطنين والغرباء، الأصدقاء والأعداء. إنّ الذين يضنيهم تطلّعهم المستمرّ إلى هذا البرّ، سيرتوون عندما يحلّ الملكوت. ولو لم يبلغوا الكمال كلّه، فسيُغفر لهم الكثير بسبب آلامهم.

" **طوبى للرحماء فإنّهم سيُرحمون** " : من أَحبّ أُحِبّ، ومن أَغاث أُغيث. إنّ شريعة العين بالعين، التي ألغاها يسوع في ميدان الشرّ، ما انفكّت صالحةً في مضمار الخير. إنّنا، نقترف، في كلّ ساعة، خطايا بحقّ الروح، وهذه الخطايا ستُغفر لنا إن نحن غفرنا لمن يخطئون بحقّنا. إنّ المسيح موجودٌ في البشر أجمعين : وما نفعله لهم، سيُفعل لنا. "ما تفعلونه للأصغر من إِخوتي، فلي ستفعلونه ". عندما نرأف بالآخرين، نرأف بذواتنا، وعندما نصفح للآخرين عمّا ألحقوه بنا من ضرّ، فالله سيصفح لنا عمّا ألحقناه نحن بأنفسنا.

" **طوبى لأنقياء القلب فإنّهم سيعاينون اللّه** ". طاهرو القلوب هم الذين لا رغبة لهم إلاّ في الكمال، ولا فرح لهم إلاّ في قهر الشرّ. هم اليقظون أبداً. أمّا الذي يفيض قلبه رغباتٍ حمقاء، ومطامعَ أرضيّة، وأمجاداً جسديّة، وشتّى صنوف الملذّات التي تتلوّى، في ثناياها، ديدان الفساد، فلن يرى، أبداً، وجه اللّه، ولن يعهد، أبداً، عذوبة التلاشي في عظمته.

"**طوبى لصانعي السلام، لأنّهم سيُدعون أبناء اللّه**". ليس صانعو السلام هم "الودعاء" الذي وُجّهت لهم التطويبة الثانية، الذين لا يردّون على الشرّ بالشرّ؛ بل هم الذين يحملون الخير إلى معقل الشرّ، ويأتون بالسلام إلى حيث تسود الحرب. عندما قال يسوع إِنّه جاء بالحرب لا بالسلام، إنّما كان يعني الحربّ على الشرّ، على إبليس، وعلى العالم. وبما أنّ الشرّ إهانة، وإبليس سفّاح، والعالم ساحة وغى دائمة، فقد جاء يسوع ليشنّ حرباً على الحرب.

و كذلك صانعو السلام هم من يعلنون حرباً على الحرب؛ ويحلّون السلام والوئام والمصالحة. أصل كلّ حرب هو حبّ الذات، الذي يتحوّل حبّاً للثروات، وكبرياء الامتلاك، وحسداً لمن يملك أكثر، وبغضاً للمنافسين؛ في حين أنّ الشريعة الجديدة تعلّم بغض الذات، وازدراء الخيرات التي يمكن قياسها، وحبّ كلّ موجود، حتّى الذين يبغضوننا. المسالمون هم الذي يعلّمون هذا الحبّ ويمارسونه، ويجتثّون جذور كلّ حرب. فعندما يحبّ كلّ فردٍ إخوته أكثر من حبّه لنفسه، لن تبقى حروب، لا كبيرة ولا صغيرة، لا أهليّة ولا أمبرياليّة، لا بالكلام ولا بالأيدي، لا بين أفراد، ولا بين طوائف، ولا بين شعوب. فمن شأن صانعي السلام أن يرسّخوه في الأرض. ولذلك سيدعون بحقّ أبناء اللّه الشرعيّين، وسيكونون طليعة الداخلين إلى ملكوته.

" **طوبى للمضطهَدين من أجل البرّ لأنّ ملكوت السماوات لهم** ". إنّني انتدبكم لتأسيس ملكوت البرّ السماويّ الأسمى، ملكوت الحبّ، وملكوت العطف الأبويّ الذي يدعى اللّه. ومن ثمّ، فإنّي مرسلكم لمحاربة أعوان الظلم، وخدّام المادّة، وأنصار إبليس، وهؤلاء سيقاومون،

وسيهاجمونكم دفاعاً عن ذواتهم، فتُسامون العذاب في جسدكم وفي نفسكم، وستُحرمون من الحرّيّة وقد تُحرمون الحياة. ولكن إن ارتضيتم أن تتألّموا بفرح لكي تحقّقوا العدل للآخرين، فسيكون الاضطهاد، لكم، حجّةً لا تقاوَم لولوج الملكوت الذي أسهمتم في بنائه.

" **طوبى لكم إذا أهانوكم، واضطهدوكم، وافتروا عليكم كلّ سوء، من أجلي. افرحوا وابتهجوا، فإنّ أجركم عظيم في السماوات. إنّهم هكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم** "

قد يكون الاضطهاد مادّيّاً وجسديّاً، أو قد يكون قضائيّاً وسياسيّاً. قد تُحرَم الخبز، ونور النهار، والحرّيّة الإلهيّة، وقد تُحطّم عظامك. ولن يكتفوا بذلك، بل سيلحقون به الافتراء والشتيمة.

الذين يتمرّغون في البهيميّة، وهم عازمون على عدم التخلّي عنها، لن يقتصروا على إدانتكم لأنّكم تبتغون أن تجعلوا منهم قدّيسين، ولن يكفيهم تمزيق أجسادكم، بل هم سيتصدّون لنفوسكم، وسيتّهمونكم بكلّ فساد، وسيرجمونكم بالإهانات والمخازي؛ بحيث تراكم الخنازير قذرين، والحمير جاهلين؛ وستتّهمكم الغربان بالتهام الجِيَف، وستنفر التيوس من رائحتكم الكريهة. وسيستنكر المنحلّون فضائح فسقكم، واللصوص سرقاتكم. ولكن على فرحكم أن يتضاعف من جرّاء ذلك، لأنّ شتيمة الأشرار هي تكريسٌ للصالحين، والحمأة التي يرشقكم بها القذرون هي تأكيدٌ لطهركم. وفي ذلك يكمن الفرح الكامل، حسبما يؤكّد القدّيس فرنسيس الذي قال: "من جميع النعَم التي يسبغها المسيح على أصدقائه، أسماها هي قهر الذات، واحتمال الشدائد، والإهانات، والخزي والآلام، بتقبّلٍ ورضى. إذ لا يسعنا أن نفخر بأيٍّ من هبات اللّه الأُخرى، فهي منه، ولا فضل لنا فيها. أمّا بالمحن والمصائب، فنستطيع أن نفخر، لأنّها منّا ". جميع الأنبياء، في الماضي، شتمهم الناس، وهكذا سيكون مصيرهم في المستقبل. وبذلك سنتعرّف النبيّ : عندما يسير وقد كسته الحمأة، ولاحقته الشتيمة، ومحيّاه يشعّ سعادة، وجرأته في الكلام تتعاظم وفقاً لوحي قلبه. فالحمأة عاجزة عن إغلاق شفاه من يتوجّب عليه الكلام، وحتّى عندما يغتاله الناس، لن يُلجِئوا إلى الصمت ذلك المزعج العنيد، فصوته الذي يضاعف الموت أصداءه، سيدوّي في جميع اللغات، وفي جميع الأجيال.

بهذا الوعد تُختَتم التطويبات.

لقد وُجد مواطنو الملكوت واتّضحت هويّتهم للجميع، وبوسع كلّ فردٍ تعرّفهم، وقد أُنذر المخالفون، وشُجّع الخجولون.

إنّ الأغنياء، والمتكبّرين، والراضين عن أَنفسهم، والعنيفين، والظالمين، والمحاربين، الضاحكين، الذين لا ينتابهم جوعٌ إلى الكمال، الذين يضطهدون ويهينون، لن يلجوا ملكوت السماوات، حتّى يصبحوا، هم أنفسهم، مغلوبين، وحتّى يتحوّلوا إلى نقيض ما كانوا عليه. الذين

يبدون رافلين بسعادة العالم، ويحسدهم العالم، ويتمثّل ويعجب بهم، هم أبعد، بما لا يُقاس، عن السعادة الحقيقيّة ممّن لا يكنّ لهم العالم سوى البغض والازدراء.

بكلمات الفرح الأولى هذه قلب يسوع التراتبيّات البشريّة، وسيمضي قدُماً في قلب قِيَم الحياة؛ ولن يضاهي أيّ انقلابٍ للقيم انقلابه هو، مفارقةً إلهيّة.

قالب الموازين

... إنّ أعظم وأجرأ من قلب المعطيات رأساً على عقب،هو يسوع. إنّه صاحب المفارقات الأرفع سُموّاً؛ وفي ذلك تكمن عظمته، وجدّته الأبديّة، وشبابه، وسرّ انجذاب كلّ قلبٍ كبير، عاجلاً أو آجلاً، إلى إنجيله.

لقد تجسّد لكي ينتزع البشر من أحضان الضلال والشرّ، ووجد، في العالم، الضلال والشرّ. فكيف لا يقلب حِكَمَ العالم ؟

أَعيدوا قراءة عظة الجبل، تجدوا، في كلّ خطوة، أنّ يسوع يبتغي أن يُعترف بالأدنى على أنّه الأرفع، وأن يصبح الأخير هو الأوّل، بحيث يمسي ما كان منبوذاً ومزدرىً موضع إيثارنا وإجلالنا، وتضحي الحقيقة القديمة مجرّد خطأ...

في وجه الماضي المجمّد الصارم، وفي وجه الطبيعة التي يعنو لها سلوك البشر طائعاً، وفي وجه الرأي العامّ التافه، صرخ بالـ " لا " الأكثر حسماً التي سجّلها التاريخ.

و هو، في ذلك، وفيٌّ لروح شعبٍ رأى، دائماً، في سقوطه، أسباباً لأعظم رجاء. فأكثر الشعوب رسوفاً في أغلال العبوديّة يحلم بالسيطرة على الآخرين، بابن داود؛ والشعب الأكثر عرضةً للازدراء، يشعر أنّه موعودٌ بالمجد؛ والأكثر عُرضةً لعقاب اللّه، يظنّ أنّه المحبوب أكثر من الآخرين؛ والأكثر إجراماً واثقٌ من أنّ الخلاص هو نصيبه، وحده. ولكنّ انّثار الوجدان اليهوديّ المنافي للمنطق، هذا، يصبح، في المسيح، إعادة نظر في القيم ترقى بفعل منطق مبادئه التي تسمو على مبادئ الأرض، إلى إصلاحٍ إلهيّ للمبادئ التي يتعيّن على البشر اتّباعها واحترامها.

اكتشاف يسوع الأوّل هو ما كان بوذا قد اكتشفه، أي أنّ البشر تعساء، جميعهم، مهما بدا عليهم. ولئن كان " سيدارا " قد علّم أنّ إلغاء الألم يتمّ بإلغاء الحياة، إلاّ أنّ يسوع أعلن أملاً من نمطٍ مختلف، أملاً يكتسي من السموّ بقدر ما يبدو غير معقول. فقد رأى أنّ علّة تعاسة البشر هي إخفاقهم في العثور على الحياة الحقيقيّة. ومن ثمّ، ما عليهم سوى التحوّل إلى نقيض ما كانوا، وانتهاج نقيض نهجهم السابق، حتّى يضجّ عيد السعادة على الأرض.

حتّئذٍ استهدى البشر بالطبيعة وبغرائزهم؛ مرتضين، بشفاههم، شريعةً ناقصةً مؤقّتة، وعبدوا آلهة كاذبة، وتخيّلوا العثور على السعادة في الخمرة، والأجساد، والذهب، والقسوة، والسلطة، والفنّ، والحكمة. غير أنّهم لم يفلحوا إلاّ في استثارة الشرّ فيهم، لأنّهم ضلّوا السبيل. فعليهم أن يعودوا أدراجهم، ويغيّروا وجهتهم، وينبذوا ما كانوا يعدّونه خيراً، ويلتقطوا ما قذفوا به أرضاُ؛ عليهم عبادة ما أحرقوه، وإحراق ما عبدوه؛ والتغلّب على الغرائز البهيميّة عوضاً عن إرضائها؛ ومصارعة الطبيعة، عوضاً عن تبريرها؛ وسنّ شريعةٍ جديدةٍ يعيشونها بلا تحفّظ. لقد فاتنا ما كنّا نبحث عنه، فما علينا سوى قلب الحياة الحاضرة، أي تغيير ما في نفوسنا.

إنّنا أبداً تعساء، وفي ذلك الدليل على أنّ تجربة العالم القديم كانت فاشلة، وأنّ طبيعتنا هي عدوّة لنا، وأنّ الماضي على خطأ، وأنّ عيشنا عيشة البهائم، بخضوعنا لغرائزنا البدائيّة التي حاولنا تمويهها بمسحةٍ رقيقةٍ من الإنسانيّة، لن تفضي بنا إلاّ إلى التخبّط في الآلام النفسيّة والقنوط...

إنّ من لم يولد لكي يزحف وسط الديدان، ويلتهم قسطه من الرغام، من لا يملك فقط بطناً ويدين، بل يملك، أيضاً، روحاً وقلباً، ونفساً مرهفة –سيظلّ، من جرّاء ذلك، جريحاً أبداً– لا مفرّ له من معاناة فظاعة البشر. هذه الفظاعة تنقلب، لدى النفوس الجدباء نفوراً وبغضاً، ولكنّها، لدى النفوس الكريمة الغنيّة، تنقلب رأفةً ومحبّة...

ثمّة معضلة واحدة: هل البشر غير مؤهّلين للتغيّر، والتحوّل إلى الأفضل، أو، بالعكس، هل بوسعهم تخطّي بشريّتهم، والترقّي في معارج القداسة، حتّى بلوغ الألوهة؟ إنّ الإجابة على هذا التساؤل لبالغة الخطورة؛ وقلّما وعى أعظم عظماء البشر هذه المشكلة وعياً كاملاً. وقد أيقن كثيرون، وما زالوا موقنين أنّ أشكال الحياة وحدها قابلة للتبدّل، وأنّ الإنسان متمكّن من كلّ شيء ما خلا تغيير طبيعة فكره. سيكون بوسعه الإمعان في إحكام سيطرته على الكون، ومضاعفة ثروته و مداركه، بيد أنّ تركيبه الأخلاقيّ لن يتبدّل. وستظلّ مشاعره وغرائزه البدائيّة هي، هي، إلى الأبد، أي مثلما كانت لدى ساكني الكهوف، ولدى باني مدن أكواخٍ فوق المستنقعات، لدى العصابات البدائيّة، والممالك الغابرة.

هناك من يستفظعون، بالقدر نفسه، إنسان الماضي وإنسان الحاضر، ولكنّهم قبل أن يتردّوا إلى قنوط العدميّة، يتخيّلون ما قد يستطيع الإنسان أن يكون، ويؤمنون إيماناً راسخاً بقدرة النفوس على الترقّي إلى الأفضل، ويلقون سعادتهم في الإضطلاع بالمهمّة السامية والرهيبة، مهمّة توفير السعادة لإخوتهم .

ما من خيارٍ آخر: غمّ لا عزاء له، أو إيمان موغلٌ في الجسارة . الموت أو الإنقاذ.

إن كان الماضي فظيعاً، والحاضر منفّراً، فلنبذل حياتنا كلّها، وكلّ طاقاتنا وتفهّمنا، لكي يكون المستقبل أفضل، والغد سعيداً. وإن كنّا، حتّى الآن، قد ضللنا السبيل، وبؤسنا هو، على ضلالنا، الدليل، فلنسعَ في سبيل ولادة إنسانٍ جديد، وحياةٍ جديدة. ففي ذلك يثوي النور الوحيد. فإمّا أن يُحرم البشر السعادة، حرماناً مبرماً، أو، كما يعلّم يسوع بإصرار، إن كانت السعادة هي قدَر البشر المشترك والأبديّ، فلا بدّ من أداء ثمنها : تغيير النهج، والتحوّل، وخلق قِيَمٍ جديدة، وإنكار القِيَم القديمة، إعلان " لا " القداسة في وجه " نَعَم " العالم الخدّاع. وإن كان المسيح قد ضلّ السبيل، فلا يبقى لنا سوى النفي الشامل المطلق، والفناء الطوعيّ. فإمّا إلحادٌ بلا تحفّظ، بعيدٌ عن تشكّك عصرنا المشوّه المرائيّ، أو إيمانٌ فاعل في يسوع المسيح الذي يخلّص، ويبعث من الموت، بالحبّ.

لقد قيل ...

تاريخ البشريّة هو تاريخ تعليم، تاريخ صراعٍ بين العدد الضئيل القويّ بفكره، والعدد الكبير القويّ بكتلته. تاريخ تربيةٍ متجدّدةٍ دائماً، تربيةٍ صعبة، تُفرض قسراً، وغالباً ما تُرفض؛ تُنسى وتُذكّر باطّراد.

الأنبياء الأوّلون، وأقدم المشرّعين، ورعاة الأُمم الناشئة، والملوك مؤسّسو المدن، وأساتذة العدل، والمعلّمون الحكماء القدّيسون، قد شرعوا، منذ القدم، بترويض البهيمة. أقوالهم، الملفوظة أو المحفورة، دجّنت البشر الذئاب، وصدّت البرابرة، وثقّفت الأطفال الشائبين، وأكسبت الشرسين رقّة، وليّنت العنيفين واللاإنسانيّين. برقّة الكلمات، أو التخويف من العقابات، بوعودٍ صادرة عن آلهة السماوات، وبتهديداتٍ من قوى سفليّة، تمكّن أورفيوس، ودراكون، وأضرابهم، من تقليم الأظافر، ومن فرض الكمّامة واللجام على الأشداق الضارية، ومن حماية الضعفاء، والضحايا، والمسافرين، والنساء.

الشريعة القديمة التي تكاد تكون هي نفسها في الـ "مانافا ذارماساسترا" والتوراة و"تا-هيو" والـ "أفيستا"، وفي تقليد "سولون" و"نوما"، في حِكم "هيزيودس" والحكماء السبعة، هي محاولةٌ أولى، ناقصة، بدائيّة، وغير كافية، من أجل استخلاص مشروعٍ، أو مبدأ، أو صورةٍ للإنسانيّة، من الحيوانيّة الدنيا.

هذه الشريعة كانت تقتصر على بضع محظورات بدائيّة: مثل حظر السرقة، والقتل، والحنَث بالعهد، والفسق، وسحق الضعيف، والقسوة المفرطة حيال الغريب والعبد؛ إنّها القواعد

الأكثر أساسيّة لجعل حياة الجماعة ممكنة. إذ يكتفي المشرّع بالحدّ من عدد الجرائم الأكثر شيوعاً، ولذلك يقتصر على الحدّ الأدنى من الممنوعات، وقلّما يتخطّى هدفه عدلاً تقريبيّاً.

و لكنّ الشريعة تفترض، قبلها، وإزاءها، هيمنة الشرّ، وسيادة الغريزة. وكلّ قاعدة تفترض المخالفة، وكلّ معيار يفترض ممارسةً مناقضة. ومن ثمّ فالشريعة القديمة، الشريعة الأوّليّة، ليست أكثر من سدٍّ واهٍ في وجه بهيميَّةٍ أبديّة، منتصرة، أو من مجموعة تسويات، وأنصاف تدابير بين التقليد السائد والعدل، بين الطبيعة والعقل، بين البهيمة الجامحة، والنموذج الإلهيّ.

إنّ رجال الأزمنة الغابرة، الرجال الجسديّين، البدينين، الدمويّين، القصيري القامة، المنيعي البنيان، المكسويّن بالشعر، المضرّجي الوجنات، آكلي اللحم النيّء، مغتصبي العذارى، سارقي القطعان، ممزّقي الأعداء، الجديرين باسم "قاتلي البشر" على غرار "هيكتور"، المحاربين الجياع المنيعين، الذين كانوا يجرّون العدّو القتيل من ساقه، ويلتهمون، بشهيّة، شحوم البقر والخراف، ويشربون الخمرة بالطوس العراض، أولئك الرجال غير المروّضين، المتمرّدين على القانون، كما نراهم في المهاباهارتا والإلياذة، في قصائد أزدوبار، وكتاب حروب يهوه، كانوا مؤهّلين ليصبحوا أشدّ انفلاتاً وشراسة، لولا خوفهم من العقابات ومن الآلهة. في زمن كانوا يقتضون الرأس تعويضاً عن عين، والذراع تعويضاً عن إصبع، وحياة مئة فرد تعويضاً عن حياة فردٍ واحد، بدت شريعة المِثْل بالمِثْل (التي اقتضت عيناً بعين، ونفساً بنفس) انتصاراً بيّناً للكرم والعدل، مع أنّها تبدو لنا، منذ عهد يسوع، مريعة.

بيد أنّ الشريعة كانت غالباً ما تُخالَف أكثر ممّا تُراعى، فالأقوياء يتحمّلونها مُكرَهين؛ وأصحاب السلطة، الموكّلين بالدفاع عنها، كانوا يفلتون من قيودها؛ والأشرار يخرقونها جهاراً؛ والضعفاء يتحايلون عليها. وحتّى لو كانت أُطيعت دائماً وفي كلّ مكان، فهي لم تكن كافيةً لقهر الشرّ الجيّاش أبداً، والذي لا ينفكّ يطفو على السطح، الشرّ الذي يُكبح ولا يُقضى عليه، الذي يُدان ولا يُزال. إنّما كانت الشريعة حدّاً، غير كامل، من طغيان الشراسة الفطريّة.

و كان البشر، المتململون في قيودها، يتظاهرون بالخضوع لها، ويفعلون بعض الخير على مرأى من الجميع، لكي ينعموا بحريّة فعل الشرّ، في سرّهم. كانوا يغالون في الممارسة الحَرْفيّة، كي يمعنوا في خيانة روح الشريعة وجوهرها.

هذا ما كان عليه وضع الشريعة، يوم ألقى يسوع عظته على الجبل، وقد أدرك أنّ الشريعة القديمة التي باتت لا عصب لها ولا قوّة، كانت تغرق في مياه الشكليّة الآسنة، وأنّ على عمل التربية البشريّة الدهريّ أن يُستهلّ من جديد، من أساسه. كان لا بدّ من إزاحة الرماد وكنسه، من أجل إعادة إشعال نار الاندفاع الأصليّ، والعودة بالإنسان إلى مصيره الأوّل، أي إلى تحوّل الروح، وبالتالي، إلى إتمام الشريعة القديمة، الشريعة الجافّة الميتة.

وخير وسيلة لإتمامها، على أكمل وجه، كان المضيّ بها إلى أقصى أشواطها، حتّى المفارقة، وحتّى استبدالها بشريعةٍ جديدة، تُحدث تحوُّلاً حقيقيّاً، صافياً، ذاتيّاً، للطبيعة البشريّة.

ثمّة مقطع من الإنجيل يبدو وكأنّه هدف المسيح الأقصى: "لا تظنّوا أنّني جئت كي أُلغي الشريعة والأنبياء؛ أنا ما جئت لأُلغي بل لأتمّم". بيد أنّ هذا التأكيد الصريح، تليه، لدى الإنجيليّ متّى عينه، فكرةٌ تحدّ منه، لا بل تناقضه جزئيّاً. هذه الفكرة لا نحيط بمعناها الأصليّ، إذ يُسيطر على أذهاننا أنّ شريعة يسوع إن هي إلاّ تتمّة لشريعة موسى: "ما لم تزُل السماء والأرض، لن يزول حرفٌ أو نقطةٌ من الشريعة حتّى تتمّ بكاملها". أي : مثلما يستحيل زوال السماء والأرض، أبداً، فأبداً لن يزول ولو جزء صغير من الشريعة، **ما لم يتحقّق كلّ شيء.** هذه الكلمات الأخيرة نترجمها حرفيّاً، لأنّ فيها مفتاح اللغز.

فكلّ ما يقصد يسوع قوله هو : طالما لم يتحقّق كلّ شيء، أي كلّ ما هو صحيحٌ وحقٌّ في الشريعة القديمة، وطالما لم يُصبح قاعدة حياةٍ ثابتة، وتقليداً أساسيّاً شاملاً، ستظلّ الوصايا القديمة سارية، فهي حدٌّ أدنى، ومن ثمّ، درجة أولى لا بدّ من ارتقائها لبلوغ الشريعة الجديدة. ولكن عندما يتحقّق كلّ شيء، وعندما تصبح الشريعة العتيقة دم دمكم، وعندما تُعلَن الشريعة الجديدة، حينئذٍ لن تعودوا في حاجةٍ إلى تشريعاتٍ قديمةٍ عرجاء؛ يومها ستبطل الشريعة التي عرفتموها حتّئذٍ، وستحلّ محلّها شريعةٌ ساميةٌ عظمى، تخلف تلك، وتنفيها جزئيّاً.

و للفرّيسيّين يعلن يسوع، في حميّا السجال، بعبارةٍ أشدّ وضوحاً: "لقد دامت الشريعة والنبوءات حتّى يوحنّا، ومنذئذٍ تُعلَن بشارة ملكوت السماوات، الذي يُدخل إليه عنوةً "، لا بالعنف، بل بقوّة الكمال الداخليّ الأسمى؛ مع يسوع تُستهلّ الشريعة الجديدة، وتُلغى الشريعة القديمة التي يتّضح نقصها. وعندما يورد يسوع بنود الشريعة القديمة، واحداً فواحداً، يسبقها بكلمات: "قيل لكم"، ويقدّم بديلاً عن الوصيّة التي يقوّضها، أو يطهّرها، بواحدة من مفارقاته، بقوله: "أمّا أنا فأقول لكم... "

مع " أمّا " هذه تُستهلّ حقبةٌ جديدة في تثقيف العالم، وليس ذنب يسوع أنّنا ما زلنا نتلمّس دربنا في إشراقة هذا الصباح.

أمّا أنا فأقول لكم...

"سمعتم أنّه قيل للأوّلين: "لا تقتل"، فإنّ من يقتل يستوجب القضاء. أمّا أنا فأقول لكم: إنّ من غضب على أخيه يستوجب القضاء. ومن قال لأخيه "رقا"، يستوجب حكم المجلس. ومن قال: "يا معتوه"، يستوجب جهنّم النار " (متّى 5 : 21-22)

إنّ يسوع يمضي، مباشرةً، إلى أقاصي الأمور؛ إنّه يرفض حتّى إمكانيّة القتل، ويأبى حتّى فكرة أن يكون إنسانٌ قادراً على قتل أخيه، لا بل حتّى على جرحه. إنّه يأبى نيّة القتل نفسها، معلناً أنّ حتّى سورة غضب واحدة، أو كلمة شتيمة واحدة، أو إهانة، تعادل القتل.

قد يتّهمه أصحاب النفوس الرخوة أو الجبانة بالمغالاة؛ ولا بدعَ في ذلك : فكلّ عظَمة تفترض الهوى والمغالاة. وليسوع منطقه الذي لا يخطئ : فالقتل ليس سوى المرحلة الأخيرة للشعور، إذ ينتقل المرء من الغضب إلى الألفاظ النابية، ومن الألفاظ إلى الضربات، ومن الضربات إلى القتل. فلا يكفي، إذن، حَظْر الفعل النهائيّ، الفعل المادّيّ الخارجيّ، إذ إنّه نتيجة مسيرة داخليّة جعلته محتّماً. ومن الأجدر، بالتالي، اجتثاث الشرّ من جذوره، وإحراق البذرة المرَّة لنبتة الكراهيّة ، التي تؤتي ثماراً مسمومة، منذ انبثاقها...

الغضب كالنار يسهل إخمادها، وهي بعد شرارة، وإلاّ تعذّر ذلك، بعد امتدادها. ومن ثمّ، فبالصواب يدين يسوع الإهانة الأولى بمثل إدانته القتل. إذ عندما يقوى كلّ إنسان على أن يخنق، في داخله، الضغينة، ويمتنع عن الشتيمة، سينتفي كلّ صراع، بالكلمات أو بالأيدي، ويمسي القتل ذكرى بغيضةً قاتمةً للشراسة القديمة.

****

"سمعتم أنّه قيل: "لا تزنِ". أمّا أَنا فأقول لكم إنّ من نظر إلى امرأة نظرة شهوة، فقد زنا بها في قلبه " (متّى 5 : 27 – 28)

هنا، أَيضاً، لا يتوقّف يسوع عند الفعل المادّيّ، الذي يهمّ، وحده، بدائيّي التفكير، بل يرتقي من الجسد إلى النفس، ومن الجسد إلى الإرادة، من المرئيّ إلى غير المرئيّ، ولئن كانت الشجرة تُعرف من ثمارها، فالبذرة تُعرف من الشجرة التي تنبت منها.

العلّة التي يشهدها الجميع، إنّما يشهدونها في مرحلةٍ متقدّمة، عندما تنضج، ويتعذّر شفاؤها. والخطيئة كالدمّل الذي ينفجر بغتة، والذي كان يمكن تفاديه، لو حُرِّر الدم، في الوقت المناسب، من العناصر الخبيثة.

عندما يُغوي رجلٌ زوجة آخر، وتشاركه هي رغبته، فالخيانة تامّة، والزنى مكتمل، وإن لم تُفضِ الرغبة إلى المضاجعة. فالرجل لا يتزوّج، فقط، جسد المرأة بل روحها، أَيضاً: وإن هو فقد هذا الروح، فقد فقد الجوهريّ، وأيّاً كان موجعاً فقدان الباقي، ففقدان الروح هو الأدهى. ومن ثمّ فالمرأة المكرهة، المغتصبة رغم إرادتها وحبّها، ليست زانية. والشأن كلّه هو للإرادة والشعور. فعلى من ابتغى أن يصون طهره، الامتناع حتّى عن الشهوة العابرة الصامتة. فنظرة الشهوة، إن لم تُكبَح، تتكرّر، وتقود إلى نتائج محتومة...

إنّ التفكير بالخيانة، وتخيّلها، والرغبة فيها، هي خيانة : ووحده من يسارع إلى بتر الخيط الأوّل يستطيع النجاة من الشبكة العريضة الماكرة التي تولد من نظرة، والتي لن يقوى، من بعدُ، حتّى الموت، على تقطيعها. لقد نصح يسوع باقتلاع العين وبرميها، إن كان الشرّ يتسرّب عبرها؛ وباقتطاع اليد إن كان الشرّ يأتي منها.هذه النصيحة تُرعب الجبناء، وتُرعب حتّى الأقوياء؛ إنّها منطق المطلق الرهيب. ومع ذلك، فإنّ أشدّ الناس جبناً، عندما تداهمهم الآكلة، لا يتوانون عن نشر ذراع أو ساق، ولا يقاومون فتح بطنهم في سبيل شفائهم من ورمٍ يتكوّن في أحشائهم. يُقدمون على ذلك طوعاً، كي ينقذوا أجسادهم؛ ولكنّهم يستفظعون التضحية، في سبيل سلامة نفسهم، مع أنّ الجسد، في معزلٍ عن النفس، أداةٌ لا طائل تحتها.

****

"سمعتم أنّه قيل للأقدمين: "لا تحنَث، بل أوفِ للربّ بأَيمانك ". أمّا أَنا فأقول لكم، لاتحلفوا البتّة، لا بالسماء، فهي عرش اللّه، ولا بالأرض، فهي موطئ قدميه، ولا بأورشليم، لأنّها مدينة الملك العظيم؛ ولا تحلف، أَيضاً، برأسك، لأنّك لا تقدر أن تجعل شعرةً واحدة منه بيضاء أو سوداء، ولكن ليكن كلامكم نعم، نعم، أو لا، لا، وما زاد على ذلك، فهو من الشرّير".

من يحلف صادقاً هو خائف، ومن يحلف كاذباً هو خائن؛ الأوّل يعتقد أنّ القدرة التي يستشهد بها قد تعاقبه، والثاني محتالٌ يستغلّ إيمان الآخرين كي يمعن في خداعهم. وفي الحالتين كلتَيْهما الحلفان حرام. فعندما نستدعي، نحن الواهنين، سلطةً عليا لكي تشهد لنا وتساعدنا في خلافات مصالحنا الزريّة؛ عندما نُقسم برأسنا ورأس أبنائنا، ونحن عاجزون عن تغيير أدنى جزء من جسدنا، فنحن إنّما نقوم بتحدٍّ أحمق، بل نجدّف. إنّ من يقول الحقّ، لا خوفاً من قوى شرّيرة، بل عن تلقائيّة وتصميم، لا يحتاج إلى قَسَم. فالقسَم لا يفلح في تسريب طمأنينة تامّة حتّى إلى نفوس من يتظاهرون بالاكتفاء به، وقد أظهرت تجارب التاريخ أنّ القسَم يُحنث به أكثر ممّا يُلتزَم به. وأكثر الحانثين هم الذين يُقسمون بأغلظ الأَيمان.

"لقد قيل: "أكرم أباك وأُمّك". وأمّا أَنا فأقول:من أحبّ أباه وأُمّه أكثر منّي فلا يستحقّني". لا بل أقول: "من جاء إليّ، إن لم يبغض أباه، وأُمّه، وزوجته، وإخوته وأخواته، بل حتّى حياته، لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً".

هنا، أَيضاً، تُقوّض، بعنف، الوصيّة القديمة التي تربط الخلَف بالسلَف، بوثاق الاحترام.

لا يدين يسوع الحبّ البنويّ، ولكنّه يعيده إلى مكانه الذي لا يمكن أن يكون الأوّل، كما كان الأقدمون يعتقدون. ففي نظر يسوع، الحبّ الأعظم والأطهر هو الحبّ الأبويّ، إذ إنّ الأب يحبّ في ابنه المستقبل والشباب، في حين يحبّ الابن في أبيه الشيخوخة والماضي. وإنّما جاء يسوع لكي يغيّر الماضي. إنّ إجلالنا لوالدينا، وكلّ ما يسجننا في التقليد، وفي الأسرة، ينهض عقبةً دون تجديد العالم. إنّ حبّ البشر أجمعين أعظم من حبّ من وهبونا الحياة؛ وخلاص جميع البشر أفضل، بما لا يقاس،من خدمة عائلة ضيّقة. ولا بدّ من التضحية بالأقلّ في سبيل الأكثر. إنّه لمن اليسير أن نحبّ ذوينا، وأن نتذرّع بهذا الحبّ الذي غالباً ما يكون قسريّاً أو ظاهريّاً، لتبرير عدم تعاطفنا مع البشر. غير أنّ من كرّس حياته لمهمّةٍ تتخطّاه، وتستدعي كلّ طاقاته وتشغل كلّ وقته حتّى آخر دقيقة؛ ومن توخّى خدمة العالم بروحٍ شامل، عليه التخلّي عن العواطف الشائعة، لا بل إنكارها عند الاقتضاء. ومن توخّى أن يكون أباً، بالمعنى العميق والإلهيّ للكلمة، حتّى في معزلٍ عن الأبوّة الجسديّة، لا يسعه أن يكون ابناً فحسب. "دعوا الأموات يدفنون موتاهم".

الشريعة القديمة (ولا سيّما تقاليد علماء الشريعة) كانت تنطوي على مئات القوانين المتعلّقة بتطهير الجسد. وصايا دقيقة، مملّة، معقّدة، تفتقر إلى أيّ أساسٍ أرضيٍّ أو سماويّ حقّ. غير أنّ الفرّيسيّين كانوا يجعلون من التقيّد بتلك التقاليد خير ما في الإيمان. ولاجرَمَ أن غسل كوبٍ يقتضي قدراً من الجهد أدنى من غسل النفس، فغسل الأشياء الميتة لا يستلزم سوى ممسحة وماء، أمّا تطهير النفس فيقتضي دموع الحبّ، ونار الإرادة.

"ليس ما يدخُل الفم ينجّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هو الذي ينجّس الإنسان"، أما تفهمون أنّ كلّ ما يدخل الفم يذهب إلى الجوف ثمّ يُقذَف في الخلاء. وأمّا ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر، وهو الذي ينجّس الإنسان، إذ من القلب تصدر النيّات الخبيثة، والقتل والزنى والفجور، وشهادة الزور والثلب. ذلك ما ينجّس الإنسان، أمّا الأكل بأيدٍ غير مغسولة فلا ينجّس الإنسان " (متّى 5 : 10 –11 و17 – 20)

الاغتسال الجسديّ والطقسيّ بماء البئر أو النبع لا يعفي من التطهّر الداخليّ الأشدّ ضرورة؛ ومن الأفضل الاطّعام بأيدٍ لوّثها العرق من ردّ أخٍ بأيدٍ غُسِلت ثلاث مرّات.

قذارة الجسد تصبح سماداً للبساتين والحقول، ولكن كم من الناس الحسني الهندام ممتلئون، حتّى حلوقهم، بأقذارٍ تفوح روائحها الكريهة مع كلامهم المتدفّق من فمٍ طالما غُسل! وهذه القذارة لا تسقط في حفرة المراحيض، بل هي تطال بعدواها الهواء، وتلوّث حتّى الأبرياء. فلنناً بأنفسنا عن القوم الموبوئين، حتّى أولئك الذين يغتسلون اثنتي عشرة كرّة في اليوم : فعبثاً يُغسل الجسد بالصابون، طالما كانت الأفكار النابعة من القلب فاسدة. ولا ريب أنّ

من يُفرغ المراحيض، ولا تساوره أفكارٌ شرّيرة، هو ألف مرّة أنظف من الغنيّ الذي يخطّط، وهو غاطسٌ في الماء المعطّر الذي يملأ حوض حمّامه الرخاميّ، لفظاعةٍ أُخرى، أو لفجورٍ جديد.

لا تقاوم أبداً

بيد أنّ أكثر مفارقات يسوع إدهاشاً قوله: "سمعتم أنّه قيل: "عينٌ بعين، وسنٌّ بسنّ". أمّا أَنا فأقول لكم : "لا تقاوموا الشرّير. بل من لطمك على خدّك الأيمن فقدّم له الآخر، أَيضاً. ومن أراد أن يقاضيك لكي يأخذ قباءك، فتخلّ له عن الرداء أَيضاً. ومن سخّرك لميلٍ واحد فامضِ معه ميلين. ومن أراد أن يقترض منك فلا تولِّه ظهرك " (متّى 5 : 38 – 42)

لم يكن ممكناً تقويض شريعة الانتّئار بعبارات أكثر إطلاقاً. وإنّ أغلبيّة الذين يدّعون أنّهم مسيحيّون، لم يكتفوا بالامتناع عن تطبيق هذه الوصيّة، بل أبوا حتّى التظاهر بقبولها. ولقد كان مبدأ عدم مقاومة الشرّ، للعديد من المؤمنين، فضيحةً المسيحيّة التي لا تطاق ولا تُقبَل. هناك ثلاث طرقٍ لا غير للردّ على العنف : الانتقام، والهرب، ومدّ الخدّ الآخر. الطريقة الأولى هي شريعة الذّحل البربريّة، التي ارتقت بها وقنّعتها القوانين، والتي ما زال استخدامها سائداً، إذ يُردّ على الشرّ بالشرّ، بالذات، أو بواسطة مُنتدَبي العصابة المتحضّرة : الحكّام والجلاّدين. وحينئذٍ، يُضاف إلى الشرّ الذي اقترفه المذنب الأوّل، شرٌّ آخر يقترفه منفّذ الحكم. وغالباً ما ينقلب العقاب على المنتقم، وتتمادى سلسلة أفعال الثأر بلا نهاية. الشرّ مؤهّل للارتداد، وهو، حتّى عندما يؤدّى بنيّة سليمة، ينقلب على فاعله. وسواء تعلّق الأمر بأُمم، أو بأُسرٍ، أو بأفراد، تولّد الجريمة الأولى كفّاراتٍ وعقاباتٍ تتوزّع بين مُعتَدين ومُعتدى عليهم، في تساوٍ كارثيّ. وإن كانت شريعة الذّحل توفّر للمصاب الأوّل بعض ارتياح بهيميّ، إلا أنّها، عوضاً عن الحدّ من الشرّ، تضاعفه.

و ليس الهرب بحلٍّ أَمثل. فالعدوّ تتضاعف شجاعته عندما يفرّ خصمه. خشية الانتّئار قد تمسك، أحياناً، يدَ العنيف، غير أنّ من يهرب يدعو خصمه إلى ملاحقته، ومن يتظاهر بالموت يستفزّ عدوّه للقضاء عليه، فيتواطأ العنف مع شراسة الغير، وهنا، أَيضاً، يولّد الشرّ شرّاً.

السراط الوحيد، إذن، رغم ظهوره بمظهر اللامعقول، هو ذاك الذي اختطّه يسوع. فإن صفعك أحدهم، فرددت عليه بصفعتين، لن تلبثا ان تتعاركا، ثمّ يتناول كلٌّ منكما سلاحه، وربّما سيفقد أحدكما حياته، من جرّاء خلافٍ تافه. وإن هربت سيلاحقك عدوّك، وإن هو عثر

عليك، ستشجّعه خبرته على ركلك. في حين أنّ مدّ الخدّ الآخر يحول دون الصفعة الثانية، ويبتر الحلقة الأولى من سلسلة شرورٍ لا مفرّ منها؛ وخصمك الذي كان يتوقّع مقاومتك أو هروبك سينتابه شعورٌ بالمهانة أمامك، وأمام ذاته. لقد كان يتوقّع منك كلّ شيءٍ عدا مدّ خدّك الآخر؛ وستتحوّل حيرته خزياً. سكونك سيجمّد غيظه، وسيفسح له وقتاً للتفكير؛ لن يستطيع اتّهامك بالتحريض، بما أنّك لا تردّ، ولن يستطيع اتّهامك بالخوف، إذ إنّك متأهّب للضربة الثانية، وتدلّه بنفسك إلى حيث يضربك. لدى كلّ إنسانٍ احترامٌ مُبهمٌ لشجاعة الغير، ولا سيّما الشجاعة الأدبيّة الأكثر ندرةً وصعوبة. إنّ المُهان الذي لا يثور ولا يهرب يبرهن عن قدْرٍ من قوّة الشكيمة، والسيطرة على الذات، والبطولة الحقّة، أكثر من ذاك الذي يعميه الغضب فينهال على المعتدي، ويردّ له شرّه مع الربى. إنّ اللاانفعاليّة عندما لا تكون بلاهة، والوداعة، عندما لا تكون جبناً، تُذهلان، مثل جميع الأشياء الرائعة، حتّى أكثر النفوس سماجة، وتجعلان حتّى البهيمة تشعر بأنّ الإنسان الذي يمارسهما هو أكثر من إنسان. وستقف البهيمة، التي لا يستثيرها مقاومة أو هروب، حائرة، خجولاً، بل شبه خائفة، حيال هذه القوّة الجديدة التي كانت تجهلها، والتي تحيّرها وتخزيها.

و لا سيّما أَنّ من يضرب يتوقّع غضب ضحيّته ومقاومتها، ويستثيره طعم الصراع الذي سيولد من هجومه. ولكن إن مدّ المضروب خدّه الآخر، فلا طعم لمتعة، ولا وجود لخصم، ولكنّ هناك كائناً متفوّقاً يقول بهدوء : ألست راضياً ؟ إذن، هاك الخدّ الآخر، فاضرب ما شئت، فخيرٌ لي أن يتوجّع وجهي، من أن تتألّم نفسي. بوسعك إيلامي، ولكنّك لا تستطيع دفعي إلى أن أكون شرساً وهائجاً مثلك؛ ولن تحملني، قسراً، على ارتكاب الشرّ بحجّة أَنّني أُقاسيه.

إنّ اتّباع وصيّة يسوع هذه بحذافيرها يستلزم سيطرةً على الأعصاب، وعلى جميع الغرائز السفلى، قلّ من يتمتّع بها. إنّها واجبٌ عسيرٌ ومنفّر، ولم يدّعِ يسوع، قطّ، أنّه سهل، بل لم يقل إنّه من الممكن الخضوع له في معزلٍ عن تضحيات شاقّة، وصراعاتٍ قاسية ومستمرّة، وعن إنكار آدم القديم فينا، من أجل ولادة إنسان جديد.

ولا غَرْو أنّ ثمار اللامقاومة، حتّى إن لم تفلح دائماً في الانعقاد، وحتّى إن آذنتها عودة الأنواء العاصفة، هي أسمى، بما لا يُقاس، من ثمار المقاومة والهرب. إنّها نموذجٌ لسيطرةٍ روحيّة على جانبٍ كبير من الإدهاش، والاستحالة، وتعذُّر تخيُّل وجودها لدى عامّة البشر؛ إنّها تنطوي على جاذبٍ فائق الطبيعة ينبعث من سلوكٍ يخالف، إلى حدٍّ بعيد، أهواءَنا وعاداتنا؛ أيُّ مثال، أيُّ مشهد قوّة، أيّة خارقة لا يحيط بها عقل، وغير متوقّعة مثل كلّ خارقة، يعسر تصديقها مثل كلّ أعجوبة، تكمن في مثال إنسانٍ قدّيسٍ ومنيع، مظهره مظهر إنسان، وموقفه

يكاد يكون موقف إله، موقف إنسان مختلفٍ جدّاً، يسمو كثيراً فوق الآخرين، وفوق القوى التي تحرّك أمثاله

هذا المثال إن هو تكرّر مراراً، ولم يكن ناجماً عن حماقة؛ وإن واكبته دلائل شجاعة جسديّة، عندما تكون هذه الشجاعة ضروريّة لا للإيذاء، بل للخدمة، هذا المثال ينطوي على جدوى يسعنا تخيّلها، مهما كنّا مشبعين بخواطر الانتقام، التي قد نقوى على تخيّلها بجهد، ولكن يتعذّر علينا الشعور بها، لأنّ أمثلةً من هذا النمط هي من الندرة بحيث لا يتسنّى لنا استذكار اختبارٍ، ولو جزئيٍّ ، لها.

و لئن كانت وصيّة يسوع هذه لم تُتّبع إلاّ نادراً، فلا يمكن القول أنّ اتّباعها مستحيل، وبحجّة أَوْلى، لا يسوغ القول بوجوب نبذها. صحيحٌ أنّ الطبيعة البشريّة تنفر منها، ولكنّ هذا هو شأن جميع الفتوحات الخلقيّة الكبرى؛ فهي نتيجة بترٍ صحّيٍّ لجزءٍ من نفسنا، –وأحياناً للبرعم الأكثر حيويّة– ومن الطبيعيّ أن يبعث إنذار النّصل القاطع القشعريرة في الأوصال.

و سواء قوبلت بالرضى أو بالرفض، تظلّ وصيّة يسوع هذه هي الوحيدة الكفيلة بحلّ معضلة العنف، من غير أن تضيف إلى الشرّ شرّاً مضاعفاً مئة ضعف؛ وتحول دون تسمّم الجرح؛ وتستأصل الدمّل وهو بعد بثرة. في حين أنّ الردّ على الضربة بضربة، وعلى الاعتداء باعتداء، فهو انصياع لمبدأ الشرّير، واعتراف بالتمثّل به. أمّا الهرب فهو قبول المهانة، أمامه، ودعوته إلى المطاردة. ومحاولة الردّ بكلمات العقل على سَوْرة غضبه الهوجاء، جهدٌ لا طائل منه. أمّا الردّ بمجرّد موقفٍ صامد، مثل تقديم الصدر لمن يضرب ظهرك، وإعطاء ألفٍ لمن يختلس منك مئة، واحتمال، مدى ثلاثة أيّام، من يرغب في تعذيبك ساعةً واحدة، فإنّما هذا عمل بطولة متميّز، ولئن بدا جبناً؛ وهو خارق القدرة بحيث يستطيع قهر وحشيّة المعتدي بجلال الإلهيّ الذي لا يقاوم.

وحده من قهر نفسه يقوى على قهر العدوّ؛ ووحدهم القدّيسون يحوّلون الذئاب حملاناً وديعة؛ ووحده من غيّر ما في نفسه يستطيع تحويل نفوس إخوته، وجعل حياة الجميع أقلّ إيلاماً.

ضدّ الطبيعة

إنّ طبيعتنا تنفر نفوراً شديداً من لا مقاومة الشرّ. بيد أنّ يسوع هبط عالمنا لكي يجعل طبيعتنا تنفر ممّا هي تستسيغه اليوم، وتحبّ ما كانت تستفظعه بالأَمس. وكلّ كلمةٍ تلفّظ بها تضمّنت هذا التجديد الكلّيّ للروح الإنسانيّ. فهو يعارض، بلا وَجَل، أعمق غرائزنا، وميولنا الأكثر شيوعاً؛ إنّه يمتدح ما نأباه، ويدين ما ينشده الجميع. لا يقتصر على دحض ما يعلّمه

البشر (والذي غالباً ما يختلف عمّا يفكّرون به ويفعلونه) بل يعارض ما يُعملون فيه أفكارهم وما يفعلونه كلّ يوم.

لا يؤمن يسوع بكمال النفس بالسليقة، بل يؤمن بكمالها المستقبليّ، الكمال الذي لن تبلغه إلاّ بقلب الوضع الحاضر قلباً جذريّاً. مهمّته إصلاح الإنسان، لا بل صوغه صوغاً جديداً. معه يولد جنسٌ بشريٌّ جديدٌ هو نموذجه، ومثاله الأسمى، وآدم بشريّةٍ صُهرت وصيغت من جديد. لقد توخّى سقراط إصلاح العقل؛ وموسى ابتغى إصلاح الشريعة، واكتفى آخرون بتعديل طقوس، أو قوانين، أو نظام، أو علم. أمّا يسوع فلم يشأ تغيير جزء من الإنسان، بل تغيير الإنسان كلّه تغييراً كلّيّاً: الإنسان الداخليّ، محرّك ومصدر كلّ قول وفعل، وليس، ثمّة، ما لا يدخل في صميم مهمّته، ولا تتعيّن عليه أيّة مساومةٍ حذرة مع الشرّ، ولا أيّة تسويةٍ مع الطبيعة الناقصة، التي لن يبحث لها، على غرار الفلاسفة، عن تبريرات خدّاعة. إذ لا يمكن خدمة الطبيعة وخدمة يسوع، بل من كان مع يسوع هو خصمٌ للطبيعة البهيميّة القديمة، وعاملٌ في سبيل انتصار الطبيعة الملائكيّة، وكلّ ما سوى ذلك ثرثرة وهباء.

ليس، في ما يُجمع عليه البشر، مثل **شهوة الثروات**. إنّ جمع المال بكلّ الوسائل، حتّى أكثرها دناءةً، قد بدا، دائماً، أكثر المهامّ عذوبةً وتقديراً. غير أنّ من ابتغى اتّباع يسوع عليه التخلّي عن كلّ ما يملك، وارتضاء مبادلة الخيرات المرئيّة الحاضرة بخيراتٍ مستقبليّة غير مرئيّة. والفقر هو الشرط الأوّل للانضمام إلى مواطنيّة الملكوت.

كلّ امرئ يتطلّع إلى الغد بقلق، خائفاً، دائماً، أن تنساب الأرض تحت قدميه، وألاّ يملك من الخبز ما يكفيه حتّى الموسم التالي، ومن القماش ما يكفيه حتّى يلبس هو وأبناؤه. ولكنّ يسوع يقول: لا تقلقوا للغد، فحسب كلّ يوم عناؤه.

كلّ إنسانٍ يودّ أن يتفوّق، حتّى بين نظرائه، وأن يكون، بنحوٍ أو بآخر، أرفع ممّن يحيطون به؛ وأن يأمر، ويسود، ويبدو أكبر، وأغنى، وأجمل، وأحكم. وما تاريخ البشر سوى الخشية من المرتبة الثانية. بيد أنّ يسوع يعلّم: إن شاء أحدكم أن يكون الأوّل، فليكن آخر الجميع وخادمهم. الأكبر هو الأصغر، وعلى الأقدر أن يخدم الأضعف؛ من رفع نفسه اتّضع، ومن اتّضع رُفِّع.

العُجْب هو برَصٌ آخر يجتاح البشر، ويسمّم حتّى الخير، إذ إنّ الخير الضئيل الذي يفعلونه، إنّما يفعلونه، فقط، لكي يستلفتوا أنظار الآخرين. يفعلون الشرّ سرّاً، أمّا الخير فيتظاهرون به في الساحات العامّة. ويسوع يأمر بعكس ذلك: لا تدرينّ يدك اليُسرى بما فعلت يدك اليمنى. وإن ابتغيت الصلاة، فاحتبس في حجرتك، ولا تقرع صدرك في منعطفات الأزقّة، وسط الجمع. وإن صُمت، لا تتجهّم، ولا تتظاهر بالأسى لكي يشهد الجميع أنّك تكفّر؛ بل ادهن شعرك، واظهر باشّ الأسارير، مثلما تكون في سائر الأيّام. لا تفعل الشرّ، لا جهراً

ولا سرّاً؛ ولكن عندما تفعل الخير، افعله في الخفية، لكي لا تبدو وكأنّك تستهدف، من جرّائه، المديح.

غريزة البقـــاء هي من أقوى الغرائز التي تحكمنا، فلا نحجم عن حقارة، أو عنف، أو جبن طالما تعلّق الأمر بإنقاذ قبضة التراب الحيّة التي نتكوّن منها. ولكنّ يسوع ينبّهنـــا: مـــن أراد أن يخلّص حياته، يفقدها، ومن فقدها خلّصها؛ إذ إنّ ما يسمّيه سواد البشر حيـــاةً، لـــيس الحياة الحقّة، ومن تخلّى عن نفسه، فقد جسده أَيضاً.

كلٌّ منّا يودّ **إدانة** إخوته، وبإدانتنا لهم يبدو لنا أنّنا متفوّقون عليهم، وأفضـــل مـــنهم، وأكثر عدلاً. عندما نَتّهم فلكأنّنا نقول: أَنا بريء. وفي الواقع، إنّما يدين الأحدب محنيّ الظهر. ولكنّ يسوع يصيح: لا تدينوا، لن تُدانوا، اغفروا يُغفر لكم.

كلّ إنسانٍ يفخر بأنّه إنسانٌ حقّ يتّسم بالرزانـــة، والنضـــج، والثقافـــة، والاتّـــزان، والاحترام، عالمٌ بكلّ شيء، يجيد التفكير والقرار في كلّ أمر. وقد يُنعَت الخطاب الصادق بأنّه صبيانيّ، والإنسان البسيط يوصف، بازدراء، أنّه ولد. غير أنّ يســـوع، عنـــدما استوضـــحه تلاميذه من هو الأكبر في ملكوت السماوات أجاب: "حقّاً أقول لكم، إن لم تتحوّلوا وتصـــبحوا مثل هؤلاء الأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السماوات".

الرجل الرزين، الوَرِع، الطاهر ينأى بنفسه عن صحبة الخطـــأة، ولا يســـتقبل علـــى مائدته إلاّ الأبرار، أو، أقلّه، من يظنّهم كذلك. ولكنّ يسوع يكرّر، بلا كلَل ولا هوادة، أنّه إنّما جاء باحثاً عن الخطأة، لا عن الأبرار، وعن الأشرار، لا عن الأخيار، ولا يخجل من الجلوس على مائدة جباة الضرائب، ومن قيام بغايا بدهن قدميه بالطيب. فمن كان نظيفاً حقّاً، لا يلوّثـــه أيّ اتّصال، ويأبى أن يدع إخوته يموتون في الفساد، خشية أن يتّسخ.

الناس موغلون في البخل، وكلٌّ منهم يحتال، في سبيل أخذ الكثير وردّ القليل. الجميع يسعون إلى الأخذ، وما مدائح الكرم سوى قناعٍ مهذّب للتسوّل. ولكنّ يسوع يؤكّـــد : العطـــاء خيرٌ من الأخذ.

إنّنا نبغض معظم البشر الذين نعيش معهم، بسبب ما هم عليه، وبسبب ما لا يعطوننا، بسبب قلّة اهتمامهم بنا، واختلافهم عنّا، بل لمجرّد وجودهم. وقد يفضي بنا ذلك إلى أن نبغض حتّى أصدقاءنا، ومن يحسنون إلينا. أمّا يسوع فيأمرنا بأن نحبّ البشر أجمعين، حتّـــى الـــذين يبغضوننا.

ومن لا يطبّق هذه الوصيّة لا يستطيع ادّعاء أنّه مسيحيّ. وحتّى من كـــان مســـتعدّاً للموت، إن لم يحبّ قاتله، لا يستطيع ادّعاء أنّه مسيحيّ. إذ إنّ حبّنا لذواتنا، وهـــو المصـــدر الأوّل والأخير لبغضنا الآخرين، يختزل كلّ ميولنا وأهوائنا. فمن انتصر على حبّه لذاته وعلى بغضه للآخرين قد حقّق تحوّله الذاتيّ، وكلّ ما عدا ذلك هو نتيجةٌ حتميّة، وتطوّرٌ طبيعيّ. إنّ

بغض الذات وحبّ الأعداء هما مبدأ المسيحيّة وغايتها، وهما الانتصار الأكبر على الإنسان القديم الأعمى والشرس. ولن يتمكّن البشر من ولادةٍ جديدة، في السعادة والسلام، طالما لم يحبّوا المسيئين إليهم. وحبّ الأعداء هو الوسيلة الوحيدة لكيلا يبقى، على وجه البسيطة، عدوّ.

قبل الحبّ

ما أكثر الذين ينكرون يسوع ! ولهم في ذلك ألف عذر، فالاعتراف به يقتضي منهم إنكار ذواتهم، وهم لا يتبيّنون ما قد يحصلون عليه بالمقابل، بل يتملّكهم الخوف من أن تكون صفقتهم خاسرة، فالقاذورات التي يتشبّثون بها يعدّونها روائع. ولكي يبرّروا إنكارهم ليسوع وإحجامهم عن السير في إثره، راحوا، منذ زمنٍ بعيد، يبحثون عن سببٍ آخر، سببٍ "علميّ". فادّعوا أنّه لم يأتِ بأيّ جديد، فأقواله تداولها الشرق والغرب من قبله، ومنذ قرون؛ فهو، إذن، ليس في مثل ما يُنسب إليه من عظمة، ولا يتعيّن علينا الإصغاء إليه، فالإعجاب به من شأن الجهّال، والخضوع له من شأن البسطاء.

و يحجم أولئك المتحذلقون عن تقييم أفكار يسوع، سواءٌ عدّوها قديمة أو جديدة؛ ولا يجسرون على إثبات أنّ مواجهة الموت في سبيل إعادة تكريس حقيقةٍ كبرى غير معمول بها، أو منسيّة، لا قيمة لها. ولا يستبينون هل بين تعليم يسوع والتعاليم السابقة تماثلٌ حقّ، معنىً وروحاً، أم مجرّد صدى، وتشابه حرفيّ ضئيل. في هذه الأثناء، وفي غمرة ريبتهم، يرفضون شريعة يسوع –أو شريعة معلّميه المزعومين– ويمضون قُدُماً في عيشهم عيشة الخنازير الهنيئة، ولكأنّ الإنجيل لم يتوّجه إليهم، أيضاً.

كان هناك زمن، في أعقاب إصدار الشريعة، حيث كان يتحابّ من تجمعهم أواصر الدم؛ وحيث مواطنو المدينة الواحدة يحتملون بعضهم بعضاً، ولا يقتتلون، في حين لم يكن الغريب، إن لم يكن "ضيفاً"، يتوقّع منهم سوى البغضاء والذبح. إذن، كان في الأسرة قليل من الحبّ، وفي المدينة شبه عدالة، وخارج الجدران والتخوم: بغضٌ محتدم.

حينئذٍ تعالت، بين قرنٍ وآخر، أصواتٌ تطالب بشيءٍ من المحبّة خارج الأُسرة، بين أبناء الوطن الواحد، وبشيءٍ من العدل تجاه الغريب، حتّى وإن كان عدوّاً. وكان بوسع ذلك أن يؤدّي إلى تقدُّمٍ رائع. بيد أنّ تلك الأصوات الخافتة البعيدة نادراً ما سُمعت، ولم يُصغَ إليها، قطّ.

أربعة قرون قبل المسيح، وضع حكيمٌ صينيٌّ، واسمه "مي تي" كتاباً دعا فيه جميع البشر إلى محبّة بعضهم بعضاً، وقد كتب: "لا بدّ للحكيم الذي يبتغي إصلاح العالم من معرفة

مصدر الفوضى معرفةً وثيقة.فلمَ تنشأ الاضطرابات ؟ لأنّنا لا نحبّ بعضنا بعضاً. المواطنون والأبناء لا يحترمون الأمراء والآباء... والإخوة الأصاغر يحبّون ذواتهم ولا يحبّون إخوتهم الذين يكبرونهم. يفتقر الأب إلى التسامح حيال ابنه، وكذلك الأخ الأكبر حيال أخيه الأصغر، والحاكم حيال أفراد رعيّته. الأب يحبّ نفسه، ولا يحبّ ابنه، ولا يتحرّج من إيذاء ابنه إن كان له في ذلك مصلحة... وهكذا، تحت السماء، اللصوص يحبّون بيوتهم، ولكي يملؤوها يسلبون بيوت الغير. والسارقون يحبّون أجسادهم، ولا يحبّون البشر، ولذلك ينهبون الآخرين لإمتاع أجسادهم. ولو هم عدّوا أجساد الآخرين مثل جسدهم، فمن كان يُقدم على السرقة ؟... ولو تمّ الوصول إلى الحبّ الشامل المتبادل، لامتنعت الدول عن الخصام، ولما واجهت الأُسر الاضطرابات، ولزال اللصوص، ولمارس الأمراء والرعيّة، والآباء والأبناء، الاحترام والتسامح، ولاصطلح العالم.

المحبّة، إذن، في نظر "مي تي" –أو بالحريّ المودّة القائمة على الاحترام والتسامح– هي الملاط الذي ينبغي أن يوثّق التحام المواطنين بالدولة، وهي الدواء لأوصاب الحياة الجماعيّة.

أمّا "لاوتسي" فقد اقترح، بخَفَر: "رُدَّ على الإهانة باللطف". غير أنّ التهذيب هو رقّةٌ وحذَر، وليس حبّاً.

و في ذلك العهد نفسه، كان كونفوشيوس يبشّر بتعليمٍ يفرض استقامة القلب، ومحبّة القريب كالذات. ولكنّ محبّة القريب هي غير محبّة الغريب، أو العدوّ؛ ومحبّة القريب كالذات ليست محبّته أكثر من الذات. لقد علّم كونفوشيوس المحبّة البنويّة، والعطف، الضروريّين لازدهار الممالك، ولكن لم يخطر له ببال نبذ البغض، وقد جاء في أحد أقواله: "وحده الرجل العادل والإنسانيّ قادرٌ على حبّ البشر وعلى بغضهم، كما ينبغي".

أمّا معاصره غوتاما، فقد علّم أنّ من الواجب حبّ جميع البشر حتّى الأكثر بؤساً وحقارة، ولكنّه طالب بالحبّ عينه لأدنى الحيوانات، ولكلّ كائنٍ حيّ.

و في البوذيّة، ليس حبّ البشر سوى تمرينٍ خلاصيّ يستهدف اجتثاث حبّ الذات اجتثاثاً كاملاً، وحبّ الذات هو داعم الوجود الأوّل. فقد ابتغى بوذا إلغاء الألَم، ولم يجد سبيلاً إلى ذلك سوى إغراق النفس الفرديّة في النفس الشاملة، أي في النيرفانا، وفي العدم. البوذيّ لا يحبّ أخاه، حبّاً بأخيه، بل حبّاً بذاته، لكي يتفادى الألم، وينتصر على الأنانيّة، ولكي يخطو نحو التلاشي. وإنّما حبّه الشامل صقيعيّ، وتحدوه مصلحةٌ أنانيّة؛ إنّه ضربٌ من اللامبالاة الرواقيّة، حيال الألَم، وحيال الفرح على السواء.

و في مصر، كان جثمان كلّ ميت يصطحب إلى اللحد نسخةً من كتاب الأموات، تستعين به النفس على تبرئة ذاتها، أمام محكمة أوزيريس. وكان الميّت يمتدح نفسه قائلاً: "لم

أجعل أحداً يجوع أو يبكي! لم أقتل! ولم آمر بأيّ اغتيالٍ غادر! ولم أرتكب أيّ غشّ!... بل أعطيت الجائع خبزاً، والعطشان ماءً، والعريان ثوباً، والمسافر المتوقّف مركباً، وقدّمت للآلهة ضحايا، وللأموات مآدب جنائزيّة". إنّنا نجد هنا العدل، وأعمال الرحمة (هل نفّذوها حقّاً ؟)، ولكنّنا لا نعثر على أثرٍ للحبّ، وبالحريّ لحبّ الأعداء. ولكي نتبيّن كيف كان المصريّون يعاملون أعداءهم، فلنطالع هذا النقش الذي أمر بحفره الملك العظيم بيبي ميريري الأوّل: "هذا الجيش مضى بسلام: لقد دخل بلاد الهيروشيتوبيّن، كما حلاله. هذا الجيش مضى بسلام: لقد قطع أشجار تينهم، وكرومهم؛ هذا الجيش مضى بسلام: لقد أضرم النار في كلّ بيوتهم. هذا الجيش مضى بسلام: لقد ذبح من جنودهم أعداداً لا تحصى: هذا الجيش مضى بسلام: لقد اصطحب معه أعداداً غفيرة من الرجال والنساء، والأولاد؛ وبهذا، أكثر من كلّ شيء آخر، تبتهج قداسته"

زردشت أيضاً سنّ للفرس شريعةً تأمر عبّاد آهوارا مازدا بمعاملة إخوتهم في الإيمان بالحسنى: وبأن ينفحوا العريان ثوباً، وبألاّ يبخلوا بالخبز على العامل الجائع. إنّها وصيّة محبّةٍ مادّيّة حيال من يخصّوننا، ويخدموننا، ومن هم قريبون منّا، ولكنّها خالية من الحبّ.

و قيل، أيضاً، أنّ يسوع لم يُضِف شيئاً إلى الشريعة الموسويّة، وأنّه إنّما اقتصر على ترديد الوصايا القديمة، بأسلوبٍ أكثر فصاحة: "عين بعين، وسنّ بسنّ، يد بيد، ورجل برجل، حرق بحرق، وجرح بجرح، ورضّ برضّ"، هكذا تكلّم موسى في سفر الخروج: "ستلتهم جميع الشعوب التي سيدفعها الربّ إلهك إلى سلطتك. فلا تُشفقنّ عينك عليها". هذا ما جاء في تثنية الاشتراع. ولكنّه يخطو خطوةً إلى الأمام في اتّجاه المحبّة، فيقول: "لن تمسّ الغريب بسوء، ولن تحزنه، فأنتم، أيضاً، كنتم غرباء في أرض مصر". إنّها بداية. ولكنّ الغريب الذي يقيم فيما بيننا ليس هو العدوّ، وعدم الإساءة إليه، لا يعني الإحسان إليه. سفر الخروج أمر بعدم إحزانه، أمّا سفر تثنية الاشتراع، فهو أكثر كرماً: "إن سكن غريب بلادكم، وأقام بينكم، فلا تعنّفوه، ولكن فليكن بين ظهرانيكم، كما لو كان مولوداً بينكم، وأحبّوه كما تحبّون أنفسكم... " الأمر، إذن، يتعلّق، دائماً، بالغريب الذي يعيش فيما بينكم، الغريب الذي يغدو مواطناً لكم، بل واحداً منكم، وصديقاً لكم.

و في الكتاب عينه نقرأ: "لا تسعَ إلى الانتقام، ولا تذكر إهانة مواطنيك لك". خطوة أخرى إلى الأمام: لاتسئ إلى من يهينك، شرط أن يكون من أمّتك. لم نصل، بعدُ، إلى موقع الغفران، بل ما زلنا في مرحلة نسيانٍ كريم، ولكن مقصورٍ على القريبين منّا، فحسب.

"ستحبّ صديقك مثل نفسك"، صديقك، أي مواطنك، ابن جلدتك، الذي قد يكون ذا فائدةٍ لك. وماذا عن العدوّ ؟ هذه كلمةٌ بشأنه: "إن صادفت ثور عدوّك، أو حماره، هارباً، أعده إليه. وإن شاهدت حمار من يبغضك يهوي تحت حمله، لا تبتعد، بل ساعده على إنهاض الحمار". يا

لطيبة اليهود القدامى ! كم هو عذبٌ دفع الحمار إلى أبعد فأبعد، لكي يصعب على صاحبه العثور عليه ! وعندما يقع الحمار تحت عبءٍ مفرط الثقل، كم تطيب الدمدمة في ثنايا اللحية، والانصراف ! ولكنّ قلب اليهوديّ العتيق ليس متحجّراً إلى هذا الحدّ. إنّ الحمار حيوان ثمين جدّاً في تلك الأماكن وتلك الأزمنة. ولا أحد يستطيع تدبّر أموره إن لم تكن، في إسطبله، أتان، على الأقلّ. لكلٍّ أتانه: الصديق والعدوّ؛ أتانك هربت، اليوم، وقد تهرب أتاني غداً. فلا تكوننّ البهائم موضع انتقامنا، حتّى ولو كان صاحبها بهيمة. فإن كنت أنا عدوّه، فهو، أيضاً، عدوّي. فلنكن له قدوة، راجين أن تكون القدوة مجدية. فلنُعِدْ له الحمار الهارب، ولنساعده على إعادة البردعة إلى مكانها من ظهره. ولنفعل للآخرين ما نتمنّى أن يفعلوه لنا. وفي هذه اللحظة فلنلق على آذان الجحش ومؤخّرته كلّ فكرة سيئة، ولنكن رحيمين !

إنّ هذا لنزرٌ قليل، ومع ذلك فاليهوديّ العتيق قد أجهد نفسه كي يهتمّ بدابّة عدوّه. ولكن في المقابل، تتردّد، في كلّ فقرة من المزامير، اللعنات الموجّهة إلى الأعداء، والابتهالات العنيفة إلى الربّ، لكي يضطهدهم ويدمّرهم: "... فلتسقط الجمرات المتّقدة على ظهورهم، وليُقذف بهم إلى النار، إلى وِهادٍ لا يستطيعون النهوض منها؛ فليفاجئهم الدمار، وليقعوا ضحيّة الشباك التي نصبوها، وليهووا إلى الحفرة التي حفروها، وليهلكوا. حينئذٍ ستبتهج نفسي في اللّه الأزليّ". في عالمٍ من هذا النمط، من البدَهيّ أن يعجب شاول من عدم إقدام عدوّه داود على قتله، وأن يفخر أيّوب بأنّه لم يتهلّل للمصيبة التي حلّت بعدوّه.

بيد أنّنا في الأمثال اليهوديّة المتأخّرة، نقف على بعض وعودٍ بأقوال يسوع: "لا تقلْ: سأردّ على الشرّ بمثله؛ انتظر الربّ، وهو سيخلّصك". ينبغي أن يعاقَب العدوّ، ولكن بأيدٍ أقوى من يديك. غير أنّ معلّم الأخلاق المجهول، يرقى إلى المحبّة: "إن كان من يبغضك جائعاً، فأعطِه خبزاً ليأكل. وإن كان عطشاناً، فأعطِه ماءً ليشرب". إنّ في ذلك لتقدّماً: فالرحمة تمتدّ من البهيمة إلى صاحبها. غير أنّ من هذه الحِكَم الخجول، المتوارية في ثنايا الكتاب، لم يكن ممكناً أن تتفجّر روائع حبّ عظة الجبل.

و قد يقال: هناك هلّيل، هلّيل العظيم،الرابيّ، معلّم غمالئيل؛ هلّيل الحلبيّ أو البابليّ. هذا الفرّيسيّ الشهير، عاش قُبَيْل يسوع، ويقال أنّه علّم ما سيعلّمه يسوع من بعده. لا مِراء أنّه كان يهوديّاً ليبراليّاً، وفرّيسيّاً عاقلاً، ورابيّاً ذكيّاً، ولكن لا يمكن وصفه بالمسيحيّ. صحيحٌ أنّه قال هذه الكلمات: "لا تفعل للغير ما لا ترضاه لنفسك. في هذا تكمن الشريعة جمعاء؛ وكلّ ما سوى ذلك ليس سوى تفسير". كلامٌ جميل بالقياس إلى معلّم الشريعة القديمة. ولكن ما أبعده عن كلام من قوّض الشريعة القديمة ! نصيحته ما برحت سلبيّة، ناهية: "لا تفعل". إنّه لا يقول: إفعل الخير لمن يسيء إليك، بل يكتفي بقول: لا تفعل للآخرين (و هو يقصد، بالتأكيد، الأقرباء، المواطنين، الأصدقاء) ما تشعر بأنّه سيّئ. إنّه نهيٌ عن الشرّ، ولكنّه ليس أمراً مطلقاً

بالحبّ. وقد أغرق خلفاء هلّيل التلموديّون الشريعة في مستنقع التفسيرات. أمّا ذرّيّة يسوع، فتتألّف من شهداء لقوا نحبهم وهم يباركون جلاّديهم.

و قد خلّف فيلون، وهو يهوديّ من الإسكندريّة، وباحث في الماورائيّات، ينتمي إلى مدرسة أفلاطون، ويكبر يسوع نحو عشرين عاماً، كتاباً بعنوان: "حبّ البشر" ولكنّ فيلون، بكلّ مؤهّلاته، وكلّ تنظيراته الصوفيّة والماسيّانيّة، يظلّ، نظير هلّيل، نظريّاً، رجل قلمٍ ومحبرة، ودراساتٍ كتابيّة، ونُظُمٍ عقليّة، وآراء، وتجريدات، وتصنيفات. سياسته الجدليّة تستنفر آلاف الكلمات المحكمة التنظيم، ومع ذلك، يعجز عن الكلمة التي، في لحظةٍ واحدة، تحرق الماضي، وتوحّد القلوب. لقد تحدّث عن الحبّ أكثر ممّا تحدّث يسوع، ولكنّه لم يعرف أن يقول، ولم يكن بوسعه أن يفهم، ما كان يسوع يقوله، على الجبل، لأصدقائه الجهلاء.

أخيل وبريام

و لكن ألسنا نجد، في اليونان، حبّ الأعداء ؟ في اليونان، نعثر على كلّ شيء، فهذه الصين الغربيّة هي أمّ كلّ اختراع في ميدان الأشياء والفكر. هكذا يقول الوثنيّون الجُدد أعداء "خرافات فلسطين".

في تمثيليّة "أجاكس" لسوفوكليس، يتأثّر "أوليس"، أمام العدوّ الذي انتهى إلى حالةٍ زريّة. وعبثاً تذكّره أثينا نفسها، تلك البومة المقدّسة، التي تجسّد الحكمة الإغريقيّة، "أنّ أعذب ضحك، هو الضحك على العدوّ"، غير أنّها لا تُقنع "أوليس" الذي يعلن: "إنّني أرثي لحاله، ولو أنّه عدويّ، لأنّني أراه عاثر الحظّ، مرتطماً بمصيرٍ بائس؛ وإذ أحدّق فيه، أُفكّر بنفسي، وأرى أنّنا لسنا سوى أطياف، وظلالٍ زائلة، نحن جميع الأحياء... وليس من العدل الإساءة إلى إنسانٍ يحتضر، حتّى لو كنت تمقته". إنّنا بعيدون عن الهدف، فأوليس، مع سعة حيلته لا يبلغ به المكر إلى أن يخفي عنّا دوافع رقّته، المتناقضة مع فطرته. إنّه يرثي لحال عدّوه، لأنّه يفكّر في نفسه، ويغفر له، لأنّه يراه منهاراً، محتضراً.

و آخر، أحكم من "أوليس"، وهو ابن النحّات سوفرونسكس (والد سقراط)، تساءل، في ما تساءَل: ما ينبغي أن يكون موقف الرجل العادل، حيال أعدائه؟ ولكن إن نحن دقّقنا في النصوص، لدهشنا لوجود سقراطَيْن متباينَي الآراء. فسقراط كسينوفون يقبل،صراحة، الشعور السائد: الأصدقاء سيعامَلون معاملةً حسنة، أمّا الأعداء فيلقون أسوأ معاملة ممكنة... أمّا سقراط أفلاطون، فيأبى رأي السواد هذا، وهو يقول لكريتون: ينبغي ألاّ يُردّ على الشرّ بالشرّ، وعلى الظلم بالظلم، مهما كان الأذى الذي أُلحق بنا". وهو يعود فيؤكّد هذا الرأي في "الجمهوريّة"، ويدعمه بقوله أنّ الانتقام من الأشرار لا يفضي إلى إصلاحهم. غير أنّ ما يسود

في رأس سقراط هو خاطرة العدل، لا الشعور بالحبّ. وجديرٌ بالملاحظة أنّه لا يسوّغ فعل الشرّ، في أيّة حال، وذلك احتراماً من الرجل العادل لذاته، لا حبّاً بالعدوّ. فعلى الشرّير أن يعاقب ذاته، أو أن يُعاقَب، بعد الموت، من قبل قضاةٍ جهنّميّين. بيد أنّ أرسطو، تلميذ أفلاطون، يعود، بلا حرج، إلى الرأي القديم فيعلن: "عدم الردّ على الإهانة، هو موقف الجبان والعبد".

و بالإجمال، لن يفلح النابشون في آثار الإغريق، في العثور على سابقةٍ لتعليم يسوع.

و لكن، في سبيل الإيهام بأنّ المسيحيّة قد وُجدت قبل المسيح، وجد رافضو يسوع منافساً له في روما، بل في قصر قيصر نفسه : سينيكا، مرشد صغار الأسياد، حينذاك، ودليلهم إلى الرواقيّة المُصلَحة؛ الفيلسوف الأرستقراطيّ الذي لا يداخله أيّ تأثّر حيال مِحَن القوم الوضيعين؛ المالك الذي يزدري الثروات، ولكنّه يسهر عليها بحرص، الذي يؤكّد المساواة بين الرقيق والأحرار، ولكنّه يستخدم عبيداً لخدمته؛ الذي شرّح بمهارة الشرور والوساوس، والفضائل المرغوب فيها، والرذائل الواقعيّة؛ سينيكا الذي ربّما كان مسيحيّاً، على غير علمٍ منه، في أثناء حياة يسوع على الأرض. بعد النبش في كتاباته الغزيرة –والتي كُتب معظمها بعد موت يسوع، إذ إنّ سينيكا انتحر عام 65– نعثر على هذه الأقوال: "الحكيم لا ينتقم، بل ينسى الإهانة". و"في سبيل التمثّل بالآلهة، لا بدّ من الإحسان إلى ناكري الجميل، فالشمس تشرق على الأشرار، والبحر يحمل القراصنة"، وأيضاً: "ينبغي غوث العدوّ، بيدٍ صديقة". بيد أنّ نسيان الفيلسوف ليس غفراناً، وإغاثته هي عمل إحسان، وليس حبّاً. إنّ الرواقيّ، والفرّيسيّ، والفيلسوف المزدهي بتعليمه، والبارّ الراضي ببرّه، قد يزدرون إهانات الصغار، وعضّات الخصوم؛ وقد يتنازلون، من أجل إظهار كرم نفوسهم، واكتساب إعجاب الجماهير، فيقدّمون كسرة خبز لجائع، وبذلك يذلّونه إذلالاً أشدّ قسوة، بإبراز سموّ كمالهم. ولا سيّما وأنّ هذا الخبز قد أُنضج بخميرة العُجْب، و هذه اليد الصديقة لن تقوى على تضميد جرح، أو مسح دمعة.

العالم القديم يجهل الحبّ، وكلّ ما يعرفه أنّه يعرف هوى المرأة، وصداقة الصديق، والعدل للمواطن، واستضافة الغريب، ولكنّه لا يعرف الحبّ. إنّ زوش يحمي المسافرين والغرباء. ومن يقرع باب اليونانيّ، يظفر بقطعة لحم، وكأس خمرة، وبفراش. الفقراء يجدون مأوى، والمرضى غوثاً، والباكون كلاماً جميلاً يعزّيهم. ولكنّ الأقدمين يجهلون الحبّ، الحبّ الذي يتألّم ويستسلم، حبّ المتألّمين والمنبوذين، حبّ الوضيعين، والمساكين، المداسين بالأقدام، والمطرودين، والملعونين؛ حبّ البشر أجمعين الذي لا يميّز بين مواطنٍ وغريب، بين قبيحٍ وجميل، بين مجرمٍ وفيلسوف، بين أخٍ وعدوّ.

في نشيد الإلياذة الأخير، نرى شيخاً يبكي، أباً يقبّل يد أعتى أعدائه، يدَ من قتل أبناءه، وأخيراً قتل أعزّهم على قلبه. بريام، الملك الشيخ، زعيم المدينة المُنتهكة، مالك الثروات الجمّة، والد خمسين ولداً، يجثم عند أقدام أخيل، أعظم أبطال الإغريق وأتعسهم حظّاً، المنتقم لباتروكلِس، وقاتل هيكتور. رأس الشيخ الأبيض ينحني أمام شباب المنتصر الجامح. بريام يبكي ابنه المغدور، الأقوى، والأجمل، والأغلى، بين أبنائه الخمسين، ويقبّل يد قاتله، قائلاً له: أنت أيضاً، لك أبٌ شائب، بعيد، لا حولٌ له ولا طولٌ؛ فباسم حبّك لأبيك، أعدْ لي، أقلّه، جثمان ابني.

و أَخيل، السفّاح، الشرس، يدفع المتوسّل برفق، وينخرط في البكاء، وكلا العدوّين، الغالب والمغلوب، الأب الذي فقد ابنه، والابن الذي لن تُقيّض له رؤية أبيه ثانية، الشيخ المكلّل بالشيب، والشابّ ذو الشعر الأشقر الحليق، كلاهما يبكيان معاً، وقد باتا، للمرَّة الأولى، أخوين في الألم. والآخرون، من حولهما، ينظرون في دهشةٍ وصمت. ولا نملك، نحن أنفسنا، بعد ثلاثين قرناً، ألاّ نتأثّر بنحيبهما.

و لكن، ليس في قبلة بريام لا غفرانٌ ولا حبّ. فالملك العدوّ قد تهالك عند أقدام أخيل، كي يظفر بمنّةٍ عسيرة، وغير مألوفة... وأخيل لا يبكي هيكتور أو بريام، بل الصديق المفقود، بتروكلِس، أعزّ البشر على قلبه... ويبكي الأب الذي لن يستطيع، بعدُ، تقبيله، أبداً، لأنّ أيّامه الشابّة باتت معدودة. ولئن هو أعاد إلى الأب جثمان ابنه – الجثمان الذي جرّه في الرغام – فلأنّ زوش يريد ذلك، لا لأنّ ظمأ انتقامه قد ارتوى. كلٌّ منهما يبكي ذاته : قبلة بريام ضرورة قاسية، وإعادة أخيل للجثمان خضوع للآلهة.

في أنبل عالمٍ قديمٍ بطوليّ، لم يكن مكانٌ للحبّ الذي يدمّر البغض ويحلّ محلّه، حبّاً أقوى من القوّة والكراهية، وأكثر وفاءً، واضطراماً، وصرامة؛ حبّ ليس مجرّد إغفال للشرّ، بل حبّاً للشرّير، حبّاً للأعداء.

عن هذا الحبّ لم يتحدّث أحدٌ قبل يسوع، بين جميع من تحدّثوا عن الحبّ؛ ولم يعهده أحدٌ حتّى عظة الجبل.

هذه هي عظمة يسوع وجدّته؛ جدّته العظيمة، وعظمته الأبديّة الجدّة : وهي ما برحت جديدة لنا، لأنّه لم يُصغَ إليها، ولم تُقلّد، ولم تُطَع؛ ولأنّها أبديّة كالحقيقة.

أحبّوا

"سمعتم أنّه قيل: "أحببْ قريبك، وأبغض عدوّك". أمّا أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى من يبغضكم، وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات: فإنّه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. فإن أحببتم من يحبّونكم، فأيّ أجرٍ لكم ؟ أفليس العشّارون أنفسهم يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوتكم فقط، فأيّ عَجبٍ تفعلون؟ أفليس الوثنيّون أنفسهم يفعلون ذلك ؟ فأنتم، كونوا كاملين، كما أنّ أباكم السماويّ كامل"

حفنةٌ من الكلمات العارية البسيطة، لا فلسفة فيها، إلاّ أنّها دستور الجنس البشريّ الجديد، الجنس الثالث الذي ما انفكّ يولد. الجنس الأوّل كان جنس البهائم غير الخاضعة لأيّة شريعة، وكان اسمه الحرب. الجنس الثاني هو جنس البرابرة الذين شذّب القانون شيئاً من فظاظتهم، والذين بات مثالهم الأعلى هو العدل؛ وهو الجنس الذي ما زال قائماً، لأنّ العدل لم يقضِ، بعد، على الحرب، ولأنّ القانون لم يحلّ، بعد، محلّ البهيميّة. الجنس الثالث ينبغي أن يكون جنس البشر الحقيقيّين، الذين يقرنون العدل بالقداسة، وعوضاً عن التشبّه بالبهائم، يتشبّهون باللّه؛ فغاية يسوع الوحيدة، هي تحويل البشر من حيوانات إلى قدّيسين، بواسطة الحبّ.

لقد كانت "سيرسي" الساحرة، الزوجة الشيطانيّة في الميثولوجيات الجميلة، تحوّل الأبطال إلى بهائم، بواسطة اللذّة. أمّا يسوع، عدوّ إبليس وعدوّ "سيرسي"، فهو ينقذنا من البهيميّة بقدرةٍ هي أقوى من اللذّة.

و لكي نضطلع بهذه المهمّة التي تبدو لنا، نحن البشر الذين ما زالوا مشاريع غير مكتملة، متعذّرة التحقيق، لا بدّ لنا من التمثّل باللّه. ولكي ندنو من القداسة، لا مفرّ من أن تظلّ الألوهة محطّ أبصارنا. كونوا قدّيسين لأنّ اللّه قدّيس. كونوا كاملين لأنّ اللّه كامل.

هذه الدعوة توقظ صدى الذكريات في قلب الإنسان. فإبليس قال : ستكونون كالآلهة، ويهوه قال للقضاة : كونوا آلهة، كونوا عادلين مثلما اللّه عادل. ولكن الآن لا يُطلب من الإنسان أن يكون عالماً مثل الله. لا بل لا يكفي أن يكون عادلاً على غرار اللّه. فاللّه ليس مجرّد علمٍ وعدل؛ إذ مع يسوع أصبح اللّه أبانا، أصبح حبّاً. أرضه تهب الخبز والزهور للقاتل. والمجدّف يشهد، كلّ صباح، وهو يستيقظ، الشمس عينها التي تدفئ الأيدي المضمومة للصلاة. الأب يشمل، بحبٍّ واحد، من يهجره ومن يبحث عنه، من يطيعه في منزله، ومن يتقيّئوه مع خمرته. قد يُحزَن الأب، وقد يبكي، ويتألّم، ولكن ما من شرّيرٍ قادرٌ على جعله شبيهاً به، وعلى دفعه إلى الانتقام.

و نحن الذين يتدنّون عن اللّه شأواً بعيداً، نحن الخلائق المحكوم عليها بالموت، والتي يعسر عليها تذكّر الأمس الأوّل، وتجهل الغد، نحن الخلائق الدنيا البائسة، ألا يتوجّب علينا أن نكون، لإخوتنا في البؤس، ما هو اللّه لنا ؟

اللّه هو الهدف الأسمى لتطلّعاتنا، ولما نرغب في أن نكونه. ومن ثمّ، أفليس هجره، والنأي عنه، وعدم كوننا كما نرجو أن يكون هو لنا، تنكّباً عن مصيرنا الأوحد، والعمل على استحالة السعادة التي وُجدنا من أجلها، والتي نعتقد أنّنا في سبيلها نحيا، التي هي ملكنا، وبها حلمنا، وإيّاها ابتغينا والتمسنا، وإليها سعينا، عبثاً، من خلال كلّ ضروب السعادة التي ليست من اللّه. إن بوسّويه يهتف: "فلنكن آلهة، إنّ اللّه يتيح لنا ذلك، من خلال تمثّلنا بقداسته".

ومن يأبى أن يكون شبيهاً باللّه ؟ إنّ الألوهة ثاوية فينا. ولكنّ البهيميّة تحيق بها، مثل قشرةٍ قاسية تعرقل نموّنا. من يرفض أن يكون اللّه ؟ هل أنتم راضون، حقّاً، أيّها البشر، بما أنتم عليه: أنصاف بشر، وأنصاف بهائم ؟... هل أنتم راضون بإنسانيّتكم الهجينة، وببهيميّتكم التي لم تُحكموا لجمها، وبقداستكم التي لا تتعدّى كونها رغبة ؟ هل تبدو لكم الحياة البشريّة، كما كانت، وكما هي الآن، على قدرٍ من السعادة بحيث لا تتعيّن أيّة محاولة من أجل جعلها مختلفة، بل من أجل جعلها على نقيض ما هي عليه، وأكثر شبهاً بتلك التي نحلم بها، منذ أجيال، في المستقبل، وفي السماء ؟ ألا يسعنا أن نجعل من هذه الحياة، حياةً أُخرى، وأن نحوّل هذا العالم إلى عالمٍ أوفر ألوهة، وأن نُحلّ على الأرض السماء، وشريعة السماء؟

هذه الحياة الجديدة، هذا العالم الأرضيّ والسماويّ معاً، هما ملكوت السماوات. ولكي يحلّ هذا الملكوت ويستقرّ، علينا أن نتخطّى بشريّتنا، ونجعل من ذواتنا آلهة، ونتمثّل باللّه.

وسرّ هذا التمثّل هو الحبّ، والطريق التي تفضي، حتماً، إلى ما يتخطّى البشريّ، هي الحبّ، حبّ الإنسان للإنسان، صديقاً كان أم عدوّاً. ولئن كان هذا الحبّ مُحالاً، فخلاصنا، أيضاً، مُحال، وإن كنّا ننفر منه، فهذا يعني أنّنا ننفر من السعادة. وإن كان عقلنا يرفضه، فآمالنا بالفداء حماقة.

إن حبّ الأعداء يبدو، لأذهان العامّة، جنوناً : ولا بدعَ في ذلك، ففي الجنون يكمن خلاصنا. إنّ حبّ الأعداء يحاكي بغض الذات : وبغض الذات هو السبيل الأوحد إلى السعادة.

يجب ألاّ يخيفنا شيء، في مرحلتنا الراهنة. فكلّ شيءٍ قد جُرّب، وكلّ خبرة قد اكتملت. فلا ندّعينّ أنّ محاولاتنا افتقرت إلى الوقت كي تبلغ نهاية شوطها. إذ إنّنا منذ عشرات آلاف القرون في هذا العالم، حيث تتراكم خبراتنا. لقد اختبرنا الشراسة فاستدعى الدمُ الدمَ. وبلونا اللّذة، فخلّفت اللذّة في أفواهنا طعم التعفّن، وحرقةً أشدّ إيلاماً. لقد أكرهنا أجسادنا على التماس أكثر المُتع رهافةً وأشدّها إمعاناً في الفسق، ولكنّنا استيقظنا موجعين، مفعَمين كآبة، على سريرٍ من الزبل. وخبرنا الشريعة، ولكنّنا تعدّيناها، وغيّرناها، وعدنا إلى مخالفتها؛

والعدل لم يروِ ظمأ قلوبنا. وخَبَرنا العقل فأجرينا ثبتاً للمخلوقات، وأحصينا النجوم، ووصفنا النباتات، والأشياء الميتة والحيّة، وربطناها جميعاً بخيوطٍ واهيةٍ من التصوّرات العقليّة، وأغرقناها في أبخرة الماورائيّات السحريّة علّها تتجلّى مختلفة، ولكنّها ظلّت، أبداً، هي ذاتها. لم تعد تكفينا، وقد بتنا عاجزين عن تجديدها؛ الأسماء والأرقام عجزت عن تسكين جوعنا، وانتهى أوفرنا حكمة إلى الإقرار بجهلهم، وهم صاغرون.

و خضنا تجربة الفنّ، ولكنّ عجزنا أفضى بأقوالنا إلى القنوط؛ فالمطلق لا يقيم في الأشكال؛ والمتعدّد يتخطّى الوحيد، والمادّة المشغولة لا تحبس الزائل.

و خَبَرنا الغنى، فإذا بنا أدقع فقراً؛ وخبرنا القوّة، فإذا بنا أشدّ وهناً، ولم تعثر نفسنا على السكينة في شيء، ولم يتذوّق جسدنا المستلقي طعم الراحة، تحت أيّ ظلّ. وأمسى قلبنا، الباحث أبداً، والخائب أبداً، أكثر شيخوخةً، وأشدّ كَلَلاً، وخواءً، إذ إنّه لم يعثر على السلام في أيّ امتلاك، ولم يُلفِ الفرح في أيّة متعة، ولم يظفر بالسعادة في أيّ فتح.

الاختبار الأخير

يسوع يدعونا إلى اختباره الأخير، اختبار الحبّ، ذاك الذي لم يخضه أحد، والذي لم تباشره سوى قلّة من البشر، في فتراتٍ عابرةٍ من حياتهم. إنّه الأشدّ قسوة، والأكثر تعارضاً مع غريزتنا، ولكنّه الوحيد القادر على الوفاء بوعوده.

الإنسان الغريزيّ لا يفكّر إلاّ بذاته، ولا يحبّ إلاّ ذاته. قد يفلح، بعد لأيٍ، وبفضل جهودٍ لا توصف، في حبّ زوجته وأبنائه، بعض الوقت، وفي احتمال رفاق الصيد، أو رفاق القتل والحرب؛ وقد يحبّ، نادراً، صديقاً؛ وهو ميّال إلى مقت من يحبّونه، ويأبى محبّة من يبغضه؛ غير أنّ هذا ما يأمر به يسوع : محبّة الأعداء. ومن أجل خلق الإنسان الجديد الكفيل بالعمل وفقاً لهذه الوصيّة، لا بدّ من اجتثاث جذور الإنسان القديم الأشدّ تأصّلاً. إنّ المصائب، والاغتيالات، والبؤس، تنشأ جميعها من حبّ الذات. ومن أجل ترويض آدم القديم، ينبغي أن يُنتزع منه هذا الحبّ، واستبداله بالحبّ الأكثر تعارضاً مع طبيعته الراهنة. إنّ تحوّل الإنسان الكلّيّ عملٌ سامٍ ينافي العقل، ولا يمكن بلوغه إلاّ عبر دربٍ ينافي العقل. إنّه مغامرة مدهشة، غير طبيعيّة، مجنونة، لن تتحقّق إلاّ بجنونٍ يخالف الطبيعة والنظام.

حتّذٍ، كان الإنسان يحبّ نفسه ويبغض من يبغضه، أمّا إنسان الملكوت المقبل فعليه أن يبغض ذاته، ويحبّ من يبغضه. معه، غدا حبّ القريب كالذات صيغةً غير كافيــة، وتنــازلاً للأنانيّة الشاملة. فمن يحبّ ذاته لا يسعه أن يحبّ الآخرين، حبّاً كاملاً، ولا بدّ له من التصادم معهم، ومن ثمّ فمقت الذات هو الحلّ الحاسم الوحيد، إذ إنّنا ننزع إلى الإمعان في حبّ ذواتنا، والإعجاب بها، ومداعبتها. وللتغلّب على هذه النزعة العمياء، يجدر بنــا أن نــرى حقارتنــا وعدمنا. بغض الذات هو تواضع، وبالتالي مصدر توبةٍ وكمال. فوحدهم المتواضعون سيلجون ملكوت السماوات، لأنّهم، وحدهم، يعون المسافة التي تفصلهم عنه. إنّنا نثور على الآخــرين، لأنّنا نحكم بأنّهم آذوا أنانا العزيز، ولم يخدموه بالقدر الكافي. إنّنا نقتل أخانا لأنّه يبدو لنا عائقاً دون مصلحتنا. إنّنا، حبّاً بجسدنا، نسرق، وإرضاءً لجسدنا نستسلم للفسق. وما الحســد، أبــو الخصام، سوى تألّمنا لرؤية آخر يمتلك أكثر منّا. والكبرياء هي إبــراز يقيننــا بأنّنــا نفــوق الآخرين ثروةً وعلماً. وكلّ ما تدعوه الديانات والأخلاقيّات خطيئة، وعيباً، وجُرماً، ينبع مــن حبّ الذات، وممّا ينجبه هذا الشعور الفوضويّ، هذا الحبّ الذاتيّ الأوحد، من بغضٍ للآخرين.

بأيّ حقّ نبغض الآخرين، إن كنّا، نحن أنفسنا، قد هوينا إلى خطيئة الــبغض، التــي نتذرّع بها حجّةً لبغضنا ؟ وحتّى إن هم اقترفوا شرّاً، وحتّى إن نحن ظننّاهم أشراراً، فلا حقّ لنا ببغضهم، إذ إنّنا غالباً ما نرتكب نفس القدر من الأخطاء، وملوّثون بمثل فسادهم. بأيّ حقٍّ نبغضهم، ونحن، غالباً، المسؤولون عن بغضهم لنا، إذ قد أكرهناهم على ذلك، من جرّاء حبّنا الفظيع لذواتنا ؟

ويلٌ لمن يبغض، فهو أولى ضحايا بغضه وأوّل المتألّمين منه! وأقلّــه، فــي ســبيل التعويض عن هذا الألم، الذي غالباً ما نكون، نحن، سببه البعيد أو القريــب، علينــا أن نــردّ بالحبّ على هذا البغض، وبالرقّة على تلك القسوة.

عدوّنا هو منقذنا وعلينا أن نكون له، كلّ يومٍ، شاكرين. فهو وحده يرى ويفضح، بلا مواربة، ما فينا من بشاعةٍ وحقارة. يذكّرنا بطبيعتنا الحقّة، ويوقظ وعينا لإملاقنا الخلقيّ، وهذا الوعي هو مبدأ حياتنا الجديدة، الجوهريّ. ومن واجبنا حبّه، ولو من باب العرفان بالجميل.

فعدوّنا يحتاج إلى الحبّ، وخاصّة إلى حبّنا. فمن يحبّنا يجد في ذاته فرحــه وأجــره، وليس بحاجةٍ إلى أن نبادله الحبّ. أمّا من يبغضنا، فهو، بهذا البغض، يعبّر عن مــرارة مــا يكابده؛ إنّه يبغض لأنّه يتألّم، وقد نكون مسؤولين، جزئيّاً، عن ألمه. وحتّى لو ادّعينا، في ثقة عُجْبنا بأنفسنا، أنّنا بريئون من تلك المسؤولية، فواجبنا أن نخفّف، بالحبّ، من بؤس عــدوّنا، ونلطّف ألمه، ونبعث السكينة في نفسه، ونجعله أفضل حالاً، وأن ندفعه، هو أيضاً، إلى سعادة الحبّ. وبحبّنا له، سنتوغّل في معرفته، وبفضل هذه المعرفة، سيزداد حبّنــا لــه. وإن نحــن أحببناه، بدت لنا نفسه أشدّ صفاءً وشفافية؛ وكلّما مضينا قدُماً في معرفته، اكتشفنا أنّ له الحقّ

في عطفنا وحبّنا. فكلّ عدوٍّ هو أخٌ مجهول؛ إذ إنّنا ننزع، تلقائيّاً، إلى بغض من يشبهنا؛ فشيء منّا، قد نجهله، موجودٌ في عدوّنا، وهو، أحياناً، سبب عداوتنا له. ولكن، بحبّنا لعدوّنا، نطهّر روحنا بالمعرفة، ونرتقي بروحه. وهكذا، من الحبّ الذي يفرّق، قد يولد نورٌ محرّر، ومن أسوأ الشرور، أحسن الخير.

هذا هو الانقلاب الذي أمر به يسوع. فعندما سيحبّ الإنسان ما يمقته اليوم، وعندما سيمقت ما يحبّه اليوم، ستنقلب حياته إلى نقيض ماهي عليه. وإن كانت حياته الحاضرة نسيج آلام وقنوط، فحياتنا الجديدة، لن تكون، على نقيض ذلك، سوى عطفٍ وعزاء. وللمرّة الأولى،سنمتلك السعادة، وسيُستهلّ ملكوت السماوات على الأرض.وسنستعيد الفردوس، للأبد. هذا الفردوس فُقِد لأنّ البشر الأوّلين أرادوا معرفة الخير من الشرّ. ولكن، بفضل الحبّ المطلق، المساوي لحبّ الآب، لم يعُدْ، ثمّة، خيرٌ وشرّ، فالخير قد تغلّب على الشرّ، وسيقضي عليه. الفردوس كان حبّاً، حبّاً بين اللّه والإنسان، بين الرجل والمرأة. وها إنّ حبّ كلّ إنسانٍ لجميع البشر، سيكون الفردوس الأرضيّ، الفردوس المستعاد؛ وسيكون يسوع هو من سيقتاد آدم، ثانية، إلى عتبة عدن، وسيلقّنه كيف يلجه، وكيف يمكث فيه للأبد.

بيد أنّ أبناء آدم لم يصدّقوه. لقد كرّروا أقواله، ولكنّهم لم يتّبعوها. والبشر، من جرّاء صمم قلوبهم، يئنّون في جحيمٍ أرضيّ، يتفاقم فظاعة، جيلاً فجيلاً، إلى أن يأذن يوم، تصبح فيه عذابات المدانين من الهول، بحيث يولد، فجأة، بغض البغض؛ ويخلص المحتضرون المتمرّدون، في غمرة يأسهم، إلى حبّ جلاّديهم. حينئذٍ، من صميم الظلمة الكبرى الوجيعة، سينبعث، أخيراً، سنى طاهر، متفجّراً من ربيعٍ معجز.

أبانا

طلب الرسل من يسوع أن يعلّمهم صلاة.

كان قد دعاهم إلى تلاوة صلوات مقتضبة، سرّيّة. وهم ما كانوا راضين عن الصلوات التي يوصي بها كهنة الهيكل، الفاترون والمستغرقون في النصوص الكتابيّة. وابتغوا صلاةً تكون خاصّتهم، والصلة التي تجمع شمل أتباع يسوع.

و علّم يسوع، للمرّة الأولى، "أبانا"، من على قمّة جبل. إنّها الصلاة الوحيدة التي نصح بها. وهي الأكثر بساطة، بلا تزويقٍ بيانيّ، ولا استنتاجات لاهوتيّة، ولا تهوّر، ولا عبوديّة.

أجمل الصلوات على الإطلاق!

و لكنّها، على بساطتها، لا يكتنهها الجميع. فالترداد الدهريّ، الآليّ، باللسان والشفاه، الترداد الحرفيّ، الطقسيّ، الشارد، اللامباليّ، كاد يجعل منها عِقْداً من مقاطع، ضاع منها المعنى الأصليّ. فلنتلُها، إذن، كلمةً فكلمة، ولكأنّها نصٌّ جديد، يقع تحت أبصارنا، اليوم، للمرّة الأولى، علّها تفقد طابع التفاهة الطقسيّة، وتستعيد، في معناها الأوّل، بكارتها.

– **أَبانا** : نحن، إذن، من صلبك، وأنت تحبّنا حبّ أبٍ لأبنائه، ولن يأتينا، منك، أيّ سوء.

– **الذي في السماوات** : أي في ما يناقض الأرض، في فَلَكٍ يناقض المادّة، في منطقة الروح، وفي ذلك الحيّز من الروح البالغ الصِغَر، ولكنّه أبديّ : أي نفسنا.

فليتقدّس اسمك : علينا ألاّ نعبدك، فقط، بأفواهنا، بل أن نكون جديرين بك، وأن نأتي إليك بحبٍّ أشدّ. لكيلا تكون، بعدُ، المنتقم، ربّ المعارك، بل الأب الذي يلقّن الغبطة في السلام.

فليأتِ ملكوتك : ملكوت السماوات، ملكوت الروح والحبّ، الإنجيل.

–**لتكن مشيئتك في السماء كما على الأرض:** أي فلتسدْ شريعتك،شريعة الحبّ والكمال، في الروح وفي المادّة، في العالم المرئيّ، والعالم غير المرئيّ.

أعطِنا، اليوم، خبزنا اليوميّ : فإنّ مادّة جسدنا، سند الروح الضروريّ، تحتاج، كلّ يوم، إلى دعم شيءٍ من المادّة. لا نلتمس منك الثروة، ذلك العائق الخبيث الوبيل، بل مجرّد القليل الذي يتيح لنا البقاء، كي نصبح أكثر جدارةً بالحياة التي تعدنا بها. لا يحيا الإنسان بالخبز وحده، ولكن إن لم نظفر بكسرة الخبز هذه، لن تستطيع النفس المقيمة في هذا الجسد، أن تتغذّى بأغذيةٍ أثمن.

– **سامحنا بديوننا،مثلما نسامح المدينين لنا بديونهم** : إغفر لنا، كما نغفر للآخرين، أنت دائننا الأبديّ، اللامحدود، ولن نفيك، يوماً، ما ندين به لك. كم يشقّ على طبيعتنا الشرّيرة أن تسامح واحداً من مدينينا بواحدٍ من ديونه، في حين لا يشقّ عليك محو آثار كلّ ما نحن ندين به لك.

– **لا تدعنا ننزلق إلى التجربة** : إنّنا واهنون، وما زلنا أسيري الجسديّ، في هذا العالم الذي يبدو، أحياناً، على جانبٍ وافرٍ من الجمال، ويدعونا إلى شتّى طراوات الخيانة. ساعدنا لكيلا يكون ارتدادنا عسيراً، ولكيلا يلاقي الكثير من المقاومة، ولكيلا يتلكّأ دخولنا إلى ملكوتك.

– **نجّنا من الشرّير** : أنت المقيم في السماء، أنت الروح القادر على قهر الشرّ، وقهر المادّة المعادية العنيدة، والتي لا ننفكّ نعاني في سبيل الانعتاق من ربقتها، أنت خصم إبليس، ونافي المادّة، بادر إلى نجدتنا، في هذا الانتصار على الشرّ المستشري، والذي لن يُقهر قهراً

نهائيّاً ما لم يقهره الجميع. في هذا الانتصار الحاسم تكمن عظمتنا، ولن يطول موعد تحقيقه إن أنت أيّدتنا بغوث معاهدتك.

بهذا الدعاء تُختَتم صلاة "أبانا"، الخالية من تزلّفات الصلوات الشرقيّة المملّة، تلك السبحة من المدائح والمبالغات، التي تبدو وكأنّها من إبداع كلبٍ، يعبد، بنفسه الكلبيّة، سيّداً يوفّر له فسحة العيش والأكل. ولا نجد فيها توسّلات صاحب المزامير الباكية الذي يسأل اللّه كلّ ضروب العون، المادّيّ منها أكثر من الروحيّ، وينتحب إن كان الموسم سيّئاً، وإن لم يحظَ باحترام ذويه، ويستنزل الآفات والسهام على الأعداء الذين يعجز، بمفرده، عن قهرهم.

هنا، المديح الوحيد هو لفظة " أبانا ". مديح هو التزام وشهادة حبّ. هذا الأب لا نسأله سوى شيءٍ من الخبز، لن نتوانى، من جانبنا، عن كسبه بعرق جباهنا، لأنّ إعلان الملكوت هو جهدٌ ضرويّ؛ ونسأله الغفران الذي لن نحجم، من جانبنا، عن منحه لأعدائنا. وأخيراً نسأله حمايةً منيعةً لمكافحة الشرّ، عدوّ الجميع المشترك، والجدار الصفيق الذي يحول دون ولوج الملكوت.

من يقول "أبانا" ليس متكبّراً، ولا هو ذليل. إنّه يتحدّث إلى أبيه، بلهجة الحميميّة، واطمئنان الثقة، ولكأنّه حديث الندّ للندّ. إنّه موقنٌ بأنّه محبوب، وعالمٌ أنّ أباه على دراية برغباته، فلا يحتاج إلى الخطابات المسهبة. أوَ لم يخطرنا يسوع : " إنّ أباكم دارٍ باحتياجاتكم قبل أن تطلبوها منه " ؟

إنّها أجمل صلاة، وهي، أيضاً، تذكيرٌ يوميّ، بما يتعيّن علينا، لكي نتمثّل باللّه.

معجزات

بعد أن استنّ شريعة التمثّل باللّه، الجديدة، انحدر يسوع عن الجبل.

لا يسعنا المكوث على قمم الجبال، بل ما نكاد نتسلّقها حتّى يتعيّن علينا الهبوط؛ إنّه محكوم علينا، حكماً مبرماً، بالهبوط. كلّ صعود ملتزمٌ بهبوط، وهو وعدٌ بالعودة إلى الأسفل؛ ثمن الصعود، جزاؤه، فديته، الهبوط. حزن الانحدار هو ثمن فرح الصعود. ومتعة التصعيد هي تعويضٌ مسبق عن كآبة الهبوط.

من كان واجبه الكلام، توجّب عليه أن يتيح للآخرين فسحة الإصغاء إليه. وإن لم يتحدَّث إلاّ وهو جاثم على القمم، لما مكث معه سوى القليلين، فالقمم تصيب بالقرّ من لا تضطرم النار في أحشائهم، ولن يبلغ صوته إلاّ إلى آذانٍ قليلة. من جاء كي يعطي لا يستطيع إكراه القوم على اللحاق به إلى الذّرى، وهم يجرّون،على الدروب الوعرة، أرجلهم العرجاء،

وأجسادهم الهزيلة. بل عليه البحث عنهم في السهول، وفي البيوت التي يقبعون فيها. عليه الهبوط إليهم كي يرتقي بهم.

كان يسوع يعلم أنّ الخطابات الراقية غير كافية لنشر البشرى وتعميمها، وأنّ، ثمّة، حاجة، في سبيل ذلك، إلى كلماتٍ أقلّ عموميّة، وأكثر محاكاةً للوقائع، كلمات هي صور وروايات، بل تكاد تكون أحداثاً. وكان يعلم أنّ حتّى مثل هذه الكلمات لا تكفي.

فالشعب البسيط، الأُمّيّ، الفقير، الذي يتبع يسوع، يعيش في الأشياء المادّيّة، ولا يقوى على إدراك الأمور الروحيّة إلاّ بلأيٍ وكدّ، ومن خلال براهين مادّيّة، وإشارات، ورموز محسوسة. أولئك القوم لا يفهمون الحقيقة الروحيّة، ما لم تتجسّد، وترتدِ لباساً مادّيّاً. إنّهم في حاجةٍ إلى شهادةٍ مادّيّة، إلى دليل. الصورة المحسوسة كانت كفيلة بدفعهم على درب الوحي الأخلاقيّ، والمعجزة كانت كفيلة بأن تثبت لهم حقيقةً جديدة، ورسالةً تلقى معارضة.

البشارة المبنيّة على المسلّمات والأقوال المأثورة لم تكن كافيةً لتلك المخيّلات الشرقيّة. فلجأ يسوع إلى المدهش وإلى الشعر، فصنع العجائب، وتكلّم بالأمثال.

المعجزات التي رواها الإنجيليّون كانت السبب الأوّل لانصراف الكثيرين من أبناء العصور الحديثة عن يسوع وعن الإنجيل. فهم عاجزون عن تصديقها، لأنّه يتعذّر على المعجزة أن تدخل في الأدمغة الضيّقة. ومن ذلك خلصوا إلى أنّ الإنجيل يكذب، في أماكن عديدة منه، بحيث لا يمكن الركون إلى سائر أقواله. وفقاً لأحكامهم القاطعة، لم يكن بوسع يسوع إنهاض الأموات، وإذن، فليس لأقواله أيّة قيمة.

الذين يفكّرون على هذا النحو، يسيئون التفكير، إذ إنّ التعليم وحده كفيل بإضفاء قيمة على المعجزات، في حين أنّ المعجزات لا تُثْبت، دائماً، التعاليم؛ ومن ثمّ، فالذين يفكّرون على هذا النحو يُضفون على المعجزات من الوزن والمعنى أكثر ممّا أولاها يسوع.

و لو هم طالعوا الأناجيل الأربعة برويّة، لتبيّن لهم أنّ يسوع غالباً ما يأنف من إجراء المعجزات، ويتجنّبها عندما تُطلب منه، ولا يُسبغ على هذه القدرة الإلهيّة أهمّيّةً قصوى. إنّه يرفضها كلّما توفّر لديه سببٌ كافٍ لرفضها. وقد يستسلم للإلحاح مكافأةً لإيمان المتألّمين الذين يتوسّلونه. ولكنّه، من أجل ذاته، ومن أجل خلاصه، لا يجري معجزة واحدة، لا في الصحراء للردّ على تحدّي إبليس، ولا في الناصرة عندما همّ ذووه بقتله، ولا في بستان الزيتون عندما قُبض عليه، ولا على الصليب عندما تحدّاه الشامتون بالنزول عنه. فهو لا يستخدم قدراته إلاّ من أجل الآخرين، من أجل إخوته البشر.

لطالما طُلبت منه إشارة، إشارة من السماء تقنع غير المؤمنين بصدق الحقيقة التي يعلنها. ولكنّه يقول: "هذا الجيل الفاسد يطلب إشارة، ولن يعطى سوى إشارة النبيّ يونان". وما هي تلك الإشارة ؟ لقد تبيّن للإنجيليّين الذين كتبوا بعد القيامة، أنّ يونان الذي خرج، في اليوم

الثالث، من بطن الحوت، هو صورة يسوع الذي خرج من القبر في اليوم الثالث. غير أنّ تتمّة الخطاب تثبت أنّ يسوع كان يعني، أَيضاً، أمراً آخر: "سينهض النينويّون، في يوم القيامة، مع أبناء هذا الجيل، وسيدينونهم، لأنّهم تابوا إثر كرازة يونان؛ وها إنّ هنا من هو أعظم من يونان!" النينويّون لم يطلبوا معجزات، وكان الكلام كافياً لردّهم إلى اللّه. أمّا الذين لا يرتدّون، بعد سماعهم كلام يسوع الذي يعلن حقائق أسمى بما لا يقاس ممّا أعلنه النبيّ يونان، فهم دون النينويّين، إنّهم عبدة أوثان، وبرابرة.

ينبغي ألاّ تؤمنوا بي، فقط لأنّي أصنع عجائب، ولكن ينبغي أن تذكروا أنّ الإيمان – وهو أكثر سموّاً وكمالاً،عندما لا يتّكئ على دعم المعجزة– قادر، هو أَيضاً، على صنع المعجزات. فحتّى المعجزة العظمى تفشل في تحويل القلوب المتصلّبة، المغلقة دون الحقيقة: "إن لم يسمعوا إلى موسى والأنبياء، فلن تقنعهم قيامة ميت". وفي الواقع، المدن التي أجرى فيها أكبر معجزاته، هجرته: "الويل لك يا كورزين! الويل لك يا بيت صيدا! فلو صُنعت في صور وصيدا أعمال القدرة التي صُنعت فيكما، لتابتا، منذ زمان، في المسوح والرماد "

و لم يخطر بخَلَد يسوع أنّ العجيبة امتياز موقوفٌ عليه. فعندما قيل له أنّ شخصاً كان يطرد الشياطين باسمه، أجاب: "دعوه وشأنه". وهو لم يحبس هذه القدرة عن تلاميذه، بل قال: "إشفوا المرضى، أقيموا الموتى، طهّروا البرص، أطردوا الشياطين. مجّاناً نلتم، مجّاناً أعطوا "

بوسع الجميع إجراء أعمالٍ مدهشة تحاكي المعجزات، حتّى الدجّالين والسحرة. بعض تلاميذ الفرّيسيّين كانوا يفعلون مثل هذه الأفعال، وكذلك سامريّ يدعى سمعان. ولكن لن يكون لهم، يوماً، شأن. ولن تكفي العجائب لدخول الملكوت: "كثيرون سيقولون لي، في ذلك اليوم: "يا ربّ، يا ربّ، ألم نتنبّأ باسمك ؟ ألم نطرد الشياطين، أو لم نجرِ أعمال قدرة كثيرة باسمك"؟ ويومها سأقول لهم، مواجهة: "أنا لا أعرفكم، انصرفوا عنّي جميعكم، يا مرتكبي المعاصي!" فلا يكفي أن تطرد الشياطين، ما لم تطرد شيطان الكبرياء والجشع الثاوي في داخلك.

بعد موت يسوع سيأتي آخرون، وسيجرون عجائب. وسينهض مسحاء كذبة، وأنبياء كذبة، وسيجرون إشاراتٍ وأعمالاً مدهشة كفيلة بإغواء حتّى المختارين، لو كان ذلك ممكناً. ولكنّ يسوع حذّر: لا تصدّقوا هذه الإشارات، وهذه الأمور المعجزة، حتّى مجيء ابن البشر. فمعجزات الأنبياء الكذبة عاجزة عن إثبات حقيقة أقوالهم.

لهذه الأسباب كلّها كان يسوع يتجنّب المعجزات، ولكنّه لم يستطِع، دائماً، مقاومة طلبات البائسين.بل كانت رأفته تسبق، أحياناً، طلباتهم. فالعجيبة هي قدرة الإيمان، وإيمانه كان بلا حدود، وعظيماً كان إيمان من يتوسّلونه. ولكنّه غالباً ما كان، فور إجرائه الشفاء، يوصي بالكتمان : امضِ ولا تقلْ لأحد.

أولئك الذين لا يسمعون حقيقة المسيح، لأنّ العجائب تصدم عقولهم، عليهم أن يذكروا قول يسوع، العميق المغزى، لتوما: " طوبى لمن رأى وآمن، ولكّنه أجدر بالطوبى من لم يرَ، وآمن".

العميان يبصرون

ثلاثة لا غنى للإنسان عنها : الخبز، والصحّة، والأمل.

إن هو حُرم من سواها، استطاع البقاء، ولومتذمّراً. أمّا من حُرِم هذه الثلاثة، فسرعان ما يستدعي الموت، لأنّ حياته، حينئذٍ، ستحاكي الموت، بل إنّها موتٌ يُضاف إليه ألمٌ مضاعف، مثير، يفتقر إلى سلام النوم الذي ينتفي معه كلّ شعور. فالجوع هو هزال الجسد، وضناه، والألم يجعل الجسد بغيضاً، والقنوط ينتزع من كلّ شيءٍ طعمه، ويفقده مبرّر الوجود، لا بل يفقده دافع العمل، حتّى إنّ بعضهم يحجمون عن الانتحار، لأنّ الانتحار عمل.

و من أجل اجتذاب البشر لا بدّ من توفير الخبز، والصحّة، والرجاء لهم، أي ينبغي إشباعهم، وشفاؤهم، وخلق الإيمان، لديهم، بحياةٍ أوفر جمالاً.

و يسوع نفح هذا الإيمان للذين اقتفوا أثره في الصحراء أو على الجبال، أعطاهم الخبز المادّيّ والروحيّ. كان قد أبى تحويل الحجارة إلى خبز، ولكنّه جعل بضعة أرغفة حقيقيّة تكفي ألوفاً، وحوّل الحجارة التي كان البشر يحملونها في صدورهم إلى قلوبٍ مُحبّة.

و لم يردّ المرضى. فيسوع ليس ممّن يعذّبون أنفسهم ويجلدونها، ولا يؤمن بأنّ الألم ضروريٌّ لقهر الشرّ. فالشرّ هو الشرّ، ويتحتّم طرده. وإنّما الألم هو أحد أشكال الشرّ. من أجل بلوغ الصحّة الحقّة، آلام النفس تكفي. فعلامَ مكابدة أوجاع الجسد النافلة ؟ قدامى اليهود كانوا يرون في المرض عقاباً فحسب؛ والمسيحيّون يرون فيه، قبل أيّ شيء، عوناً على التحوّل إلى اللّه.

و لكنّ يسوع لا يتوقّع الخلاص الحقّ، من العذابات، والقروح، والمسوح. أعطوا للجسد ما هو للجسد، وللنفس ما هو للنفس. لم يكن يتحرّج من الاستلقاء إلى المائدة من أجل العشاء؛ ولا يرفض الخمرة المعتّقة التي تقدّم له. بوسعه الصيام أيّاماً طويلة، والاكتفاء بكسرة خبز، ونصف سمكة مشويّة، والرقاد على اليابسة، متوسّداً حجراً. ولكنّه لا يبحث، قبل أن يفرض عليه مصيره ذلك، عن العناء، والجوع، والوجع. الصحّة في نظره، نعمة، وهو لا

يستقبح متعة مشاركة الأصدقاء الطعام وكأس النبيذ، والعطر المسكوب من إنـــاء النـــاردين، طالما أنّ هذه لا تؤذي أيّاً كان.

إن دنا منه عليلٌ شفاه. فهو ما جاء لكي ينفي الحياة، بل لكي يؤكّدها، ولكي يشيع حياةً معافاةً سعيدة. إنّه لا يتعمّد السعي وراء المرضى. فمهمّته هي طرد الآلام الروحيّـــة، وبـــثّ الفرح النفسيّ. ولكن إن تسنّى له، في أثناء سيره، القضاء على الوجع الجسديّ، وتخفيف الألم، وإعادة سلامة الجسد كي تقترن بسلامة النفس، فهو لا يُحجم. كثيراً ما يأنف ذلك، لأنّ شـــفاء الأجساد ليس مهمّته، ولأنّ غايته أسمى؛ ولأنّه يأبى أن يظهر في عيون الشعب بمظهر الساحر المتشرّد، أو بمظهر المسيح الذي كان العالم اليهوديّ ينتظره. ولكن بما أنّه يبتغي قهر الشـــرّ، وبما أنّ البعض يؤمنون بقدرته على قهر جميع الشرور، فحبّه يرغمه على الحـــدّ مـــن آلام الأجساد، أيضاً.

عندما يأتي إليه،على الدروب التي يدوسها القوم الأصحّاء، عشرات البرص المنفّرين المقزّزين، ويُظهرون، تحت أسمالهم، تلك التورّمات البيضاء الحرشـــفيّة، والجلـــد الملطّـــخ المشقّق، أو المغضّن الخشن الذي يشوّه الفم، ويغرق العينين، وينفخ اليدين؛ عندما تخطر لـــه تلك الأطياف الأليمة التي يتحاماها الجميع، وينأون عنها مرعوبين، (و يا لحسن طـــالعهم إن تيسّر لهم قليلٌ من الخبز، وقصعةٌ بها يشربون، وكوخٌ عتيق فيه يختبئون!) وعندما، من خلال شفاههم المقرّحة يصدرون، بمشقّةٍ بالغة، بضع ألفاظٍ يســـألونه، بهـــا، الصـــحّة، والشـــفاء، والمعجزة، و هم عالمون بقدرته، قولاً و فعلاً، وبكونه رجاء القانطين الأخير، فكيـــف يســـع يسوع أن يرفض الاقتراب منهم، والإصغاء إليهم، كما يرفض الآخرون ؟

و المصابون بالصرع الذين يتلوَّون في الرغام، وقد انقبضت وجوههم التـــي جمّـــدها التشنّج، وغمر الزبد أفواههم؛ والمسكونون بالشياطين، النابحون بين القبور، مثل كلابٍ حزينة في الليل؛ والمقعدون الذين ما برحوا يملكون إحساساً يمكّنهم من الشعور بالألم، تلك الجثـــث التي تسكنها نفوسٌ سجينة متوسّلة؛ والعميان الحبيسون، منذ مولدهم، في ليلٍ دائم، المتعثّرون وسط قومٍ يسعدون بالذهاب إلى حيث يرغبون، العميان الذين يســـيرون مرعـــوبين، رافعـــي الرؤوس جامدي الأبصار، ولكأنّ النور سيهبط عليهم من أعماق اللانهائيّ، العميان الـــذين لا يمثّل لهم العالم سوى سلسلة من المقاومة للمسات أيديهم؛ العميان، أولئك الوحيدون الأبـــديّون الذين لا يعرفون من الشمس سوى دفئها الفاتر أو الحارق.

كيف ليسوع أن يقول لا، لكلّ ضروب البؤس هذه! حبّه، الذي يتخطّى كلّ رأفةٍ بشريّة، بقدر ما تسمو طبيعته فوق كلّ طبيعة بشريّة، لا يقوى على ردّ توسّلاتٍ كفيلة بمسّ شـــغاف قلـــبٍ وثنيّ. توسّلات هي أبلغ تأثيراً عندما تظلّ صامتة.

إجابة على سؤال المعمدان

يسوع يشفي، ولكن لا شيء فيه يشبه الساحر أو طارد الشياطين. إنّه يُـزري بالتعزيمـات، والطلاسم، والأدخنة، والحجب، والأسرار. ولا يستعين بقوىً خفيّة من فوق أو من تحت، بل حَسْبه كلمة، صيحة، قولٌ رقيق، أو لمسةُ مداعبة. إرادته وتوسّل السائل يكفيان. يسـأل كـلّ مستغيث: "أتؤمن بقدرتي على فعل ذلك ؟" وعندما يتمّ الشفاء يقول: "إمضِ، فإيمانك هو الذي خلّصك".

المعجزة، عند يسوع، ملتقى إرادتين طيّبتين، واتّصالٌ حيٌّ بين إيمانٍ فاعل، وإيمـانٍ متلقٍّ، تعاضد قوّتين، تلاقي وتساوق يقينين مُخلِّصين: "الحقّ أقول لكم، لو كـان لـديكم مـن الإيمان، بقدر حبّة خردل، لقلتم لهذه التوتة، انقلعي وارتمي في البحر، فتطيعكم". إلاّ أنّ الذين لا يملكون من الإيمان حتّى معادل جزءٍ من ألف من حبّة الخردل، يُقسمون بأنّ لا قدرة لأحد على صنع المعجزات، وبأنّ يسوع دجّال.

في الأناجيل توصف المعجزات بثلاثة أسماء : قوى، ومعجزات، وإشـارات. إنّهـا إشارات لمن يحتفظ بذكرى النبوءات المتعلّقة بالمسيح؛ وهي عجائب لمن يقوم عليها شـاهداً؛ وهي، ليسوع، وفي يسوع، مجرّد قوى، أفعال قدرة، ومضاتٌ منتصرة تسفر عن سطوةٍ تفوق الطبيعة البشريّة.

و لأشفية يسوع وجهان. فهي لا تقتصر على الأشفية الجسديّة، بل تتعدّاها إلى أشـفية روحيّة، أشفية من تلك العلل الروحيّة التي يحرص يسوع على الحدّ منها كي يتسنّى لملكـوت السماوات أن يستقرّ على الأرض.

و لمعظم الأمراض طابعٌ مزدوج، وهي قابلة للتأويلات المجازيّـة. فيسـوع يشـفي مشوّهين، ومقعدين، ومبتلين بالحمّيات، ومستسقياً، وامرأة نازفة، ويشفي أيضاً ملكُس الـذي قطع بطرس أذنه، وقد ابتغى من هذا الشفاء الأخير، الحفاظ على شريعته حتّى آخر الشوط : أحسن إلى من يسيء إليك.

بيد أنّ معظم أشفيته تتناول مسكونين بالأرواح الشرّيرة، ومقعدين، وبرصاً، وعمياناً، وصمّاً بكماً. "المسكونون" هو الاسم القديم لمرضى الروح.حتّى المعلّم أرسطو كـان يـؤمن بسكن الأرواح أو مسّ الشيطان، إذ كـان يُعتقـد أنّ الممسوسـين، المصـابين بالصـرع، والمعتوهين، والهستيريّين كانت تحتلّهم أرواحٌ شرّيرة...

هذا التفسير العلميّ والشعبيّ للعلل العقليّة، كان يتلاءم مع التعليم الرمزيّ والتلميحيّ الذي كان ينزع إليه يسوع. فهو كان يتوخّى تأسيس ملك اللّه، وتدمير ملك إبليس. ومن ثمّ كان طرد الشياطين من صلب مهمّته. ولم يكن يحفل بالتمييز بين الفوضى المذنبة، وسكن الأرواح الخبيثة. فبين علل الجسد وعلل الروح توازٍ كرّسته الأقوال الشائعة، وهو مرتكز على تقارب فعليّ : كالتقارب بين الهائج والمصاب بالصرع؛ بين الكسول والمقعد، بين القذر والأبرص، بين الأعمى والأَصمّ، من جانب، والذين يأبون رؤية الحقيقة وسماعها، من جانبٍ آخر، بين المنقَذ والقائم من الموت.

عندما أنفذ يوحنّا، من سجنه، اثنين من تلاميذه كي يسألا يسوع هل هو المنتظر أو هل ينبغي انتظار آخر، أجابهما يسوع: "إمضيا وأبلغا يوحنّا بما تشهدان وتسمعان: العميان يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصمّ يسمعون، والأموات يقومون، والفقراء يُبشّرون بالإنجيل". لا يفصل يسوع بين الإنجيل والأشفية العجيبة. فهي أعمال من مستوى واحد؛ ولكأنّه يودّ أن يقول، بهذا الجواب، إنّه إنّما شفى الأجساد، لكي تكون النفوس أفضل أُهبةً لتلقّي البشرى الجديدة.

(ولكأنّه يقول) :

أولئك الذين كان نور الشمس محجوباً عنهم، باتوا يرونه، ويرون معه نور الحقيقة؛ والذين كان كلام الناس محبوساً عنهم، غدوا يسمعون، إضافةً إليه، كلام اللّه؛ والذين كان يمتلكهم إبليس تحرّروا من أَسره؛ والذين ما كانوا سوى قروحٍ وتفسّخ، أمسوا أنقياء كالأطفال؛ والذين كانوا مقعدين عاجزين عن الحركة، يتأثّرون اليوم خطاي؛ والذين كانوا أمواتاً عن حياة النفس يُبعثون بكلامي؛ والفقراء، بفضل البشرى، أصبحوا أوفر غنىً من الأغنياء. هذه هي كتُب اعتمادي، وشرعيّتي.

يسوع، الطبيب والمحرّر، ليس ذاك الذي يتخيّله أعداؤه الحديثون، الذين تحدوهم نواياهم الممعنة في الخبث إلى تنصيب اليُسر الوثنيّ في مواجهة الزهد، فيدّعون أنّه إله المرضى، والضعفاء، والقذرين، والبائسين، والعاجزين، والعبيد، في حين أنّ عمل يسوع كلّه هو فيض جمال، وقوّة، وطهر، وغنى، وحريّة. إنّه يقترب من المرضى كي يطرد عللهم، ومن الضعفاء والعبيد كي يحرّرهم، ومن النجسين، كي يجعلهم أنقياء. إنّه لا يحبّهم، بسبب عللهم، ولكنّه، على غرار القدماء، يحبّ الصحّة، ويحبّها بحيث يودّ إعادتها لمن فقدوها.

يسوع هو نبيّ السعادة، وضامن الحياة، حياة أجدر بالعيش؛ وما عجائبه سوى عربون وعوده.

" **طاليثا قومي** "

"الأموات يقومون" هذه واحدةٌ من الإشارات التي كانت خليقةً بالردّ علـــى تســـاؤلات المعمدان السجين. لمرتا الطيّبة، النشيطة، قال يسوع: "أَنا القيامة والحياة؛ كلّ من يؤمن بـــي، ولو مات، فسيحيا. وكلّ من يحيا ويؤمن بي، لن يموت أبداً ". القيامة هي ولادةٌ جديـــدة فـــي الإيمان. والخلود هو تأكيدٌ لهذا الإيمان. إنّ أقوال يوحنّا الإنجيليّ هي مَثَلٌ مجرّد، يكاد يكـــون لاهوتيّاً، وهي مستمدّة من خبرةٍ فرديّة.

و لكنّ الإنجيليّين يتحدّثون عن ثلاثة أحداث قيامة أموات، أحداثٍ تاريخيّة، يروونهـــا بأسلوب الشاهد البسيط والواضح. فقد أقام يسوع أمواتاً ثلاثة : شابّاً، وفتاة، وصديقاً.

كان يهمّ بدخول مدينة نائين أو "نعيم"، "الجميلة"، الجاثمة على قمّة هضبة، غير بعيدة عن الناصرة، وإذ به أمام موكبٍ جنائزيّ، وكان المشيَّع ابن أرملة، شابّاً. كانت الأمّ قد فقدت زوجها، قبل فترة وجيزة، وها إنّ ابنها، الآن، يُقتاد إلى لحده. وشاهدها يسوع، تســـير بـــين النساء، منتحبة نحيباً الأمّهات الهلع، المكبوت، المروّع. كان لها، في العالم، رجلان يحبّانهـــا؛ وقد قضيا، كلاهما، نحبهما، الواحد تلو الآخر، فظلّت وحيدة، بلا زوج، ولا ولد، ولا سند، ولا حتّى عزاء البوح بألمها لكائنٍ يشاركها إيّاه. لقد فقدت حبّيها البسيطين: ذكرى شبابها، ورجاء شيخوختها. ولن يقبّل وجهها، من بعد، أحد.

و أخذت الرأفة بيسوع كلّ مأخذ. ولكأنّ نحيب المرأة كان عتاباً له. قال لها: "كفـــاك بكاءً"، ودنا، فلمس النعش، حيث كان الشاب مسجّى، ملفوفاً بغطاء، ولكن سافر الوجه، وقـــد صبغه شحوب الموت. وتوقّف حاملو النعش، وساد الصمت، وسكنت الأمّ، التي دنـــت، هـــي أيضاً، وهتف يسوع :

–"أيّها الشابّ، أقول لك: انهض"، لقد ولّى زمن النوم. كيف تنام هادئاً وأمّك مفجوعة؟ هيّا، قمْ !

و أطاع الشابّ، فاستوى في نعشه، وأخذ يتكلّم. "و أعاده يسوع إلى أُمّه". "أَعاده" لأنّه لها. كان قد استعاده من الموت، كي يعيده لمن لا تقوى على العيش بلاه. أعاده لكي تكفكف أمٌّ دموعها.

في يومٍ آخر، ارتمى أبٌ عند قدمي يسوع، متوسّلاً، فقد كانت ابنته الوحيدة تحتضر. كان اسم الرجل يئير، ومع أنّه كان من رؤساء المجمع، إلاّ أنّه كان يؤمن بيسوع.

و فيما كانا منطلقين إلى منزل يئير، وافاهما أحد خدّامه وقال له: "لقد ماتت ابنتك، فلا داعي لأن تأتي بالمعلّم". ولكن يسوع لا يؤمن بالموت، فقال للأب: "لا تخفْ، آمن فقط فتـــنجُ ابنتك".

و انتهيا إلى البيت. في الخارج كان زمّارون، وجمعٌ صاخب، وفي الداخل نساء وأصدقاء، فصاح فيهم يسوع:

– أخرجوا، وكفّوا عن البكاء. فالفتاة لم تمُتْ، بل إنّها نائمة.

و دخل إلى الحجرة، يواكبه ثلاثة من تلاميذه، ووالدا الفتاة، وأخذ يد الصغيرة الراقدة وهتف :

– "طاليثا قومي"، أي أيّتها الصبيّة انهضي.

و في الحال نهضت الصبيّة، وأخذت تمشي، "فقد كانت في الثانية عشرة من العمر"، حسبما يضيف لوقا. ولكن بما أنّها كانت واهنةً وشاحبة، في أعقاب علّتها المتمادية، أمر يسوع ذويها بالمسارعة إلى إطعامها. فالتي كانت أمامهم لم تكن روحاً أو شبحاً، بل جسداً حيّاً، يستفيق، متعباً، كي يباشر يوماً جديداً، بعد أحلام الحمّى.

استيقاظ لعازر

لعازر ويسوع كانا صديقَيْن متحابَّيْن. و لطالما تناول يسوع الطعام في بيت عينا، معه ومع شقيقتَيْه.

و ذات يوم اعتلّ لعازر، فأنفذت شقيقتاه من ينبئ يسوع بذلك. فقال يسوع : هذا المرض لن يؤدّي للموت. ومكث، بعدُ، يومين، حيث كان، وفي اليوم الثالث قال لتلاميذه: إنّ لعازر، صديقنا راقد، فهيّا لنوقظه.

و لمّا دنا من بيت عنيا، خفّت مرتا إلى ملاقاته، معاتبة:

– لو كنت هنا، لما مات أخي !

و ما لبثت أن جاءت مريم، وقالت، هي أيضاً :

– لو كنت هنا، لما مات أخي !

و تأثّر يسوع بهذا العتاب المتكرّر، لا خشية أن يكون قد جاء متأخّراً جدّاً، بل لأنّه كان يحزن دائماً لقلّة إيمان أحبابه. وسأل :

– أين وضعتموه ؟

فقالوا له : تعالَ وانظر. وبكى يسوع. كانت تلك هي المرَّة الأولى يشاهد فيها باكياً، وشخَص إلى اللحد، وهو يبكي.

أزيحوا الحجر!

و اعترضت مرتا، ربّة البيت، العاقلة، الواقعيّة :

– ياربّ، لقد انقضت أربعة أيّام على موته، ولا ريب أنّه قد أنتن !

و لم يُصغِ إليها يسوع، بل أمر ثانية :

– أزيحوا الحجر !

و أُزيح الحجر؛ ورفع يسوع جبينه إلى السماء، وفي أعقاب صلاةٍ وجيزة، دنا من القبر، ونادى صديقه بصوتٍ جهوريّ :

– يا لعازر، اخرج !

و خرج لعازر من القبر متعثّراً، إذ كانت يداه ورجلاه مشدودة بعصائب، ووجهه مغطّى بمنديل.

و أمر يسوع : حلّوا أربطته، ودعوه يمضِ

و رجع الأربعة إلى المنزل، يتبعهم الاثنا عشر، وموكبٌ من اليهود الذين أخذ منهم الذهول كلّ مأخذ، وعادت عينا لعازر تعتادان النور. وبجهدٍ حملته ساقاه الموهنتان فيما هو كان يتلمّس يديه. ومدّت مرتا النشيطة المائدة بقدر ما استطاعت، وسط الفوضى السائدة، في أعقاب أربعة أيّام من الحداد، وتناول الناهض من الموت الطعام مع شقيقتيه وأصدقائه. أمّا مريم فما كانت تقوى على إشاحة أنظارها عن قاهر الموت، الذي، بعد أن مسح وجهه، راح يكسر الخبز، ويرتشف الخمرة، ولكأنّ ذلك اليوم كان نظير جميع الأيّام.

تلك هي القيامات التي يرويها الإنجيليّون. ومن رواياتهم، نستطيع استخلاص بضع ملاحظات تغنينا عن كلّ تعليقٍ مدّعٍ.

لقد أنهض يسوع، طيلة حياته، ثلاثة أمواتٍ فقط، ولم يفعل ذلك تباهياً بقدراته، وبغية صدم خيال الشعوب، بل رأفةً بآلام من كانوا يحبّون أولئك الأموات، وتوخّياً لسكب العزاء في قلوب أمٍّ، وأبٍ، وشقيقتَيْن. إثنتان من تلك المعجزات أُجريتا على مرأى الملأ، وواحدة، وهي إقامة ابنة يئير، جرت بحضور عددٍ ضئيلٍ من الشهود الذين أمرهم يسوع بالتزام الصمت.

فضلاً عن ذلك، وما هو أجلّ شأناً : في الحالات الثلاث يتحدّث يسوع عن الميت وكأنّه ليس ميتاً، بل كأنّه مستغرقٌ في السّبات. عندما أنهض ابن الأرملة، لم يتسنّ له وقتٌ كي يتكلّم، إذ إنّ قراره جاء مباغتاً، ولكنّه خاطب الميت مخاطبة ابنٍ كسول يُطيل نومه : أيّها الشابّ، أقول لك : انهض. وعندما أُنبئ أنّ ابنة يئير قضت نحبها، أجاب : إنّها لم تمت، بل هي نائمة.

لا يدّعي يسوع إنهاض أموات، بل يبدو وكأنّه يوقظهم، فالموت، في نظره إن هو إلاّ سُبات، أعمق من النوم اليوميّ، ومن العمق بحيث لا يقوى على هزّه سوى حبٍّ يفوق الطاقات البشريّة. حبّ الأحياء أكثر منه حبّ النائمين، حبّ من يبكي، لدى رؤية دموع المحبّين.

عرس قانا

كانت تطيب ليسوع المشاركة في الأعراس

فالعرس، لرجل الشعب الذي قلّما يبذخ، وقلّما يأكل حتّى الشبع، وقلّما يشرب حتّى الارتواء و التَمَل، يمثّل أحلى ذكرى في حياته. فهو فسحة عيد، وكرم، وإسراف، وسط رداءة الحياة الرماديّة المتمادية.

الأغنياء الذين يستطيعون إقامة المآدب كلّ مساء؛ أغنياء اليوم الذين يلتهمون، دفعةً واحدة، ما كان يقيم أَوَد فقير الأمس أسبوعاً، باتوا عاجزين عن تذوّق بهجة هذا اليوم المقدّسة.

بيد أنّ الفقير، قديماً، الكادح، رجل الحقول، الشرقيّ الذي كان يتغذّى، سحابة العام، بخبز الشعير، وحفنة تينٍ جافّ، وبضع بيضاتٍ مسلوقة، وبالزهيد من السمك، والذي لم يكن يذبح الجدي أو الحمل إلاّ بمناسبة الاحتفالات الكبرى؛ الإنسان الذي ألف الكدّ، والتقتير، والاستغناء عن أمورٍ كثيرة، والاكتفاء بالضروريّ، فكان يرى في العرس أصدق عيد، وأجمله، في حياته. فسائر الأعياد، الشعبيّة والدينيّة، كانت أعياد الجميع، متساوية للجميع، أمّا قرانه فكان عيده، عيداً له وحده، ولم يكن ليحدث سوى مرّةٍ واحدةٍ في مسيرة عمره.

و بالتالي، كان يُستدعى كلّ صنوف الجمال والثروة للإحاطة بالعروسين، وجعل عرسهما يوماً لا يُنسى. فقد كان يسبق العريس موكب مشاعل، وموسيقيّين، وراقصين؛ وفي البيت كان كلّ شيء وفيراً : لحومٌ متنوّعة مطهوَّة بأساليب مختلفة، وزقاقٌ من النبيذ مسندة إلى الجدران، قماقم العطر للأصدقاء، أضواء، وموسيقى، وعطر، ونشوة، ورقص: لم يكن ينقص شيء ممّا يدغدغ الحواسّ. كلّ تلك الأمور التي كانت نصيب الأمراء والأغنياء اليوميّ، كانت تنتصر، في ذلك اليوم الوحيد، في بيت الفقير، الوضيع.

وكان يسوع يحبّ هذا الفرح البريء، ويتأثّر لتلك البهجة العارمة التي تنتزع أولئك البسطاء، لبضع ساعات، من امّحائهم الكئيب. ولم يكن يرى في العرس مجرّد احتفال، بل يرى، في الزواج، المحاولة القصوى التي يسعى بها شباب الإنسان إلى قهر القَدَر، بالحبّ، باندماج حبّين، بالتوافق على الحبّ بين شبابين. إنّه تأكيدٌ لإيمانٍ مزدوج في الحياة، وتأكيدٌ على وجوب استمرار الحياة، وعلى أنّها جديرة بالعيش. الإنسان الذي يتزوّج هو رهينةٌ في أيدي مجتمع البشر. بجعله نفسه رئيساً لمجتمعٍ جديد، وأباً لجيل، يصبح أوفر حرّيّة، ولكنّه يعلن عن نفسه عبداً.

فالزواج وعدٌ بالسعادة، ورضى بالاستشهاد. للوهم وللوعي فيه نصيب. في ظلّ المأساة التي تلقي على المستقبل رجاء فرح، تكمن عظمة الزواج البطوليّة والمقدّسة. إنّه يتعذّر

الإفلات من الزواج ما لم يُصغَ إلى حجج الفكر الأنانيّ. وهل من رأى، في سوى الزواج، حكماً بالإدانة يرغب فيه الناس رغبةً عارمة ؟

و للزواج، في نظر يسوع، مغزى أبعد عمقاً : إنّه مبدأ أبديّة. فما وصله اللّه، لا يحلّه إنسان. وعندما تتفاهم القلوب، وتلتحم الأجساد، ما من شريعة أو سيف، تقوى على فصلها. وفي هذه الحياة الخاضعة للتغيير، الزائلة والهشّة، ثمّة أمرٌ واحد ينبغي أن يدوم أبداً، حتّى الموت وإلى ما بعد الموت: وهو الزواج. إنّه الحلقة الأبديّة الوحيدة، في عقدٍ زائل.

و غالباً ما يتردّد على شفاه يسوع ذكر الأعراس والمآدب. ومن أجمل أمثاله، في هذا السياق، مثَل الملك الذي دعا إلى مأدبة عرس ابنه؛ ومثَل العذارى اللائي ينتظرنَ، ليلاً، صديق العريس؛ والسيّد الذي يقيم وليمة. وهو نفسه، يشبّه ذاته بالعريس الذي يحتفل به أصدقاؤه، عندما يردّ على من يستهجنون إقدام تلاميذه على الأكل والشرب.

لم يكن يسوع يزدري الخمرة، مثل الزاهدين المرائين، وعندما سيرتشف مع الاثني عشر تلك الخمرة التي هي دمه، سيفكّر في خمرة الملكوت الجديدة.

ليس بدعاً، إذن، إن هو شارك في عرس قانا. والجميع يعلمون المعجزة التي أجراها يومئذٍ، إذ حوّل ماء ستّ جرارٍ إلى نبيذٍ أعذب من ذاك الذي قُدّم لضيوف العرس. ربّما ادّعى بعض المتحذلقين أنّ تلك كانت هديّة احتفظ بها حتّى نهاية المأدبة، فاجأ بها العروسين. ستّ مئة ليتر من النبيذ الطيّب، دليلهم على سماحة المعلّم. وقد فات أولئك العقلانيّين (جماعة القمل المنتمين إلى فولتير) أنّ يوحنّا وحده، إنجيليّ الاستعارات والرموز الفلسفيّة، هو من روى معجزة قانا، التي لم تكن عبثاً، ولم ترمِ إلى المفاجأة أو إلى الشهرة، بل كانت تحوّلاً حقّاً، أجرتها قدرة الروح على المادّة، وكانت، في الآن عينه، مثلاً، لا بالقول، بل بالحدَث الواقعيّ.

لمن لا يتوقّف عند حرف الرواية، الماء المحوّل إلى خمر هو صورةٌ للحقبة الجديدة التي يستهلّها الإنجيل. في الصحراء، قبل البشرى، كان الماء كافياً : فقد كان العالم مهجوراً، وجيعاً. وهاهي ذي البشرى السعيدة : الملكوت قادم. انقضى عهد الحزن، وبدأ عهد السعادة والفرح؛ انتهى زمن ترمّل الشريعة القديمة، كي تبدأ أعراس الشريعة الجديدة. لقد غدا العريس فيما بيننا، ولم يعد الزمن زمن إرهاق، بل زمن اندفاع، ولا زمن صوم، بل زمن نشوة، لا زمن ماء، بل زمن خمرة.

تذكّروا قول المشرف على مأدبة العرس: "كلّ إنسان يشرع بتقديم الخمرة الطيّبة، ثمّ الخمرة الدنيا، بعد أن يكون الضيوف قد انتشوا. أمّا أنت، فاحتفظت بالنبيذ الجيّد إلى الآن"

تلك كانت تقاليد اليهود والوثنيّين القدامى: ولكنّ يسوع يبغي نقض تقليد الضيافة هذا. فقد كان الأقدمون يشرعون بتقديم الخمرة الجيّدة، ثمّ يلحقونها بالرديئة. أمّا هو، فبعد الجيّد، يعطي الأجود. الخلّ الحادّ، والخمرة السّيئة التي تُقدّم في مستهلّ الوليمة، إنّما هما خمرة

الشريعة القديمة، الخمرة التي فسدت، ولم تعد صالحة للشرب. أمّا الخمرة التي يأتي بها يسوع، وهي أعذب وأقوى، فهي فرحةٌ في القلب، وحرارةٌ في الدم؛ إنّها خمرة الملكوت الجديد، المعدّة لأعراس السماء والأرض، الخمرة التي تشيع نشوةً إلهيّة، ستدعى، فيما بعد، "جنون الصليب".

عرس قانا – أولى المعجزات، في إنجيل يوحنّا – هو رمزٌ للثورة الإنجيليّة.

التينة الملعونة

مثَلٌ آخر، عبّر عنه يسوع، بأعجوبة، هو مثَل التينة التي أَيبسها.

فذات صباح، قُبَيْل عيد الفصح، إذ كان يسوع ماضياً من بيت عنيا إلى أورشليم، شعر فجأة، بالجوع. فدنا من تينة ولكنّه لم يجد عليها سوى الورق، إذ لم يكن قد آن موسم إثمارها، مع أنّها من نوع مُبكر، ومزروعة في بلاد الجنوب.

غير أنّ يسوع، ووفق ما جاء في إنجيل مرقس ومتّى، غضب على الشجرة المسكينة، ولعنها: "لا ينبتنّ منك ثمر بعد اليوم". وفي الحال يبست التينة. أمّا حسب إنجيل مرقس، فيسوع قال لها : " لا يأكلنّ أحدٌ، بعد، من ثمرك ! " وعندما مرّوا بها، في المساء، ألفَوْها يابسة.

تلي رواية آثار اللعنات، عند الإنجيليّين، عودةٌ إلى الفكرة الأليفة لدى يسوع، وهي إمكانيّة الحصول على كلّ ما يُطلب، بفضل إيمانٍ منيع.

غير أنّ آخرين يرون، في هذا الحدَث، تجسيداً للشكوى التي تتردّد على شفاه المسيح: فالتينة هي إسرائيل، الدين اليهوديّ العتيق، الذي لم يبقَ منه سوى أوراق طقوسه النافلة، والتي لا تصلح غذاءً : أوراق تحجب النور، ولا طائل منها، مصيرها إلى الجفاف، لأنّها لا توفّر لأحدٍ طعاماً. ويسوع، الجائع إلى العدل، وإلى الحبّ، كان يبحث، بين تلك الأوراق، عن ثمار الرحمة والقداسة الجوهريّة. ولكنّه عبثاً بحث، فإسرائيل لم تروِه، ولم تلبِّ توقّعاته. ولم يعد يُرجى شيءٌ من تلك الشجرة العتيقة، العقيمة، مع كثافة أوراقها. فلتيبسْ، إذن، إلى الأبد ! أمّا الثمار، فتؤتيها شعوبٌ أُخرى.

في الواقع ما أعجوبة التينة الملعونة سوى تفسير واقعيّ لمثَل التينة العقيمة التي نقرؤها في إنجيل لوقا: "كان لرجل تينة مغروسة في كرمه. فجاء يطلب عليها ثمراً فلم يجد. فقال للكرّام: ها هي ثلاث سنين آتي أطلب ثمراً على هذه التينة فلا أجد، فاقطعها. فلماذا تشغل الأرض على غير جدوى؟ فأجاب وقال له: سيّدي، دعها هذه السنة، أيضاً، فأعزق من حولها، وأُلقي سماداً. لعلّها تثمر في القابل، وإلاّ فتقطعها".

لا تدان، إذن، الشجرة في الحال، بل بعد ثلاث سنوات من العقم. وبشفاعة الفلاّح، يُرجأ الحكم سنة، تلقى، في أثنائها، الشجرةُ العناية والعلاج بحبّ. وسيكون ذاك هو الامتحان الأخير، فإن فشل، جاء دور الفأس والنار.

ثلاث سنوات قضاها يسوع يبشّر اليهود؛ وقد أخذ يفكّر بهجرهم من أجل إعلان الملكوت لآخرين. ولكنّ أحد عمّاله، واحداً من التلاميذ، ما زال متعلّقاً بشعبه، يسترحم، ويطلب فرصةً أُخرى. فعسى أن يتوب ذلك الجيل الزاني الهجين، بفضل الحبّ. ولكنّهم عندما يسلكون طريق بيت عنيا، يكون الامتحان قد انتهى : فمن اليهوديّة لم يعُدْ يُرجى سوى عارضتي صليب، وقد أَمست التينة اليهوديّة جديرةً بالحرق، ولن يأكل، أحدٌ، بعدُ، من ثمارها الفاسدة المتأخّرة.

خبز وسمك

هناك حادثا تكثيرٍ للخبز لا يختلفان إلاّ في الكميّات وعدد المتناولين، وهنا يكمن مغزاهما الروحيّ.

ألوفٌ من الفقراء تبعوا يسوع إلى مكانٍ مقفر، ولم يطعموا شيئاً مدى ثلاثة أيّام، لأنّ جوعهم إلى خبز الحياة، الكامن في أَقواله، كان بلا حدود. وفي اليوم الثالث أشفق عليهم يسوع، وأوعز إلى تلاميذه بإطعامهم، والتلاميذ ما كانوا يملكون سوى اليسير من الخبز والسمك لا يكفي لإشباع ألوف الأفواه. ولكنّ يسوع أجلس القوم على العشب، جماعاتٍ من خمسين ومئة، وبارك الزهيد من الطعام المتوفّر، وشبع الجميع، وبقي ما ملأ سلالاً عديدة.

من المقارنة بين حادثَي التكثير تبرز ملاحظة تسترعي الانتباه. ففي النوبة الأولى، كان هناك خمسة أرغفة، وخمسة آلاف شخص، وزاد من الطعام ملء اثنتي عشرة سلّة. في النوبة الثانية كان عدد الأرغفة سبعة، أي رغيفان أكثر من المرّة السابقة، وكان عدد الآكلين أربعة آلاف، أي ألف نفر أقلّ من المرّة السابقة، وكان عدد السلال التي امتلأت بالبقايا سبعاً، إذن، بقدر ما يكون عدد الأرغفة أقلّ، وعدد المتناولين أكثر، تكون كمّيّة المتبقّي أوفر، وعندما يتكاثر عدد الأرغفة، ويقلّ عدد المتناولين، تقلّ كمّيّة الفائض.

هذا يعني أنّه كلّما قلّ المتوفّر لدينا كان علينا أن نوزّع أكثر، فالأقلّ يعطي الأكثر، ولو كان عدد الأرغفة أقلّ لتضاعف عدد المتناولين، ولازدادت كميّة المتبقّي. إنّ الخبز الحقّ، خبز الحياة، يُشبع بقدر ما هو قليل. الشريعة القديمة كانت فائضة، مترعة، تتألّف من مئات الشرائع المدوّنة في الكتب، والآلاف التي ابتدعها الكتبة والفرّيسيّون. كانت، للوهلة الأولى، تبدو مائدةً عارمة تكفي لإطعام شعبٍ بأكمله. بيد أنّ جميع هذه الوصايا، والقوانين، والصِّيَغ،

ليست سوى أوراقٍ يابسة، وخروقٍ بالية، ونفاياتٍ لا تصلح طعاماً لأحد. كلّما تضخّمت كميّتها، قلّت قدرتها على الإشباع. فشعب البسطاء والمتواضعين لا يقوى على إسكات جوعه إلى العدل بهذا الفيْض من الأطعمة التي لا يستطيع تناولها. وقد تكفي، لذلك، لفظةٌ واحدةٌ توجز كلّ كلام، وتتخطّى العبادات المتحجّرة التي يمارسها قومٌ معجبون بأنفسهم ومتخمون؛ كلمةٌ تفعم النفس، وتصالح القلوب، وتشبع جوع العدل، فترتوي الجماهير، ويفيض من الطعام ما يشبع من لم يكونوا حاضرين في اليوم الأوّل.

إنّ الخبز الروحيّ، بطبيعته، معجز، فخبز القمح لا يسدّ من الجوع إلاّ قسطاً زهيداً، وعندما ينتهي، لا يعود يغذّي أحداً. أمّا خبز الحقيقة، خبز الفرح، الخبز الصوفيّ، فلا يمكن استنفاده. وإن هو قُسّم إلى ألوف الأجزاء، يظلّ مكتملاً، ويُصيب كلّ فرد منه نصيبه، كما فعل القوم في الصحراء. وكلّما أُعطي منه، بقي ما يكفي من سيُقبلون على التناول منه، لاحقاً.

في يومٍ آخر كان التلاميذ قد ذهلوا عن اصطحاب خبزٍ للطريق، وحذّرهم يسوع من خمير الفرّيسيّين والصدّوقيّين. وبما أنّهم أَلِفوا أن يكونوا بطيئي الفهم، فقد شرعوا يقولون في ما بينهم إنّ يسوع يقول ذلك لأنّهم أَغفلوا الإتيان بخبز. وعلم يسوع بما يدور في خَلَدهم، فعاتبهم قائلاً: "يا قليلي الإيمان، كيف يقلقكم أن ليس لديكم خبز ؟ ألم تعوا، بعد، أو نسيتم الأرغفة الخمسة التي أطعمت خمسة آلاف إنسان، وكم سلّة ملأتم ممّا زاد ؟ فكيف لا تدركون أنّني لم أكن أتكلّم عن الخبز بل أنّي أحذّركم من خمير الفرّيسيّين والصدّوقيّين، أولئك الحرّاس العميان لشريعةٍ دالت وانتهت؟"

إنّهم الاثنا عشر، المختارون، المتميّزون، والمخلصون، ومع ذلك لا يفلحون في الفهم من الكلمة الأولى، ولا يؤمنون عندما يكون الإيمان ضرورياً. فحتّى على السفينة، في ليلة العاصفة، اضطرّ يسوع إلى تأنيبهم. فقد كان يرقد في مؤخّر السفينة، على وسادة أحد البحّارة، عندما هبّت الريح بغتةً، وثار على البحيرة إعصار، وانقضّت الأمواج على السفينة وكأنّها تحاول قلبها بين لحظةٍ وأُخرى. وأَيقظ التلاميذ المذعورون يسوع قائلين: "خلّصنا فنحن نهلك، ألا تهتمّ لأمرنا؟" ونهض يسوع، فأمر الريح بالسكوت، وأمر البحر بالسكون، فهبطت الريح، وساد البحرَ سجوٌّ عظيم. وحينئذٍ صاح في تلاميذه: "لمَ خفتم، يا قليلي الإيمان ؟ أين هو إيمانكم، ولمَ تفتقرون إليه؟" أَمّا هم، فبعد أن نجوا، قالوا خجلين: "من هو هذا الذي تذعن له الريح والبحر؟"

يا سمعان بطرس، إنّ معلّمك كائنٌ لا يعرف الخوف. فهو لا يسمو، بطبيعته، فوق الطبيعة البشريّة، فحسب، بل إنّ إيمانه، وحبّه، وإرادته، على جانبٍ فريدٍ من العظمة؛ ولا شيء، حيّاً أو غير حيّ، يقوى على مقاومة هذه العظمات الثلاث. لقد زهد في كلّ ما هو زمنيّ، وانتصر على الزمن. وزهد في الخيرات الجسديّة؛ ولذلك هو قادرٌ على إنقاذ الجسد؛

لقد زهد في ما هو آتٍ من المادّة، ولذلك هو سيّد المادّة. ولكلّ إنسانٍ نصيبه من هذه السيادة، إن هو آمن، على ألاّ يكون إيمانه في ذاته، لا غير، إيمان كبرياء... فإيمان يسوع قوامه الحبّ، حبّ الأب، وحبّ البشر.

و بفضل هذا الإيمان، هبّ لنجدة تلاميذه الذين كان مركبهم يصارع الموج، سائراً على اليمّ، وكأنّه يدوس عشب المراعي. في ثنايا الظلمة، ظنّوه خيالاً، وكان عليه، في هذه النوبة أيضاً، أن يطمئنهم: "لا تخافوا، أنا هو". وما إن استقلّ المركب حتّى سكنت الريح، وما هي إلاّ لحظات حتّى بلغوا الشاطئ. ومرّةً أُخرى ذُهلوا، "لأنّهم لم يفهموا شيئاً من أمر الأرغفة، لأنّ قلوبهم كانت غليظة"، على حدّ قول الإنجيليّ النزيه مرقس.

قد تبدو المقاربة بين الحادثين ساذجة، ولكنّها عميقة المغزى: فمعجزة تكثير الأرغفة هي أساس كلّ المعجزات الأُخرى. إنّ الأمثال كلّها، سواء عُبّر عنها بكلماتٍ شعريّة، أو بمعجزاتٍ مرئيّة، هي الغذاء عينه، معدّاً بطرقٍ مختلفة. وعلى أصدقاء يسوع أن يدركوا، أقلّه، هذه الحقيقة، فهي، وحدها، ضروريّة: الروح هو الغذاء الوحيد الجدير بالإنسان، والإنسان الذي يتغذّى به، هو سيّد العالم.

ليس سرّيّاً، بل هو شاعر

للوهلة الأولى، يبدو يسوع ميّالاً إلى الكتمان والسرّيّة. فهو يوصي الذين أجرى لهم عجائب، بألاّ يذيعوا نبأ شفائهم؛ وهو حريصٌ على أن تتمّ الصلوات وأعمال الإحسان سرّاً؛ وعندما يعترف التلاميذ بأنّه المسيح، يرجوهم ألاّ يفشوا الأمر؛ وفي أعقاب تجلّيه يطالب شهوده الثلاثة بالتزام الصمت؛ وتعاليمه غالباً ما تتمّ على شكل أمثالٍ لا يقوى الجميع على إدراك مغزاها.

و لو أنعمنا النظر لتبيّن أن ليس في سلوك يسوع أيّة سرّيّة، وأنّه بعيدٌ، كلّ البعد، عن التعاليم الباطنيّة، السرّيّة، المقصورة على بعض المتنوّرين؛ فعمله تمّ، جهاراً، على الملأ، وتعاليمه ألقاها في الساحات العامّة، وعلى ضفاف البحيرة، وفي المجامع، وسط الجموع.

و لئن هو آثر أن تحاط خوارقه بالكتمان، فلكيلا يُقارن بالسحرة والمشعوذين؛ أمّا توصيته بعمل الخير سرّاً، فلكيلا يقضي العُجْب على الثواب. وهو منع تلاميذه من إعلان أنّه المسيح، قبل دخوله أورشليم، الذي دشّن به، علناً، مسيحانيّته؛ وتكلّم بأمثال كي يفهمه، على نحوٍ أمثل، البسطاء، فهم أكثر إصغاءً للرواية منهم للعظة، وأقدر حفظاً لقصّة منهم لجدلٍ فكريّ.

ثلاثة من الإنجيليّين يروون ما يبدو وكأنّه ينقض ما نقوله : فهو يعلّم بالأمثال لكيلا يفهمه الجميع. فهو يقول لتلاميذه: "أنتم أُعطيتم معرفة أسرار ملكوت السماوات، ولكنّ هذه المعرفة لم تُعطَ لهم.. إنّني أكلّمهم بأمثال لأنّ لهم عيوناً ولا يبصرون، ولأنّ لهم آذاناً ولا يسمعون".

و لكنّ يسوع يعني ببساطة : أنتم تفهمون هذه الأسرار، بيد أنّ كثيرين لا يفهمونها، مع أنّ لهم آذاناً مثل آذانكم. وهؤلاء أُحدّثهم بأمثال، أي بلغة الأحداث الزاهية، أي بلغةٍ أقرب إلى مداركهم. الأطفال يُعلَّمون بالقصص الخياليّة، والبسطاء بالروايات. وهؤلاء القوم هم في مثل جموح البسطاء، وفي مثل سذاجة الأطفال. ولكي أتغلّب على صَمَمهم، أوفّق كلامي مع طبيعتهم. أُحدّث خيالهم الرحب، لا عقلهم الواهي. ولست أبتغي، بذلك، إخفاء الحقيقة، بل إظهارها على نحوٍ أفضل لمن لا يستطيعون رؤيتها، في شكلها العقلانيّ. وإن لم يفهموها، فالذنب ذنب العناد الذي غالباً ما يغلق عيون النفس وآذانها.

لم يكن لدى يسوع أسرارٌ يضطرّ إلى كتمها، بل كان يبتغي أن يفهمه الأشدّ تواضعاً وجهلاً. ولم تكن بغية الأمثال إخفاء تعاليمه عن الجهّال، بل جعلها أشدّ وضوحاً، وفي متناول الجميع. أمّا كون قدرة إدراك التلاميذ، أحياناً، دون المهمّة الموكلة إليهم، فذلك واقعٌ لم يكن خافياً على يسوع.

إنّ روعة فرادة رسالة يسوع قد أَلقت الظلّ على أصالتها الشعريّة التي لا تقلّ عنها روعة. لم يكتب يسوع سوى مرّة واحدة، إذ خطّ بضع كلمات على الرمل، محتها الريح إلى الأبد، ولو هو كتب، لكان وسط ذلك الشعب، ذي الخيال الجبّار، الذي ابتدع المزامير، وتاريخ راعوت، وكتاب أيّوب، ونشيد الأناشيد، أحد أكبر شعراء جميع الأزمنة.

إنّ طفولة روحه المنتصرة، والأرض التي شهدت نموّه، وقراءته للقليل من الكتب، التي كانت تنطوي على أغنى القصائد، وتواصله المفعم حبّاً مع حياة الحقول والبهائم، وفوق كلّ شيء، رغبته الإلهيّة الملتهبة في إنارة كلّ من يقاسي من الظلمة، وفي إنقاذ كلّ ضالّ، وفي توفير السعادة للتعساء، هذه جميعها جعلت من يسوع شاعراً، خلاّقاً لصورٍ حيّة وأبديّة، حقّق بها المعجزة الجديدة التي لم يأتِ الإنجيليّون على ذكرها : أعجوبة تبليغ الحقائق الأكثر سموّاً، بواسطة رواياتٍ مألوفة، بسيطة، تفيض عذوبة، ما زالت تتألّق، بعد عشرين قرناً، بهذا الشباب الفريد، الذي هو الأبديّة. فالشعر الحقّ لا يقتبس نوره من المصابيح بل من النجوم، ولا يثوي في الكتابات الموروثة عن الأجداد، بل في الحبّ، وفي الألم، وفي عمق النفس المتأثّرة.

بعض تلك الروايات ليست سوى تعبيرٍ مثاليّ وملحميّ عن حقائق أعلنها، في مكانٍ آخر، بكلماتٍ مجرّدة، ولكنّ بعضها يطلعنا على ما لم يردْ في تبشيره، إلاّ على شكل أمثال.

وما الأمثال إلاّ تفسير مصوّر لعظة الجبل، كما يستطيع أن يبدعه شاعر تُطلَق عليه، بجدارة، دون جميع أبناء الأرض، صفة الإلهيّ.

المأدبة

لا نلج ملكوت السماوات، إلاّ بعد أن نتطهّر ونصبح جديرين به. الملكوت عيدٌ أبديّ ينبغي أن نغشاه في لباس العيد. فذلك الملك الذي كان يحتفل بعرس ابنه، وبما أنّ مدعوّيه تلكّأوا في الحضور، دعا قليلي الشأن من متشرّدين ومتسوّلين؛ ولكنّه عندما دخل قاعة المأدبة، وشاهد أحدهم ملوّثاً بالدهون والوحل، ألقى به خارجاً كي يصرّ بأسنانه، في قرّ الليل.

في مأدبة الملكوت، إن لم يقدم المدعوّون الأوّلون، الجميع يُقبَلون: حتّى البائسون والخطأة. وكان الملك قد دعا، في الوقت المناسب، مختاريه، ولكن اتّفق أنّ أحدهم كان يشتري أرضاً، في ذلك اليوم، وآخر خمسة فدادين بقر، و كان ثالث يعقد قرانه، فشُغِلوا بمصالحهم، ولم يُلبّوا الدعوة. حينئذٍ أنفذ الملك خدمه كي يلمّوا، من الشوارع، أصحاب العاهات، والمهلهلين، والحثالة، وإذ بقيت أماكن شاغرة، أمر أن يُدخَل، عنوةً، أولئك الذين كانوا يمرّون أمام قصره، أيّاً كانوا، وافتتحت المأدبة.

كانت مأدبة ملكيّة، فخمة، بيد أنّها كانت تعني الامتلاء من لحوم الخراف والأسماك، والانتشاء بالنبيذ والمشروبات المسكرة القويّة. وفي اليوم التالي، إثر انتهائها، وإفراغ الموائد، كان على كلّ فردٍ أن يؤوب إلى بيته، وإلى إملاقه. وإن آثر بعض المدعوّين الأوّلين على هذه المتعة الجسديّة، متعةً جسديّة أُخرى، فهم معذورون

أمّا مأدبة الملكوت الإلهيّ فهي وعدٌ بسعادة روحٍ مطلقة، أبديّة، تمنح الارتواء. إنّها شديدة الاختلاف عن حفلات اللهو الأرضيّة العابرة، وحفلات السكر التي تنتهي بالقيء، والأكل المفرط الذي ينفخ الكرش، والمنازلات الفاسقة التي توجع العظام، وتذلّ النفس. وها إنّ الذين اختارهم يسوع بين البشر أجمعين، وكانوا أوائل مدعوّيه إلى العيد الإلهيّ، عيد الولادة الثانية، لم يلبّوا الدعوة، بل مالوا برؤوسهم، وانصرفوا عنه، إلى أعمالهم اليوميّة القذرة، مؤثرين مستنقع الخيرات الزمنيّة على سنى الرجاء الأسمى، مبرّر الحياة المعقول الوحيد.

و حينئذٍ دعا جميع الآخرين إلى تبوّء أماكنهم؛ فاحتلّ المتسوّلون أماكن الأغنياء، والخطأة أماكن الفرّيسيّين، والبغايا أماكن السيّدات الراقيات، والجهّال أماكن الراسخين في العلم، والمرضى والمتألّمون أماكن السعداء والأصحّاء.

حتّى آخر القادمين يُرحّب بهم، إن هم قدموا في الوقت المناسب، فصاحب الكرم، رأى، في الساحة، عمّالاً ينتظرون من يستأجرهم، فأرسلهم كي يشذّبوا كرمه، بعد أن اتّفق معهم على أجرٍ قدره دينار. فيما بعد، عند الظهيرة، شاهد آخرين يلتمسون عملاً، فأرسلهم، أَيضاً إلى كرمه؛ وبعد ذلك، أرسل، أَيضاً، آخرين. وعملوا، جميعهم، فمنهم من عزق الأرض، ومنهم من شذّب الكرم. وعندما حلّ المساء نفح كلاً منهم أجره، وكان نصيب كلٍّ منهم ديناراً. غير أنّ الذين كانوا قد شرعوا يعملون منذ الصباح الباكر، راحوا يتذمّرون: "علامَ يظفر الذين عملوا أقلّ منّا بمثل أجرنا؟" وسمعهم صاحب الكرم فأجابهم : " ألم أَتّفق معكم على أجر دينار ؟ فعلامَ تشتكون ؟ وإن أَنا أردت أن أُعطي عمّال الساعة الأخيرة مثلما أعطيتكم، فهل أَنا بخستكم حقّكم؟"

إنّ ما يبدو، لدى صاحب الكرم، إخلالاً بالعدل، إن هو إلاّ عدلٌ أوفر كَرَماً. فقد منح كلّ فرد ما وعده به. ومن جاء أخيراً، وعمل في مثل الرجاء الذي يحدو سواه، يحقّ له، كالآخرين، أن يتمتّع بالملكوت الذي جهد في سبيله حتّى الليل.

ولكن الويل لمن يأتي بعد فوات الأوان. فليس لأحد علمٌ باليوم المحدّد، ولا بالساعة التي، بعدها، يقرع الباب عبثاً، من ظلّ خارجاً، يعاني في الظلمات الخارجيّة.

ذهب ربّ البيت إلى العرس، والخدّام يجهلون ساعة عودته، فهنيئاً لمن انتظروه، فوجدهم متيقّظين، لمّا عاد. عندئذٍ سيجلسهم هو نفسه إلى المائدة، وسيقوم بخدمتهم. ولكن إن وجدهم نياماً، ولم يكن، ثمّة، من يستقبله، فظلّ حائراً عند الباب، طويلاً، إلى أن يفتح له أحدهم، وهو مشعّث الشعر، مثقل الجفون بالنعاس، وإن هو دخل فألفى المصابيح مطفأة، والماء بارداً، فإنّه سيأخذ خدّامه من أيديهم، وسيطردهم بلا رأفة.

فليستعدّ كلّ فرد، إذ إنّ ابن الإنسان يأتي في الليل كالسارق، ولا يُنبئ أحداً بساعته؛ أو إنّه كالعريس الذي يتلكّأ في الطريق، وفي بيت العروس عشر عذارى ينتظرنَه، كي يلاقينَه ويواكبنَه بالمصابيح. خمسٌ منهنّ كنّ فطنات، فاستحضرنَ زيتاً، وظلَلْنَ يقظات منصتات إلى الأصوات، ووقع الأقدام التي تقترب. أمّا الخمس الأُخريات، المفتقرات إلى الفطنة، فلم يستحضرن زيتاً، ولمّا مللنَ الانتظار استسلمنَ للكرى. وفجأة سُمعت، من بعيد، ضجّة موكب العرس، فأشعلت العذارى الفطنات مصابيحهنّ، وهرعنَ، سعيدات، لملاقاة العريس. واستيقظت الأُخريات مذعورات، والتمسنَ بعض زيتٍ من رفيقاتهنّ اللائي أَجبنَ: لمَ لم تتزوّدنَ بزيت؟ امضينَ، بالأحرى، وابتعنَ منه. وجرت الجاهلات من بيتٍ لبيت يستجدينَ بعض زيت، فألفينَ الجميع نياماً، والحوانيت مغلقة، فيما كانت الكلاب الشاردة تنبح في إثرهنّ. ولمّا عدنَ إلى بيت العرس وجدنَ الباب موصداً. وكانت الخمس الفطنات قد دخلنَ وأخذنَ يحتفلنَ. وشرعت العذارى الجاهلات يقرعنَ الباب، ويصحنَ، ويتوسّلنَ، ولكن لم يأتِ أحد كي يفتح لهنّ. وكنّ

يشهدْن، من خلال فرجات السّجُف، أنوار العشاء الحمراء، ويسمعنَ قعقعة الصحاف، ونقرات الكؤوس، والأغاني، والموسيقى، ولكن لا يجدنَ إلى الداخل سبيلاً. لقد أُقصينَ عن الوليمة الليليّة، وعليهنّ أن يمكثنَ خارجاً، في العتمة، حتّى مطلع النهار، وهنّ يرتعدنَ قرّاً وخوفاً.

الباب الضيّق

"ادخلوا من الباب الضيّق، فإنّه واسعٌ الباب، ورحبةٌ الطريق المؤدّية إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يسلكونها. ما أضيق الباب، وأحرج الطريق المؤدّية إلى الحياة، وقليلٌ هم الذين يجدونها ".

و الذين سيحاولون الدخول، في النهاية، لن يستطيعوا، لأنّ المعلّم، بعد أن يوصد الباب، لن يتعرّف أحداً.

حتّى اليوم العظيم، حتّى يفوت الأوان، اطلبوا تتلقّوا، اقرعوا، يُفتح لكم. القوم القساة، الكسالى، الذين لا يرحمون، لا يصمدون أمام لجاجة السائل، ويستسلمون في النهاية : فكيف بالأحرى سيكون أكثر ترحيباً ردّ أبٍ يحبّنا ؟

في منتصف الليل يقرع رجلٌ باب صديقٍ ويوقظه، ومن الخارج يقول له : أعرني ثلاثة أرغفة، فقد هبط عليّ ضيفٌ فجأةً، وليس لديّ ما أقدّمه له. ويجيب الصديق الذي ما برح تحت سيطرة النعاس: لا تزعجني، فأنا تعب، ولستُ أرغب في النهوض، فأولادي معي في الفراش، وإن أَنا نهضت لاستيقظوا وشرعوا يبكون. ولكنّ الآخر لا يستسلم، بل يقرع الباب ثانية، ويرفع صوته، ويتوسّل بإلحاح: فليس له من صديقٍ سواه، وضيفه الجائع في انتظاره، ويُحدث من الضجيج ما يُكره صديقه على القفز من فراشه، وإعطائه كلّ ما يلزمه من خبز.

ذلك الصديق الكسول كان طيّب القلب، ولكن حتّى الأشرار، يتصرّفون على هذا النحو. فقد كان في مدينةٍ قاضٍ لا يقيم وزناً لأحد، رجلٌ كئيبٌ وغضوبٌ يحرص على أن يتمّ كلّ شيء على هواه. وكانت أرملةٌ تأتيه، كلّ يوم، طالبةً إنصافها، ومع أنّ مطلبها كان مُحقّاً، كان يردّها بعنف، ويأبى تلبيتها. ولكنّ الأرملة كانت تحتمل قسوة ردّه، ولا تملّ من مراجعته ومضايقته. وفي نهاية المطاف، لكي يتخلّص من مضايقتها التي تمادت، ومن توسّلاتها، ولجاجتها، أصدر الحكم، وصرفها بسلام.

و لكن، لا تنبغي المطالبة بأكثر ممّا يحقّ، فمن اضطلع بمهمّته سيأكل ويشرب، ولكن لن يحتلّ مركز الشرف، ولن ينال أكثر من أخيه، وبالحريّ، أكثر من سيّده. فبعد أن يكون الخادم قد بذر الحقل، أو رعى القطيع، ثمّ عاد إلى البيت، لا يدعوه المعلّم إلى المائدة معه، ولكنّه يُخدَم، أوّلاً، ثمّ يعطيه الحصّة التي تحقّ له. هذا المثَل أهداه يسوع لتلاميذه الذين كانوا

يتجادلون في من منهم سيتبوّأ المركز الأوّل في ملكوت السماوات. وأضاف: "هل هو مدينٌ لذلك العبد لأنّه فعل ما أُمر به ؟ كذلك أنتم، أَيضاً، إذا فعلتم كلّ ما أُمرتم به فقولوا: "نحن عبيدٌ لا نملك نفعاً ولا ضرراً. وما فعلنا إلاّ ما كان يجب علينا فعله".

الفعل هو الأمر الوحيد ذو الشأن. فثمّة من يجيبون على الأمر بنَعم، ولكنّهم لا يعملون. هؤلاء سيكون عقابهم أشدّ ممّن يقولون لا، ولكنّهم، فيما بعد، يندمون، ويمتثلون. كان لأبٍ ابنان فقال للبكر : امضِ إلى الكرم واعمل، فقال له الابن نعم، ولكنّه، عوضاً عن الذهاب إلى الكرم استلقى في الظلّ، ونام. وقال الأب لابنه الأصغر، امضِ إلى الكرم واعمل مع أخيك، فأجاب : لا، فأنا تعِبٌ اليوم، وأريد أن أَرتاح. ولكنّه، بعدئذٍ، أجال في رَوْعه ما سبّبه لأبيه من حزن، من جرّاء رفضه، ممّا سيضطرّ أباه إلى النهوض بكلّ العمل بمفرده، فتغلّب على تعبه، ومضى إلى الكرم، فعمل جاهداً حتّى المساء.

سماع الكلمة لا يكفي، والموافقة عليها بالشفاه، والاستمرار في النهج، كالسابق، من غير أَيّة محاولة لتغيير ما في القلب، هي أقلّ من لا شيء. "كلّ من يأتي إليّ، ويسمع أقوالي، ويعمل بها، يشبه رجلاً فطناً، قرّر أن يبتني بيتاً، فحفر عميقاً، وأرسى أساساته على الصخر. أمّا من يسمع كلامي ولا يعمل به فيشبه أحمق أسّس منزله على الرمل، فانهمر المطر، واندفع السيل، وعصفت الرياح، وانقضّ العباب على المنزل فانهار في الحال، وكان انهياره مريعاً ".

و ينطوي مثل الزارع على تعليمٍ مماثل : "خرج الزارع ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعض الزرع في حاشية الطريق، فأتت الطير فالتقطته. وسقط بعضه على الأرض الحجرة حيث لم يكن ترابٌ كثير، فنبت من وقته لأنّه لم يجد تربة عميقة. ولمّا شرقت الشمس احترق، وإذ لم يكن له أصلٌ يبس. وسقط بعضه في الشوك، فطلع الشوك وخنقه، فلم يثمر. وسقط بعضه في الأرض الجيّدة، فنبت، وزكا، وأثمر، وأعطى بعضه ثلاثين، وبعضه ستّين، وبعضه مئة ". ولم يفهم التلاميذ هذا المثل فاضطرّ يسوع إلى أن يفسّره لهم بنفسه. فالزرع هو الكلمة. من لا يسمعها يسلبها منه إبليس. ومن يدركها ويتلقّاها بفرح، ولكنّه لا يتيح لها أن تضرب جذوراً في نفسه، فهو ينساها لدى أوّل اضطهاد. وآخرون يسمعونها، ويتقبّلونها، ولكنّهم لا يعرفون السبيل إلى طرد هموم العالم، والثروات، والأمجاد، فتداهمها هذه الأشواك وتخنقها. ولكنّ من يسمع الكلمة ويفهمها، ويجعل منها سيّدة فكره الوحيدة، وقاعدة حياته، فهو يُحاكي، حقّاً، الحقل الخصب حيث تؤتي الحبّة مئة ضعف.

بل لا يكفي سماع الكلمة، وفهمها، والعمل بها: فعلى من تلقّاها ألاّ يحتفظ بها لنفسه. إذ من هو صاحب المصباح الذي يخفيه تحت السرير، أو تحت مكيال ؟ بل على النور أن يوضع عالياً، وسط البيت، لكي يراه الجميع ويستضيئوا به.

كان على سيّدٍ أن يقوم بسفرٍ طويل، فأوكل إلى كلٍّ من عبيده " مناً"[2] لكي يستثمره. ولمّا عاد، طالبهم بالحساب. فأعاد له الأوّل أحد عشر مناً، لأنّه كان قد كسب عشرةً أخرى. فجعله قيّماً على كلّ أملاكه. وأعاد له الثاني ستّة أمناء، إذ إنّه كان قد كسب خمسة، أمّا الثالث، فمَثُل بين يديه مرتجفاً، وأراه المنا الذي كان قد أُعطيه، ملفوفاً في منديل، وقال: "يا سيّد، ها هو ذا مناك. فقد كنت أعلم أنّك رجل قاسٍ، تحصد حيث لم تزرع، وتجمع من حيث لم تضع. ولخوفي منك، أخفيت مالك". فقال له سيّده : "من فمك أدينك، أيّها العبد الرديء الكسول". ثمّ أمر أن يؤخذ منه مناه، ويعطى لمن له أحد عشرمناً. فقيل له، أليس لديه ما يكفيه ؟ فأجاب السيّد: "من له الأكثر يُعطى، ومن ليس له شيء، فما كان يظنّه له يؤخذ منه. أمّا العبد البطّال فارموه خارجاً، في الظلمة، حيث البكاء وصرير الأسنان".

فعلى من تلقّى كلمة الخلاص أن يفعل ما يسعه لكي تضاعف ثمارها، إذ قد أولي كنزاً إن تركه غير مثمر لكان من العدل أن يُنزَع منه. وليس المعنيّ هنا الفقير الذي يجب أن يعطى لأنّه لا يملك شيئاً، بل الفلاّح المتواني، والذي أوكل إليه أخصب حقلٍ في الكون فلم يُراعِ أمانة الوديعة.

و طوبى للوكيل الذي سيجده السيّد دائباً على محاسبة مرؤسيه، وعلى منح كلٍّ منهم حصّته العادلة من الحبوب. أمّا الوكيل الذي لا همّ له سوى ضرب الخدّام والخادمات، والأكل والسكر، فعندما يعود السيّد – وهو يعود في يومٍ لا يُنتظر فيه رجوعه – سيضربه بالعصيّ، ويذيقه مصير خائني الأمانة.

الخادم الذي يجهل إرادة المعلّم، ولأنّه يجهلها لا ينفّذها، ستنزل به ضربات قليلة، أمّا من يحيط علماً بهذه الإرادة، ولا يتقيّد بها، فيُضرب كثيراً، ويُطرد من البيت الذي كان فيه آمراً. ولا عُذر لحاملي الكلمة، إن لم يكونوا طليعة العاملين بتوصياتها. ومن أُعطي كثيراً، سيُطالب حتّى بالفائض.

الابن الشاطر

كان لأبٍ ابنان. زوجته تُوفيّت، وبقي له ذانك الولدان، لا غير. واثنان خيرٌ من واحد، فإن غاب أحدهما كان الآخر حاضراً، وإن اعتلّ الأصغر، عمل الأكبر عن اثنين. وإن كان

[2] نحو مئة غرشٍ ذهباً

على أحدهما أن يلقى نحبه – فالصغار يموتون أحياناً قبل الشيوخ – سيظلّ واحدٌ كي يُعنى بالأب المسكين.

و كان ذلك الرجل يحبّ ولديه، كليهما؛ وربّما آثر الأصغر، بيد أنّ هذا الإيثار كان من الضآلة بحيث لا يشعر به، هو نفسه، فالأب والأمّ يميلان دائماً للأصغر، فهو طفل البيت؛ وطفولته، التي ما برحت حديثة، تمتدّ، وتحفر، حتّى عتبة الكهولة، ثلم حنان عنيداً. أوَ لم يكن بالأمس يرضع، ويخطو خطواته الأولى، في ثيابه الصغيرة، ويقفز على الرُّكَب؟

و لكنّ ذلك الرجل لم يكن يميّز بينهما، فابناه كانا مثل عينيه، ومثل يديه، غاليين عليه بنفس القدر، وكان حريصاً على ألاّ يحتاج أيّ منهما إلى شيء. ولكن، لكلٍّ من أبناء الأب الواحد رأيه، ونادراً ما يكون لأخوين طبعان متماثلان.

كان البكر شابّاً جادّاً، حكيماً، متّزناً، تجلّت عليه، باكراً، مخايل النضج، ومظاهر ربّ أُسرة. كان يحترم والده، ولكنّه كان يرى فيه رئيساً أكثر منه أباً، ولم يكن يُظهر له أيّ شعور. لم يكن يُهمل شيئاً من مهمّات عمله، ولكنّه كان متجهّماً، ولا يني يؤنّب الخدَم. كان يؤدّي الطقوس المفروضة، ولكنّه لا يجود بشيء على الفقراء الذين يصادفهم، مدّعياً أنّ المنزل خاوٍ من الخيرات التي كان يفيضها اللّه على الأسرة. حيال أخيه كان يتظاهر بالمودّة، ولكنّه، في سريرته، لم يكن يضمر له سوى الحسد. إنّ مقولة التحابّ كالإخوة تعبّر عن نقيض ما تقصد. فبين الإخوة، الحبّ الحقّ نادر. والتاريخ اليهوديّ، بصرف النظر عن تاريخ سائر الأُمم، يُستهلّ بقايين؛ يليه يعقوب خادعاً عيسو؛ ويوسف الذي باعه إخوته، وأبشالوم الذي اغتال أمنون، وسليمان الذي ذبح أدونياس : كم من دمٍ مسفوحٍ على دربٍ متمادٍ من الحسد، والخلافات، والخيانات!

الأخ الثاني كان من نمطٍ مختلف. كان الأصغر، ولم يكن يخجل من شبابه، بل كان يسبح فيه ولكأنّه في بحيرة دافئة. كانت تخالجه كلّ شهوات سنّه، وكلّ توثّباتها : سيّئاتها وحسناتها. كان، يوماً، يخطر له أن يقتل أباه، ويوماً آخر، أن يرفعه إلى السُّحب؛ يقاطعه أسابيع طويلة، ثمّ ينقضّ على عنقه، ويحتفل به. كان يؤثر النزهة مع أترابه على العمل، ولا يتحرّج من معاقرة الخمرة، وتأمّل النساء؛ وكان كَلِفاً بالهندام الجميل. ولكنّه كان طيّب القلب: يفي ديون المعسرين، ويحسن إلى المحتاجين، في غفلةٍ من أخيه، ولا يردّ أحداً خائباً. قلّما كان يُشاهد في المجمع، وهذا، مضافاً إلى المآخذ الأُخرى، كان يجعل الجيران الرصينين، الأتقياء، المحترمين، ينظرون إليه نظرة استنكار، ويوصون الشباب بتجنّب معاشرته، ولا سيّما أنّه كان يتطلّع إلى بحبوحةٍ من العيش لا تسمح بها موارد أبيه – الرجل الطيّب، العليل، الحسير البصر – وكان يتلفّظ بعبارات لا تليق بابن أسرة مهذّب.

كان يضيق ذرعاً بتلك الحياة الضيّقة الآفاق، ويتوق إلى خوض المغامرات في بـــلادٍ غنيّة، مكتظّة بالسكّان، بعيدة، في ما وراء البحار، والجبال، وسط بذخ المدن الكبرى المزدانة بالعُمُد الرخاميّة، حيث المتاجر تغصّ بالفضّة والحرير، وحيث نساءٌ كالملكـــات، مضـــمّخات بالعطر، يهبنَ كلّ جسدهنّ لقاءَ قطعة ذهبيّة.

هنا، في القرية، كان لا بدّ من الخضوع، والانتظام، وكبت هذه الأحـــلام الجامحـــة، فالأب، مع ثروته وعطفه، حريصٌ على ماله، والأخ الأكبر كان يثور كلّما شاهده يبدّل ثوبه، أو يعود إلى البيت فرحاً. وفي المنزل لا حديثَ إلاّ عن الحقـــل والمحـــراث، وعـــن البرّيّـــة والبهائم: لم تكن تلك حياةً، بل كانت علّةً واستنزافاً.

أجال الأمر في خلَده طويلاً، ولكنّه لم يتجرّأ على البوح به. إلاّ أنّه، ذات يوم، قسّـــى وجهه، وقال لأبيه : أعطِني نصيبي من الميراث، ولن أسألك، بعد اليوم، شيئاً.

اغتمّ الأب الشيخ لهذا القول، ولكنّه لم يُجب، بل اعتكف في مخدعه، لكـــيلا تخونـــه دموعه. ومضت الأيّام، لم يتبادل الاثنان، فيها، كلمةً بهذا الشأن. وكان الابن يتـــألّم، وكســـا محيّاه الأسى، وفتر اندفاعه، وفقدت وجنتاه ألوانهما. وكان الأب يتألّم أيضاً لألم ابنه، ويتـــألّم أكثر لفكرة فقدانه. وفي نهاية المطاف تغلّب الحبّ الأبويّ. فقُيّمـــت الموجـــودات، وأجريـــت الحسابات، ونال كلٌّ من الولدين نصيبه الشرعيّ، واحتفظ الأب بالباقي لنفسه. وسارع الابـــن الأصغر إلى بيع كلّ ما لم يكن يستطيع اصطحابه، وجمع مبلغاً وافياً من المال، ثـــم امتطـــى صهوة جواده، ومضى، ذات مساء، خلسةً.

لم يستأ الأخ الأكبر للأمر، بل قال في نفسه : لقد بتُّ الابن الوحيد، فهذا لن يجـــرؤ، بعدُ، على العودة، وسأكون الآمر المطلق، ولن ينازعني أحدٌ باقي الميراث.

أمّا الأب فبكى، في سرّه، ساكباً كلّ دموع مآقيه، غاسلاً بها كلّ غضنٍ من غضـــون وجهه، مبلّلاً كلّ محيّاه الهَرِم. وقد استعان بحبّه لابنه الآخر كي يقوى على احتمال الفراق.

و لكنّ صوتاً كان ينبئه بأنّه ربّما لم يفقد، إلى الأبد، ابنه الأصغر، وأنّه سيحظى بنعمة تقبيله قبل مماته – وهذا الصوت كان عزاءه.

أمّا الشابّ الفارّ، فكان يجتاز أشواطاً كبيرة صوب البلاد التي عزم على الإقامة فيها. وعند كلّ منعطفٍ كان يتلمّس أكياس المال التي كانت تتدلّى عن يمين سرجه وعن يساره. وما إن انتهى إلى غايته حتّى بدأ يحتفل. كان يُخيّل إليه أنّ كنزه لن ينضب أبداً، فاستأجر منـــزلاً فاخراً، وابتاع خمسة أو ستّة عبيد، وارتدى ثياب الأمراء؛ وسرعان ما غدا لـــــه أصـــدقاء وصديقات، يشاركونه مائدته صبح مساء، ويعبّون من نبيذه كلّ ما تتّسع له بطونهم. واختار، بلا مساومة، أجمل نساء المدينة ممّن كنّ يُجدن الرقص والغناء واللـــبس الأنيـــق، والتعـــرّي المغناج. لم يستغلِ هديّة في سبيل التمتّع بتلك الأجساد التي كانت تستسلم في كثير من اللـــين

الشهوانيّ، وتذيقه لواعج اللذّة القصوى. ذلك الشابّ المتعطّش إلى العظمة، القادم من قريةٍ متزمّتة، والذي فُطم في عمر تفتّح الشَّبَق، أطلق العنان لشهواته المكبوتة إلى البذخ والفسق، خائضاً حياةً محفوفةً بالمخاطر.

و ما كان لمثل هذه الحياة أن تدوم، فكلّ ما لا يُغرَف من بحر ينضب. وذات يوم رأى الشابّ المبذّر قعر أكياسه، حيث لم يبقَ لا فضّة ولا ذهب، ولا نحاس، ولا شيء سوى خروق من قماشٍ وجلدٍ ملقيّة على الحضيض. واختفى الأصدقاء والنساء؛ وبيع العبيد، والأسرّة، والموائد، بما يكفي لسدّ الرمق. ثمّ ألمّت بالمدينة مجاعةٌ كبرى، وبات الشابّ المبذّر جائعاً وسط قومٍ جياع، لا يلقي أحد عليه نظرة. النساء هجرنَ إلى أراضٍ أُخرى، أكثر وفرةً وترحيباً، ونداماه كانوا يلقون عنتاً في إطعام أنفسهم.

لقد أصبح في مثل عري الدودة، واضطرّ إلى مبارحة المدينة كي يلتحق بسيّدٍ كان يمتلك حقولاً شاسعة، ولجّ في توسّله حتّى قبل به راعياً لخنازيره، فقد كان شابّاً ومعافى، ورعاة الخنازير نادرون، إذ إنّ كلاًّ منهم كان يعزف عن هذه المهنة، حالما تسنح له فرصةٌ أُخرى. ولا بدْعَ في ذلك، فعند اليهود كان رعيُ الخنازير يُعدّ أسوأ عقاب. وحتّى في مصر حيث شاعت عبادة البهائم، كان يُحظر دخول المعبد على رعاة الخنازير، دون سواهم، وما من أبٍ كان يرضى بتزويج ابنته لأحدهم، وما من شابّ كان يقبل ابنة راعي خنازير زوجة له، ولو مقابل كلّ ذهب العالم.

و لم يكن لدى الشابّ المبذّر خيارٌ آخر، فرعى الخنازير، ولم يتلقّ عن عمله أجراً، سوى الهزيل من القوت. أمّا الخنازير فلم تكن تشكو المجاعة، فهي تأكل كلّ شيء، والبلد يزخر بالخرّوب الذي كان يشبعها. وكان ذلك الجائع المسكين، يرنو بعين الحسد إلى تلك البهائم السمينة السوداء أو الزهريّة اللون، وهي تحفر الأرض بفناطيسها وتلتهم الحبوب والجذور؛ كان يتمنّى ملء بطنه بتلك الأشياء، ويندب البحبوحة التي عهدها في بيت أبيه، والولائم التي كان يقيمها في المدينة. وأحياناً، عندما كان يستبدّ به الجوع، كان ينتزع من فناطيس الخنازير ثمرة الخروب السوداء، كي يلطّف بتلك الحلاوة التافهة مرارة الندم. والويل له لو رآه السيّد !

لم يبقَ على ظهره سوى ثوب عبدٍ تفوح منه روائح الإنتان، وفي رجليه سوى خفّ مثقوب، وقد لفّ رأسه بخرقة لا لون لها. أمّا وجهه، وجه الشابّ العاشق الجميل، الذي لوّحته شمس التلال، فقد استطال ونحل، واصطبغ بلون الرصاص والطين.

تُرى من يرتدي اليوم المعاطف المصنوعة من صوفٍ جيّد غُزل وحيك في البيت، والتي تركها في الصناديق لأخيه ؟ وأين أصبحت الجلابيب الأرجوانيّة التي اضطّر إلى بيعها

بأرخص الأثمان لبائعي الثياب العتيقة ؟ لا ريب أنّ عبيد أبيه كانوا أفضل منه لباساً، وأوفر طعاماً.

و جال في خلَده :

– إنّ الخبز يفيض عنهم، وأَنا أموت جوعاً.

حتّئذٍ، كان يطرد فكرة العودة حالما تراوده. فكيف له أن يعود، وهو على هذه الحال، بعد أن ازدرى منزله، وأبكى أباه، وسلّم أخاه راية النصر؟ كيف يعود، مجرّداً من الثياب والأحذية، بلا فلس، عُطْلاً من خاتم الرجال الأحرار، مشوّهاً، حاملاً بشاعة العبوديّة والجوع، ملطّخاً بآثار أقذر البهائم؛ كيف يعود ليوفّر أسباب الشماتة للأخ والجيران، ويتذلّل عند أقدام أبٍ شيخ كان قد هجره بلا وداع ؟ أيعود خرقةً رثّة، وقد غادر ملكاً ؟ أيعود إلى الصَّحْفَة التي بصق فيها، إلى البيت الذي لم يعد له فيه شيء؟

بلى، لا يزال له أب. أبوه كان له مثلما هو لأبيه، إنّه من صلبه، وثمرة حبّه، والأب ولو أُهين، لا يقدم على طرد دمه. وإن لم يعد يريده ابناً، فلن يتردّد في اتّخاذه خادماً، ويؤثره على آخر، على ابن رجلٍ آخر. "سأمضي إلى أبي، وأقول له: "يا أبتِ، إنّي قد خطئت إلى السماء وإليك، ولا أستحقّ، بعدُ، أن أُدعى لك ابناً، فاجعلني واحداً من أجرائك". أَنا لست عائداً كابنٍ، بل كخادم، ولا أَطلب، بعدُ، حبّك، الذي لم أعد أهلاً له، بل قليلاً من الخبز في مطبخك.

وأعاد الشابّ الخنازير لصاحبها، ويمّم شطر موطنه؛ كان يستجدي من القرويّين بعض خبز؛ وخبز المحبّة والرأفة هذا كان يأكله، في ظلّ أشجار الجمّيز، مصحوباً بملح دموعه؛ قدماه المقرّحتان كانتا تجدان، أحياناً، عنتاً في حمله، غير أنّ إيمانه بصفح أبيه، كان يدفعه، خطوةً فخطوة، نحو المنزل.

وذات يومٍ، أخيراً، في ساعة القيظ، توقّف أمام الباب. ولكنّه لم يجرؤ على قرعه، وعلى مناداة أهل البيت، ولا على الولوج، بل ظلّ يطوف بالمنزل بانتظار أن يرى أحداً خارجاً منه. وإذ بأبيه يظهر عند العتبة، ويتعرّفه. صحيحٌ أنّه تغيّر، ولكنّ عينيْ الأب، حتّى إن أَتلفتهما الدموع، لا تخطئان. وهُرِع إليه، فضمّه إلى صدره، وقبّله، وأعاد تقبيله، وهو لا يملّ من إلصاق شفتيه الهرمتين الشاحبتَينْ بذلك الوجه المضنّى، بذلك الشعر الذي كساه الغبار، ولكنّه ما انفكّ ليّناً متموّجاً، بهذا الجسد الذي هو جزء منه.

و لم يستطع الشابّ، في خجله وتأثّره، أن يردّ على القبلات بمثلها. وما إن انعتق من الذراعين الأبويّتين، حتّى ارتمى أرضاً، وردّد، مرتجفاً، الخطاب الذي سبق له إعداده: "يا أبتِ، قد خطئت إلى السماء وإليك، ولستُ، بعدُ، أهلاً لأن أُدعى لك ابناً".

ولكن، فيما كان الشابّ يتواضع رافضاً تسمية الابن، تضاعف لدى الشيخ الشعور بأنّه أب، بل أنّه أبٌ للمرّة الثانية. لم يُحِرْ جواباً، بل اغرورقت عيناه بالدموع، وبصوته الجهوريّ الذي استعاد فجأة شبابه، دعا خدّامه :

– "ائتوا بأجمل ثوبٍ، وألبسوه، وضعوا خاتماً في إصبعه، وأحذيةٌ لقدميه". فعلى ابن السيّد ألاّ يدخل البيت بأسمالٍ رثّة، وعلى الخدّام أن يخدموه، فهو أيضاً سيّد. وهاتوا العجل المسمّن، واذبحوه، ولنأكل ونحتفل، لأنّ ابني هذا كان ميّتاً فقام، وكان ضائعاً فعثرنا عليه. كنّا نحتفظ بالعجل المسمّن للعيد، ولكن ما من عيدٍ، عندي، أجمل من هذا. كنتُ قد بكيتُ هذا الابن، ولكأنّه ميت، وها هوذا حيّ أمام عينيّ. كنت قد أضعته في العالم، وها إنّ العالم يعيده لي. كان بعيداً، وها هوذا معنا. كان يتسوّل عند أبواب الغرباء، وها هوذا سيّدٌ في بيته. كان جائعاً، وها إنّه يولم على مائدته".

و امتثل الخدّام، فذُبح العجل، وقسّم. وجيء بأعتق نبيذ، وأُعدّت أجمل قاعة لعيد الرجوع؛ ودعي أصدقاء الأب، واستُقدِم الموسيقيّون على عجل.

و عندما غدا كلّ شيء جاهزاً، وبعد أن استحمّ الابن، وقبّله الأب مراراً، – ولكأنّه يودّ التأكّد أنّه ابنه حقّاً، وليس رؤيا حلم – استُهلّ الاحتفال. فمزجت الخمور، ورافقت النايات أهازيج الفرح.

في تلك الأثناء، كان الابن الأكبر في الحقل. ولما قفل، مساءً، عائداً إلى البيت، سمع تصفيق الأيادي، ووقع أقدام الراقصين، واختلط عليه الأمر. وتساءل : أَجُنّ أبي، أم إنّ موكب عرس توقّف فجأة في بيتنا ؟

كان يمقت الضجيج، والوجوه الجديدة، وأبى أن يدخل ليستجلي الأمر، ولكنّه استدعى خادماً مارّاً، واستوضحه سبب الصخب، فأجاب:

– لقد عاد أخوك، فذبح أبوك العجل المسمّن، لأنّه رجع سالماً معافىً.

و نزل النبأ نزول طعنة على قلبه، واعتراه الشحوب، لا فرحاً، بل حسداً وغضباً. وجاشت كوامن حقده القديم، إذ كان مؤمناً بأنّ جميع الحجج تؤيّده، وعبّر عن استنكاره برفضه الدخول، متلبّثاً في الخارج.

حينئذٍ خرج الأب وناداه قائلاً : تعالَ، فأخوك قد عاد، واستعلم عنك، وسيُسرّ كثيراً برؤيتك، وسنحتفل معاً.

و لكنّ ذلك الشابّ الرصين لم يستطع كبت لسانه، وللمرَّة الأولى في حياته، تجرّأ على إدانة والده مواجهة:

– منذ سنوات عديدة أخدمك خدمة عبد، ولم أعصَ أوامرك، قطّ، ولم تُعطني جدياً أتعشّى به مع أصدقائي. وها إنّ ابنك الذي بدّد أموالك في مرابع الفجور، يرجع إلى البيت، فتذبح له العجل المسمّن.

هذه الكلمات القليلة أماطت اللثام عن حقارة نفسه، التي كانت مختبئة تحت معطف حكمةٍ فرّيسيّة. لقد أخذ على أبيه خضوعه، هو، له؛ واتّهمه بالبخل لأنّه لم يقدّم له، يوماً، جدياً. وهو، الابن الذي لم يعرف الحبّ إلى نفسه سبيلاً، لام أباه لفرط حبّه. " ابنك هذا "! لم يقل: "أخي". إن كان أبوه يعدّه ابناً، فهو يأبى أن يعدّه أخاً. "لقد التهم كلّ مالك مع البغايا!"، في حين ظللت إلى جانبك، وعرقت في حقلك، بلا مكافأة !

و لكنّ الأب الذي غفر لابنه الآخر أخطاءه، يصفح عنه، هو أيضاً:

– "يا بنيّ، أنت معي في كلّ حين، وكلّ ما هو لي هو لك، ولكن كان لابدّ من إقامة المأدبة والابتهاج لأنّ أخاك هذا كان ميّتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجد". هل من حجّة أقوى من هذه لإفحام الأخ الأكبر : "كان أخوك ميتاً فعاش" ؟ أن يكون قد فعل ما فعل : أي رمى مالي للزواني؛ وبذّر ما استطاع إلى التبذير سبيلاً، وهجرني بلا كلمة وداع، وتركني أبكي؛ بل لو فعل ما هو أسوأ من ذلك، لظلّ ابني. حتّى لو سرق، وقتل على الطرقات، لما استطعت نسيان أنّه ابني، ودمي. لقد ذهب وعاد، لقد فقدناه ووجدناه. لقد مات وعاش. وهل لي أن أتمنّى أكثر من ذلك ؟ إنّ التضحية بالعجل المسمّن، احتفالاً بهذه المعجزة، لشيء يسير. أنت لم تهجرني، قطّ؛ وكنت فرحي. جدائي هي لك، وحسبُك أن تطلبها لتنالها. وأنت، في كلّ يوم، تناولت طعامك على مائدتي. أمّا أخوك فكان بعيداً منذ أيّامٍ طويلة، وأشهرٍ عديدة، وما كنت أراه إلاّ في الحلم، ولم يشاركني لقمةً منذ زمنٍ بعيد. أفلا يحقّ لي أن أنتصر اليوم؟"

و هنا توقّف يسوع، إذ لم يبقَ ما يضيفه إلى عبرة هذا المثل. ولكن ما من حكاية روتها شفاه بشر – بعد حكاية يوسف – أجمل من هذه، وأبلغ منها وقعاً على قلوب البشر. وبوسع المفسّرين أن يبتدعوا ما شاؤوا، فيروا، في الابن المبذّر، الإنسان الجديد وقد طهّرته المحنة؛ ويروا، في الابن الحكيم، الفرّيسيّ الذي ينفّذ الشريعة القديمة، ولكنّه يجهل المحبّة؛ أو أن يروا، في الشابّ الحكيم، الشعب اليهوديّ الذي لا يدرك حبّ الآب الذي لن يحجم عن الترحيب بالوثنيّ الملطّخ بأهواء الوثنيّة البذيئة، والذي عاش في صحبة الخنازير.

و لكنّ يسوع لم يطرح لغزاً، بل أوضح، في ختام المثل، أنّ السماء تفرح بخاطئ يتوب أكثر من فرحها بكلّ المفاخرين ببرّهم الهجين، وكلّ المطهّرين المزهوّين بطهرهم الخارجيّ، وكلّ الأتقياء الغيورين الذين يخفون خواء قلوبهم تحت مظاهر احترام الشريعة.

و الأبرار الحقيقيّون يُرحّب بهم في ملكوت السماوات، ولا ريبة في أمرهم ولا حاجة إلى الاحتفال بمجيئهم. أمّا من كان على شفا الهلاك، وتألّم لتكون له نفسٌ جديدة وللتغلّب على طبيعته البهيميّة، وما استحقّ مكانه إلاّ بفضل إنكاره كلّ ماضيه، فهذا يستأهل أهازيج الفرح.

"من منكم، إن كان له مئة نعجة، وفقد إحداها، لا يدع التسع والتسعين الأُخريات في الصحراء، كي يمضي في إثر الضالّة حتّى يعثر عليها ؟ ومتى وجدها حملها على كتفيه، وفي طريق عودته إلى بيته، يدعو أصدقاءه وجيرانه قائلاً: " ابتهجوا معي، لأنّني وجدت نعجتي الضالّة.

"وأيّة امرأة، إن كان لها عشرة دراهم وفقدت واحداً، لا تشعل المصباح، وتكنس البيت، وتبحث بعناية حتّى تعثر عليه ؟ وعندما تجده تدعو صديقاتها وجاراتها وتقول : "ابتهجنَ معي، لأنّني عثرت على الدرهم الضائع."

و لكم الابن الذي قام بعد موت أغلى من نعجة ! وماذا يساوي درهم لقاء شفاء رجل هالك ؟

أَمثال الخطيئة

بيد أنّ الصفح يخلق واجباً لا مفرّ منه: إنّه قابلٌ للتبادل فلا بدّ من تبادله. فالحبّ نارٌ تنطفئ ما لم تُستخدم لإضرام الآخرين. وإن ألهبك آخرون بالفرح، فألهب من يدنو منك، وإلاّ لن تكون سوى حجرٍ بارد ملوّث بالدخان. من تلقّى، عليه أن يُعيد، ولو جزءاً؛ وكلّما كبر الجزء، كان ذلك أفضل.

ملكٌ أراد محاسبة عبيده، يوماً، فاستدعاهم. ولمّا شرع في المحاسبة قُدّم له واحدٌ مدين بعشرة آلاف وزنة. وإذ لم يكن يملك ما يوفي به دينه، أمر الملك ببيعه، هو وزوجته وأبناؤه، وكلّ ماله، إلى أن يوفى دينه. وارتمى العبد، يائساً، عند قدمي الملك، وما عاد سوى كتلةٍ من الأسمال تئنّ نحيباً ووعوداً : أُصبْر، وفي غضون فترةٍ وجيزة أُعيد لك كلّ مالك، ولكن لا تسمح أن يُقتاد زوجتي وأبنائي إلى السوق كي يُباعوا بيع الخراف، ويُبعَدوا عنّي، ويؤخذوا إلى حيث لا أدري.

و رقّ له قلب الملك – إذ كان له، أَيضاً، أبناء صغار – وأطلق سراحه، وسامحه بالدين.

و خرج العبد، ولكنّ قلبه لم يتغيّر في أعقاب ذلك العفو. وصادف أحد رفاقه العبيد، كان له عليه مئة دينار، أي ما يكاد لا يساوي شيئاً بالقياس إلى عشرة آلاف وزنة، فانقضّ

عليه، وأخذ بخناقه، قائلاً: أدّ ما عليك، وإلاّ أمرت الحرّاس بتقييدك بالأغلال. وارتمى ذلك العبد المسكين عند قدمي مضطهده، مثلما كان هذا قد فعل أمام الملك، وتوسّله، باكياً، واستمهله بضعة أيّام، كي يفي بدينه، مقبّلاً حاشية ثوبه، مذكّراً إيّاه بصداقتهما القديمة العهد، مستشفعاً بأولاده الذين كانوا ينتظرونه.

و لكن الرأفة لم تجد إلى قلب ذلك العبد النذل سبيلاً، فأخذ المدين من يده وزجّ به في السجن. وشاع النبأ بين سائر العبيد فاستاؤوا جميعهم، وتنامى الأمر إلى مسامع الملك، فاستدعى ذلك الشرّير القاسي، وأسلمه إلى الجلاّدين، قائلاً : لقد سامحتك بدينك الكبير، أفما كان حريّاً بك أن تسامح أخاك بدينه الأصغر ؟ لقد رحمتك، أفلم يكن خليقاً بك أن ترحمه ؟

إنّ الخطأة الذين يعترفون بالشرّ الكامن فيهم وينكرونه بقلبٍ نادم،هم أقرب إلى ملكوت اللّه من المتعبّدين المفاخرين بتقواهم.

رجلان دخلا الهيكل ليصلّيا : أحدهما فرّيسيّ، والآخر عشّار. كان الفرّيسيّ مزداناً بالرموز الدينيّة المدلاّة من جبينه وذراعه اليُسرى، وقد تدثّر بمعطفٍ موشّى بسجف طويلة لمّاعة، منتصباً، ثابتاً في وقفة من يشعر أنّه في بيته، وكان يدعو اللّه هكذا : أشكرك اللّهمّ لأنّني لست مثل سائر البشر الجشعين، الظالمين، الفاسقين، ولا مثل هذا العشّار. إنّني أفرض على نفسي الصيام مرّتين في الأُسبوع، وأدفع جميع عشوري، وأُنفّذ جميع بنود الشريعة.

و على نقيضه، لم يكن العشّار يجرؤ على رفع أنظاره، ولكأنّه خجلٌ من المثول أمام الربّ. كان يتأوّه، ويقرع صدره، ولا يقول سوى: "يا اللّه إرحمني أنا الخاطئ".

"أقول لكم إنّ هذا نزل إلى بيته مبرَّراً، وأمّا ذاك فلا، لأنّ كلّ من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفِع"

و سأل أحد علماء الشريعة يسوع: "من قريبي؟" فأجابه بالرواية التالية: كان يهوديّ منحدراً من أورشليم إلى أريحا، عبر شعابٍ جبليّة، فانقضّ عليه اللصوص، وأثخنوه بالجراح، وسلبوه، وتركوه على قارعة الطريق، بين حيٍّ وميت. ومرّ كاهن، من أولئك الذين يتبوّأون صدور البيوت في الأعياد والاجتماعات، ويتباهون بمعرفة إرادة اللّه على أطراف أناملهم؛ ورأى المسكين مرميّاً، ولم يتوقّف، بل تجنّباً لأيّة لمسة نجسة، انتقل إلى الجانب الآخر من الطريق، ومضى في سبيله؛ ثمّ مرّ لاويّ. هو أيضاً كان مشهوراً بغيرته، وكان يعرف الطقوس المقدّسة بأدقّ تفاصيلها، ويعدّ نفسه من أرباب الهيكل، لا من سدنته. فنظر شزْراً إلى الجسد المثخن بالجراح، ومضى في سبيله. وأخيراً مرّ سامريّ، والسامريّون، في نظر اليهود، كافرون، خونة، وبغيضون، ويكادون يساوون الوثنيّين،... ولم يُكبّ السامريّ على تحرّي هل المسكين الملقى على حجار الطريق مختونٌ أم لا، وهل هو من السامرة أم من اليهوديّة. بل دنا منه، ولما تبيّن سوء حاله، تحرّكت أحشاء رحمته. فاستلّ من خرجه قواريره، وصبّ على

الجروح قليلاً من الزيت والخمر، وضمّدها بمنديل، كأحسن ما استطاع التضميد، وأقلّ الرجل المجهول على متن بغلته، ومضى به إلى فندق، فوضعه في سرير، وأنعشه ببعض أطعمة ساخنة، ولم يفارقه حتّى رآه يتكلّم ويأكل. وفي الغد نقد صاحب الفندق دينارين، وقال له: اعتنِ به، واسهر عليه خيرَ سهر. وكلّ ما تتكبّده من نفقات، فوق الدينارين، سأسدّده لك، عند عودتي.

القريب، إذن، هو من يتألّم، ويحتاج إلى عون، أيّاً كان، وإلى أيّة أُمّة أو ديانة انتمى. إنّ كلّ عدوّ، إن كان في حاجةٍ إليك، وحتّى إن لم يستغث بك، هو، في المقام الأوّل، قريبك.

و المحبّة هي أكثر الصكوك تأهيلاً لدخول ملكوت السماوات. هذا ما تعلّمه الغنيّ المزدان بالأرجوان والقزّ، الذي كان يتخم نفسه بالأطعمة، طيلة النهار، مع أصدقائه. وعند باب قصره كان يقبع لعازر الفقير، الجائع، المغطّى بالقروح، والذي كان سيسعد بالاكتفاء بالفتات والعظام المتساقطة من مائدة الغنيّ الأكول. كانت الكلاب ترأف بلعازر وبؤسه، ولكنّ أقصى ما كانت تستطيع فعله له، هو لحس قروحه، فيما هو كان، بيده الهزيلة، يداعب تلك الحيوانات الودودة. أمّا الغنيّ فلم تأخذه بلعازر رأفة، قطّ. ولم يخطر له، يوماً، أن يدعوه، ولو مرَّة واحدة، إلى مائدته. ولم يرسل له، حتّى كسرة خبز، أو شيئاً من بقايا مطبخه، أو من القمامة التي يأباها حتّى العبيد. واتّفق أن لقي الفقير والغنيّ، كلاهما، حتفهما. فاستُقبِل الفقير على مائدة إبراهيم، أمّا الغنيّ فقُذِف به إلى عذاب النار، وكان يتلظّى بظمأ مضنٍ، ولا يجد أيّ عزاء. ومن بعيد، شاهد لعازر يشارك الآباء مأدبتهم، فصاح من قلب اللهب : يا أبتِ إبراهيم، ارأف بي، وأرسل إليّ لعازر كي يبلّ شفتيّ بطرف إصبعه، لأنّني أنفق في هذا اللهيب.

في حياتهما، لم يجُدْ عليه حتّى بشيءٍ من الفتات؛ وهو لم يطلب أن يُعتق من النار، ولم يلتمس جرعة ماء، أو حتّى قطرةً منه، بل مجرّد لمسة إصبع لعازر الرطب. ولكنّ إبراهيم أجابه : يا بنيّ، تذكّر أنّك نلت، على الأرض، كلّ الخيرات، فيما ابتُلي لعازر بكلّ الآلام، وها هوذا الآن يلقى عزاءه، وأنت تلقى العذاب. لو أنت تكرّمت عليه ولو بجزءٍ يسير من طعامك، (وكنت تعلم أنّه جائع، قابع عند بابك مثل كلب، وأنّ الكلاب كانت أكثر شفقة عليه منك) لو أنّك مننتَ عليه، مرَّةً واحدة، بلقمة خبز، لما احتجت، اليوم، أن تطلب لمسة طرف إصبعه المبلول.

إنّ الغنيّ يلتذّ بماله، ويتألّم إن هو اضطرّ إلى التخلّي عن ذرّة منه، ظانّاً أنّ لا نهاية للحياة، وأنّ المستقبل سيكون ما كان الماضي. ولكنّ الموت يداهمه، هو أيضاً، ومن حيث لم يحتسب. في إحدى السنين تلقّى صاحب حقلٍ من مواسمه أكثر ممّا اعتاد تلقّيه، وراح يحلم بالثروة الجديدة التي هبطت عليه، ويقول : سأهدم أهرائي، وأبني أُخرى، أكبر منها، تستوعب كلّ غلالي من قمحٍ، وشعير، وشوفان؛ وسأشيّد مستودعات جديدة للتبن، والعلف، وزرائب

أُخرى للأبقار التي سأبتاعها، وحظائر للخراف والماعز. وسأزفّ لنفسي البشرى: لـــديكِ الآن مخزونٌ من الثروات يكفي سنين عديدة؛ فارتاحي، وكلي، واشربي، ولا تفكّري في شيء.

و لم يجُل بخلَده أنّه كان عليه أن يحتفظ بقسطٍ من ثمار الأرض هذه لتعزية الفقـــراء. ولكنّه، في تلك الليلة، بعد أن داعب أحلام البحبوحة، قبُضت روحه، وفي الغد ووري، وحيداً، عارياً، تحت التراب، ولم يشفع به أحد في السماء.

من لا يعرف كسب محبّة الفقراء، ولا يجعل من ثروته علاجاً لبؤسهم، لا يأملنّ فـــي دخول ملكوت السماوات. إنّ أبناء الدهر يعرفون، أحياناً، التداول في شؤونهم الأرضيّة، خيراً ممّا يعرف أبناء النور التداول في شؤون السماء. والشاهد على ذلك هو الوكيل الـــذي خـــدع سيّده، فأُقصي عن منصبه، فاستدعى مديني السيّد واحداً فواحداً، ومحا لكلٍّ منهم جـــزءاً مـــن دينه. وهكذا، عندما طُرِد، كان قد جعل لنفسه أصدقاء كثيرين هنا وهناك، بفضل هذه الحيلة. وهؤلاء لم يدعوه يموت جوعاً. كان قد أحسن إلى نفسه وإلى الآخرين على حساب السيّد. كان لصّاً، ولكنّه لصٌّ نبيه. ولو استخدم البشر، في سبيل خلاص أرواحهم، مثـــل الخديعـــة التـــي استخدمها ذاك لإنقاذ جسده، لتضاعف عدد المرتدّين إلى الإيمان !

بيد أنّ من لا يرتدّ باكراً سيُقضى عليه، مثلما حدث للتينة العقيمة. وعلى الارتـــداد أن يكون كاملاً، فالنكسات قد تبعد عن الإيمان أكثر ممّا يُقرّب الندم منه. فقد كان إنسانٌ مســـكوناً بروح شرّير، وتمكّن من طرده. وطاف الروح في مطارح قاحلة بحثاً عن الراحة، وإذ لم يعثر عليها، قرّر العودة إلى حيث كان، وإذ بالبيت الذي هجره لدى ذلك الرجل، خـــالٍ، نظيـــف، مزيّن، بحيث كاد لا يتعرّفه. حينئذٍ دعا سبعة أرواح أشدّ خبثاً منه، وعلى رأس تلك العصابة، اقتحم المنزل، ثانيةً، جاعلاً حال ذلك الرجل الأخيرة أسوأ من حالته الأولى.

في يوم النصر لن يكون للندم والتبريرات من الوزن أكثر من تمتمـــة الـــريح بـــين القصب. وحينئذٍ سيتمّ الفرز النهائيّ المُبرم، كما يفرز الصيّاد، بعد أن يجرّ شـــباكه الغاصّـــة بالأسماك، إلى اليابسة، فيضع في سلاله الجيّدة منها، ويرمي الأخريـــات للقمامـــة. إنّ هدنـــةً طويلة الأمد تُفسح أمام الخطأة كي يتوبوا. ولكن، في الموعد المضروب، من لم يكن واقفاً عند الباب، أو من لم يكن جديراً بالدخول، يظلّ في الخارج. هكذا كان من أمر فلاّح بذر حَبّاً جيّداً، ولكنّ أحد أعدائه اقتحم حقله ليلاً، وبذر، بوفرة، الزؤان الضارّ، وبعـــد فتـــرة، اخضوضـــب الحقل، وتبيّن الخَدَم وجود الزؤان، فأخبروا سيّدهم ، و استوضحوه:

– أتريد أن نمضي فننتزعه ؟

و لكنّ الفلاّح أجاب :

– لا، خشية أن تنزعوا معه القمح الجيّد. بل دعوهما ينموان معاً، وعندما يأذن موعد الحصاد سأقول للحصّادين : اقطعوا الزؤان أوّلاً، واجعلوا منه حزماً، وأحرقوها. أمّا القمح الجيّد، فائتوا به إلى أهرائي.

هكذا يسوع، نظير الفلاّح الشريف، ينتظر ساعة الحصاد. ذات يوم، كان حشدٌ كثيف يحيق به، بغية سماعه، وإذ رأى أولئك الرجال والنساء الجياع إلى البرّ والمحبّة، رئف بهم، وقال لتلاميذه : الحصاد وفير، أمّا العملة فقلّة. فادعوا ربّ الحقل كي يرسل حصدةً آخرين.

لم يكن صوته ينفذ إلى كلّ مكان، ولم يكن الاثنا عشر أنفسهم كافين للاضطلاع بالمهمّة. ولا بدّ من مبشّرين آخرين كي تُزفّ البشرى إلى جميع المتألّمين الذين ينتظرونها.

الاثنا عشر

عندما لا يجد القدَر سبيلاً إلى جعل العظماء يكفرّون عن عظمتهم، يبتليهم بالتلاميذ.

فالتلميذ –لأنّه تلميذ– لا يدرك كلّ شيء، وقد يفهم نصف فهم، أي بطريقته، وحسب طاقة فكره. ولكنّه، حينئذٍ، وعن غير قصد، يخون تعليم المعلّم، ويشوّهه، ويحطّ من شأنه، ويهمّشه، ويفسده.

و للتلميذ رفاق، وبما أنّه ليس وحيداً، فهو يحسد أترابه؛ وهو يريد أن يكون أوّلهم، ولذلك يقول في أترابه سوءاً، وينصب لهم شباكاً. وكلٌّ منهم يظنّ نفسه، ويبتغي أن يكون، المفسّر الكامل للمعلّم، والناطق باسمه.

التلميذ يعلم أنّه تلميذ، ويخجل، أحياناً، من تناول الطعام على مائدة آخر. وهو، حينئذٍ يمزّق فكر المعلّم ويشوّهه، لكي يُظهر أنّ له فكراً خاصّاً. أو إنّه يعلّم نقيض ما تعلّم : وتلك هي أبشع طريقة لكون المرء تلميذاً، وأحقرها.

في كلّ تلميذ، حتّى لدى من يبدون خاضعين ومخلصين، تكمن بذرة يهوذا.

التلميذ طفيليّ، وسلبيّ؛ وسيطٌ يخدع البائع والمشتري، إنّه سطحيّ، إن دُعي إلى عشاء، تذوّق قليلاً من كلّ مرق، وعفّر بقايا الفواكه، ولكنّه لا يتصدّى للعظم لأنّه لا يملك أسناناً تحطّمه ثمّ تمتصّ مخّه الدسم.

التلميذ يُثقل النصّ بالتفسير، ويحوّل السرّ غموضاً؛ يعقّد البسيط، ويضاعف الصعوبات؛ يفسّر المقاطع، ويشوّه المبادئ؛ يمحو البدَهيّ، ويعظّم الثانويّ؛ يُفقد الجوهريّ عصبه، ويصبّ الماء في النبيذ القويّ. ولكنّه يعُدّ قيئه إكسيراً، وخلاصة، وزبدة. وعوضاً عن المشعل الذي يسكب النار والنور، لا يتعدّى كونه فتيلة مدخّنة لا تصلح لإضاءة ذاتها.

ولكن ما من عبقريّ، ولو هو شاء، استطاع النجاة من صعاليك التلاميذ. فالعبقريّ، في تعاليه وعزلته، واغترابه عن الجماهير، يحتاج إلى الشعور بحضورٍ من حوله. إنّه يحتاج إلى توهّم أنّ ثمّة من يسمع أقواله، ويدرك فكرته، ويبلّغها إلى آخرين، وينشرها قبل موته، وبعد موته. هذا البدويّ الذي لا منزل له، يفزع إلى منزل صديق. هذا المنتَزَع من جذوره، ولا أُسرة جسديّة له، يحبّ أبناء فكره. هذا القائد الذي لن يولد جنوده إلاّ بعد أنّ يكون دمه قد توغّل في الأرض، يتطلّع إلى كتيبةٍ تواكبه.

إنّ المأساة المرافقة لكلّ عظمة هي هذه : التلاميذ منفّرون وخطرون، ولكن ليس من يستطيع الاستغناء عنهم، حتّى لو كانوا تلاميذ زائفين. وقد يتألّم الأنبياء عندما لا يعثرون على تلاميذ، ولكن، عندما يعثرون عليهم، قد يتضاعف ألمهم.

فالفكرة، أكثر من الولد، متّصلة بكلّ النفس، بألف رباط. إنّها ثمينة، رقيقة، هشّة، وبقدر ما هي جديدة يتعذّر تبليغها. وإنّما إيكالها إلى الغير، وتطعيم فكرة غريبة دنيا، بها، وإيداع هذه الأمانة بين أَيدٍ لا تقوى على الوفاء لها، مسؤوليّةٌ بلا حدود، وقلقٌ مستمرّ، وألَم.

غير أنّ لدى العبقريّ رغبةً عارمة في اقتسام موهبته مع الجميع، وهو ينوء بهذا الحمل وحده؛ ثمّ إنّ العُجْب يتسلّل إلى أرفع كبرياء؛ والعُجْب يتغذّى بكلمات المداهنة، وبالمدائح، ولو كانت مهينة، وبالتأييد، ولو لفظيّاً، وبالتكريس، ولو رديئاً، وبالانتصارات، ولو كانت ظاهريّة.

وقد كان المسيح منزّهاً من كلّ صغارة، ولكنّه عندما ارتضى النهوض بأعباء البشريّة، لم يشأ رفض أعباء التلاميذ، وقد تألّم من أصدقائه، قبل أن يتألّم من أعدائه.

الكهنة قتلوه مرَّة واحدة، ولكنّ التلاميذ ساموه عذاباً يوميّاً. ولو لم يكن، إلى جانب الصدّوقيّين، والكتبة، والرومانيّين، والرعاع، هجران تلاميذه، لكانت آلامه أخفّ ضراوة.

إنّنا نعلم من كانوا. كان جليليّاً، فاختارهم من الجليل. وكان فقيراً، فاختارهم فقراء؛ وكان بسيطاً، بساطةً إلهيّة تسمو فوق كلّ الفلسفات، فدعا إليه قوماً بسطاء، بساطتهم وثيقة الارتباط بالأرض. ما كان بوسعه اختيارهم أَغنياء، فهو جاء ليناهض الأغنياء؛ ولا من علماء الشريعة والكتبة، فقد جاء ليقوّض الشريعة؛ ولا من الفلاسفة، فقد خلت منهم فلسطين؛ ولو هم وُجدوا لحاولوا إخماد صوفيّته السامية تحت مكيال الجدَليّة.

كان يعلم أَنّ تلك النفوس البريئة، على فظاظتها، والمندفعة، مع جهلها، كان بوسعه تحويلها، شيئاً فشيئاً، وفق رغبته، والارتقاء بها إليه، وصوغها مثل طمي النهر، الذي، وإن يكن حمأة، كفيلٌ بأن يُصبح، إذ ما شُوي وقسا، جمالاً أبديّاً. وكان لا بدّ، لتحقيق ذلك، من اللهيب المنحدر من الأقنوم الثالث. ولكن، إلى أن حلّت العنصرة، لطالا تغلّبت الطبيعة الناقصة، أداة جميع الكبوات.

لقد غُفر الكثير للاثني عشر، لأنّهم، ما خلا فترات عابرة، آمنوا بيسوع، وجهدوا كي يحبّوه كما شاء أن يُحَبّ؛ ولا سيّما أنّهم، إثر هجرهم له في بستان الزيتون، لم ينسوه، من بعدُ، قطّ، وخلّفوا للأبديّة ذكرى حياته وأقواله.

و لكن، إن نحن أنعمنا النظر في أولئك الذين تنقل لنا الأناجيل بعض أخبارهم، لما استطعنا مقاومة أسىً يمزّق قلوبنا. فهؤلاء المحظيّون الذين أُولوا نعمةً فريدة، لا تُثمّن، نعمة العيش في حميميّة يسوع، والسير إلى جانبه، ومشاركته طعامه، وسقفه، ومشاهدته وجهاً لوجه، ولمس يده، وتقبيله، واستقاء كلماته وهي تتدفّق من فمه، هؤلاء الذين حسدهم، سرّاً، عبر الأجيال، ملايين البشر، لم يكونوا، دائماً، أهلاً للسعادة القصوى التي خُصّوا بها، دون سواهم.

إنّنا نلحظهم قساة الأذهان والقلوب، بطيئين في فهم أكثر الأقوال نصاعةً وشفافيّة؛ عاجزين عن إدراك هويّة يسوع الحقّة، حتّى بعد موته، وحقيقة الملكوت الذي بشّر به، مفتقدين، أحياناً، الإيمان، والحبّ، والإخاء، طامحين في الأجر، حاسدين بعضهم بعضاً، متطلّعين إلى انتقامٍ يكافئ انتظارهم، مفتقرين إلى التسامح، ميّالين إلى الوسَن والشكّ، مادّيّين، بخلاء، جبناء.

أحدهم أنكره ثلاثاً؛ وآخر لم يكرّمه إلاّ بعد أن أمسى في اللحد؛ وآخر لم يؤمن برسالته لأنّه من الناصرة؛ وآخر ارتاب في صحّة قيامته؛ وآخر باعه لأعدائه، وأرشد إليه طالبي القبض عليه بقبلة الخيانة الأخيرة، وآخرون، في أعقاب أقوالٍ فاقت مداركهم، تقهقروا وارفضّوا عنه.

لطالما أخذ عليهم يسوع بطء فهمهم، فهم لم يدركوا مثل الزارع: "ألا تفهمون هذا المثل ؟ فكيف ستفهمون سائر الأمثال؟" وعندما حذّرهم من خمير الفرّيسيّين والصدّوقيّين، ظنّوا أنّ الأمر يتعلّق بالخبز المادّيّ: "أحتّى الآن لا تعقلون ولا تفهمون؟ أحتّى الآن قلوبكم عمياء؟ لكم عيون، أفلا تبصرون ؟ ولكم آذان، أفلا تسمعون ؟ ألا تذكرون ؟"

إنّهم ما انفكّوا يظنّون، مثل عامّة الشعب، أنّ يسوع مسيحٌ جسديّ، محاربٌ وسياسيّ، جاء يبعث عرش داود. وحتّى في لحظة صعوده سألوه: "يا ربّ، هل حان وقت إعادتك الملك لإسرائيل ؟ " وبعد القيامة اعترف تلميذا عمّاوس بالقول: "كنّا نعلّل النفس بأنّه هو الذي سيفتدي إسرائيل"

كانوا يتخاصمون، فيما بينهم، حول من منهم سيحتلّ المركز الأوّل في ملكوت يسوع الجديد، ممّا حمل يسوع على تأنيبهم: "فيمَ تتخاصمون؟". وهم التزموا الصمت لأنّ الخصام بينهم كان يدور حول من منهم هو الأكبر. فجلس ودعا الاثني عشر وقال لهم: "من شاء منكم أن يكون الأوّل، فليكن آخر الكلّ، وخادم الجميع".

و قد دفعهم حرصهم على امتيازاتهم إلى تقديم شكوى ليسوع حول رجلٍ كان يطـــرد الشياطين باسمه. فأجابهم: " لا تمنعوه، فما من إنسانٍ أجرى عمل قدرة باســـمي يســـتطيع أن يتكلّم عنّي سوءاً. فمن ليس علينا، هو معنا ".

و قد استنكر بعضهم خطاباً ألقاه في كفرناحوم " بحيث أنّ كثيرين من تلاميذه، بعد أن سمعوه، أعلنوا: " هذا كلام قاسٍ، فمن يستطيع سماعه؟" و ارتدّوا عنه.

ومع ذلك لم يكفّ يسوع عن تحذير من يبتغون اتّباعه. فقد أنذر كاتباً صـــرّح بأنّـــه سيتبعه حثيما مضى بقوله : "للثعالب أوجرتها، ولطيور السماء أعشاشها. أمّا ابن البشر فليس له ما يُسند إليه رأسه". ولتلميذٍ التمس، أوّلاً، أن يدفن أباه، قـــال : " دع للمـــوتى أمـــر دفـــن موتاهم". ولآخر قال له "ياربّ، سأسير في إثرك، ولكن دعني أودّع أهل بيتي"، أجابه يسوع: "كلّ من وضع يده على المحراث، ثمّ التفت إلى الوراء، ليس أهلاً لملكوت اللّه".

و كذلك دنا منه شابّ غنيّ كان يتمّم الوصايا كلّها، فنظر إليه يسوع بحنـــان، وقـــال: "واحدة تنقصك، بعد : إمضِ فبع كلّ ما تملك، وهبه للفقراء، فيكون لك كنزٌ في الســـماء، ثـــمّ تعالَ فاتبعني". ولكنّ الشابّ، لدى سماعه هذا القول، مضى حزيناً لأنّه كان يمتلك الكثير. في سبيل المكوث مع يسوع ينبغي هجر البيت، والأموات، والأسرة، والمال، كلّ ما تحبّه عامّـــة الناس، وإنّ ما يعطيه، بالمقابل، كفيلٌ بالتعويض عن كلّ هذه التضحيات. بيد أنّ قليلـــين هـــم القادرون على هذه التضحيات، وبعضهم، بعد أن يؤمنوا، يضعفون.

الاثنا عشر كانوا، جميعهم، فقراء، وكان الأمر أيسر عليهم منه على سواهم. ومع ذلك لم يفلحوا في أن يكونوا، دائماً، كما أرادهم يسوع الذي قال لبطرس: "سمعان، ســـمعان، لقـــد طلب الشيطان أن يغربلكم، مثلما يذرّى القمح ". ومع أنّ غربال يسوع كان ناعماً جـــدّاً، فقـــد بقيت بذورٌ سيئة، وسط الحبّ الجيّد.

سمعان الملقّب بطرس

قبل القيامة، كان بطرس جسداً يعيش إلى جانب روح، صوت مادّة يرافق نشيد نفس، أرضاً تؤمن بالسماء ولكنّها تظلّ أرضيّة، ملكوت السماوات ما زال، في فكره الجاهل، وفـــي أمله الشعبيّ، شبيهاً بملكوت الأنبياء الماسيّانيّ.

أطلق يسوع قوله الشهير في الأغنياء : " إنّه لأيسر على جملٍ أن يعبر من سُمّ الإبرة، من أن يدخل غنيٌّ ملكوت السماوات". هذه الإدانة الصارمة بدت لبطرس موغلة في القســـوة، فاعترض قائلاً: "ها قد تركنا نحن كلّ شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا"؟ ولكأنّه دائـــنٌ يطالـــب

بفوائده؛ وردّ عليه يسوع، معزّياً، أنّه سيجلس على عرش، مع الأحد عشر الآخرين، وسيدين كلٌّ منهم سبطاً من أسباط إسرائيل، وأضاف يسوع أنّ كلّ ما يُعطونه سيستردّونه مئة ضعف.

و أكّد يسوع أنّ، وحده، ما يخرج من فم الإنسان كفيلٌ بتنجيسه. ولكنّ بطرس لم يفهم، وسأل يسوع : " فسّر لنا هذا القول "، ممّا جعل يسوع يقول: "أما زلتم عديمي الفهم؟..." يتميّز بطرس، بين سائر التلاميذ، بقسوة ذهنه، فلقبه : كيفا، الصخرة، لا يستمدّه، فقط، من صلابة إيمانه (ولطالما أخذ عليه يسوع قلّة إيمانه، وما إنكاره الثلاثيّ سوى دليل على ذلك) بل، أيضاً من قسوة ذهنه.

لم يكن يَقظاً، لا في المعنى المجازيّ، ولا في المعنى الحرفيّ البسيط. بل كان سريعاً إلى النوم، حتّى في أقصى اللحظات حَرَجاً، فقد أَغفى في أثناء تجلّي يسوع على جبل طابور، واستسلم للسبات ليلة الجتسمانيّ، في بستان الزيتون، في أعقاب العشاء الوداعيّ، حيث تلفّظ يسوع بأقوالٍ كفيلة بتدمير النوم حتّى في عيني أحد الكتبة.

و مع ذلك كانت ثقته عظيمة. ففي الليلة الأخيرة، عندما أعلن يسوع أنّ عليه أن يتألّم ويموت، أعلن بطرس باندفاع: "يا ربّ، إنّي مستعدّ للمضيّ معك إلى السجن والموت. وحتّى لو شكّ الجميع بك لما شككتُ أَنا. ولو أُلجئت إلى الموت معك، ما أنكرتك! " فقال له يسوع : "الحقّ أقول لك، يا بطرس، في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك مرّتين، تنكرني ثلاث مرّات "

كان يسوع يعرفه خيراً ممّا كان هو يعرف نفسه. وفي فناء قصر قيافا، إذ كان يتدفّأ عند الموقد، فيما كان الكهنة يستجوبون إلهه ويشتمونه، أنكر، ثلاثاً، كونه من أتباعه.

ساعة القبض على يسوع، وخلافاً لتعليمه، تظاهر بطرس بالمقاومة، وقطع أذن ملكُس. لم يكن قد أدرك، عقب سنواتٍ من العيش المشترك، أنّ معلّمه يمقت كلّ ضروب العنف المادّيّ. ولم يدرك أنّ يسوع، لو شاء النجاة، لتوارى في الصحراء، في منأى عن الجميع، أو لتملّص من أيدي الجند، كما فعل، قديماً، في الناصرة. وتعبيراً عن استنكاره لهذا العمل الذي لا يطيقه، شفى جرح ملكُس، وأنّب المنتقم المتهوّر.

لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي ظهر فيها بطرس دون مستوى الأحداث. فهو، على غرار جميع الأذهان الغليظة، ينزع إلى خلط النفايات المادّية بتجلّيات الروح، والدنيء بالسامي، والسخيف بالمأساويّ. فعلى جبل التجلّي، استسلم للكرى، وعندما استيقظ وشاهد يسوع متألّق البياض، يتكلّم مع روحين، مع نبيّين، كان أوّل ما جال بخاطره، عوضاً عن العبادة الصامتة، إيواء تلك الشخصيّات العظيمة: "إنّه لحسنٌ أن نكون ههنا، يا معلّم، فلنصنع ثلاث مظالّ : واحدة لك، وواحدة لموسى، وواحدة لإيليّا ! " ويضيف لوقا، الحكيم، ملتمساً له العذر: "لم يكن يدري ما يقول".

و يوم رأى يسوع يمشي، بلا وَجَل، على مياه البحر، خطر لـــه أن يقلّـــده. " فنـــزل بطرس من السفينة ومشى على الماء آتياً إلى يسوع. ولكنّه لمّا رأى شدّة الريح خاف، وإذ بدأ يغرق صاح قائلاً: " نجّني، يا ربّ ! " وللوقت مدّ يسوع يده وأمسكه وقـــال لـــه: "يـــا قليـــل الإيمان، لماذا داخلك الشكّ ؟"

ذلك الصيّاد الماهر، الخبير بالبحيرة وبيسوع، خُيّل إليه أنّ بمكنته التمثّل بمعلّمه، وقد غاب عنه أن إخضاع العواصف يستلزم نفساً أكبر من نفسه، وإيماناً أمنع من إيمانه.

حبّه الجمّ ليسوع، الذي يغفر له جميع ذنوبه، حمله، يوماً، على معارضة معلّمه. يومها أعلن يسوع لتلاميذه عن آلامه وموته، فاحتجّ بطرس، وانتحى بيسوع جانباً وقال: "معاذ اللّه، فلن يحدث ذلك ".

و لكنّ يسوع جابهه قائلاً: "خلفي، يا شيطان، فأنت لي عثرة. إنّك لا تفكّر وفق فكـــر اللّه، بل وفق تفكير البشر". إنّه أقسى حكم أُطلق، يوماً، بحقّ بطرس: فذاك الذي اختاره يسوع نفسه ليسهم في إحلال ملكوت اللّه، كان يفكّر تفكير البشر. لم يكن قد انعتق، بعدُ، مـــن الآراء الشائعة عن مسيحٍ منتصر، فأبى الإيمان بمسيحٍ مُضطَهدٍ، محكومٍ، ومصلوب. لـــم يكـــن قـــد استوعب، بعد، فكرة الفداء الإلهيّ، واستحالة الخلاص، في معزلٍ عن تقدمـــة ألـــمٍ ودم؛ وأنّ على العظيم أن يضحّي بجسده على هيكل شراسة الصغار، لكي تكون حياته لهم نوراً، ولكي يجنّبهم ميتةً مهينة.

كان يحبّ يسوع، ولكنّ حبّه، مع ما انطوى عليه من مودّة وشدّة، كان ما زال يحتضن رواسب أرضيّة. كان يأبى فكرة تعرّض مليكه للإهانة، وإلهه للموت. ولكنّه كـــان أوّل مـــن اعترف بيسوع مسيحاً، ولا شيء كان قادراً على محو هذا السبق.

بعد القيامة كان بطرس، بأكمله، لمعلّمه الذي، لمّا ظهر له عند ضفاف بحيرة طبريّا، وسأله: "أتحبّني؟" ردّ بطرس بخَفَر، وذكرى إنكاره لمعلّمه ما برحت ترين على نفسه: " أنـــت تعلم كم أنت غالٍ على قلبي! ". وللمرّة الثانية سأله يسوع: "أتحبّني ؟" وأجاب بطرس "أجـــل، ياربّ، أنت تعلم أنّني أحبّك ". وعاد يسوع فسأل: "يا سمعان بن يونا، هل تحبّني حقّاً؟" ولكأنّه كان ينتزع منه الجواب انتزاعاً، فأجاب بطرس، مستسلماً: "يا سيّد، أنت عليم بكـــلّ شـــيء، وتعلم، بالتالي، أنّني أحبّك".

ثلاث مرّات، في ليلة آلام يسوع، كان بطرس قد أنكره، وبعد انتصاره على المـــوت، أكّد بطرس، ثلاث مرّات، حبّه لمعلّمه. وسيظلّ وفيّاً لهذا الحبّ، الذي ستنيره، قريباً، الحكمـــة الكاملة، إلى أن يلقى حتفه، في روما، على خشبة عذاب شبيهة بصليب يسوع.

ابنا الرعد

يعقوب ويوحنّا، الأخوان اللّذان تركا، على ضفّة كفرناحوم، مركبهما وشباكهما، بغية اتّباع يسوع، واللّذان، مع بطرس، كانا، دائماً، الأثيرين – فهؤلاء الثلاثة، دون سواهم، واكبوا يسوع إلى بيت يئير، وإلى جبل التجلّي، وإلى جبل الزيتون – لم يكتسبا من معاشرتهما الطويلة للمعلّم، قدراً كافياً من التواضع. وقد أطلق عليهما يسوع لقب "ابني الرعد"، لقباً ساخراً يشير، بلا ريب، إلى طباعهما الانفعاليّة.

عندما يمّموا، جميعهم، شطر أورشليم، أنفذ يسوع طلائع منهم، كي يعدّوا المنزل. وفي أثناء عبورهم بالسامرة، لم يُحسن أهل إحدى القرى وفادتهم: " ولكّن هؤلاء أبوا استقباله لأنّه كان قاصداً أورشليم. فلمّا رأى تلميذاه يعقوب ويوحنّا ذلك، قالا : يا ربّ، أتريد أن نستنزل نار السماء فتحرقهم؟". ففي نظر أولئك الجليليّين الأوفياء لأورشليم، ما انفكّ السامريّون أعداء. عبثاً كانا قد سمعا عظة الجبل، حيث قال يسوع: " أحسنوا إلى مبغضيكم، صلّوا من أجل مضطهديكم ". وعبثاً كانا قد تلقّيا هذه الوصيّة: " إن رفض أحدٌ استقبالكم فعند خروجكم من ذلك البيت، وتلك المدينة، انفضوا غبار أرجلكم ". كانا قد أهينا في شخص يسوع، فخيّل إليهما أنّ بوسعهما أمر نار السماء، ظانّين أنّهما يقومان بعمل عدلٍ مُبرّر إن هما حوّلا إلى رماد تلك القرية التي أساءت ضيافة الربّ.

و مع ذلك، ومع كلّ نأيهما عن التجدّد بالحبّ، وهو قوام حقيقة الملكوت الإلهيّ الوحيد، ادّعيا الحقّ في تبوّء الأمكنة الأولى من ذلك الملكوت، في أيّام النصر: " وتقدّم إليه يعقوب ويوحنّا، ابنا زبدى، وقالا له: "يا معلّم نريد أن تصنع لنا ما نسألك". فقال لهما: "ماذا تريدان أن أصنع لكما ؟ " قالا له: " هبْ لنا أن نجلس أحدنا عن يمينك، والآخر عن شمالك في مجدك ". فقال لهما يسوع : " إنّكما لا تدركان ما تسألان... ". وسمع العشرة فأخذوا يغضبون على يعقوب ويوحنّا. فدعاهم يسوع وقال لهم:"...من أراد أن يكون فيكم كبيراً، فليكن خادماً؛ ومن أراد أن يكون الأوّل، فليكن للجميع عبداً، فإنّ ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليخدُم، ويبذل نفسه عن كثيرين.

استغلّ **قالب الموازين** نزق ابني الرعد الساذج، لكي يردّد الكلمة الجوهريّة الخليقة بجميع عظماء النفوس. فوحدهم النافلون، والطفيليّون، والرديئون يبتغون أن يخدمهم من هم أدنى منهم – هذا، إن كان من هم، في المطلق، دونهم – أمّا الرفيع، فلأنّه رفيع، هو دائماً في خدمة الصغار.

من لا يريد أو لا يستطيع الخدمة يفضح افتقاره إلى ما يعطي : فهو عليل، وعـــاجز، وفارغ. والعبقريّة ليست عبقريّةً، ما لم تفضِ إلى مصلحة الآخرين.

الخدمة والخضوع أمران مختلفان. فالشعب قد يُخدم على نحوٍ أفضل بترؤّسه، ودفعه، طوعاً أو كرهاً نحو خلاصه. ومن ثمّ، فالخدمة ليست عبوديّة.

و قد سمع يعقوب ويوحنّا قول يسوع الجزل. وسنرى يوحنّا أكثر التلاميذ حبّاً ليسوع. ففي العشاء الأخير نراه يسند رأسه إلى صدره، ونرى المصلوب، من علوّ صليبه، يوكل إليه الأمّ العذراء، لكي يبقيها إلى جانبه ويكون لها ابناً.

التلاميذ الآخرون

يستمدّ توما شهرته ممّا هو كفيلٌ بأن يكون عنوان عاره. فتوما –المعروف بـــالتوأم– هو شفيع الحداثة، مثلما كان توما الأكويني كاهن القرون الوسطى. إنّه حارس سبينوزا وجميع نافي القيامة الآخرين. إنّه ذاك الذي لا يكتفي بشهادة العينين – الأكثر احتراماً ولكن الأكثـــر خداعاً – بل يقتضي شهادة اليدين. غير أنّ حبّه ليسوع استحقّ له الصفح. فعندما جاء من قال للمعلّم أنّ لعازر قد مات، توجّس سائر التلاميذ خشيةً من الشخوص إلـــى اليهوديّـــة، الأرض المعادية، وكان توما هو الوحيد الذي هتف : فلنمضِ ولنمُتْ معه. ولم يستشهد حينـــذاك، بـــل استشهد من بعدُ، في الهند، بعد موت المسيح وقيامته.

متّى أقربهم إلى قلوبنا. كان جابياً للضرائب، ومن المرجّح أنّه كان أوفر ثقافـــةً مـــن الآخرين، الصيّادين، ولكنّه لم يكن أقلّ منهم اندفاعاً في اتّباع يسوع. "و في ما هـــو مجتـــازٌ أبصر لاوي بن حلفا جالساً إلى مائدة الجباية فقال له: "اتبعني"، فقام وتبعه... وصنع له مأدبةً عظيمةً في داره". لم يتخلّ متّى عن كومةٍ من الشباك المهترئة، بل تخلّى عن وظيفة، وراتبٍ مضمون، وأرباحٍ متعاظمة باطّراد. إنّ الزهد في الثروة سهلٌ على ما لا يكاد يملك شيئاً. وقد كان متّى، بلا ريب، أغنى الاثني عشر، قبل التحاقه بيسوع. ولم يُذكر عن أحدٍ منهم، ســـواه، أنّه تمكّن من إقامة مأدبة. على مائدة الجباية التي كان يجلس وراءها، كان الـــذهب يتكـــدّس، ولكنّه هجرها، منذ النداء الأوّل، ولذلك كان امتثاله السريع أكثر استئهالاً للثواب.

ربّما كان متّى، إلى جانب يهوذا، الوحيد الذي يجيد الكتابة، ونحن نـــدين لـــه، وفقـــاً لشهادة بابياس، بالحصاد الأوّل لأقوال يسوع المأثورة. إنّ الإنجيل الذي يحمل اسمه، يحتوي على النصّ الأكمل لعظة الجبل. فينبغي أن يكون امتنان البشر لذلك الجابي المسكين بلا حدود. فلولاه لربّما فُقد الكثير من أقوال يسوع، بل أجملها. إنّ ذاك الذي كان يتعاطى بشتّى أصناف

النقود من درهمٍ، وشاقلٍ، ومناً، والذي كانت مهنته الموصوفة بالدناءة تؤهّله للبخل، قد خلّف لنا كنزاً يفوق كلّ العملات التي سُكّت، يوماً، في هذا العالم.

فيليبّس، من بيت صيدا، كان، هو أيضاً، يجيد الحساب. إليه توجّه يسوع، عندما كانت الجموع الجائعة تتراصّ من حوله، وسأله كم يلزم من أجل ابتياع خبزٍ لكلّ ذلك الحشد، فأجاب في الحال: "مئتا دينار لن تكون كافية"، وبدا له هذا المبلغ يفوق التخيّل. ولكنّه اضطلع أيضاً، بنشر مجد المعلّم. فهو الذي بشّر نثنائيل بمجيء المسيح، وإليه توجّه يونانيّو أورشليم الذين أرادوا التحدُّث إلى النبيّ الجديد.

نثنائيل بن ثولومي، وهو الأكثر شهرة تحت اسم برثلماوُس، كان قد ردّ بسخرية على إعلان فيلبّس: " أمن الناصرة يخرج شيء صالح ؟ " غير أنّ فيلبّس ظلّ حتّى جاء به إلى يسوع الذي ما كاد يراه حتّى هتف: " هذا إسرائيليّ حقّ، لا غشّ فيه ". فسأله نثنائيل: "من أين تعرفني؟ " فقال يسوع: " قبل أن يدعوك فيلبّس، وأنت تحت التينة، رأيتك". وفي الحال هتف نثنائيل: "أنت ابن اللّه، أنت ملك إسرائيل"، وردّ يسوع: "ألأنّي قلت لك إنّي رأيتك تحت التينة، آمنت ؟ إنّك ستشهد ما هو أعظم"

لم يكن نيقودُمس في مثل هذا الاندفاع، ولم يشأ أن يظهر بمظهر تلميذ يسوع. كان شيخاً، ولطالما اختلف على مدارس الرابيّين، وكان له بين أعضاء السنهدرين أصدقاء. غير أنّ روايات عجائب يسوع كانت قد هزّت وجدانه، فذهب إليه ليلاً، كي يعترف له بإيمانه أنّه مرسل اللّه. وأجابه يسوع: " الحقّ، الحقّ، أقول لك، إن لم يولد الإنسان ثانية، فلن يرى ملكوت السماوات ". لم يفهم نيقودمُس هذه الأقوال التي، ربّما أرعبته، إذ إنّه، عوضاً عن رؤية صانع عجائب، وجد عرّافاً يتكلّم بألغاز. وبمنطق من يأبى أن يُخدع، سأل : "كيف لإنسانٍ أن يولد ثانيةً وهو شيخ ؟ هل بوسعه أن يدخل مجدّداً إلى أحشاء أمّه، ويولد ثانية". وردّ عليه يسوع بهذه الأقوال المثقلة بالمعنى : " إن لم يولد، ثانيةً، بالروح، فلا سبيل له إلى الملكوت ". غير أنّ نيقودمُس أصرّ على عدم الفهم: " كيف كلّ ذلك ممكن " ؟ وعجب يسوع من غلاظة قلبه وذهنه: " أتكون معلّماً في إسرائيل، وتستغلق عليك هذه الأمور ؟ "

و قد احتفظ نيقودمُس، دائماً، بشعور احترامٍ نحو الجليليّ الشابّ، إلاّ أنّ مودّته له ظلّت متحفّظة، مثلما ظلّت زيارته الليليّة له مكتومة. ولكن، ذات يوم، عندما خطر لرؤساء الكهنة والفرّيسيّين إلقاء القبض على يسوع، تجرّأ نيقودمُس ودافع عنه بقوله: " إنّ شريعتنا لا تدين إنساناً، قبل أن تسمع منه، وقبل أن يُعرف ما فعل ". لم يتكلّم باسم الإنسان الجديد، بل إنّه ما انفكّ يتكلّم باسم الشريعة (شريعتنا). إنّه ما زال الإنسان القديم، صديق الحرف، الحذِر. وما إن قوبل بشيءٍ من التهكّم، حتّى التزم الصمت: " هل أنت، أيضاً، جليليّ ؟ إبحث تجد أنّه لا يخرج من الجليل أنبياء ". كان عضواً في السنهدرين، وكان له حقّ الإدلاء برأيه، ولكنّنا لا

نراه يرفع عقيرته بكلمة، دفاعاً عن المتّهم الماثل أمام قيافا. كان الوقت لـيلاً، هـذه النوبـة، أيضاً، ولكنّه، تفادياً لسخرية أترابه، وتنصّلاً من جريرة قتلٍ شرعيّ، التزم فراشـه. وعنـدما استيقظ كان المخلّص قد لقي حتفه، فعبّر عن مودّته بشرائه مئة رطلٍ حنوطاً له.

" المقيم من الموت " مات، أمّا عالم الشريعة، فإن لم يمت عمّا هو جسديّ، لن يعهـد أبداً هذه الولادة الجديدة التي أبى الإيمان بها.

نيقودمُس هو المثال الأبديّ للفاترين الذين سيبصقهم اللّه، في يوم الغضب. إنّه الرديء الذي تودّ روحه قول " نعم " ولكنّ جسده يقترح "لا" الخوف. إنّه رجل الكتب، التلميذ الليلـيّ الذي يودّ أن يكون ولكنّه يأبى الظهور، الذي لا يرفض مبدئيّاً الولادة الجديدة، ولكنّه لا يجـد السبيل إلى تحطيم قشرة جسده الهرم المغضّنة. إنّه رجل المداراة والحيطة. بعد أن ارتُكبـت جريمة القتل، وبعد أن استُشهد من كان معجباً به، وبعد أن أشبع جلاّدوه نقمتهم، ومـا عـاد يخشى التورّط، أتى بالطيوب ليسكبها على الجراح التي أسهم جبنه في إحداثها.

بيد أنّ الكنيسة، مكافأةً لهذه التقوى المتأخّرة أدرجته في عداد قدّيسيها. ويروي تقليـدٌ عتيق أنّه تلقّى العماد على يد بطرس، ومات شهيد إيمانه بذاك الذي أحجم عـن إنقـاذه مـن الموت.

مامون

إنّ يسوع فقير؛ إنّه الفقير الذي لا حدود لفقره، الفقير المتشدّد، بلا تحفّظ، إنّه فقيرٌ فقراً مطلقاً. إنّه أمير الفقر، وسيّد الإملاق الأمثل. فقيرٌ يعيش مع فقراء، وقـادمٌ لأجـل الفقـراء، يخاطب الفقراء، ويغدق عليهم عطاياه، ويعمل في سبيلهم. فقيرٌ بين ظهراني فقراء، وبـائسٌ بين البؤساء، ومستعطٍ بين المستعطين. إنّه الفقير الأبديّ، الفقير السعيد والغنيّ بفقـره، لأنّـه يرتضي بالفقر، ويبتغيه، ويعقد عليه قرانه، وينشد له الأناشيد. إنّه المتسوّل الذي ينفح الصدقة، والعاري الذي يكسو العراة، والجائع الذي يُطعم فيُشبع. إنّه الفقير الذي يجـري المعجـزات، ويسمو فوق الطبيعة، فيحيل إلى فقراء جميع الأغنياء الزائفين، ويُحيل الفقراء إلـى أثريـاء حقيقيّين.

ثمّة من لازمهم الفقر، لأنّهم كانوا، أبداً، عاجزين عن تحقيق أيّ ربح، وآخرون لأنّهم يهبون في المساء ما كسبوه في مطلع النهار. هؤلاء يملكون بمقدار ما يعطون، وثروتهم تنمو بمقدار ما ينشرونها، ولكأنّها ركامٌ يزداد تضخّماً كلّما تناولته الأيدي بأخذٍ واقتطاع.

يسوع هو واحدٌ من هؤلاء الفقراء. وإزاء أيٍّ منهم، ليس الأغنياء بحسب الجسد، بحسب العالم، الأغنياء ذوو الخزائن المترعة بشتّى العملات.. سوى معدمين زريّين. أمّا سادة سوق المال الرومانيّ، وطهاة الآلهة في أورشليم، وصيارفة فرانكفورت وفلورنسا، وأصحاب المليارات في لندن ونيويورك، فليسوا، حيالَ هؤلاء الفقراء، سوى مُعدَمين بائسين يتضوّرون عرياً وإملاقاً، بل هم عبيدٌ غير مأجورين لسيّدٍ شرس، ومحكومٌ عليهم بقتل أنفسهم كلّ يوم. إنّ شقاء هؤلاء البؤساء من الرهبة بحيث أُلجئوا إلى التقاط ما يعثرون عليه من أحجارٍ في جوف الوحل، وأن ينقّبوا في أحشاء الأقذار. إنّ شقاءهم يحمل من دوافع التقزّز ما يجعل حتّى الفقراء عاجزين عن التصدّق عليهم بابتسامة.

ما الثروة سوى عقاب، شأنها شأن الكدح والعمل، ولكنّها أشقّ عنتاً، وأكثر خزياً. ومن دَمغتْه الثروة بميسمها، ربّما اقترف، على غير درايةٍ منه، جريمةً نكراء، إحدى تلك الجرائم المغرقة في السرّيّة، والتي لا يحيط بها فكر، ولم تجد لغات البشر اسماً لها. إنّ سخط اللّه يرين بوقره على الغنيّ، وإنّ اللّه يودّ امتحان جدارته بالنهوض صوب الفقر الإلهيّ، إذ إنّ الغنيّ قد اقترف الخطيئة الكبرى التي لا يشفع بها عُذر؛ فقد ساقته إلى التهلكة مقايضةٌ بشعة: إذ كان بوسعه بلوغ السماء، ولكنّه رغب في الأرض؛ وكان أهلاً لسكنى الفردوس، إلاّ أنّه آثر الجحيم؛ وكان قادراً على الاحتفاظ بنفسه، غير أنّه تنازل عنها لقاء المادّة؛ وكان بوسعه أن يُحَبّ، ولكنّه آثر أن يُمسي ممقوتاً؛ وكان قادراً على الظفر بالسعادة، ولكنّه فضّل السُّلطة، وبالتالي، تعذّر خلاصه. وما المال، بين يديه، سوى اللحد الذي يضمّه حيّاً، تحت عبئه الجليديّ، والورم الذي يعيث فيه فساداً، والنار التي تحيله هيكلاً فحميّاً، ومومياء سوداء تبعث على الذعر، وجيفةً، بل شبحاً يظلّ، إلى الأبد، يجسّ بيده الفارغة، مقابر الأجيال، إذ ما من أحد يستطيع أن يتصدّق، حتّى بذكرى، على ذلك الفقير الذي مُسخ، فتعذّر تعرّفه.

و ليس، أمامه، سوى سبيلٍ وحيدٍ للخلاص : أن يرتدّ فقيراً، فقيراً حقيقيّاً متواضعاً، وينبذ، بعيداً عنه، شقاء الغنى المقيت. غير أنّ هذا أعسر قرار يستطيع غنيّ أن يعقد العزم عليه، إذ يتعذّر عليه أن يتخيّل، وهو الذي أشاعت الثروة في أحشائه تعفّناً، وأسَرته بسحرها، أنّ العزوف التامّ عن المال والمتاع هو مبدأ فدائه؛ فهو سجين نفسه، ذات الأسوار المنيعة، ولا بدّ له، كي ينعتق منها، من أن يكون مالكاً لحرّيّته.

و الغنيّ لا يملك ذاته. بل، وهو الشيء الحيّ، قد أمسى ملكاً لأشياء فاقدة الحياة، ووقته لا يتّسع للتفكير وللاختيار. فالمال سيّدٌ يجهل الرحمة، ولا يعترف بسلطانٍ غير سلطانه. إنّ الغنيّ، وقد استحوذت عليه، كلّيّاً، هموم أمواله، والرغبة المسيطرة في تنميتها، والوَجل من فقدها، والمُتع المادّيّة التي قد توفّرها له، لا يستطيع إعمال الرأي في أمر نفسه، ولا يجول في خَلَده أنّ هذه النفس العليلة، المهدّدة بالاختناق لافتقارها إلى الهواء النقيّ، المبتورة الأطراف،

والتي ينخرها الدود، إنّما هي في حاجةٍ إلى شفاء؛ فلقد انصهر كلّيّاً في تلك الفلذات من المادّة التي يحقّ له ادّعاء ملكيّتها، بموجب العقود والشرائع، والتي غالباً ما يفتقر إلى الوقت أو الرغبة أو القدرة على التمتّع بها، إذ يتحتّم عليه السهر على خدمتها ووقايتها، بحيث لا تبقى لديه فسحةٌ للاضطلاع بخدمة نفسه وخلاصها. وكلّ ما انطوت عليه نفسه من طاقةٍ للحبّ، قد استنفده ذلك القسط من المادّة الذي بات آمراً ومسيّراً له، والذي احتلّ منه مركز النفس، وسلبه كلّ حرّيّته.

إنّ قدَر الغنيّ المريع يكمن في هذا التناقض المزدوج : كي يظفر بقدرة السيطرة على الناس، أضحى عبداً للأشياء الميتة، وكي يظفر بجزءٍ – ويا لضآلته ! – فقد الكلّ.

لا شيء يدخل في حوزة ملكيّتنا طالما نقتنيه وحدنا، ويتعذّر على الإنسان امتلاك أيّ شيء امتلاكاً حقيقيّاً سوى نفسه. أمّا سرّ امتلاك جميع الأشياء الأُخرى فثاوٍ في الإعراض عنها، إذ من يرفض الكلّ يُعطَ الكلّ. أمّا من يؤثر أن يختصّ ذاته بجزءٍ من متاع العالم، فهو يفقد، في آنٍ واحد، هذا الجزء الذي يكتسبه، وجميع الأجزاء الأُخرى. وإذا به، فجأةً، عاجز عن أن يُدرك ذاته، وعن امتلاكها، وعن تنميتها، وإذا به قد فقد كلّ شيء، وإلى الأبد، حتّى تلك الأشياء التي يبدو، في الظاهر، صاحبها، ولكنّه، في الواقع، خاضعٌ لإمرتها؛ ولم يعد يملك حتّى نفسه، أي الثروة الوحيدة الجديرة بالامتلاك. إنّه فارغٌ وعارٍ، ولا يملك ما يستطيع عطاءه. وأنّى له أن يحبّ الآخرين، وأن يهبهم ذاته وخيراته، أو أن يؤدّي أيّ برّ ينطوي على المحبّة، ويقوده إلى جوار اللّه؟

إنّه لا شيء، ولا شيء له. وهو مُقعدٌ عن التطوّر لأنّه أصبح غير موجود، ومقعدٌ عن العطاء، إذ إنّه لا يملك شيئاً بعد إذ فقد نفسه، فأنّى له أن يحوّل هذا الملك الإنسانيّ الأوحد إلى ما هو أسمى وأثمن؟

"وماذا يُجدي الإنسان أن يربح العالم بأسره، ويفقد ذاته ؟ " إنّ تساؤل المسيح البسيط هذا، شأنه شأن كلّ وحي، يسبغ على الإنذار النبويّ معناه، كاملاً. فالغنيّ لا يفقد حياة الأبديّة فحسب، بل، أيضاً، حياته في عالم الدنيا، ونفسه الحاضرة، بل سعادة الحياة الأرضيّة الآنيّة.

"لا تمكن عبادة اللّه والمال ". فالروح والذهب سيّدان يأبيان أيّة مشاركة. إنّهما غيوران، مستأثران، ولا يرتضيان إلاّ الإنسان بكامله. والإنسان، حتّى ولو شاء ذلك، لا قِبَل له على الانقسام إلى اثنين، فإمّا أن يكون بكامله إلى هذا الجانب، وإمّا بكامله إلى ذاك. من انصرف إلى شؤون الروح لا يمثّل له الذهب شيئاً، أمّا من خَدَم الذهب، فالروح عنده لفظة لا معنى لها. ومن اختار الروح ينبذ الذهب، وكلّ ما يستطيع الذهب شراءه. أمّا من يرغب في الذهب، فهو يُعرض عن الروح وعن كافّة خيراته : السلام، والصحّة، والحبّ، والفرح الكامل. أوّلهما فقير لن يستنفد، أبداً، ثروةً لا حدود لها، أمّا الآخر، فغنيّ لن يستطيع، يوماً،

الفرار من ربقة شقائه غير المحدود. إنّ الفقير يملك، بفعل شريعة الزهد المشبعة بالسرّ، حتّى ما ليس ملكه، أي العالم بأسره؛ أمّا الغنيّ، فهو لا يملك، بفعل ضراوة شريعة الرغبة الدائمة، القليل الذي يتوّهم أنّه يملكه.

إنّ اللّه يعطي، بوفرةٍ واسعة، أغزر من الكثير الذي وعد به، في حين أنّ "مامون"، إله المال، ينتزع حتّى النزر اليسير الذي يعلّل النفوس به. وبالتالي، فمن زهد بالكلّ، ظفر بكلّ فائض، أمّا من يسعى في سبيل نصيبٍ من المتاع ينفرد به لنفسه، فلا يعتّم أن يلفي نفسه غارقة في هوّة العدم.

إنّ من يسبر أغوار سرّ الثروة الرهيب، يدرك السبب الذي جعل القائمين على تربية الإنسان يرون فيها ملكوت الشيطان الحقيقيّ. فالمتاع البخس القيمة، دون سائر الأشياء جميعاً، يكلّف ثمناً باهظاً يفوق ثمن الأشياء الأُخرى مجتمعة، وتؤدّى جميع هذه الأشياء الأُخرى ثمناً له. والمتاع الذي هو عدم، وقيمته الفعليّة تساوي العدم، يُبذل، في سبيل الحصول عليه، كلّ شيء سواه : كلّ النفس، وكلّ الحياة، فتُبرَم، بذلك، مقايضةٌ بين أثمن الممتلكات وأحقرها.

بيد أنّ هذا التناقض الجهنميّ يكمن في اقتصاد الروح؛ فالمرء يعاني، بالسليقة، وفي كلّ مكان، من قوّة أسر ذلك العدم الذي يُدعى الثروة، بحيث كان محتوماً أن يُفرض عليه ثمنٌ يفوق الثروة، في غير ما تعادلٍ أو تناسب، من أجل صرفه عن نشدانها الأحمق. غير أنّ هذه الشروط المفروضة عاجزة عن ردع بني الإنسان عن الصفقة الجهنّميّة؛ ولا يزال الفقراء يأملون في الظفر بالثروة. فنفوسهم، على غرار نفوس الأغنياء، موبوءة، ومعظمهم ليسوا سوى فقراء مكرَهين على الفقر، لأنّهم فشلوا في اقتناص الذهب، وقد عزفوا عن الروح. إنّهم أغنياء بائسون، ما برحوا مفتقرين إلى المال.

و إذن، فالفقر الأوحد الذي يهب الثروة الحقيقيّة، الثروة الروحيّة، هو الفقر الطوعيّ، المقبول برضى، والمرغوب فيه بفرح؛ الفقر المطلق الذي يمنحنا الحرّيّة لغزو المطلق. إنّ ملكوت السماوات لا يعد الفقراء بالثروة، ولا بدّ للأغنياء، كي يدخلوه، من أن يصبحوا، طوعاً، فقراء.

بِعْ كلّ شيء

المفارقة المأساويّة الكامنة في الغنى تبرّر إنذار يسوع الأبديّ لتلاميذه الجُدد.

فإن كان يترتّب على الجميع إعطاء فائضهم للمعوزين، فعلى الغنيّ أن يعطي كلّ شيء. وقد أجاب يسوع الشابّ الذي استوضحه عمّا يجب عليه عمله لكي يكون من أتباعه: "إن شئت أن تكون كاملاً، فامضِ، وبِعْ كلّ مالك، وأعطِه للفقراء، فيكون لك كنزٌ في السماء". ليس التخلّي عن الثروة تضحية، أو خسارة، أو ضرراً، بل، على نقيض ذلك، هو ليسوع، ولجميع من يعرفون من هو الإنسان وما هي الثروة، ربحٌ لا يُقدّر بثمن. "بيعوا ممتلكاتكم، وتصدّقوا بها. واجمعوا، في السماء، كنوزاً لا تفنى، ولا يطالها سارق ولا يتلفها صدأ، فحيث هو كنزكم، هناك هو قلبكم. هبْ، إذن، من يسألك، ولا تستعِدْ ممّن يسلبك... ففي العطاء سعادةٌ أكثر ممّا في الأخذ "

ينبغي العطاء بلا تقتير، وبلا حساب، بل بفرح.من يعطِ، أملاً في أن يتلقّى، بالمقابل، بمقدار ما أعطى، لا يظفر بشيء. فالمكافأة تثوي في مكانٍ آخر، في داخلنا. فخيراتنا يجب ألاّ نبادلها بخيراتٍ أُخرى، بل بالطهر والقناعة. "إن أَقمت مأدبة لا تدعُ إليها أصدقاءك، وإخوتك، وأَقاربك، ولا جيرانك الأغنياء، إذ إنّ هؤلاء سيدعونك، بدورهم، وسيعيدون لك المِثل. بل ادعُ الفقراء، والمقعدين، والعُرْج، والعميان، واسعد بأنّهم لا يملكون ما يعطونك بالمقابل، فالمكافأة ستنالها لدى قيامة الأبرار".

حتّى قبل يسوع، نُصِح البشر بالتخلّي عن متاع الدنيا، ولم يكن يسوع أوّل من جعل من الفقر إحدى مدارج الكمال. فجينا، أو المنتصر، أضاف إلى وصايا "بارشعا" وصيّة الزهد في كلّ امتلاك. ومعاصره البوذا حرّض تلاميذه على التجرّد. وأَتباع المذهب الكلبيّ تخلّوا عن كلّ متاعٍ مادّيّ لكي يتحرّروا من العمل، ويكونوا مستقلّين عن البشر، ويتمكّنوا من التفرّغ للحقيقة، بروحٍ حرّ. و"كراتيس"، الثيبيّ النبيل، وتلميذ "ديوجين" وزّع ثروته على مواطنيه، وراح يتسوّل، وأَفلاطون أراد أَلاّ يملك محاربو جمهوريّته شيئاً، والرواقيّون، لابسو الأرجوان، والجالسون إلى موائد مرصّعة بالأحجار الكريمة كانوا يكيلون المديح للفقر بأسلوبٍ بليغ. و"أرستوفان" أظهر، على المسرح، الثريّ "بلوتُس"، وهو يوزّع ثروته على الأنذال فقط، بمثابة عقاب.

و لكن، في تعليم يسوع، ليس الفقر نظاماً زهديّاً، أو تظاهراً حافلاً بالكبرياء. فتيمون الأَثينيّ، الذي جاد بلا تمييز، وانتهى إلى الإِملاق، بعد أن أطعم طغمةً من الطفيليّين، ليس فقيراً كما يريده يسوع، لأنّه أَصبح فقيراً بدافع المجد الزائف، فقد أغدق عطاءه على الجميع، حتّى غير المحتاجين، كي يكتسب شهرة الكرم. و"كراتيس" الذي تجردّ، تمثّلاً بديوجين كان

عبد الكبرياء، وابتغى التميّز بعملٍ غير عاديّ لكي يُكرَّس حكيماً وفيلسوفاً. وامتهان الكلبيّين التسوّل هو أسلوب عُجْب جميل؛ وما فقر محاربي أفلاطون سوى تدبيرٍ احتياطيّ سياسيّ. إذ إنّ الفقر ضروريّ، أيضاً، للمجتمعات البشريّة التي تتكوّن وتنهض. فالجمهوريّات الأولى ظلّت تزدهر طالما التزم مواطنوها بفقرٍ ضنك، كما كان الأمر في مدينة إسبرطة، وفي روما القديمة. ولكنّها انهارت حالما آثرت الذهب على حياة الزهد والحياء. بيد أنّ الأقدمين لم يحتقروا الثروات في ذاتها. بل كانوا يعدّونها خطرة إن هي حُصرت بين أيدي فئةٍ قليلة. وإن هي لم تُنفق بكرمٍ حكيم، عُدّت ظالمة. أمّا أفلاطون، الذي كان يرغب لمواطنيه في وضعٍ متوسّط، على مسافةٍ واحدة بين البحبوحة والبؤس، فهو يضع الثروة في مرتبة الخيرات.صحيحٌ أنّه يضعها في المقام الأخير، ولكنّه لا يغفل عنها. وكان من شأن أرستوفانس أن يركع أمام بلوتُس، لو أنّ الإله الأعمى استعاد نظره، ومنح ثرواته لأخيار القوم.

أمّا في الإنجيل فليس الفقر أسلوباً صوفيّاً، ولا هو زينةٌ لنظامٍ فلسفيّ. إذ لا يكفي أن يكون المرء فقيراً كي يستحقّ مواطنيّة السماوات. ولا يصبح الإنسان، فجأةً، فقيراً وكاملاً، إذ إنّ فقر الجسد، وفقر الروح، مطلبٌ تمهيديّ. فمن لم يكن مقتنعاً بأنّه في الأسفل لا يتطلّع إلى التصعيد؛ ومن لم يتجرّد من كلّ امتلاكٍ مادّيّ، لا يعرف السبيل إلى اشتهاء الجوهريّ.

الفقير الذي لا يتألّم من فقره، والذي يفخر به، عوضاً عن السعي المضني في سبيل الانتقال منه إلى الغنى، هو أدنى إلى الكمال الأخلاقيّ من الغنيّ. ولكنّ الغنيّ الذي تجرّد في سبيل الفقراء، والذي يحيا إلى جانب إخوته الجُدد، هو أقرب إلى الكمال ممّن نشأ في أحضان الفقر. وإنّما حظوته بمثل هذه النعمة النادرة، المعجزة، لضمانٌ محقّق لكلّ رجاء. وقد يكون لزهد إنسانٍ بما لم يمتلكه، قطّ، ثواب، لأنّ الخيال يعظّم الأشياء الغائبة؛ غير أنّ الزهد في ما كان لنا، وفي ما يشتهيه كلٌّ منّا، هو دليل التطلّع إلى الكمال الأمثل.

الفقير الزاهد، القنوع، العفيف، البسيط، لأنّ أسباب وقوعه في التجربة غير متوفّرة، يميل إلى الاستعاضة بملذّات لا تكلّفه شيئاً، وإلى الاثّئار، بالارتقاء إلى تفوّقٍ روحيّ لا ينازعه عليه من يتمتّعون بالعيش. غير أنّ فضائله غالباً ما تنجم عن عجزه وجهله : فهو غير قادر على المخالفة، ولا قدرة له على جمع الأموال، إذ يكاد لا يملك الضروريّ. إنّه ليس ماجناً ولا سكّيراً، لأنّ أماكن السكر والمواخير لا تتساهل في الدفع. حياته الكادحة، الخانعة، القاتمة، تفتدي أخطاءه، والألم يجعله يرفع أبصاره التماساً لعزاء. وتقصيرنا، نحن، في مساعدة الفقراء يسلبنا حقّ إدانتهم. إنّ الفقراء الذين هجرهم إخوتهم، ونأى عنهم من يستطيعون مخاطبة قلوبهم، وتجنّبهم من لا يستطيعون احتمال قربهم القذِر، ونبذهم عالم العقل والفنّ الذي كان كفيلاً بجعل حياتهم أقلّ قسوة، هؤلاء الفقراء هم أطهر البشر. ولو هم ظفروا بمزيدٍ من الحبّ لكانوا أوفر كمالاً. فهل يحقّ لمن تخلّى عنهم أن يدينهم ؟

كان يسوع يحبّ الفقراء، لأنّهم يستثيرون رأفته، ولأنّهم الأقرب إلى نفسه، والأكثر تأهّباً لسماعه؛ ولأنّهم كانوا يوفّرون له، كلّ يوم، سعادة الخدمة، ونفح الخبز للجياع، والقوّة للواهنين، والرجاء للمتألّمين.

كان يسوع يحبّ الفقراء، لأنّه كان يرى فيهم، بدافع العدل، أجدر الناس بالإقامة في ملكوته؛ ولأنّهم كانوا يجعلون تجرّد الأغنياء، بحافز المحبّة، أكثر يُسراً؛ ولكنّه كان يحبّ، في المقام الأوّل، الفقراء الذين تحوّلوا من غنىً إلى فقر، حبّاً بملكوت السماوات، وبتجرّدهم من خيراتهم أكّدوا إيمانهم بوعده. لقد أعطوا ما هو، في المطلق، لا شيء، ولكنّه، في عيون العالم، كلّ شيء، كي يظفروا بيقين المشاركة في حياةٍ كاملة. كان عليهم أن يلجموا فيهم واحدةً من أكثر الغرائز رسوخاً في الإنسان. إنّ يسوع الذي وُلد فقيراً، بين ظهراني فقراء، من أجل فقراء، لم ينكر، يوماً، إخوته، بل أعطاهم دون سواهم، بحبوحة الفقر الإلهيّ الخصبة. ولكنّ الذي بحث عنه قلبه هو الفقير الطوعيّ، الغنيّ المتأهّب ليصير فقيراً حبّاً به. لطالما بحث عنه، وربّما لم يعثر عليه أبداً. ولكنّ شعور أخوّة رقيقة يشدّه إلى ذلك المجهول المنشود، أكثر ممّا كان يشدّه إلى المتسوّلين المتراصيّن من حوله.

براز إبليس

لقد أبى يسوع، أبداً، أن يلمس بيديه نقوداً. هاتان اليدان اللّتان جبلتا طيناً لإعادة النظر إلى الأعمى، واللّتان لمستا أجساد البرص والأموات المتفسّخة؛ وضمّتا جسد يهوذا، وهو أكثر بعثاً على النفور من الوحل والتفسّخ، والبرَص.هاتان اليدان البيضاوان، الطاهرتان، اللّتان أغدقتا الخلاص والشفاء، ولم يكن بمكنة أيّ شيءٍ تلويثهما، لم تحتملا، يوماً، لمس واحدٍ من تلك الأقراص المعدنيّة التي حُفِر عليها رسم أسياد العالم.

في أمثاله الأكثر واقعيّةً من الواقع، كان يسوع يستطيع تسمية النقود، وكان يستطيع مشاهدتها في يد الغير، ولكنّه أنف، أبداً، من لمسها. لم يكن ينفر من شيء، ولكنّه كان يشمئزّ من النقود، اشمئزازاً يلامس الكرْه. كلّ كيانه كان يثور لفكرة لمس رمز الغنى القذِر هذا !

عندما طولب بأداء ضريبة الهيكل، لم يشأ اللجوء إلى مال أصدقائه، بل أمر بطرس بإلقاء صنّارته في البحيرة، وكانت السمكة الأولى التي استخرجها من الماء تحمل ضعف المبلغ المطلوب. ولم يلحظ أحدٌ السخرية السامية الكامنة في هذه المعجزة. ولكأنّ يسوع يقول: "أنا لا أملك نقوداً، بل أزدريها، وبكلمةٍ منّي أجعل الماء والتراب يتقيّآنها. إنّ البحيرة تزخر بها، وأنا أعرف أين أجدها، ولو شئت لاستخرجت منها ما يكفي لشراء جميع كهنة الهيكل، وجميع ملوك الأُمم؛ ولكنّني أربأ بنفسي أن أُحرّك إصبعاً للحصول عليها. بل إنّ واحداً من

أتباعي سينتزعها من فم السمكة، وسيناولها للجابي، إذ يبدو أنّ الكهنة بحاجةٍ إليها كي يعيشوا. بوسع الحيوانات الصامتة أن تحملها في فمها. أمّا أَنا فإنّي من الغنى بحيث لا أُريد حتّى رؤيتها. أَنا لست حيواناً صامتاً. بل إنّي نفسٌ ناطقة، والنفوس لا تحمل مالاً، ولا خرجاً. فلست أَنا،، إذن، من يعطيك هذه الدراهم، بل البحيرة، أمّا أَنا فلست بحاجةٍ إلى ابتياع شيء، وما أملكه، أهبه، وثروتي التي لا تنضب هي كلامي.

و لكنّ يسوع اضطرّ، يوماً، إلى إلقاء نظرة على نقدٍ، فقد سئل هل يجوز ليهوديّ حقيقيّ أن يدفع الجزية، فأجاب، في الحال: "أروني نقود الجزية". فأروه إيّاها؛ ولكنّه أبى تناولها. كانت نقوداً إمبراطوريّة، رومانيّة، نُقِش عليها وجه أوغسطس المرائيّ. ولكنّه آثر تجاهل ذلك الوجه، فسأل : لمن هذا الرسم، وهذه الكتابة ؟ فأُجيب: لقيصر. وحينئذٍ ألقى في وجه السائلين الماكرين، القول الذي أخزاهم: "أعيدوا ما هو لقيصر، لقيصر، وما هو لله، لله".

هذه الكلمات القليلة حافلة بالمعاني. ولنتوقّف عند أولاها : **أعيدوا**. أعيدوا ما ليس لكم. فالنقود ليست ملككم. إنّها شأن أصحاب النفوذ لتدعيم نفوذهم. إنّها ملك الملك والمملكة، المملكة التي ليست مملكتنا. الملك يمثّل القوّة، وهو حامي الثروة، أمّا ملكوتنا فلا أصحاب نفوذ فيه، ولا أَغنياء. وملك السماء لا يُسكّ نقوداً. إذ إنّ النقود هي وسائل تبادل الخيرات الأرضيّة، ونحن لا نسعى إلى الخيرات الأرضيّة. القليل الذي نحتاج إليه : قليلٌ من الشمس، وقليلٌ من الهواء، ومعطف، وكسرة خبز، نُعطاه مجّاناً من اللّه، ومن أصدقاء اللّه. أنتم تكدحون، سحابة حياتكم، من أجل تكديس هذه الأقراص التي تحمل رسوماً. أمّا نحن فلا نحفل بها، فهي، لنا، نافلة، ولذلك نعيدها لمن سكّها، ولمن رسم عليها صورته، لكي يعلم الجميع أنّها له.

لم يتعيّن، قطّ، على يسوع أن يعيد نقوداً، لأنّه لم يمتلك، قطّ، نقوداً، وقد حظر على تلاميذه، في أسفارهم، حمل محافظ للتقادم. ارتضى استثناءً واحداً، وهذا الاستثناء مخيف. فهناك عبارة موجزة في الإنجيل تفيد أنّ أحد التلاميذ كان مكلّفاً بالسهر على الكيس المشترك، وهو يهوذا، الذي سيجد نفسه، هو أَيضاً، مضطرّاً، قبل أن يغيّبه الموت، إلى إعادة دراهم الخيانة. يهوذا هو ضحيّة، يكتنفها السرّ، على مذبح لعنة المال.

إنّ المال يحمل، في ذاته، مع قذارة عرق الأيدي التي جسّته، عدوى الجريمة التي لا ترحم. من جميع الأشياء القذِرة التي ابتدعها الإنسان كي يوسّخ ذاته ويوسّخ الأرض، أقذرها هو المال.

تلك النقود المعدنيّة المسكوكة التي تجول، كلّ يوم، بين أيدٍ ما برحت ملطّخة بالعرق والدم، والتي تهترئ بفعل جشع أصابع اللصوص، والتجّار، والصيارفة، والسماسرة، والبخلاء؛ هذه النقود التي يرغب فيها الجميع، ويسعون إليها، وينهبونها، ويشتهونها، ويحبّونها أكثر من الحبّ، بل، أحياناً، أكثر من الحياة؛ تلك النقود القذرة التي يهبها القاتل للطاعن

بالخنجر، والمرابي للجائع، والعدوّ للخائن، والهرطوقيّ للمتاجر بالمقدّسات، والفاجر لبنت الهوى؛ أوعية الشرّ النتنة اللزجة هذه التي تحرّض الابن على قتل أبيه، والزوجة على خيانة زوجها، والأخ على خداع أخيه، والفقير الشرّير على ذبح الغنيّ الشرّير، والخادم على غشّ سيّده، وقاطع الطريق على سلب المارّة، والشعوب على غزو شعوب أُخرى، هذه النقود، رموز المادّة المادّيّة، هي أرهب ما صنعه الإنسان.

إنّ المال الذي سبّب موت العديد من الأجساد، يميت، كلّ يوم، ملايين النفوس. إنّه أخطر عدوى من أسمال المصاب بالطاعون، ومن قيح الدمّل؛ وهو يلج كلّ بيت، ويتوهّج على موائد الصيارفة، ويتكوّر في الصناديق، وينجّس وسادة النوم، ويتوارى في عتمة الزوايا العفنة، ويلوّث أيادي الصغار البريئة؛ ويغوي العذارى، ويؤدّي أُجرة الجلاّد، ويجوس العالم مورياً نيران الأحقاد، مضرماً الجشع، ناشراً الفساد والموت.

إنّ الخبز الذي يُبارَك على مائدة الأُسرة، يصبح، على مائدة الكنيسة، جسد المسيح الأبديّ. وهكذا النقود هي علامةٌ مرئيّة لتحوّلٍ جوهريّ. فالمال هو قربان إبليس الخبيث. من يهواه، ويتلقّاه بفرح، يتواصل تواصلاً جليّاً مع الشيطان، ومن يمسّه بمتعة، يمسّ، في غفلةٍ منه، براز الشيطان.

الطاهر لا يقوى على لمسه، والقدّيس لا يطيقه، فكلاهما يعرفان، معرفة اليقين، جوهره النجس، فينفران منه مثلما ينفر الغنيّ من الفقر.

ملوك الأُمم

سأل يسوع عندما وُضعت تحت عينيه النقود الرومانيّة : لمن هذا الرسم ؟

إنّه يعرف ذلك الوجه، ويعلم أنّ أكتافيوس قد أصبح، بفضل سلسلةٍ مدهشةٍ من الظروف المؤاتية، ملك العالم، حاملاً لقب أوغسطس التزلّفي. إنّه يعرف ذلك المظهر الجانبيّ لشابّ مزيّف،و هذا الشعر الكثيف المجعّد، وذلك الأنف الكبير الذي يهجم إلى الأمام كي يخفي شراسة الفم الصغير، الضيّق، المحكم الإغلاق. إنّه رأسٌ نظير رؤوس جميع الملوك، منفصلٌ عن الصدر، وعن الجسد، مبتورٌ من أسفل العنق، صورةٌ مشؤومة لقطع الرأس المقصود، والأبديّ.

و لكنّ يسوع يأبى أن يلفظ بشفتيه اسم الأمبراطور، لأنّه لا يعترف بسلطته. إنّه يُنكر، في شخص قيصر، كلّ إنسانٍ يزعم أنّ له على البشر سلطاناً. إنّ قيصر هو ملك العالم، ويسوع ملك مملكةٍ جديدةٍ مناقضةٍ للعالم، لن يكون فيها ملوك، بعد. قيصر هو ملك الماضي،

قائد جنود، ساكّ نقودٍ فضيّة وذهبيّة، قيّمٌ، معرّض للخطأ، على عدلٍ غير كافٍ. أمّا يسوع فهو ملك المستقبل، محرّر العبيد، متخلٍّ عن الثروات، معلّم الحبّ. لا شيء مشتركٌ بينهما. لقد جاء يسوع كي يقوّض سيطرة قيصر، ويزيل إمبراطوريّة روما وكلّ إمبراطوريّةٍ أرضيّة، لا لكي يحلّ محلّ قيصر. فليصغِ إليه البشر، ولن يبقى قياصرة. ليس يسوع الوريث المتآمر على الحاكم بغية احتلال مركزه، بل هو مدمّر جميع المالكين، سلميّاً. قيصر هو الأقوى والأشهر بين خصومه، ولكنّه أكثرهم تغرّباً. فقوّته تكمن في سُبات الناس، ووهن الشعوب. ولكن ها هوذا ذاك الذي يوقظ النيام، ويفتح عيون العميان، ويعيد للواهنين قوّتهم. عندما سيتحقّق كلّ شيء، ويترسّخ ملكوته – ملكوتٌ لا جنود فيه، ولا قضاة، ولا عبيد، ولا نقود، ولا يحتاج إلاّ إلى نفوسٍ جديدةٍ مُحِبّة – ستتلاشى إمبراطوريّة قيصر مثل كومة رماد أمام هبوب ريحٍ منتصرة.

طالما ظلّ قيصر، ظاهريّاً، قائماً، سيسعنا أن نعيد له ما هو له. ولكنّ المال، للبشر الجدُد، ليس بشيء. فلنُعِد لقيصر، الموعود بعدمٍ أبديّ، هذا العدم الذي لا يخصّنا.

إنّ يسوع الذي يستعجل، دائماً، بهوى الرغبة، مجيءَ الفردوس الأرضيّ الثاني، لا يعبأ بالإمبراطوريّات لأنّ المملكة التي يعلنها لا تحتاج إلى إمبراطوريّات. فشعبٌ من قدّيسين لا يحتاج إلى ملوك، ومحاكم، وجيوش. إنّ المحرّر الإلهيّ قد جاء ليقلب كلّ شيء، حتّى في السياسة البشريّة. مرَّة واحدة تكلّم عن الملوك، ولكن لكي يقلب رأساً على عقب الفكرة الجماعيّة الشائعة. فقد قال لتلاميذه : " إنّ ملكوك الأمم يسودونها، وأصحاب السلطة يُدعون محسنين. ولكن لا يكن هكذا فيما بينكم؛ بل فليكن أكبركم كالأصغر، والحاكم كمن يخدم ". إنّها المساواة الكاملة، على المستوى البشريّ. فإن كان على الحاكم أن يصبح كالخادم، فبالمقابل، للعبد نفس حقوق السيّد ونفس التكريم. فقد يكون قدّيسون أشدّ غيرة ممّن يقيمون العدل؛ وطوباويّون كانوا خطأة حتّى آخر ليلة؛ وأبرياء كانوا مواطني الملكوت منذ مولدهم. قد يكون، ثمّة، تفاوتٌ في مدى الكمال الروحيّ، ولكن، في نهاية الأزمنة، ستُزال كلّ فئويّة تفرّق بين رفيعٍ ووضيع، بين ملكٍ ومرؤوس. فالسلطة، وإن أُسيء استخدامها، تفترض قطيعاً يُساق، وأقلّيّة تُعاقَب، وبهيميّة يتعيّن لجمها. ولكن، عندما يصبح كلّ البشر قدّيسين، ستنتفي الحاجة إلى أمرٍ وطاعة، إلى قانونٍ وعقاب، وإلى مرشدين، وملاجئ، فلا حاجة بملكوت الروح إلى القوّة.

حينئذٍ لن يتباغض البشر، ولن يرغبوا في الثروات؛ وغداة هذين التحوّلَيْن الجسيمَيْن، لن يبقى مبرّر لسلطة الدولة. والسراط المؤدّي إلى الحرّيّة الكاملة لا يدعى تدميراً، بل قداسة،

ولن يكمن في سفسطات كودين أو ستيريز، أو برودون أو كرويوتكين[1]، بل فقط في إنجيل يسوع المسيح.

بيد أنّ تحوّل البشر الكامل إلى الإنجيل لم يتحقّق بعد، وما برح وجود الملوك ضروريّاً. فالبهائم تحتاج إلى راعٍ؛ وبمقدار ما تكون البهائم عنيدةً جامحة، يحتاج الراعي إلى مزيدٍ من السلاح والقوّة.

و لكنّ البهائم البشريّة، التي تجعلها الكبرياء أكثر شراسة، تظنّ أنّ العدد يحلّ محلّ الوحدة، وأنّ بوسع الواطئ أن يتبوّأ مكان الرفيع، وباتت ترفض الملوك. إنّ الملوك الحقيقيّين، حتّى لو كانوا رديئين، يسمون فوق نزوات الجماهير المتقلّبة. وإذ إنّهم يحكمون بهذه السلطة التي لا بدّ أن تكون وحيدةً لكي تكون مجدية، يؤدّون الحساب عن أخطائهم أمام اللّه وحده. وبشر اليوم يرفضون هؤلاء الملوك، لأنّهم لا يحبّونهم ولا يطيقونهم، ويؤثرون عليهم طغمة من صغار الطغاة الحمقى الجشعين الذين يجزّونهم جزّ الخراف، ويعصرونهم، باسم الحرّيّة، يؤثرونهم لأنّهم يضفون مسحةً من الإباحيّة على طغيانٍ يفرض جميع أعباء السلطة، من غير أن يؤتي فوائدها. منذ قرون، زال الملوك الحقيقيّون عن سطح الأرض، ولم يصبح أكلة البلّوط الذين يأهلون البسيطة أفضل حالاً : فلا هم مؤهّلون للطاعة الضروريّة للبهيميّين، ولا هم جديرون، بعد، بحرّيّة القدّيسين الإلهيّة.

السيف والنار

كلّما توخّى ممالقو أصحاب النفوذ تقديس طمع الطامعين، وعنف العنيفين، وشراسة الشرسين، وفتوحات الفاتحين؛ وكلّما حاول السفسطيّون المأجورون، والخطباء المسعورون، التوفيق بين الضراوة الوثنيّة والحلم المسيحيّ، وجعل الصليب حارساً للسيف، وتبرير سفك الدم بتحريضٍ من البغض، بحجّة الدم الذي انثال على الجلجلة من أجل تلقين الحبّ؛ وبالإجمال، كلّما حاول البعض إسباغ الشرعيّة على الحرب انطلاقاً من مبدأ السلم، وجعل المسيح كفيلاً لجنكيزخان أو بونابرت... يتوارد في انتظامٍ محكم، توارد الأقوال الشائعة المبتذلة، نصّ الإنجيل الذي يعرفه الجميع عن ظهر قلب، ولا يفهمه سوى قلّة: " لا تظنّوا أنّي

---

[1] كودين (1756 - 1836) روائيّ وكاتب بريطانيّ ، كان قسّيساً ، ولكنّه فقد الإيمان وانتهى إلى ضربٍ من الفوضويّة العقلانيّة
- ستيرز (1806- 1856) فيلسوف ألمانيّ، دافع عن نظريّة الفوضويّة. لم يكن له تأثير في زمانه ، غير أنّ تأثر نيتشه به أشاع شهرته.
- برودون (1809-1865) مفكّر فرنسيّ ، بدأ داعية اشتراكيّاً ، وتطوّر تفكيره نحو ترسيخ العدالة ، ثمّ انتهى إلى ضربٍ من الصوفيّة.
- كرويوتكين (1842 - 1921) ثائر وفوضويّ روسيّ - دعا إلى التضامن ، انطلاقاً من نظريّة دروين التطوّريّة.

جئت لأحمل إلى الأرض سلاماً، بل جئت لأحمل إليها سيفاً ". ويضيف آخرون، أبعد تـوغّلاً في العلم: "جئت كي أحمل إلى الأرض ناراً ". وآخرون، يحظون بذاكرة فظيعة، ينقضّون على الآية الحاسمة: " الغاصبون هم الذين يستولون على ملكوت السماوات "

أيّ ملاك بلاغة، أو أيّ ملهمٍ خارق يستطيع أن يبيّن لمردّدي هذه النصوص المتشدّدين، المعنى الحقيقيّ للأقوال التي يكرّرونها بنزَق أخرق ؟

إنّهم يعزلونها عن سياقها الإنجيليّ، برقّة، مثلما يقطف قردٌ زهرة، على غير اكتراثٍ لقرائنها السابقة واللاحقة، أو للمناسبة التي أوحت بها، ولا يخطر لهم، لحظةً، ببال أنّـه قـد يكون لها معنى غير المعنى الشائع.

فعندما قال يسوع أنّه جاء يحمل السيف (أو الشقاق، كما ورد في إنجيل لوقا الموازي) كان يخاطب تلاميذ يهمّون بالانطلاق للتبشير بدنوّ الملكوت. وفوراً بعد ذكره السيف، شـرح، بأمثلةٍ مألوفة، مقصده: "جئت لألقي الشقاق بين الابن وأبيه، والبنت وأُمّها، الحمـاة وكنّتهـا، وسيكون أعداء الإنسان أهل بيته. ومنذ الآن، من خمسةٍ مقيمين في بيتٍ واحد، سينشقّ ثلاثـة عن اثنين، واثنان عن ثلاثة...". فالسيف، إذن، لا يعني الحرب، بل هو صورة للشقاق. السيف هو ما يقطع، ويفصل ويفرّق. ومن شأن بشارة الإنجيل تفريق أعضاء الأسرة الواحـدة. إذ، ثمّة، بين البشر، الصمّ والذين يسمعون، المتلكّئون والمندفعون، الناكرون والمؤمنون.

و طالما لم نتحوّل، ونصبح إخوةً في الكلمة، ستسود الفرقةُ الأرضَ. ولكـنّ الفرقـة ليست حرباً، ولا هي مذبحة. فالذين سمعوا وآمنوا، المسيحيّون، لن يهاجموا من لا يصـغون ولا يؤمنون. أجل، قد يستخدمون سلاحاً في مواجهة إخوتهم العنيدين، ولكنّ سلاحهم سـيكون الوعظ، والقدوة، والصفح، والحبّ. غير المؤمنين قد يشنّون حرباً حقيقيّة، حرب عنـفٍ ودم، وهم إنّما يشنّونها لأنّهم لم يرتدّوا ولم يؤمنوا بالمسيح. إنّ انتصار الإنجيل هـو نهايـة كـلّ الحروب، حرب الإنسان على الإنسان، والأسرة على الأسرة، الحرب بين الطبقـات، وبـين الشعوب. ولئن كان الإنجيل، في مرحلةٍ أولى، هو سبب فرقةٍ وشقاق، فالـذنب لـيس ذنـب الحقائق التي يعلّمها، بل لأنّ هذه الحقائق لا يمارسها الجميع.

و عندما يعلن يسوع أنّه جاء ليلقى ناراً، وحده إنسانٌ متوحّش يستطيع التفكير بالنـار القاتلة المدمّرة، التي تساند صراعاتنا. "كم أتمنّى أن تكون قد اضطرمت!" فالنار التي يرغـب فيها ابن الإنسان، هي نار التطهير، والاندفاع، والتضحية، ولهيب الحبّ المتوهّج. وطالما لـم تلتهب النفوس، وتحترق بهذه النار، لن تكون الكلمة سوى ضجيجٍ باطل، وسـيظلّ الملكـوت بعيد المنال. فلا بدّ من حريقٍ يجدّد أسرة البشر الملوّثة الخبيثة، حريق هوى وألم، بحيث يتألّم الراضون عن ذواتهم، ويولول فاقدو الإحساس، ويضطرم المتجمّدون، ويلتهب الفاترون مثـل مشاعل في دمس الليل. كلّ القذارة المتراكمة خلال حياة البشر السرّيّة، وكلّ رواسب الخطايا

التي تحيل النفس إلى مستنقع، وكلّ تعفّنٍ يسدّ الآذان ويخنق القلوب، ينبغي أن يتحوّل كلّ ذلك رماداً، بفضل معجزة تلك النار الروحيّة التي جاء يسوع كي يوريها، نار لا تلتهم، بل تجدّد، ولا تدمّر، بل تخلّص.

إنّ اجتياز جدار اللهب هذا، يستلزم قوّة حبّ وجرأة لا يمتلكها الجميع، بل يتميّز بها الشجعان. ولذلك قال يسوع أنّ المغتصبين هم الذين يستولون على الملكوت. لا جرَم أنّ لفظة "المغتصبين"، في هذا النصّ، تعني " الأقوياء "، أي الذين يقتحمون الأبواب بلا تردّد، ولا وَجَل. ومن المحقّق أنّ ألفاظ السيف، والنار، والعنف، لا يمكن أن تؤخذ هنا بمعناها الحرفيّ الذي يروق لمحامي القتلة. بل هي صورةٌ مهمّتها هزّ خيال الجماهير الغافي: فالسيف هو رمز الخلاف بين أوائل المؤمنين، والذين تيقّنوا وآمنوا بعد لأي؛ والنار هي الحبّ المطهّر؛ والعنف: هو القوّة الضروريّة لكي يعيد الإنسان خلق ذاته، وينتهي إلى عتبة الملكوت.

أمّا من يسبغ على هذه الألفاظ معاني مختلفة، فهو إمّا يجهل القراءة، أو يبتغي الخيانة.

يسوع هو رجل سلام. وقد جاء بالسلام. وما أناجيله سوى وعود سلام، وتعاليم سلام. ليلة ميلاده هتفت الأصوات السماويّة البشرى النبويّة : "سلامٌ على الأرض لحسني النوايا". وفي عظته على الجبل كان أحد أولى الوعود التي انطلقت من قلب المسيح إلى شفتيه ذاك الذي وجّهه إلى المسالمين: طوبى لصانعي السلام، فإنّهم سيُدعون أبناء اللّه. وقد أوصى رُسُله المتأهّبين للانطلاق على دروب البشرى، أن يتمنّوا السلام لكلّ البيوت التي سيدخلونها. ولتلاميذه وأصدقائه أوصى بالوئام التامّ: كونوا على سلامٍ بعضكم مع بعض. وعندما دنا من أورشليم، رنا إليها باكياً وقال: " آه لو كنت تعلمين، في ذلك اليوم، ما يوفّر لك السلام!" وفي ليلة الجتسماني، فيما كان المرتزقة المسلّحون بسيوف منشغلين بتقييده، أطلق إدانته الأخيرة للعنف : " من ضرب بالسيف، بالسيف يُقتل "

إنّه لا يجهل شرور الفرقة: "كلّ مملكة منقسمة إلى أحزابٍ متخاصمة ستصبح يباباً؛ والمدينة أو البيت المنقسمان إلى شِيَعٍ لا يصمدان". وفي خطابه المتعلّق بالأحداث الأخيرة، في نبوءته الكبرى عن نهاية العالم، يذكر، من بين علامات النهاية المخيفة، إلى جانب الهزّات الأرضيّة، والمجاعات، والاضطرابات، الحروب: "إذ ستقوم أمّة على أمّة، ومملكة على مملكة... وستسمعون عن حروب، وأخبار حروب"

الفرقة، في نظر يسوع شرّ، والحرب جريمة. إلهه ليس ربّ المعارك القديم. إنّ مدّاحي المذابح الكبرى يخلطون بين العهدين القديم والجديد. وقد غاب عنهم أنّ العهد الجديد هو جديدٌ لأنّه يُصلح القديم.

قد توصف الحرب بالإلهيّة عندما تُعدّ عقاباً. ولكنّها عقاب ذاتيّ. الحرب هي أضرى مظاهر الكره الذي يكمن ويجيش في قلوب البشر. ولكي ينفّس البشر عن الكراهيّة الثاوية فيهم

ينزعون إلى تدمير بعضهم بعضاً بواسطة الأسلحة. وهكذا تبدو الحرب، في آنٍ واحد، جريمةً وعقاباً. جريمة لأنّها كانت ثاوية في النفوس قبل أن تنفجر، وعقاباً لأنّ انفجار البغض يفضي إلى تقتيل المتباغضين المتبادل.

فلو انتفى البغض من كلّ القلوب، لباتت الحرب مستحيلة ، ولزالت الشدّة الكبرى مع الخطيئة الكبرى، ولحلّ، أخيراً، اليوم الذي شاهده النبيّ، في رغبته: " عندما يصنعون من سيوفهم معازق للأرض، ومن حرابهم مناجل؛ وعندما لن تعود أمّة ترفع على أُخرى سيفاً، وينتفي تعلّم القتال "

هذا اليوم الذي أعلنه أشعيا، سيحلّ عندما ستصبح عظة الجبل هي الشريعة الوحيدة المعترف بها، على الأرض.

جسد واحد

إنّ يسوع يقدّس الاتّحاد، حتّى الجسديّ، بين الرجل والمرأة. فطالما كان الملوك ضروريّين، نعيد لهم النقود التي تحمل أسماءهم. وطالما لم يصبح البشر كالملائكة، يتعيّن على الجنس البشريّ أن يتكاثر.

الأُسرة والدولة، ذانك التجمّعان غير المكتملين،بالقياس إلى سعادة السماء، ضروريّان، انتظاراً للفردوس على الأرض، على أن يصبحا، في أثناء هذا الانتظار، أوفر طهراً، واكتمالاً. فعلى الحاكم أن يشعر بتساويه مع الخادم، وعلى الوحدة بين الرجل والمرأة أن تغدو صادقةً أبديّة.

في الزواج يرى يسوع، في المقام الأوّل، اتّحاد جسدين، وفي هذا السياق يصادق على صورة الشريعة القديمة: " لا يكونا، بعد جسدين، بل جسداً واحداً ". الزوج والزوجة جسد واحد. فلن يكون لهذا الرجل امرأةٌ أُخرى، ولن تعرف تلك المرأة رجلاً آخر، إلى أن يفرّقهما الموت. عندما لا تكون مضاجعة الذكر للأُنثى إرواءً لشَبَقٍ جامحٍ عابر، بل تلاقي بكارتين سليمتين، وتقدمةً متبادلة بينهما، وثمرة اختيارٍ حرّ، وهوىً طاهر، وعهدٍ علنيّ مقدّس، فهي ترتدي طابعاً شبه صوفيّ لا قِبَل لشيءٍ على محوه.

الجسدان اللّذان يتعانقان في الرغبة، ينطويان على نفسَيْن تتعارفان وتلتقيان في الحبّ، فيصبح الجسدان جسداً، والنفسان نفساً. لقد مزجا دمهما، ومن هذا التواصل سيولد كائنٌ جديدٌ مكوّنٌ من جوهر كلٍّ منهما، وسيكون الصورة المرئيّة لوحدتهما. إنّ الحبّ يجعلهما شبيهين باللّه، وصانعيْ الخليقة الجديدة والعجيبة، أبداً.

بيد أنّ هذه الثنائيّة الجسديّة والروحيّة، الأكثر قرباً من الكمال بين الشراكات البشريّة، ينبغي أن تبقى في مأمن من الفساد أو الدمار. الزنى يفسدها، والطلاق يحطّمها. الزنى هو تآكل الوحدة الخبيث، والطلاق هو الكفر النهائيّ بهذه الوحدة. الزنى هو طلاقٌ مكتومٌ مبنيّ على الكذب والخيانة. والطلاق الذي يعقبه زواج جديد، إن هو إلاّ زنى يرتدي طابعاً قانونيّاً.

و يسوع يدين، إدانةً علنيّةً ومطلقة، كلاًّ من الزنى والطلاق. وهو يقول، في سياق حديثه عن الحياة السماويّة، إنّه سيأتي يومٌ حيث الرجال والنساء لا يتزوّجون، ولكن، إلى أن يحلّ هذا اليوم، على الزواج أن يتحلّى بكلّ كمالٍ ينطوي عليه عدم كماله. ويسوع الذي يصعّد، دائماً، من الظاهر إلى الباطن، لا يعدّ زانياً فقط ذاك الذي يسلب زوجة أخيه، بل ذاك الذي يحدّق فيها بعيني الشهوة، ولو تحديقاً عابراً. وليس زانياً، فقط، ذاك الذي يخفي جرمه، بل أيضاً ذاك الذي، بعد إذ يطلّق امرأته، يتزوّج أُخرى. في مقطعٍ واحدٍ من الإنجيل يبدو أنّ يسوع يتيح طلاق المرأة الزانية، ولكنّ ذنب المرأة المطرودة، لا يمكن أن يبرّر، أبداً، الزوج المخدوع الذي يتزوّج امرأةً أُخرى.

التلاميذ أنفسهم استنكروا شريعةً على هذا القدر من الشدّة، قائلين : "إذا كانت هذه حال الرجل مع المرأة، فالأَوْلى ألاّ يتزوّج". ولكنّ يسوع أجابهم : " ليس الجميع يفهمون هذا الكلام، بل أولئك الذين أوتوا ذلك وحدهم. ذلك بأنّ من الخصيان من وُلدوا هكذا من بطون أمّهاتهم، ومنهم من خصاهم الناس، ومنهم من خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمن استطاع أن يفعل ذلك فليفعل ".

الزواج هو تنازلٌ للطبيعة البشريّة، ولاستمرار الحياة ونشرها. فليس الجميع قادرين على العفّة، والبكارة، والوحدة، بل وحدهم يقوون عليها " أولئك الذين أوتوا ذلك ". وإنّما العزوبة الكاملة نعمةٌ ومكافأةٌ لانتصار الروح على الجسد.

فكلّ من توخّى منح كلّ حبّه لعملٍ عظيم، عليه أن يلتزم بالعفّة والبكارة؛ ومن انتُدب للاضطلاع بمهمّةٍ صعبة تستنزف كلّ ساعات عمره حتّى الدقيقة الأخيرة، لا يستطيع الارتباط بامرأة. الزواج يقتضي الاستلام لكائن آخر، أمّا المخلّص فعليه أن يهب ذاته للبشر أجمعين، وليس بوسعه أن يخدم، في آنٍ واحد، كائناً فرداً والجميع. اتّحاد نفسين لا يكفيه، وقد يجعل مستحيلاً الاتّحاد بجميع النفوس. إنّ المسؤوليّات التي يُحتّمها اختيار امرأة، وإنجاب أبناء، وخلق جماعاتٍ صغيرة وسط جماعةٍ بشريّة كبرى، هي من الثقل بحيث قد تصبح عائقاً يوميّاً دون التزاماتٍ أُخرى أشدّ خطورة، بما لا يقاس.

من رام قيادة البشر، وتغييرهم، لا يستطيع الارتباط، سحابة حياته، بكائنٍ واحد، وإلاّ فهو يخون زوجته أو يخون رسالته. حبّه الشامل لإخوته أكبر من أن يحبّ واحدةً، فقط، من أخواته. إنّ البطل وحيدٌ أبداً، والوحدة هي عقابه وعنوان عظمته. إنّه يزهد في مُتع الحبّ

الجسديّ، بيد أنّ الحبّ الثاوي فيه يتضاعف، ويعمّ الجميع، في سموّ تضحيةٍ يفوق كلّ نشوةٍ أرضيّة. الرجل، بلا امرأة، وحيد، ولكنّه طليق، ونفسه المتحرّرة من الآراء الشائعة، بوسعها الارتقاء عالياً. إنّه لا ينجب أبناءً من صلبه، ولكنّه يبعث إلى حياةٍ جديدة أبناء روحه.

ليس بمكنة الجميع احتمال العفّة. ولكن "من استطاع إليها سبيلاً، فليُقدم عليها "، فإنّ بناء الملكوت يقتضي رجالاً يهبون كلّ نفسهم. أمّا العمل الجسديّ، حتّى في حدود شرعيّة الزواج، فهو علّة وهنٍ لمن عليه الصبوّ إلى شؤون الروح.

إنّ الذين سينهضون من الموت في يوم النصر، سيكونون محرّرين من الغوايات. ففي ملكوت السماوات، سيُلغى اتّحاد الرجل والمرأة، حتّى ذاك الذي قدّسته ديمومة الزواج. فقد كانت غايته العليا خلق بشرٍ جُدد؛ ولكن، في ذلك الزمن، الذي يُقهر فيه الموت، لن يعود ضروريّاً تجدّد الأجيال إلى ما لانهاية. " أبناء هذا الجيل يتزوّجون ويُزوّجون. أمّا من وُجدوا أهلاً للدهر الآتي، ولقيامة الأموات، فلن يتزوّجوا، إذ لن يموتوا، بعد، لأنّهم مساوون للملائكة، وأبناء اللّه، إذ إنّهم أبناء القيامة ".

باكتساب الحياة الأبديّة، والوضع الملائكي – وهما وعدا المسيح ويقيناه – ما كان يبدو مطاقاً يمسي غير معقول، وما كان يبدو طاهراً، يصبح معيباً، وما كان يبدو مقدّساً يغدو بعيداً عن الكمال. في هذه اللحظة القصوى، ستنتهي كلّ مِحَن الجنس البشريّ. الإنسان البهيميّ، في العصور الأولى، كان يكتفي بمجامعة ضحيّته؛ ثمّ ارتقى الإنسان إلى الاتّحاد الوحيد بامرأة واحدة؛ وبلغ القدّيس العفّة الطوعيّة. أمّا الإنسان الذي أضحى ملاكاً، والذي كلّه روحٌ وحبّ، فقد انتصر على الجسد، حتّى في ذاكرته، وحبّه يسمو إلى تأمّلٍ يفوق مستوى البشر، في عالمٍ خالٍ من الفقراء، والمرضى، والبؤساء، والأعداء.

لقد أُغلقت دورة الولادات، واستقرّ للأبد المُلك الرابع، وسيكون مواطنوه، أبديّاً، هم أنفسهم، هؤلاء لا سواهم، حتّى آخر الدهور. لن تلد، بعدُ، المرأة، في الألم، وحكم النفي يُلغى، والحيّة تُقهر؛ والأب يرحّب بالابن الآبق ويحتفل به. والفردوس يُستعاد، ولن يُفقد، من بعدُ، أبداً.

آباء وأبناء

كان يسوع يتحدّث، ربّما في كفرناحوم، في بيتٍ غُصّ برجالٍ ونساء، جياعٍ إلى الحياة والعدل والعزاء، تراصّوا من حوله، وراحوا يرمقونه كما يرمق الإنسان أباً التقاه بعد غياب، أو أخاً، أو محسناً.

كانوا من الجوع إلى سماع كلامه، بحيث ما تركوا له ولأصدقائه فسحةً لتناول لقمةٍ تسند قواهم؛ كان يتكلّم منذ وقتٍ طويل، وهم كانوا يريدون ألاّ يتوقّف عن الكلام حتّى الليل، بلا هوادة، بلا فسحة راحة. فلكم انتظروه ! آباؤهم وأمّهاتهم قد انتظروه في بؤسٍ مهين، في استسلام البهائم، ألوف السنين. وهم أنفسهم انتظروا طويلاً، سنين إثر سنين، في توقٍ مُبهَم.

لقد ترقّبوا، جميعهم، ليلةً بعد ليلة، شعاع نور، وعداً بالسعادة، أو كلمة حبّ؛ وها هوذا، أمامهم، ذاك الذي يؤدّي ثمن الانتظار الطويل، الثمن الذي باتوا يقتضونه الآن، بلا تلكّؤ.

هؤلاء الرجال والنساء كانوا يحيقون بيسوع مثل دائنين ممتازين نافدي الصبر، قبضوا، أخيراً، على مدينهم الإلهيّ، مطالبين بدينهم حتّى الفلس الأخير؛ فلا بأس إن لم تبقَ له فسحةٌ لتناول كسرة خبز. فسحابة قرونٍ وقرون، افتقر آباؤهم إلى خبز الحقيقة؛ وهم أنفسهم، منذ سنوات، لم يشبعوا من خبز الرجاء.

و استمرّ يسوع في التحدّث إلى القوم الذين ملأوا البيت، ممعناً في رسم لوحاته المؤثّرة، مبلّغاً بشرى الملكوت العتيد؛ كان يرنو إليهم بعينَيْن مبتهلتَيْن تتسرّبان إلى أعماق النفوس، مثل شمس الصباح التي تتسرّب إلى عتمة البيوت الموصدة. من منّا لا يهب ما تبقّى له من أيّام كي ينعم بتلك النظرة، ولكي يحدّق، ولو دقيقةً واحدة، بتَيْنك العينين المتوهّجتين برقّة لا متناهية؛ ولكي يسمع، ولو مرّةً واحدة، ذلك الصوت المؤثّر الذي يحوّل اللهجة الآراميّة إلى موسيقى عذبة ؟ هؤلاء الرجال والنساء الذين ماتوا، أولئك البائسون الذي غدوا، اليوم، غباراً تذروه ريح الصحراء، أو وحلاً تخوض فيه أقدام الجمال، أولئك الرجال والنساء المساكين الذين لم يحسدهم أحدٌ وهم أحياء، والذين بتنا، نحن الأحياء، نحسدهم، بعد أن ماتوا من قديم، وباتوا نكرات، أولئك الرجال والنساء كانوا يسمعون ذلك الصوت، ويشاهدون تيْنك العينين.

و في تلك الأثناء، علا ضجيجٌ عند باب المنزل، حيث كان مَن يبتغي الدخول، وأُبلغ يسوع: "إنّ أمّك، وإخوتك، وأخواتك، هنا، يريدونك". ولكنّ يسوع لم يتحرّك، بل أجال نظره في الحضور المتحلّقين من حوله وقال: "من هي أُمّي، ومن هم إخوتي ؟" وأشار إلى الحضور قائلاً: "ها هم أُمّي وإخوتي ! إنّ كلّ من يعمل مشيئة اللّه، سيكون لي أخاً وأُختاً، وأُمّاً". هؤلاء هم أسرتي كلّها، وليس لي سواها. إنّ علاقات الدم التي لا يوثّقها الروح لا شأن لها.

أبي هو الآب الذي يجعلني شبيهاً به في كمال الخير. وإخوتي هم الفقراء الذين بكوا؛ وأخواتي هنّ النسوة اللائي تخلّين عن الأهواء، في سبيل الحبّ الحقّ الأوحد.

إنّه لم ينكر، بهذه الكلمات، أُمّه العذراء المتألّمة التي حملته في أحشائها، ولكنّه توخّى القول أنّه، منذ يوم منفاه الطوعيّ، لم يعد ملكاً لأسرة الناصرة الصغيرة، بل أضحى ملك

رسالة الخلاص، وأسرة البشريّة الكبرى. إنّ البنوّة الروحيّة، في نظام الخلاص الجديد، تتخطّى البنوّة الجسديّة، وتسمو عليها: " إن أتى إليّ أحد، ولم يبغض أباه وأُمّه، وزوجته، وأبناءه، وإخوته، وأخواته، وحتّى حياته، فلن يستطيع أن يكون لي تلميذاً ". على الحبّ الخاصّ أن يتلاشى في الحبّ الشامل. ولا بدّ من الخيار بين عواطف الإنسان القديم، والحبّ الوحيد للإنسان الجديد.

ستزول الأُسرة عندما سيصبح البشر، في الحياة السماويّة، خيراً من البشر. منذ الآن، الأُسرة عائق في وجه من يُساعد الآخرين على اكتساب السماء. " لا تَدْعوا أحداً أباً لكم على الأرض، فأبوكم واحد، وهو الأب السماوي ". من سيترك أسرته سيكافأ، بلا حدود: " الحقّ أقول لكم، ما من إنسانٍ ترك بيته، وزوجته، وإخوته، ووالديه أو أبناءه، حبّاً بملكوت اللّه، إلا ويتلقّى مئة ضعف في هذا الدهر، وفي الدهر الآتي، الحياة الأبديّة ".

يمكنكم الوثوق بالآب السماوي، وبإخوتكم في الملكوت السماويّ. أمّا الآباء والإخوة الأرضيّون فقد يمسون هم قاتليكم: "سيخونكم والدوكم أنفسهم،وإخوتكم، وأصدقاؤكم،وسيميتون الكثير منكم... "

غير أنّه يتعيّن، أقلّه على الآباء، أن يكونوا أوفياء. ففي نظر يسوع، على الآباء من الواجبات تجاه بنيهم أكثر كثيراً من واجبات الأبناء تجاه آبائهم. الشريعة القديمة لم تعرف سوى واجبات الأبناء، فموسى أوصى: "أكرم أباك وأُمّك " ولم يُضِف: "إحمِ أبناءك وأحببهم". كان الأبناء ملك من أنجبهم. وكانت الحياة، حينئذٍ، تبدو على قدرٍ من الجمال والثمن بحيث يتعذّر وفاؤها حقّها. وكان يتعيّن على الابن أن يظلّ، أبداً، عبداً خاضعاً، لا يعيش إلاّ من أجل أبيه، ومنفّذاً لأوامره.

هنا أيضاً، استشفّت عبقريّة قالب الموازين الإلهيّ ما ينقص القدماء، وأكّدت على واجبات الآباء: إذ عليهم أن يعطوا، ويعطوا بلا تقتير، ولا هوادة. حتّى لو كان الأبناء سيّئين، وحتّى لو هجروا أباهم، وحتّى لو بدوا، في نظر حكمة العالم البليدة، غير مستحقّين لشيء. إنّ نصف صلاة " أبانا " سؤال الأبناء لأبيهم. إنّها الصلاة التي يسع كلّ ابنٍ توجيهها لأبيه، سائلاً الخبز اليوميّ، والسماح بالديون، وغفران الإساءات، والوقاية من الشرّ.

الأب، وإن أعطى كلّ شيء قد يُهجر. فإن تخلّى عنه ابنه كي يخوض حياةً فاسدة، ينبغي أن يُصفح عنه منذ عودته، مثل ابن المثل، المبذّر. وإن هجره كي ينشد حياةً أسمى وأكمل – كما يفعل من يرتدّون إلى الملكوت – فيكافأ مئة ضعف في هذه الدنيا وفي الآخرة.

و في جميع الحالات، الآباء مدينون. وعليهم الوفاء للمسؤوليّة الجسيمة التي ارتضوها بإعطائهم الحياة لكائناتٍ جديدة. وعلى غرار أبي الجميع في السماوات، عليهم أن يعطوا من يسألون ومن يمسكون عن السؤال، من يستحقّون ومن لا يستحقّون، القابعين في بيت الأُسرة،

والضاربين في الأرض، الأخيار والأشرار، الأوّلين والأخيرين. وعليهم ألاّ يملّوا أبداً، حتّى لو نأى عنهم أبناؤهم، أو أهانوهم، أو أنكروهم.

"من منكم إن سأله ابنه خبزاً، أعطاه حجراً ؟ أو إن سأله سمكةً أعطاه حيّة ؟" فمن، إذن، يرفض للابن الذي يبتعد، ولا يطلب شيئاً، العطيّة العظمى: الحبّ الذي لا يلتمس مكافأة.

صغار

الجميع هم أبناء ابن البشر، ولكن لم يستطع أحدٌ أن يدعوه أباً حسب الجسد. بين الأفراح المخيّبة للآمال، ربّما كان الفرح الوحيد الذي لا يخيّب، هو أن يمسك الإنسان بين ذراعيه أو على ركبتيه، ولداً يُزهر وجهه بدمٍ هو دمنا، يضحك لنا بسنى عينيه البكر، يتلعثم باسمنا، ويجعلنا نكتشف حنان العمر الأوّل المفقود.

أن نشعر، قريباً من جلدنا الكهل الذي قسّته الرياح والشمس، جلداً جديداً ناعماً حيث ما زال الدم يحتفظ بشيءٍ من عذوبة الحليب، وجسداً يبدو مصنوعاً من بتلات ورد فاترة، حيّة، وأن نحسّ بانّ هذا الجسد هو جسدنا، وقد صُنعَ من جسد زوجتنا، وتغذّى من ثدييها؛ وأن نراقب ولادة النفس، وظهورها، وازدهارها البطيء في هذا الجسد الذي يخصّنا؛ وأن نكون الأب الوحيد لهذا المخلوق الوحيد؛ ونتعرّف ذاتنا فيه، ونلتقي أبصارنا في حدقتيه الدهشتين، ونسمع صوتنا في صوته، ونرجع فنصير طفلاً، إكراماً لهذا الطفل، لنكون جديرين به، وأقرب إليه، وأن نصبح أصغر، وأفضل، وأطهر، وأن ننسى جميع السنوات الصامتة التي تقرّبنا من أجَلنا، وكبرياء الرجولة، وعُجب الحكمة، وأولى تغضّنات المحيّا، وأرجاس الحياة ومخازيها، كي نصبح أبكاراً أمام هذه البكارة، وساجين أمام هذا السجوّ، وطيّبين طيبة لم نعهدها من قبل؛ بالإجمال أن نكون أباً لصغيرٍ يخصّنا، ينمو، كلّ يوم، في سريرنا، في بيتنا، وبين ذراعي زوجتنا، فهذه، بلا ريب، أرفع متعةٍ بشريّة، تتاح لمن له، في وحل جسده، نفس.

يسوع، الذي لم يدعُه أحدٌ أباً، كان يجتذبه الأطفال والخطأة. ذلك الروح المطلق، ما كان يحبّ من الأمور إلاّ أقصاها. البراءة والسقوط كانا له ضماناً للخلاص : البراءة لأنّها لا تحتاج إلى تطهير، والسفالة لأنّها تؤنس حاجةً أشدّ كثافةً إلى التطهير. إنّما الخطر يتهدّد من هم نصف فاسدين، ونصف طاهرين؛ أولئك المتعفّنين في داخلهم، والذين يريدون أن يتظاهروا بالبراءة والاستقامة؛ أولئك الذين فقدوا، مع طفولتهم، النظافة الأصليّة، ولم يشتمّوا، بعد، رائحة التعفّن المنبعثة منهم.

كان يسوع يحبّ الصغار بحنان، والخطأة برأفة، يحبّ الطاهرين والذين بات متعــذّراً عليهم ألاّ يتطهّروا. كانت يده تتمتّع بمداعبة شعر الطفل الخفيف، ولا تردّ شعر البغيّ المعطّر. كان، هو، يشخص صوب الخطأة، لأنّهم أمسوا عاجزين عن المضيّ إليه. وكان يــدعو إليــه الأطفال، لأنّ الأطفال يعرفون، بالفطرة، من يحبّهم، ويسعون إليه تلقائيّاً.

الأمّهات كنّ يقدّمن له أطفالهنّ كي يلمسهم. وكــان التلاميــذ، بفظــاظتهم المألوفــة، يعنّفونهنّ. وكان على يسوع أن يؤنّبهم: "دعوا هؤلاء الصغار، ولا تمنعوهم من المجيء إليّ. الحقّ أقول لكم: من لا يتقبّلني مثل طفل، لن يدخل ملكوت السماوات ".

التلاميذ، الملتحون، المزدهون بكونهم أعوان سيّد المستقبل، عجزوا عن فهــم ســبب هدر معلّمهم وقته مع أطفالٍ لا يقوون على تمتمة بضع مقاطع، ولا يفقهون معنــى أقوالــه. ولكنّه، هو، وضع، وسطهم، أحد هؤلاء الأطفال. وقال: "الحقّ أقول لكــم، إن لــم تتحوّلــوا، وتصيروا مثل هذا الطفل، فلن تدخلوا ملكوت السماوات. كلّ من اتّضع مثــل هــذا الطفــل، سيكون الأكبر في ملكوت السماوات، وكلّ من تقبّل واحداً من هؤلاء الصغار باسمي، يتقبّلني. ومن سيكون عثرة لهؤلاء الصغار المؤمنين بي، خيرٌ له أن يُلقى به إلى أعماق اللجّة، وهــو مطوّق برحى طاحون ".

هنا، أيضاً، قلبٌ تامّ لمعايير القِيَم. فبموجب الشريعة القديمة، كان على الولد أن يحترم الرجل، ويبجّل الشيخ، ويحذو حذوهما. كان على الصغير أن يتّخذ من الكبير مــثلاً أعلــى. وكان الكمال يثوي في النضج، بل في الشيخوخة. ولم يكن الولد يُحترم إلاّ بمقدار مــا يمثّــل وعداً برجولة عتيدة. ولكنّ يسوع قلب الأدوار رأساً على عقب. فعلى الكبار أن يتّخذوا مــن الأطفال قدوة، وعلى الكهول أن يجهدوا كي يعودوا أطفالاً؛ وعلى الآباء التمثّل بأبنائهم. فــي عالمٍ حيث لا يُحسب حسابٌ إلاّ للقوّة، وحيث لا يُقدّر سوى فنّ السيطرة والإثراء، لــم يكــن الطفل أكثر من يَرَقةٍ بشريّة. أمّا في العالم الجديد الذي يبشّر به يسوع، حيث لن يسود ســوى الطهر الواثق، والبراءة المفعمة حبّاً، سيكون الأطفال نماذج المدنيّة. فالولد الذي كان يُعَدّ رجلاً غير مكتمل، هو أكثر كمالاً من الرجل. وعلى الرجل الذي يتخيّل أنّه بلغ ملء الزمن واكتمال النفس أن يعود القهقرى، وأن يتخلّى عن تعقيده المطمئنّ الراضي عن ذاته. كان نموذجاً يُقتدى به، فعليه أن يقتدي، وكان يتبوّأ المركز الأوّل، فعليه الانحدار إلى المقام الأخير.

يسوع كان يؤكّد أنّه، هو، طفل، ويعلن، بلا خجل، أنّه شبيهٌ بالأطفال الذين يدنون منه. "من يتقبّل أحد هؤلاء الصغار، يتقبّلني". يسوع القدّيس، والفقير، والشاعر، يقدّم نفسه في هذه الصيغة الجديدة التي تختزل كلّ الصيَغ الأُخرى : طفلاً، طاهراً وبريئــاً كالقــدّيس؛ عاريــاً وكادحاً كالفقير، محبّاً ودهشاً كالشاعر.

لم يكن يسوع يحبّ الأطفال فقط بصفتهم نماذج غير واعية لمن يصبو إلى الكمال، بل كوسطاء راهنين للحقيقة. جهلهم هو أكثر استنارة من تعليم العلماء، وسذاجتهم أقوى إقناعاً من عبقريّةٍ يعكسها خطابٌ منسوجٌ بالحجج العقليّة. إنّ عكس أنوار الوحي يحتاج إلى مرآةٍ نقيّة وحرَّة.

"أسبّحك، أيّها الآب، لأنّك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والأذكياء، وأعلنتها للصغار...". حكمة الحكماء هي، لهم، حاجب ظلام، لأنّهم يتوهّمون معرفة كلّ شيء؛ وذكاء الأذكياء حاجزٌ أمامهم، لأنّه يمنعهم من تلقّي نورٍ لا ينبع من عقلهم. وحدهم البسطاء يدركون البساطة، والأبرياء البراءة، والمحبّون الحبّ. ووحي يسوع المُشرَع فقط على النفوس العذراء، يكمن، بكامله، في التواضع، والتطهّر، والحبّ. ولكنّ الإنسان، وهو ينمو، يتعقّد، ويفسد، ويمتلئ كبرياءً، ويتلقّن متعة البغض المقيتة، وينأى، كلّ يوم، عن الفردوس، ويمسي عاجزاً عن الاهتداء إليه؛ ويتمتّع بهذا التردّي المطّرد، مفاخراً بعلمٍ باطل، يحجب عنه الحقيقة الوحيدة التي لا غنى عنها.

استعادة الفردوس الجديد، ملكوت البراءة والحبّ، يقتضي العودة إلى الطفولة، العودة، بفضل جهدٍ مرير، إلى ما كان يميّز المرء، عند مولده.

أجل، كان يسوع ينشد صحبة رجالٍ خطأة، ونساءٍ خاطئات؛ ولكنّه لا يشعر أنّه بصحبة إخوته الحقيقيّين، إلاّ لحظة يلمس جباه أطفالٍ تدنيهنّ منه أمّهاتٌ جليليّات، وكأنّهنّ يقدّمن له تقادم.

مرتا ومريم

النساء، أَيضاً، أحببنَ يسوع.

هذا الكائن الذي كان له من الرجل شكله وجسده، الذي هجر أمّه، ولم يختر لنفسه زوجة، قد أُحيط، طيلة حياته، وبعد موته، بجوٍّ من الحنان الأُنثويّ الدافئ. ذلك البكر المتشرّد، قد أحبّته النساء، كما لم يُحَبّ، قطّ، ولن يحَبّ أبداً، أيّ رجل. ذلك العفيف الذي أدان الفجور والزنى كان يسحرهنّ ببراءته. والنساء يركعن أمام من يأبى الانحناء أمامهنّ.

إنّ الزوج، مع كلّ حبّه الشرعيّ، وكلّ سلطته، والرجل الموفّق بكلّ الحظوظ، والزاني الفصيح، والمغتصب الجريء، لا يمارسون على المرأة، من الأسر، بقدر ما يأسرها من يحبّها

ولا يلمسها، الذي ينقذها ولايطلب، ولو قبلة، بالمقابل. إنّ المرأة المستعبدة لجسدها، ولوهنها، ولرغبتها ورغبة الذكر فيها، تنجذب إلى من يحرّرها، ومن يشفيها، من يحبّها ولايطلب منها سوى جرعة ماء، أو بسمة، أو انتباهاً صامتاً.

كانت النساء يحببنَ يسوع. لدى مروره، كنّ يتوقّفنَ للتحديق فيه، وكنّ يتأثّرن خطاه وهو يتحدّث إلى الأصدقاء وإلى الغرباء، ويقتربنَ من البيت الذي يدخله، ويقدّمنَ له أطفالهنّ، ويباركنَه، ويلمسنَ أهداب ثوبه كي يبرأنَ من عللهنّ، وكنَّ سعيدات باتّباعه. وكنّ يتمنّينَ، جميعهنّ، أن يهتفنَ، نظير تلك المرأة التي رفعت صوتها، جهيراً، على الملأ : "طوبى للبطن الذي حملك، وللثديين اللّذين أرضعاك".

كثيراتٌ تبعنَه حتّى لحده : سالومه، أمّ يعقوب ويوحنّا، ومريم كليوباس، أمّ يعقوب الصغير، ومرتا ومريم من بيت عنيا. لقد ارتضين أن يكنّ له، أخوات، وخادمات، وعبدات، لكي يساعدنه، ويقدّمن له الخبز، ويمزجن له الشراب، ويغسلنَ ثيابه، ويمسّدن قدمَيْه المتعبتَيْن. وبعض اللواتي سعدنَ باتّباعه، سعدنَ، أكثر، برفده بمالهنّ : " كان معه الاثنا عشر، ونسوةٌ كان قد شفاهنّ من العلل، ومن الأرواح الشرّيرة : مريم المدعوّة المجدليّة التي أخرج منها سبعة شياطين، وحنّة، زوجة كوزى قيّم هيرودُس، وسوسنة، وأُخريات كثيرات، كنّ يخدمنَه بأموالهنّ ". لقد كانت النسوة دائماً، والعطف لديهنّ موهبة طبيعيّة، قبل أن تكون إرادة كمال، أوفر كرماً من الرجال.

عندما يظهر في بيت لعازر، يأخذ الفرح كلّ مأخذ من امرأتين، شقيقتين. فمرتا تندفع لاستقباله، وتسأله عمّا يحتاج، وتوفّر له ما يغتسل به، وتعدّ له فراشاً يستلقي عليه، وغطاءً يقيه من البرد، وتهرع بجرّتها إلى النبع كي تأتيه بماءٍ بارد. وعندما تؤوب، تنشط كي تُعدّ للضيف وجبةً فاخرة، تتميّز، بوفرتها، عن وجبة الأُسرة اليوميّة؛ فتشعل ناراً كبيرة، وتبحث عن سمك طازج، وبيضٍ، وتين وزيتون؛ وتستعير من الجارة قطعة خروف ذُبح بالأمس، وتستعير من أُخرى عطراً ثميناً، ومن ثالثة، أكثر غنى، قصعة طعام مرسومة بالزهور. وتُخرج، من صندوق، أجمل غطاء مائدة لديها، ومن القبو أعتق نبيذ. وفيما الحطب يفرقع، والنار تتوهّج في الموقد، والماء يبدأ يزغرد في القدر، وفيما العرق يتصبّب من جبينها، وهي منهمكةٌ، بإعداد المائدة، لاتني تجري من النار إلى المعجن، ملقية، بين فينةٍ وأُخرى، نظرةً على المعلّم الذي ينتظر، ونظرةً على الشارع، مستطلعةً مجيء أخيها، ونظرةً على أُختها الجالسة، بلا حراك؛ إذ إنّ مريم، مذ يجتاز يسوع عتبة البيت، تؤخذ في انخطافٍ ثابت، لا يقصيها عنه شيء. فهي لا ترى، ولا تسمع، سوى يسوع، ولا وجود، عندها، لأحدٍ سواه. ولا ترتوي من التحديق فيه، والإصغاء إليه، والإحساس بحضوره، حيّاً، قريباً. إن نظر إليها، أسعدتها نظرته، وإن أشاح عنها ناظريه، أثبتت عليه ناظريْها؛ إنّ تكلّم، انسابت كلماته إلى

قلبها، واحدةً فواحدة، وترسّخت فيها حتّى الموت. وإن صمت، سمعت، في صمته، وحياً أكثر مباشرة. إنّها لا تجد مبرّراً لكلّ انهماك أُختها. أفيسوع بحاجة إلى عشاءٍ فاخر ؟ إنّها تؤثر الجلوس قرب قدميه، ولا تحيد حتّى إن دعتها مرتا، ودعاها شقيقها لعازر. إنّها تقوم بخدمة يسوع، ولكن بأسلوبٍ مختلف. لقد وهبته نفسها، ولا شيء سواها، ولكنّها وهبته نفسها المحبّة كاملة، بحيث بات العمل اليدويّ، من أجله، نافلاً. إنّها تتأمّل، وتعبد، ولن تنهض إلاّ لكي تدهن بالطيوب جثمان إلهها. ولَتنهض لو طلب منها دمها، وحياتها. أمّا الباقي، العناية المادّيّة، فهو شأن مرتا، وليس شأنها.

كانت النسوة يحببنَ يسوع، وكانت رأفته تكافئ حبّهنّ. فما من امرأة توجّهت إليه، وعادت خائبة. بكاء أرملة " نعيم"(نائين) استمطر دموعه بحيث أنهض ابنها الميت. وتوسّلات الكنعانيّة، مع أنّها كانت غريبة، أثّرت فيه بحيث شفى ابنتها؛ والمحدودبة المطويّة على ذاتها منذ ثماني عشرة سنة، أبرأها، في يوم سبت، متحدّياً رؤساء المجمع، الذين اتّهموه بانتهاك المقدّسات. وفي مطلع رسالته شفى من الحمّى حماة بطرس، وأعتق المجدليّة من الأرواح الشرّيرة، وأنهض من الموت ابنة يئير، وأبرأ المرأة النازفة منذ اثنتي عشرة سنة.

علماء الشريعة، في زمانه، ما كانوا يقيمون وزناً للنساء. كانوا يغضّون الطرف عن حضورهنّ احتفالات الأعياد، ولكنّهم كانوا يأبون، قطعاً، سماعهنّ لتعاليمهم. وكان قولٌ رابّينيّ مأثور يعلن : " إحراق كلمات الشريعة، خيرٌ من تعليمها للنساء! " في حين أنّ يسوع، على نقيض ذلك، لم يكن يتحرّج من إطلاعهنّ على أسمى الأسرار. فعندما كان يرتاح، وحيداً، قرب بئر سيخار، ووافت المرأة السامريّة، ذات الأزواج الخمسة، لم يعبأ لكونها امرأة، ومن فئةٍ معاديةٍ لليهود، ولم يمنعه ذلك من البوح لها بحقيقة رسالته. " ستأتي الساعة – وهي قد أتت – التي، فيها، العابدون الحقيقيّون يعبدون الآب بالروح والحقّ. فمثل هؤلاء يريد الآب عابديه. ذلك، بأنّ اللّه روح، فينبغي لعابديه أن يعبدوه بالروح والحقّ ".

و في هذه الأثناء، عاد التلاميذ ولم يدركوا ما كان معلّمهم يفعل. "و دهشوا لرؤيته يكلّم امرأة". وما كانوا، بعدُ، يعلمون أنّ الكنيسة ستقيم من امرأةٍ وسيطاً بين الأبناء والابن، تلك التي تجمع في ذاتها كمالَيْ المرأة الأقصيَيْن : العذراء الأمّ التي تألّمت من أجلنا، منذ ليلة بيت لحم، حتّى ليلة الجلجلة، وبذلك كانت فريدةً بين النساء.

كلمات على الرمل

نوبةً أُخرى،في أورشليم، وُجد يسوع إزاء امرأة؛ إنّها الزانية، وقد دفعتها أمامه عصابةٌ نابحة. كانت صامتةً تواري وجهها بيديها وشعرها. يسوع كان قد دعا إلى وحدةٍ كاملة بين الزوج والزوجة، وكان يمقت الزنى. ولكنّه كان أشدّ مقتاً لجبن المتجسّسين، وقسوة المتزمّتين الذين لا عهد لهم برحمة، وقحة الخطأة الذين يبتغون تنصيب ذواتهم ديّانين للخطيئة.لا يستطيع يسوع تبرئة امرأة عصت شريعة اللّه عصياناً بهيميّاً، ولكنّه يأبى إدانتها، لأنّ المدّعين عليها لا يملكون حقّ المطالبة بموتها. وإذ به ينحني على الأرض، ويخطّ بإصبعه كلماتٍ على الرمل. كانت تلك هي المرّة الأولى والأخيرة التي نراه فيها يتنازل إلى الاضطلاع بهذه المهمّة المهينة. لم يعرف أحدٌ، قطّ، ما الذي كتبه يسوع، حينئذٍ، أمام تلك المرأة التي كانت، في خزيها، ترتعد مثل ظبيةٍ حاصرتها شرذمةٌ من الكلاب الشرسة. لقد تعمّد الكتابة على التراب كي تذرو الرياح كلماتٍ ما كان بوسع البشر قراءتها إلاّ وهم يرتجفون وَجَلاً. غير أنّ الوشاة الوقحين لم يتزحزحوا، وظلّوا مصرّين على رجم المرأة. حينئذٍ، انتصب يسوع، وجال ببصره عليهم، فرداً فرداً، محدّقاً في عيونهم وفي نفوسهم وقال: "من كان منكم بلا خطيئة، فليقذفها بالحجر الأوّل ".

نحن، جميعنا، متضامنون في جريرة جرائم إخوتنا. من أوّل واحدٍ فينا إلى الأخير، نحن متواطئون، يوميّاً، معهم، ولكنّنا غالباً ما ننجو من العقاب. فما كانت الزانية لتزني لو لم يُغوِها الرجال، أو لو أحسن زوجها استمالتها إليه؛ وما كان السارق ليسرق لو كان قلب الأغنياء أقلّ قسوة؛ وما كان القاتل ليقتل، لو لم يُهَنْ، أوّلاً، ويُدفع إلى ما لا يطيق؛ ولما كان، ثمّة بنات هوى، لو استطاع الذكور السيطرة على غرائزهم وشَبَقهم. وحدهم الأبرياء جديرون بالحُكم على الآخرين، ولكن ليس، على الأرض، أبرياء، ولو كان، ثمّة، بعضٌ منهم، لتغلّبت، لديهم، الرحمة على العدل.

أقوال يسوع التي لم تخطر يوماً ببال المتجسّسين المدّعين، فاجأتهم وزعزعتهم. كلٌّ منهم راجع تاريخ خياناته، ومعاصيه السرّيّة، قديمها وحديثها. نفس كلٍّ منهم كانت تحاكي بئر مرحاض، إذا ما أزيح الغطاء الحجريّ الذي يسدّها، قذفت، إلى السماء، دفقاً من الروائح النتنة. كان الشيوخ طليعة المنسلّين، وشيئاً فشيئاً، ارفضّ الآخرون مطرقين. وخلا المكان. وانحنى يسوع ثانية، وراح يخطّ بإصبعه على التراب. وسمعت المرأة وقع خطوات المغادرين، وخرست أصوات المطالبين بموتها، ولكنّها ظلّت مطرقة، لا تجسر على رفع بصرها، لأنّ واحداً، فقط، تلبّث، وكان هو البريء الوحيد الذي يحقّ له رجمها بالحجارة القاتلة. وانتصب يسوع ثانية، فلم يجد، من حوله، أحداً، فسألها :

– يا امرأة، أين هم المدّعون عليك ؟ ألم يُدِنكِ أحد ؟

– لا أحد، يا سيّدي.

– وأنا، أيضاً، لا أدينك. امضي، ولا تخطئي بعد.

و للمرّة الأولى، تجرّأت المرأة، وحدّقت في وجه منقذها، وهي غير مدركة، بعد، كلّ معنى أقواله.

إنّه لم يستهن بشأن خطيئتها، بدليل أنّه حذّرها من العودة إلى الخطيئة. ولكنّه حال دون إدانة الآخرين لها؛ ولم يشأ، هو نفسه، إدانتها. فمن هو هذا الرجل الذي يختلف عن جميع الآخرين، الذي يحظر الخطيئة، ولايدين الخاطئ. كم تمنّت أن توجّه له طلباً، أو تهمس له بكلمة شكر، أو أن تكافئه ببسمة... ولكنّه، كان قد انحنى ثانية، وراح يخطّ بإصبعه في التراب، مطأطئ الرأس، وما كان يُشاهَد منه سوى موج شعره الناعم، المتألّق تحت أشعّة الشمس، وإصبعه المتحرّك، ببطء، فوق الأرض المغمورة بالنور.

المرأة الخاطئة

ولكن ما من امرأة أحبّت يسوع بقدر ما أحبّته المرأة الخاطئة التي سكبت عليه الناردين، وغسلته بدموعها، في بيت سمعان الفرّيسيّ.

هذا المشهد ماثلٌ أمام عيني كلٍّ منّا. صورة الباكية، وشعرها المنبسط على قدمي المسافر، حيّةٌ في جميع الذاكرات. ولكنّ المعنى الحقيقيّ للحدث يظلّ مستعصياً على فهم الأغلبيّة، لكثرة ما شوّهته التأويلات الشعبيّة والأدبيّة... لقد مُسخت تماماً واقعة دهن رجلي يسوع، في حين أنّها في منتهى البساطة، وأعمق، بلا قياس، ممّا صُوّرت. إنّ مديح يسوع لحاملة الناردين ليس مديحاً لخطيئة الجسد، ولا للحبّ كما يفهمه، عموماً، البشر.

إنّ الخاطئة التي دخلت، بلا ضجيج، بيت سمعان، حاملةً إناء الناردين، ليست، بعدُ، خاطئة. فهي، قبل ذلك اليوم، قد شاهدت المسيح وعرفته. لقد سمعت كلامه، فما بقيت تلك الغانية، المرأة العامّة، التي تبيع جسدها لنزوات الذكور. لقد سمعت صوت يسوع وكلماته؛ فهزّها جِرْسُه، وزعزعت ألفاظه كيانها. تلك التي كان يستخدمها الجميع، علمت أنّ، ثمّة، حبّاً أجمل من اللذّة، وأنّ هناك فقراً أغنى من كلّ النقود. يوم دخلت بيت سمعان لم تكن تلك المرأة القديمة التي يشير إليها أبناء المدينة ببنانهم هازئين، تلك التي يعرفها الفرّيسيّ ويحتقرها.

نفسها قد تغيّرت، وحياتها كلّها تبدّلت؛ وأمسى جسدها عفيفاً، ويدها طاهرة، وشفتاها نقيّتين؛ وتعلّمت مقلتاها سكب دموع التوبة، وغدت متأهّبة لدخول الملكوت، حسب وعد الملك.

لا بدّ من هذه المقدّمة لفهم الرواية التالية. لقد شاءت الخاطئة المُنقذَة أن تقدّم لمخلّصها شهادة امتنانها. فجاءت بأثمن ما تبقّى لديها : قارورة عطر ناردين مختومة، ربّما كانت هديّةً من أحد عشّاقها العابرين، بغية دهن شعر مليكها، بهذا العطر الثمين.

الخاطرة الأولى التي راودتها هي خاطرة شكر، وفعلها كان فعل شكرٍ، علنيّاً. لقد ابتغت أن تعلن، على الملأ،عرفانها بجميل من طهّر نفسها، وأنهض من اللحد قلبها، وانتزعها من العار، ووهبها رجاءً مفعماً بالمجد، حلّ محلّ كلّ فرح.

دخلت تضمّ قارورة عطرها المختومة، في خفرٍ شديد، مثل طفلةٍ تغشى المدرسة، للمرّة الأولى، ومثل سجينةٍ أُفرج عنها، وخرجت من السجن للتوّ. دخلت، صامتة، ولم تتلفّظ بكلمة، ولم ترفع عينيها سوى لحظات، لكي تتبيّن، في مدى رفّة جفنين، المكان الذي يجلس فيه يسوع؛ ودنت من الفراش، ويداها وركبتاها وأجفانها ترتجف، لأنّها تشعر بأنّ الجميع يحدّقون فيها، وبأنّ أنظار رجال كثيرة مثبتةٌ عليها، تترصّد، بفضولٍ، جسدها الجميل الميّاس، وترقب حركاتها.

و هاهي ذي تحطّم عنق قارورة المرمر، وتسكب نصف محتواها من العطر على رأس يسوع؛ فالتمعت القطرات الكبيرة الثقيلة على شعره، مثل اللآلئ. وبيديها العاشقتين دهنت العطر الشفّاف إلى أن ابتلّت به كلّ شعرة، ولانت، وتألّقت، وامتلأ المكان بفوح العطر؛ وجمّد الذهول الأنظار.

ثمّ تناولت المرأة القارورة المفتوحة، وهي ما برحت صامتة، وركعت عند قدمي حامل السلام. وسكبت في يدها ما تبقّى من عطر، ودهنت به قدمه اليمنى، فقدمه اليُسرى، برقّة أمٍّ تغسل، للمرّة الأولى، وليدها، وبمثل عناية الأمّ المرهفة. وانهار صمودها، فلم تعد تقوى على كبت أمواج الحنان القلق الذي يضغط على قلبها، ويمسك بخناقها، وينفخ عينيها. كم ودّت أن تتكلّم، أن تعلن ليسوع، ببساطة، عن شكرها الطاهر القلبيّ، للخير الذي منّ به عليها، وللنور الذي أزال الغشاوة عن عينيها، ولكن أنّى لها أن تجد، في تلك اللحظة، أمام كلّ أولئك الرجال، الكلمات التي يتعيّن قولها، كلماتٍ تليق به، وبالنعمة التي أسبغها عليها ! كانت شفتاها ترتجفان بحيث عجزتا عن ربط مقطعين معاً، وبحيث لن يكون خطابها، إن هي تكلّمت، سوى لعثمةٍ يشوبها النحيب. فأوكلت إلى عينها الكلام، نيابةً عن فمها؛ وانهمرت دموعها سريعة، حرّى، على رجلي يسوع، مثل تقادم شكرٍ صامتة، دموع حرَّرت قلبها المسحوق، ولطّفت ألمها؛ لم تكن ترى شيئاً، ولا تحسّ بشيء، بيد أنّ متعةً يتعذّر وصفها، لم تعهد لها مثيلاً، لا على ركبتي أمّها، ولا بين أذرع الرجال، تسرّبت إلى كلّ دمها، وأصابتها بالرعشة والدُوّار: ألم

مُتعتها الجارحة دفع بكلّ كيانها إلى النشوة العظمى، حيث يمتزج الألم والفرح، ويصبحان واحداً، شيئاً مريعاً.

بهذه الدموع بكت سيرتها الأولى،سيرة الأمس البائسة، متذكّرة تدنيس الذكور لجسدها، أولئك الذين قدّمت لهم، جميعاً، بسمتها، وسريرها المجعّد، وجسدها المعطّر. لقد تظاهرت لجميعهم بلذّة لم تكن تشعر بها، وأبدت وجهاً فرحاً لمن كانوا يزدرونها وكانت، هي، تمقتهم. لقد ضاجعت لصّاً نفحها مالاً مسروقاً؛ وقبّلت فم القاتل، وأُكرهت على تحمّل بَخَر السكّير الكريه، ونزواته البغيضة.

إنّها لم تعهد يوماً، في ليلة صيفٍ رائقة،عندما تكون سماء الشرق كلّها وميضاً، زوجاً استقبلها، بعد أن اختارها عذراء من بين عذارى، لكي تصير معه كائناً واحداً حتّى الموت. إنّها خارج الجماعة، وخارج القانون، منفصلة عن شعبها، وعن الجميع؛ النساء يحسدنها ويمقتنَها؛ والرجال يشتهونها ويشهّرون بها.

العماد الثاني

بيد أنّ دموع المنتحبة كانت، أَيضاً، دموع فرح وفرج. فهي لا تبكي فقط الخزي الذي اندثر، بل أَيضاً رقّة الحياة الجديدة، اللامتناهية.

إنّها تبكي فرحاً ببكارةٍ مستعادة، بنفسٍ مُنتزعَةٍ من أسر الشرّ، بنقاءٍ مرتجعٍ بمعجزة، بإدانةٍ أُلغيت للأبد. دموعها دموع غبطةٍ بولادةٍ جديدة، بالحقيقة المكتشفة، بالارتداد المفاجئ، بالنفس التي عُثِر عليها بعد أن بدت ضائعة، بالرجاء الرائع الذي اجتذبها من المادّة إلى الروح. من أجل هذه النعم المدهشة سكبت العطر والدموع.

و هي لا تبكي فقط على ذاتها، على ألمها وفرحها، بل إنّ دموعها التي تغسل بها قدمي يسوع، هي، أَيضاً، من أجله. فتلك المجهولة قد طيّبت مليكها، مثلما كان يُطيّب الملوك الأقدمون. طيّبت رأسه كما تُطيّب رؤوس رؤساء الكهنة وملوك اليهوديّة، وطيّبت رجليه كما تطيّب أرجل الضيوف في الأعياد الكبرى. ولكنّها، في الآن عينه، كانت تُعدّه للموت والدفن. فيسوع الذي سيدخل قريباً إلى أورشليم يعرف أنّ هذه الأيّام هي أيّام حياته الجسديّة الأخيرة. وقد صرّح لتلاميذه: "إنّ هذه المرأة، بسكبها العطر على جسدي، أرادت أن تُعدّني للدفن". لقد حنّطته تقوى امرأة، وهو حيّ.

سيتلقّى يسوع، أَيضاً، قبل موته عماداً ثالثاً : عماد المذلّة، والمهانة الكبرى : إذ سيبصق جنود المحكمة على وجهه. ولكنّه، في هذه اللحظة تلقّى عماد المجد والموت. إنّه

يُدهَن، مثل ملكٍ سينتصر في ملكوت السماء؛ ويُطيّب، مثل جثمانٍ سيودع لحداً. إنّ رمز الدهن يضمّ سرَّيْن توأمين هما سرّ المسيحانيّة والصلب.

و ربّما توسّمت تلك الخاطئة، التي اختيرت للاضطلاع بهذه الطقوس النبويّة، المعنى الرهيب لهذا التحنيط المسبق. ولا ريب إنّ رؤية الحبّ الثانية، وهي أقوى لدى النساء منها لدى الرجال، والقدرة التنبّؤيّة المرتبطة بالإحساس المستثار والمتأثّر، قد جعلاها تشعر بأنّ هذا الجسد المطيّب الذي داعبته، سيمسي، في غضون أيّامٍ قليلة، جثماناً مجمّداً ومضرّجاً بالدماء. وستشخص، هي ونسوةٌ أخريات إلى قبره لتحنيطه الأخير، ولكنّهنّ لن يجدنَه، فهذا الذي يتناول الآن الطعام مع رفاقه، سيكون، حينئذٍ، على باب جحيمٍ آخر.

وهي، بدافع هذا الحدْس، تستمرّ في سكب دموعها على قدمي يسوع، مدهشةً الجميع، الذين لا يعلمون، ولن يفهموا، أبداً، ما تقوم به. وها هما قدما المحرّر، قدما المدان، قد بُلّلتا بالدموع، وقد امتزج عطر الناردين بملح الدموع. وتحار الخاطئة المسكينة كيف تجفّف تيْنك القدميْن اللّتين سقتهما بدموعها. فهي لا تحمل منشفة، وتبدو لها ثيابها غير جديرة بملامسة جسد ربّها. فلم تجد خيراً من شعرها، ذلك الشعر الليّن الناعم، الذي طالما أُحِبّ. فبادرت إلى حلّ جدائله، وإزالة عُقده، فارتمت على وجهها كتلة الشعر الفاحم الضارب إلى الزرقة، مغطّيةً حمرة خجلها وحرارة إيمانها.

و قد أخذت ذلك الشعر براحتَيْها كلتَيْهما، وراحت تمسح، بتؤدة، القدمين اللتين حملتا، إلى هذا البيت، مليكها.

وانقطعت عن البكاء. فكلّ دموعها قد سكبت وجفّت؛ لقد انتهى دورها، ولكنّ يسوع وحده فهم صمتها.

لقد أحبّت كثيراً

من المشاركين في المأدبة لم يفهم أحد، خلا يسوع، مغزى تلك الخدمة المُحبّة التي أدّتها امرأةٌ مُغْفلة الاسم. ولكنّهم، جميعهم، كانوا صامتين، يتأمّلون مأخوذين.

كانوا يحترمون، في جوٍّ من الإبهام، وقار الاحتفال السرّيّ، ولو فاتهم معناه؛ كلّهم خلا اثنين توخّيا، بغية إهانة الضيف، إدانة عمل المرأة: الفرّيسيّ ويهوذا الإسخريوطيّ. الأوّل لم يقل شيئاً، غير أنّ عينيه تكلّمتا بوضوحٍ أكبر من شفتيه. أمّا الخائن، فبحجّة قربه من المعلّم، تجرّأ فتكلّم.

سمعان كان يفكّر في نفسه: " لو كان هذا نبيّاً، لعلم أيّ نمطٍ من النساء هي هذه التي تلمسه، ولعرف أنّها خاطئة "

ذلك المرائيّ الشيخ يشعر حيال بنات الهوى بنفور من عاشرهنّ طويلاً، أو من لم يعرفهنّ، قطّ. إنّه، نظير زملائه، ينتمي إلى مقبرةٍ مترامية الأطراف تضمّ قبوراً مبيّضة الظاهر، ولكنّ داخلها يعجّ بالأقذار. حسبهم تجنّب الملامسة الماديّة لما يظنّونه نجساً، حتّى لو كانت نفسهم بئر نجاسة. أخلاقيّاتهم هي نظام وضوءٍ واغتسال : بحيث أنّهم يدَعون جريحاً مرميّاً على قارعة الطريق يلفظ أنفاسه، لكي لا يتنجّسوا بدمه؛ ويدعون فقيراً يتضوّر جوعاً لكي لا يمسّوا عملةً، يوم سبت. إنّهم يرتكبون، مثل الجميع، خطايا السرقة، والزنى، والقتل، ولكنّهم يغتسلون، مرّات عديدة في اليوم، حتّى ليظنّون بأنّ أيديهم في مثل نقاء الرضَّع.

ذلك الفرّيسيّ يعرف الشريعة، وما برحت أُذناه تدوّيان بلعنات إسرائيل العتيقة على البغايا : " لا تكونَنَّ بغيّ واحدة بين بنات إسرائيل... ولا يدخلنّ ابن مومسٍ إلى بيت الربّ... لا تأتِ بيت الربّ بأجر بغيّ أو بثمن كلب، فكلاهما مقيت في عيني الربّ ". فضلاً عن أنّ سمعان، ذلك البورجوازيّ الفطن، كان يذكر، أيضاً، تحذيرات كتاب الأمثال : " من أجل بغيّ قد ينفق الإنسان حتّى آخر كسرة خبز لديه ". ليتهنّ كنّ لا يكلّفنَ شيئاً، ولكنّ تلك الوقحات كفيلاتٌ بالتهام ثروةٍ كاملة. لقد ساور القلق ذلك المالك الثريّ عندما رأى إحدى تلك المخلوقات الخطرة تلج بيته، وتلمس ضيفه. إنّه يعلم أنّ البغيّ راحاب وفّرت النصر ليوشع ونجت، وحدها، من مجزرة أريحا، ولكنّه يعلم، أيضاً، أنّ امرأة تافهة أهلكت شمشون، مرعب الفلسطينيّين. ولكنّه لا يستطيع أن يفهم كيف أنّ رجلاً يصفه الشعب بالنبيّ لم يتبيّن أيّة أُنثى هي تلك التي جاءت كي تؤدّي له ذلك التكريم المخزي.

بيد أنّ يسوع، الذي قرأ في قلب الخاطئة، كان يقرأ، أيضاً، ما يجول في قلب سمعان، فأجابه بمثَل المدينَيْن. دائنٌ كان له مدينان، أحدهما يدين له بخمس مئة دينار، والآخر بخمسين. وبما أنّهما ما كانا يملكان ما يوفيان به الدين، سامحهما كليهما. فأيٌّ منهما سيحبّه أكثر ؟ وأجاب سمعان: "أظنّ أنّه ذاك الذي سامحه بالأكثر"، فأجاب يسوع: " بالصواب حكمت". والتفت نحو المرأة، وقال لسمعان : " أترى هذه المرأة ؟ أنا دخلت بيتك، ولم تسكب على رجليّ ماءً، أمّا هي، فعلى نقيضك، غسلت رجليّ بدموعها، ومسحتهما بشعرها. أنت لم تقبّلني، أمّا هي، فمذ دخلت، لم تكفّ عن تقبيل رجليّ. أنت لم تسكب زيتاً على رأسي، وهي سكبت الطيب على قدميّ. وأنا أقول لك إنّها أحبّت كثيراً لأنّ خطايا كثيرة غفرت لها. أمّا من غُفر له القليل، فهو يحبّ قليلاً ". ثمّ قال للمرأة : "مغفورةٌ لك خطاياك، إيمانك خلّصك، فامضي في سلام ".

هذا المثل، وشرح يسوع له، يظهران مدى عمق عدم فهم هذا الحدَث، حتّى اليوم، فيكاد الجميع لا يذكرون منه سوى هذه الكلمات : " سيُغفر لها الكثير لأنّها أحبّت كثيراً ".

إنّ قراءةً متمعّنة للنصّ ترسّخ اليقين بأنّ هذا التفسير الشائع هو مناقضٌ للحقيقة. فقد يُخيّل للبعض أنّ يسوع غفر لها خطاياها لأنّها توغّلت في حبّ الرجال، أو لأنّها، عبّرت بتقدمتها وقبلاتها، حبّها له. بيد أنّ مثل المدينَيْن، يجعلنا نكتشف أنّ أقوال يسوع التي أُسيء ترددها، وأُسيء، أكثر من ذلك، فهمها، هو مناقض لما فسّروه. فتلك المرأة كانت قد استغرقت في الخطيئة. وبفضل توبتها، غُفر لها الكثير؛ ولأنّه غُفِر لها الكثير فهي تحبّ كثيراً ذاك الذي ردّها عن غيّها، وخلّصها، وغفر لها. وما الناردين، والدموع، والقبلات، سوى تعبيرٍ عن عرفانها بالجميل، وعن حبّها الجمّ. ولو لم تكن تلك الخاطئة، قبل دخولها ذلك البيت، في ذلك المساء، قد أضحت امرأةً أُخرى، بفضل الغفران، لعجزت كلّ طيوب مصر والهند، وكلّ قبلات فمها، وكلّ دموع عينيْها،عن الظفر بغفران يسوع، لها، حياةً أُنفقت في المعاصي. ليس صفح يسوع مكافأةً لتكريمها له، بل إنّ تكريمها هو تعبيرٌعن شكرها لصفحه. وكلاهما عظيمان، فالصفح كان كبيراً لأنّ الخطيئة كانت كبيرة.

ما كان يسوع ليردّ الخاطئة، حتّى لو هي مازالت خاطئة، ولكنّه، ربّما ما كان ارتضى براهين الحبّ تلك لولا يقينه بتحوّلها، وبفضل هذا التحوّل تمكّن، حتّى بموجب وصايا التشدّد الفرّيسيّ، أن يحدّثها ويقول : " إيمانك أنقذك، إمضي بسلام ".

لم يتوفّق سمعان إلى أيّ ردّ، بيد أنّه، من وسط التلاميذ، علا صوتٌ أجشّ يقطر حقداً، كان يسوع يعرفه منذ زمن طويل. إنّه صوت يهوذا : " علامَ هذا التبذير ؟ كان يمكن بيع هذا العطر بثلاث مئة دينار، والتصدّق به على الفقراء ". وتذكر الأناجيل أنّ سائر التلاميذ أيّدوا قول يهوذا، واستشاطوا غيظاً على المرأة.

يهوذا هو القيّم على صندوق الجماعة؛ أحقر التلاميذ اختار أحقر المهمّات : المال. إنّ يهوذا يحبّ المال. يحبّه لذاته، ويحبّه وسيلةً للسلطة. إنّه يتحدّث عن الفقراء، ولكنّه لا يفكّر بالفقراء الذين وزّع يسوع عليهم الخبز في عزلة البرّيّة، بل يفكّر برفاقه الذين ما برحوا أفقر من أن يستطيعوا غزو أورشليم، من أجل تأسيس الإمبراطوريّة المسيحانيّة التي يأمل يهوذا أن يكون أحد أَركانها. إنّه حسودٌ بقدر ما هو بخيل، حسودٌ مثل جميع البخلاء. هذا الدهن بالطيب الصامت الذي يذكّر بتكريس الملِك والمسيح، وهذا التكريم الذي أدّته امرأة جميلة ليسوع، قد آلماه. ذلك الحسد الأبديّ الذي يشعر به رجل حيال رجلٍ آخر، أمام امرأة، امتزج، لدى يهوذا، بالجشع الذي خاب رجاؤه.

و ردّ يسوع على أقوال يهوذا مثلما ردّ على صمت سمعان. لم يُهن من أهانوا، ولكنّه ذاد عن حياض امرأة جاثمة عند قدميه : " لمَ تعنّفون هذه المرأة ؟ فهي قد قامت بمبادرةٍ طيّبةٍ

نحوي. إنّ الفقراء عندكم في كلّ حين. أمّا أنا فلن أكون دائماً معكم. إنّها فعلت ما استطاعت، وقد حنّطت جسمي، مسبقاً، استعداداً لدفنه. والحقّ أقول لكم، حيثما بُشّر بهذا الإنجيل، في العالم كلّه، سيُروى ما فعلت تخليداً لذكراها".

ربّما فات الحاضرين ما انطوت عليه تلك النبوءة من حزن، وغاب عنهم أنّ على يسوع أن يُغلَب كي ينتصر، وأنّ عليه أن يموت كي يظفر ظفراً أبديّاً. وكان يشعر أنّ يومه قريب : " لن أكون دائماً معكم... لقد طيّبتني تمهيداً لدفني ". وسمعت المرأة، بوَجَل، هذا التأكيد لحدسها، وتصاعد إلى مآقيها، فجأةً، دفقٌ آخر من الدموع. فغطّت محيّاها بشعرها المنسدل، وانسلّت، مثلما دخلت، خلسةً.

و صمت التلاميذ، لا قناعةً، بل خجلاً. وحاول سمعان التغطية على ما ناله من مهانة، فراح يملأ كؤوس ضيوفه بأفضل نبيذه. غير أنّ المائدة الصامتة، باتت، تحت أنوار المصابيح الصفراء، أشبه بمأدبة أشباح، يطوف بها ظلّ الموت.

من أنا ؟

يسوع يسأل مع أنّ التلاميذ كانوا يعلمون. فكلمات الموت هذه لم تكن الأولى التي يسمعونها. ولا بدّ أنّهم كانوا يذكرون أنّ يسوع قد سألهم، منذ فترة غير بعيدة، فيما كانوا يسيرون على طريقٍ منعزل بالقرب من قيصريّة فيلبّس، عمّا يقوله الناس فيه. ولا ريب أنّهم يذكرون الجواب الذي تفجّر، مثل قذيفةٍ ناريّة، من قلب بطرس، والسنى الذي بهر ثلاثةً منهم على قمّة الجبل، ونبوءات المسيح الدقيقة بشأن نهايته المهينة.

كانوا قد سمعوا، ورأوا، ومع ذلك ما انفكّوا يرجون، ما خلا واحداً منهم. كانت الحقيقة تلتمع فيهم، مدى لحظات، كما يومض البرق في الليلة الدهماء. ثمّ كانت الظلماء تهبط، أشدّ كثافة. الإنسان الجديد الذي كان يتوسّم المسيح في يسوع، الإنسان المولود ولادةً ثانية، المسيحيّ، كان يتلاشى فيهم كي يحلّ مكانه اليهوديّ الأعمى والأصمّ، الذي لا تمتدّ رؤيته إلى أبعد من أورشليم قوامها آجرّ وحجارة.

السؤال الذي وجّهه يسوع للاثني عشر، على طريق قيصريّة، كان ينبغي أن يكون منطلق ارتدادهم التامّ إلى الحقيقة الجديدة. فأيّة حاجةٍ، لدى يسوع، إلى معرفة ما يفكّر الآخرون فيه ؟ إنّ مثل هذا الفضول لا ينشأ إلاّ في النفوس غير الواثقة من ذاتها، لدى من يجهلون ذواتهم، الذين لا يحسنون القراءة في داخلهم، لدى الضعفاء، لدى العميان غير المتأكّدين من الأرض التي يضعون عليها أقدامهم. مثل هذا السؤال قد يكون مبرّراً لدى

جميعنا، ولكن ليس لدى يسوع. إذ لا أحد منّا يعرف، حقّاً، من هو، ولا يعلم، علم اليقين، طبيعته، ورسالته، والاسم الحقيقيّ الذي يحقّ له أن يُدعى به، الاسم الأبديّ الذي ينطبق على مصيرنا، اسمه في المطلق. إنّ الاسم الذي نُعطاه، ونحن ما زلنا بكماً، مع الملح وماء المعموديّة، الاسم المدوّن في السجلاّت المدنيّة، الاسم الذي تتفوّه به الأمّ صباحاً في عذوبةٍ كبرى، والذي تتمتم به العاشقة، ليلاً، بكثيرٍ من الرغبة، هذا الاسم، أخيراً، الذي يُنقش على مستطيل اللحد، ليس اسمنا الحقيقيّ. فلكلٍ منّا اسمٌ سرّيّ يعبّر عن جوهرنا اللامرئيّ الحقّ، لن نفلح في معرفته، نحن أنفسنا، حتّى يوم ولادتنا الثانية، حتّى ملء نور القيامة.

قليلون هم الذين يجرأون فيسألون أنفسهم: "من أنا ؟" وأقلّ منهم من يستطيعون الإجابة. إنّ سؤال: " من أنت ؟ " هو السؤال الأرهب والأخطر الذي يستطيع إنسانٌ طرحه على إنسانٍ آخر. الآخرون هم، لكلٍّ منّا، سرٌّ مطبق، حتّى في لحظات الهوى القصوى، عندما تجهد نفسان، جهداً يائساً، في أن تصبحا نفساً واحدة. ولكنّنا، أيضاً، نحن أنفسنا، جميعاً، سرٌّ لذواتنا. إنّنا نعيش مُغْفَلين بين مُغْفَلين. ومن هذا الجهل الشامل يولد الكثير من مصائبنا. فمن يؤدّي دور الملك، ويظنّ نفسه ملكاً، ما هو، في المطلق، سوى خادمٍ محكومٍ عليه، منذ بدء الأزمنة، برداءة الوظائف الدنيا. وهذا الآخر الذي يلبس ثوب القاضي، ويحتلّ مركزه، ليس أكثر من تاجر، ومكانه في السوق. وذاك الذي ينظم شعراً، لم يُصغِ إلى الصوت الداخليّ الذي كان ينصحه بأن يكون صائغاً: فهو يحبّ الذهب والإزميل، والترصيع، والجواهر الزائفة. وذاك الذي يتولّى قيادة جيش كان الأَولى به أن يظلّ في مدرسة، حيث كان سيصبح معلّماً يجيد الكلام. وهوذا آخر على الساحة، مشعّث الشعر يدعو الشعوب إلى الثورة : إنّه بستانيّ ضلّ سبيله، فقد كانت رسالته الحقّة إنتاج البندورة، والبصل، والثوم، والملفوف. وبالمقابل، هذا الذي يشذّب كرمه، ويسمّد حقله، متذمّراً، كان الأجدر به دراسة القانون، وفنّ الاحتيال عليه، فهو خبيرٌ بالمكائد والنزاع. وكم من فصاحةٍ يهدر في مبارزات مصالح دنيئة، ذلك الأستاذ المحامي المنفيّ إلى الأثلام والإسطبل!

هذه الأخطاء هي نصيبنا، وثمن جهلنا. فالحياة الروحيّة فينا لا تمتلك من المنعة ما يمكّننا من القراءة في هذا القلب الذي يخفق في صدرنا، وفي قلب القريبين منّا، المنفصلين عنّا انفصالاً لا رجوع عنه.

كلّ هذه الأخطاء تنبع من الأسماء المجهولة، التي نعجز عن قراءتها، والتي لا تستجلي أمرها سوى العبقريّة.

أنت المسيح

لم يكن يسوع ليعبأ بما يقوله عنه قوم البحيرة والقرى، وهو الذي كان قادراً أن يقرأ، في طوايا النفوس، الأفكار المستغلقة على ذاتها، وهو الوحيد المتمكّن من معرفة اسمه الحقّ، وهويّته الفائقة الطبيعة، معرفة اليقين.

لم يسأل لكي يعلم، بل لكي يعرف، أيضاً، تلاميذه، أخيراً، اسمه الحقّ، الآن، وقد أذنت ساعة الحسم. لم يردّ على الإجابات الأولى : " البعض يقولون إنّك يوحنّا المعمدان، وقد قام من الموت، وآخرون إنّك إيليّا أو إرميا أو أحد الأنبياء الأقدمين ". هذه الافتراضات السمجة الساذجة لم يكترث بها. بل كان يتوخّى أن يأتيه الجواب الشافي من أولئك الذين سيتولّون مواصلة مهمّته، والشهادة له بين الشعوب، وعلى مدى العصور. حتّى نهاية الشوط، أبى فرض الإيمان،عنوةً، على أولئك الذين كانوا يشهدون حياته عن كثب، ويسمعون أقواله. كان يبتغي أن يكون اعتراف الاثني عشر برسالته الفائقة الطبيعة، وباسمه الذي لم يتفوّه به أحدٌ منهم بعد، والذي يبدو وكأنّه يخيفهم، أو كأنّه سرٌّ من الخطير البوح به، كان يبتغي أن يكون هذا الاعتراف حرّاً، تلقائيّاً، يتفجّر من إحدى تلك النفوس تفجّر اعتراف حبّ، كان يريد أن يتفوّه به أحد تلك الأفواه.

" ولكن أنتم من تقولون إنّي هو ؟ "

و قد شُرّف سمعان بطرس بهذا الإلهام الذي سيطر عليه وتخطّاه، وجعل منه الأوّل، حقّاً، وإلى الأبد. لم يستطع المضيّ في حبس هذه الأقوال التي تدفّقت على شفتيه، عنوةً، مثل صيحةٍ لم يكن، هو نفسه، قبل لحظات، يظنّ أنّه قادرٌ على إطلاقها : "أنت المسيح، ابن اللّه الحيّ، أقوالك هي أقوال حياةٍ أبديّة، ونحن قد آمنّا وعرفنا أنّك قدّوس اللّه".

من الصخرة الصلبة، تفجّر، أخيراً، النبع الذي روى، حتّى اليوم، ستّين جيلاً. وكان ذلك حقّاً ومكافأة لبطرس، فهو أوّل من تأثّر خطى يسوع في تشرّده الإلهي. وهو أوّل من توسّم في المبشّر بالملكوت، المرتحل، الملك الشرعيّ والأبديّ، المسيح المنتظر في صحراء القرون، وأوّل من اعترف أنّه قد جاء، أخيراً، وأنّه هنا، لابساً جسداً بشريّاً، أمام عينيه، وقدماه مغروستان في رغام الطريق.

لقد رأى فيه الملك الطاهر، شمس العدل، أمير السلام، مسيح الربّ، عمّانوئيل، ابن البشر، الذي كان اللّه سيرسله في اليوم المحدّد، الذي تنبّأ به الأنبياء في أماسي الحزن والعقاب؛ الذي رآه الراؤون ينحدر إلى الأرض كالبرق، في انتصاره ومجده؛ الذي ما انفكّ الفقراء، والجرحى، والجياع، والمهانون، يترقّبونه، جيلاً فجيلاً، ترقّب العشب الجافّ للغيث، وترقّب الوردة للشمس، وترقّب الفم للقبلة، والقلب للعزاء؛ ابن اللّه وابن البشر، الإنسان الذي

يخفي اللّه تحت قشرة الجسد، واللّه الذي غطّى ألوهته بوحل آدم، ذاك الأخ اليوميّ الوديـــع، الذي يرى ذاته بهدوء، في مرآة عيون مختاريه، المفعمة دهشة.

لقد انتهى الانتظار، وانقضى عهد الترقّب. ولكن لمَ لم يعترفوا به حتّى ذلك اليـــوم ؟ ولمَ لم يبوحوا بذلك لأحد، قطّ؟ ومنذ متى وُلدت في تلك النفوس، المغرقة في البساطة، الفكرة الأولى عن الاسم الحقيقيّ لذاك الذي طالما أخذهم بيدهم، وهمس في آذانهم ؟ هل كان ممكنـــاً أن يخطر، يوماً، ببالهم أنّ واحداً منهم، عاملاً، من عامّة الشعب، نظيرهم، يستطيع أن يكون المسيح المخلّص، الذي بشّر به القدّيسون، وترقّبته الأجيال ؟ ما كان بوسع عقلهم بمفرده، ولا بوسع إشارات الكتب وحدها، الإفضاء بهم إلى هذا الاكتشاف. بل كان لا بدّ من وحيٍ، ومـــن حدْس القلب المفاجئ، من استنارةٍ كتلك التي أشرقت، يومها، على قلب بطرس. " طوبى لك يا سمعان بريونا، لأنّه ليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي فـــي الســـماوات ". العيـــون البشريّة كانت عاجزة عن رؤية ما شاهدوه بوحيٍ من العلاء. ولئن اختيـــر بطـــرس لـــذلك الامتياز، فقد استحقّ نتائجه: " أنت الصخر، وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. سأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، وكلّ ما تربطـــه علـــى الأرض، يكـــون مربوطاً في السماء، وكلّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السماوات ".

كلمات خطيرة، انبثقت منها، بفضل ازدهارٍ صبورٍ طويل الأمد، وبإزر نار الإيمـــان، ودماء الشهود، واحدةٌ من أكبر الممالك التي أنشأها بشرٌ على الأرض؛ بل المملكـــة القديمـــة الوحيدة التي ما برحت قائمةً حيّة، وفي تلك المدينة، بالذات، التي شهدت نشوء وانهيار أكثـــر الإمبراطوريّات الزمنيّة كبرياءً وبذخاً. في سبيل هذه الكلمـــات، كثيـــرون لقـــوا الاستشـــهاد والموت. ومن أجل إنكار هذه الكلمات أو تأكيدها، من أجل تفسيرها أو محوها، قُتل ملايـــين البشر، في الساحات العامّة، وساحات الوغى، وانشقّت ممالك، واهتزّت مجتمعات وانقســـمت، وثارت أمم، وتأثّرت قلوب أباطرة ورعاع. بيد أنّ معناها، في فم المسيح، بســـيط، وواحـــد: فأنت، يا بطرس، عليك أن تكون صُلباً ومنيعاً كالصخر، وعلى صلابة إيمانـــك بـــي هـــذه، سينهض أوّل مجتمعٍ مسيحيّ، نواةً متواضعة للملكوت. في حربها على هـــذه الكنيســـة التـــي تتألّف، اليوم، من عشرة مواطنين، ولكنّها ستمتدّ حتّى أقاصي تخوم الأرض ســـتُهزم قـــوى الشرّ، لأنّكم، أنتم، الروح، والروح لا تقوى المادّة على سحقه أو إخماده، أنت ستوصد، إلـــى الأبد أبواب الجحيم – وإذ أكلّمك الآن، أكلّم جميع الذين سيخلفونك، والمتّحدين في يقين الإيمان عينه – وستفتح لجميع المدعوّين أبواب السماء. وستربط وستحلّ باسمي. وما ستحظره، أنت، عقب موتي، سيكون محظوراً، أيضاً، غداً، لدى البشريّة الجديدة التي سأجدها، عند عـــودتي. وما ستأمر به سيكون أمراً صالحاً لأنّك لن تفعل ولن تقول سوى ما قلتُه، أنا، وعلّمتهُ، ولـــو

اختلفت العبارات. وستكون، في شخصك، وفي شخص خلفائك الشرعيّين، راعي الملك الانتقاليّ، والمرشد المؤقّت، الذي سيُعدّ، مع رفاقك الخاضعين لك، ملكوت اللّه والحبّ.

لقاء هذا الإعلان وهذا الوعد أفرض عليكم امتحاناً قاسياً : امتحان الصمت. فعليكم الاّ تقولوا، الآن، لأحد، من أنا. يومي قريب، ولكنّه لم يحِنْ بعد؛ وستكونون شاهدين على ما لا تتوقّعونه، بل على نقيض ما تتوقّعون. إنّي أعلم الساعة التي يتوجّب عليّ، فيها، الكلام، ويتوجّب عليكم أيضاً. ولكن عندما سنحطّم صمتنا، ستُسمع صيحتي وصيحتكم في أقاصي أرجاء الأرض والسماوات.

شمسٌ وثلج

...شامخٌ هو الحرمون، وله ثلاث قمم مكسوّة بالثلج حتّى في فصل القيظ. إنّه أكثر ارتفاعاً من جبل الطابور. وعلى هذا الجبل، وهو أعلى جبلٍ تسنّمه المسيح في حياته التي مرّت بمراحل أربعة جبال : جبل التجربة، وجبل التطويبات، وجبل التجلّي، وجبل الصلب، على هذا الجبل، إذن، غدا يسوع نوراً بكامله.

ثلاثة من التلاميذ كانوا معه : بطرس وابنا الرعد : الصخر والعاصفة، رفاقٌ جديرون بالمكان وبالحدَث. كان يصلّي وحيداً، وقد انتحى مكاناً رفيعاً، أعلى من الجميع، وربّما كانت ركبتاه غارقتين في الثلج. من لم يشهد، شتاءً، على قمّة الجبال، كيف يصبح كلّ بياضٍ قاتماً ورماديّاً على أرضيّةٍ من ثلج، بحيث يبدو الوجه الشاحب مسودّاً اسوداداً غريباً، ويبدو القماش الأبيض المغسول قذراً، ويرتدي الورق لون الوحل ؟ في ذلك اليوم شوهد نقيض ذلك على القمّة البيضاء المقفرة.

فجأةً تألّق وجه يسوع كالشمس، وغدت ثيابه ناصعة البياض كالثلج، بياض لا يقوى رسّام على تخيّله، ولا يقوى قصّارٌ على قصْره. على نصاعة الثلج، تألّقت نصاعةٌ أشدّ، وطغى على كلّ نورٍ أرضيّ سنًى أبهى من كلّ سنًى معروف.

التجلّي هو عيد النور وانتصاره. ويسوع الذي كان سيظلّ، بضعة أيّام أُخرى، حبيس الجسد والمادّة، انتزع من المادّة أكثر عناصرها روحانيّةً، وأرقّها. جسده، الذي ينتظر الانعتاق، أمسى نور شمس، ونور سماء، نوراً يفوق الطبيعة. ونفسه، التي ارتقت، بالصلاة، فوق البشريّ، تجلّت من خلال الجسد، وتخطّت، في سناها، حدود الجسد والثياب، مثل شعلةٍ محبوسة ضمن حواجز، فتحرقها، وتتجلّى.

و لكنّ نور المحيّا هو غير نور الثياب. فنور المحيّا يحاكي الشمس، أمّا نور الثياب فيشبه ألَق الثلج. للمحيّا، وهو مرآة النفس، لون النار، وللثوب، وهو مادّةٌ خارجيّةٌ خسيسة،

لون الجليد. فالنفس شمسٌ، ونارٌ، وحبٌ. أمّا الثياب، كلّها، حتّى الثوب الثقيل الذي يدعى جسداً، فهو شيءٌ كتيمٌ، متجمّدٌ، ميت، لا يلتمع إلاّ ببعض انعكاسات.

و لم يكن يسوع وحيداً، بل دنا منه وكلّمه ميتان عظيمان، أبيضان مثله : موسى وإيليّا. أوّل المنقذين، وأوّل الأنبياء. رجلا نورٍ ونار، وقد جاءا كي يشهدا للنور الجديد المتألّق على الحرمون. جميع من كلّموا اللّه يظلّون يقطرون نوراً. فعندما انحدر موسى من سيناء كان وجهه من شدّة اللمعان بحيث اضطرّ أن يقنّعه، لكيلا يُعمي رفاقه. وإيليّا خُطف إلى السماء على عربةٍ ناريّةٍ تجرّها خيولٌ من لهب. ويوحنّا، إيليّا الجديد، أعلن عماد النار، ولكنّ وجهه الذي لوّحته الشمس، لم يسطع كالشمس؛ والسنى الوحيد الذي حظي به هو الطبق الذهبيّ الذي وضعت عليه هامته المضرّجة بالدماء.

و ها إنّ، على الحرمون، مَنْ وجهه أشدّ تألّقاً من وجه موسى، ومن سيرتقي إلى السماء خيراً من إيليّا. لقد جاءا إليه، ولكنّهما، بعدئذٍ، تلاشيا إلى الأبد، ولم يعد لوجودهما حاجة بعد أن أدّيا هذه الشهادة الأخيرة، وغدا العالم في غنًى عنهما، وعن شريعتهما، وعن رجائهما. غمامةٌ مضيئة حجبت الأنوار الثلاثة عن الشهود الثلاثة المنتظرين، ومن الغمامة هبط صوت هاتفاً : " هذا هو ابني الذي أُحبّه، فإليه أصغوا ! "

لم تحجب الغمامة النور، بل ضاعفت سطوعه. ومثلما ينبثق من الغيمة العاصفة برقٌ يضيء البرّيَّة بغتةً، كذلك انبثقت من تلك الغمامة، وهي ذاتها نور، الشعلة التي أحرقت العهد القديم، وأكّدت، إلى الأبد، الوعد الجديد. غمامة الدخان التي قادت العبرانيّين الهاربين صوب الأردنّ، والغمامة السوداء التي ملأت سفينة العهد، وأخفتها عن أيّام الرجس والرعب، انقلبتا، أخيراً، غمامة نور، من السطوع بحيث أخفت حتّى النصاعة الشمسيّة المنبعثة من الوجه الذي سيُصفع، في الظلمات الوشيكة الحلول.

و اضمحلّت الغمامة، فإذا بيسوع، ثانيةً، وحيد، وقد استعاد وجهه لونه الطبيعيّ، واستعاد ثوبه شكله المألوف. والتفت المسيح، الذي عاد، مجدّداً، ذلك الأخ الحبيب، صوب رفاقه المذهولين وقال: " انهضوا، ولا تخافوا، ولكن لا تبوحوا لأحدٍ بما شاهدتم، حتّى ينهض ابن الإنسان من بيت الأموات".

كان التجلّي صورةً مسبقةً للصعود، ولكن لا مفرّ من أن يسبق القيامة المجيدة، موتٌ مهين.

سأقاسي آلاماً كثيرة

كان يسوع يعلم، منذ زمان، أنّه سيموت، قريباً، موتاً مهيناً. كانت تلك هي المكافأة التي ينتظرها، والتي لا يستطيع أحدٌ حبسها عنه. فعلى من يخلّص أن يكون متأهّباً للهلاك. وعلى من يفتدي الآخرين أن يدفع كلّ ذاته ثمناً، فهي القيمة الذاتيّة الوحيدة التي يمتلكها، والتي تتخطّى وتتضمّن كلّ القِيَم الأُخرى. من يحبّ أعداءه، من البَدهيّ أن يبغضه حتّى أصدقاؤه. ومن يأتي بالخلاص إلى جميع الشعوب، لا بدّ من أن يقتله شعبه. ومن يقدّم الحياة هو خليقٌ بالموت. كلّ إحسان هو إهانةٌ لنكران جميل البشر، من الجسامة بحيث لا يمكن عقابه إلاّ بالعقوبة القصوى. إنّنا لا نعير آذاننا إلاّ للأصوات المتصاعدة من القبور، ونخصّ بقدرتنا الهزيلة على التكريم، أولئك الذين اغتلناهم. ووحدَها تترسّخ في ذاكرة الجنس البشريّ الحقائق المدوّنة بالدم.

كان يسوع عليماً بما يحيكون له من مكائد في أورشليم، وفي كلّ خواطره، كان الموت محفوراً، كما سيقول، من بعدُ، رجلٌ استأهل أن يمثّل صورته، كان قد تعرّض لثلاث محاولات اغتيال، أولاها في الناصرة عندما مضوا به إلى قمّة تلّةٍ بُغية إلقائه في هوّة؛ والثانية في الهيكل، والثالثة، في الشتاء، بمناسبة عيد التكريس، عندما استنكر اليهود أقواله وهمّوا برجمه.

ولكن، حتّذٍ، كان قد أَفلت، لأنّ يومه لم يكن قد حان. وقد احتفظ بوعود الموت هذه في نفسه، من أجله فحسب، حتّى الأيّام الأخيرة. ولم يشأ أن يُحزن تلاميذه الذين، قد يصدمهم أن يتبعوا رجلاً مداناً، محتضراً في قلبه. ولكن بعد أن كُرّس مسيحاً ثلاثاً، من خلال صيحة بطرس، وتجلّيه على الحرمون، ودهنه بالطيب في بيت عنيا، ما عاد قادراً على التزام الصمت. فقد كان عليماً بأوهام الاثني عشر الساذجة. ففيما خلا لحظات استنارةٍ واندفاع، لم تكن أفكارهم مختلفة عن أفكار الشعب؛ وكانوا بشريّين حتّى في أسمى أحلامهم؛ ولم يكن المسيح الذي يترقّبونه رجل الآلام، بل مرمّماً منتصراً لعهدٍ ذهبيّ : ملكاً جاثماً على عرشه، وليس مجرماً معلّقاً على الصليب، يتلقّى الإتاوات والتكريم، لا البصقات والصفعات، قادماً لإنهاض الموتى، لا لكي يُمات، هو نفسه، ميتة القتلة.

كان لا بدّ من إنذارهم، مسبقاً، بكلّ ذلك، قبل أن ينهار يقينهم الحديث العهد، في يوم العار. وكان لا مفرّ من أن يسمعوا من فم المسيح نفسه، المدان، أنّ عليه أن يتعرّض للإدانة، وعلى المنتصر أن يُمنى بهزيمةٍ نكراء، وعلى ملك الملوك أن يُهان على يد خدّام قيصر، وعلى ابن اللّه أن يُصلب عن يد خدّامٍ أعمى اللّه بصيرتهم.

ثلاث مرّات حاولوا اغتياله، وثلاث مرّات أعلن للتلاميذ عن موته القريب، في أعقاب اعتراف بطرس؛ وثلاث فئاتٍ من الناس هي التي أمرت بقتله : الشيوخ، ورؤساء الكهنة، والكتبة. شيوخٌ –نبلاء، وأرستقراطيّون، منتدبون علمانيّون عن البورجوازيّة اليهوديّة – يمثّلون السيطرة والثروة. وإنّما قد جاء يسوع لتحويل السيطرة إلى خدمة، ولكي يدين الأغنياء وكنوزهم. ورؤساء الكهنة يمثّلون الهيكل، الذي جاء، هو، كي يدمّره. والكتبة –وهم علماء الشريعة، واللاهوتيّون، والمفسّرون، وحرّاس الكتب المقدّسة– يمثّلون سلطة الكلام والتقليد، وهو قد جاء كي يجدّد الكلام والتقليد، ولذلك لن يغفر له أحدٌ منهم، حتّى وهو على الجلجلة.

ثلاثةٌ سيتواطأون على قتله: يهوذا الذي خانه، وقيافا الذي قضى عليه بالموت، وبيلاطس الذي صدّق قرار موته؛ ومن ثلاثة أصناف سيتألّف منفّذو الحكم : العسس الذين سيقبضون عليه، واليهود الذين سيجأرون تحت نوافذ المحكمة : اصلبه؛ والجند الرومانيّون الذين سيسمّرونه على الصليب.

و سيكون لعقابه ثلاث مراحل، كما أخبر هو نفسه تلاميذه: سيُهزأ به ويُهان، ثمّ سيُبصق على وجهه وسيُجلد، وأخيراً سيُعدم. ومع ذلك،على التلاميذ ألاّ يخشوا، وألاّ ينتحبوا. فمثلما تجد الحياة مكافأتها في الموت، كذلك الموت هو وعدٌ بحياةٍ ثانية. بعد ثلاثة أيّام سينهض من اللحد، لحياةٍ أبديّة قاهراً مملكة الموت. إنّه لا يأتي بالذهب والغلال الوفيرة بل يأتي بالخلود لكلّ من يطيعونه، ويمحو كلّ خطايا البشر.هذا الخلود، وهذا التحرير ينبغي أن يُؤدّى نقيضهما ثمناً لهما : أي السجن والنزاع. ثمن باهظ، بيد أنّ أيّاماً معدودات من الآلام والقبر لا مفرّ منها لشراء ملايين السنوات من الحرّيّة والحياة.

هذا الإعلان يشيع الاضطراب في نفوس التلاميذ، فيأبون تصديقه. ولكنّ يسوع قد شرع يتألّم، مدوّناً في أفكارهم أيّام النهاية المريعة. لقد بات ورثة عمله مطّلعين على كلّ شيء، وغدا بوسعه الانطلاق إلى أورشليم، لكي يتمّ كلّ ما أعلنه.

" **ماران اتعا** "

و لكن، مدى يومٍ واحد، على الأقلّ، سيكون يسوع شبيهاً بالملك الذي ينتظره الفقراء، في كلّ صباح من أيّام السنة، عند عتبات المدينة المقدّسة. الفصح يقترب، والأُسبوع الأخير الذي لن ينتهي أبداً (فيوم الأحد الجديد لم يبزغ بعد) سيُستهلّ.

في هذه النوبة لن يدخل يسوع كما في النوبات السالفة، عابر سبيل نكرة، غارقاً في لجّة الحجّاج، يلج الحاضرة الكريهة الرائحة، ذات البيوت البيضاء كالقبور، اللاطية تحت مجد الهيكل الباطل، المحكوم عليه بالحريق، بل، في هذه النوبة، وهي الأخيرة، يواكب يسوعَ

أتباعُه، وأقرباؤه، ومواطنوه، ونساء سينتحبنَ عليه، والاثنا عشر الذين سيتوارون، وجليليّون جاؤوا للاحتفال بذكرى معجزةٍ عتيقة، يحدوهم رجاء معجزةٍ جديدة. في هذه النوبة، ليس يسوع وحيداً، بل ترافقه طلائع الملكوت. ولا هو مجهول، إذ قد سبقته صيحات معجزات إقامة الموتى التي أجراها. وحتّى في العاصمة حيث يسود حديد الرومانيّين، وذهب التجّار، وحرف الفرّيسيّين، ثمّة عيونٌ ترمق جبل الزيتون، وقلوبٌ تخفق خفقاناً غير مألوف.

في هذه النوبة أبى أن يدخل، على قدميه، المدينة التي كان عليها أن تكون عرشاً لمملكته، والتي ستغدو له لحداً. فعندما انتهى إلى بيت فاجي، أنفذ تلميذين بحثاً عن جحش، سيجدانه مربوطاً إلى سور، فليحلاّ رباطه وليأتيا به من غير أن يستأذنا أحداً. وإن اعترض صاحبه، فليقولا له إنّ الربّ يحتاج إليه.

لقد قيل، وما زال يُكرّر القول، أنّ يسوع اختار الحمار مطيّة، للتدليل على تواضعه ووداعته، فهو، بذلك، يرمز إلى مجيئه نحو شعبه، مجيءَ أمير السلام. ولكن يُغْفَل أنّ الحمير، في شباب الأزمنة، لم تكن حمير اليوم المسكينة: عظاماً تعبة تحت جلد ممزّق، أرهقتها قرونٌ من العبوديّة، فما عادت تحسن سوى حمل الرحل والأكياس، فوق حصباء المنحدرات الوعرة. فقد كان الحمار، قديماً، حيواناً أنوفاً، محارباً، جميلاً وشجاعاً كالحصان، وجديراً بأن يُضحّى به للآلهة. إنّ هوميرُس الذي كان يجيد التشبيه، لم يتوخّ الحطّ من قدر آجاكس القويّ، آجاكس المتغطرس، عندما شبّهه بحمار. والعبرانيّون أيضاً كانوا يستخدمون التشبيه بالحمار الوحشيّ للدلالة على وهن العقل وجرأة القلب.

ويسوع قد طلب، صراحةً، جحشاً غير مروّض، لم يُركَب بعد، وحشيّاً. فالحيوان الذي اختاره في ذلك اليوم، لا يرمز إلى تواضع الفارس، بل إلى الشعب اليهوديّ الذي سيحرّره المسيح، وسيُخضعه؛ إنّه ذلك الحيوان الصعب المراس، الجموح، القاسي الرقبة، الذي لم يُفلح أيّ نبيّ أو أيّ ملك في ترويضه، والمقيّد، اليوم، إلى وتدٍ، بالحبل الرومانيّ، تحت قلعة أنطونيا. إنّه هزيل الفهم، جريء القلب، كما وُصف في كتاب أيّوب، جدير بمحيط ملكٍ فاسد، عبد للغرباء، مع عدم تخلّيه عن جموحه وعصيانه. وها إنّه قد وجد، أخيراً، من يركبه، ليومٍ واحد. ولكنّه، في هذا الأسبوع عينه، سيتمرّد على مروّضه الشرعيّ. ولكن، بعد ذلك، ستُدمّر المدينة المشاغبة، وسيُدكّ الهيكل، وسيُشتّت جنس قتَلَة الآلهة، على كلّ أرجاء الأرض، مثل قشّ المذرّي الأبديّ.

إنّ متن الجحش من القسوة بحيث أُلقي عليه التلاميذ معاطفهم. والمنحدر الهابط من جبل الزيتون محجر، فطرح الرفاق المتهلّلون على الطريق معاطفهم المخصّصة لأيّام العيد، في مثل فعل تكريس. إنّ نزع المعطف هو مبدأ التجرّد، ومبدأ هذا العري الذي هو رغبةٌ في

الاعتراف، وموتٌ للخجل الزائف. عريٌ للجسد، ووعدٌ بعري الروح الصادق. إرادة الحـــبّ، والإحسان الأقصى: أن نعطي ما يغطّي ظهورنا. "من طالبك بثوبك، فهبه معطفك أَيضاً".

شرع الموكب في الانحدار تحت قيظ الشمس والمجد، وسط الأناشيد وأولى الأَغصان المقطوعة.كان ذلك في مطلع نيسان ومستهلّ الربيع. ساعة الظهر الذهبيّة، المنعشة والريفيّة، كانت تمتدّ حول المدينة، في الحقول المستيقظة، والكروم، والبساتين. والسماء المنفتحة علـــى اللامحدود، كانت على سجوٍّ عجيب، سماء زرقاء شاسعة، نقيّة، واعدة بالفرح، مثـــل عـــينٍ إلهيّة. لم تكن النجوم تُشاهد، ولكن كان يمكن تخمين روعة الشموس البعيدة العذبـــة، متّحـــدة بسنى شمسنا. نسيم فاتر، محتفظ بطعم الفردوس، كان يلوي، بحنان، ذرى الأشجار، مســـبغاً لوناً جديداً على الأوراق العذراء النامية. كان واحداً من تلك الأيّام حيث اللازورد أشدّ زرقة، والخضرة أشدّ اخضراراً، والنور أكثر ألقاً، والحبّ أوفر حبّاً.

مواكبو يسوع كانوا مأخوذين بسحر العالم ذاك، وسحر اللحظة تلك. لقد انتابهم، فـــي ذلك اليوم، ما لم ينتبْهم قطّ مثله، من قبل، شعورٌ غامر بالعبادة والرجاء. صيحة بطرس قـــد أمست صيحة ذلك الجيش الصغير، المندفع، المنحدر صوب المدينة الملكيّة. "هو شعنا لابـــن داود!" هكذا كانت تهتف أصوات الشباب والنساء. والتلاميذ أنفسهم، مع أنّهم قد أُنذروا بأنّ هذه الشمس ستكون الأخيرة، وأنّ الذي يشيّعونه محكومٌ عليه بالموت، استعادوا الرجاء وسط هذه البهجة العارمة.

و دنا الموكب من المدينة المغلّفة بالأسرار، الصمّاء، المعادية، مدوّياً دويَّ غضبة سيلٍ أطاح بسدوده. هؤلاء القرويّون كانوا يتقدّمون مؤلّفين ما يشبه غابـــة، ولكـــأنّهم يريـــدون أن يحملوا إلى داخل الأسوار الكريهة الرائحة، وإلى الأزقّة والزواريب، شيئاً من البرّيّة وحرّيّتها. أكثرهم جرأة اقتطعوا، على مدى الطريق، سعف نخيل، وأغصان زيتونٍ وآس، وأفنان حور، ولكأنّهم يحتفلون بعيد الأكواخ، وراحوا يلوّحون بها، هاتفين بأقوال المزامير الحماسيّة، فـــي وجه الآتي باسم اللّه المتألّق.

تلك التظاهرة المسيحيّة الأولى انتهت إلى أبواب أورشليم، ولم تهدأ صيحاتها المعلنة: "مباركٌ الملك الآتي باسم الربّ ! سلامٌ في السماء، ومجدٌ في الأعالي". وتنامت هذه الصيحات إلى آذان الفرّيسيّين الذين هرعوا، في عجرفتهم وقسوتهم، لمشاهدة هذا الصـــخب المتمـــرّد. وصدمت هذه الصيحات آذانهم الحكيمة، وأقلقت قلوبهم الريّابة. بعـــضٌ مـــنهم، متســـربلون بمعاطف العلماء، نادوا يسوع من خلال الجمع : " يا معلّم، أنّب تلاميذك ! ألا تعلم أنّ مثـــل هذه الأقوال لا توجّه إلاّ إلى الربّ، أو إلى الآتي باسمه ؟ " ومن غير أن يتوقّف، أجـــابهم : " إنّني أقول لكم : إن صمت هؤلاء لصاحت الحجارة! "

الحجارة الجامدة الصامتة التي كان بوسع اللّه أن يجعل منها أبناءً لإبراهيم؛ حجارة الصحراء الحارقة التي أبى يسوع، عندما جرّبه إبليس، أن يحوّلها إلى أرغفة خبز؛ الحجارة المعادية التي جمعوها مرّتين كي يرجموه بها، وحجارة أورشليم الصمّاء، كلّ هذه الحجارة هي أقل صمماً وأقلّ بلادةً من نفوس الفرّيسيّين. بهذا الجواب الذي جاء بمثابة إعلان حرب، أثبت يسوع أنّه المسيح. وفي الواقع، ما إن دخل الملك الجديد مدينته، حتّى أعطى إشارة الهجوم.

مغارة اللصوص

و صعد يسوع إلى الهيكل حيث احتشد أعداؤه. وكان بياض القصر المقدّس القشيب، الجاثم على قمّة التلّة، يستحمّ بسنى الشمس الساطعة. تابوت عهد الرُحَّل، العتيق، الذي كانت تجرّه الثيران في قيظ الصحارى والمعارك، كان قد توقّف هنا، متحجّراً، لحراسة المدينة الملكيّة. عربة الفارّين المتحرّكة انقلبت قلعةً ثقيلةً من حجرٍ ومرمر؛ بل مجموعةً باذخةً من القصور، وأرتال الأعمدة الظليلة، والساحات الداخليّة المضيئة، والأسوار المشرفة على شفا الوادي، تحيق بها الحصون والأبراج. إنّه لم يعد، فقط، مأوى قدس الأقداس، وهيكل التقادم، الحرَم الدينيّ، ومعبد الشعب الصوفيّ. بل إنّه، بما ازدان به من أبراج مراقبة، وبيوت الحرس، ومخازن التقادم، وصناديق الأمانات، وساحات التجارة، وقناطر السائحين، قد أمسى كلّ شيء، إلاّ مكان خشوعٍ وصلاة؛ أمسى كلّ شيء : موقعاً حصيناً في وقت الحصار، مصرفاً، سوقاً في مواسم الحجّ والأعياد، ساحة مساجلاتٍ سياسيّة، لخطابات العلماء، وثرثرة العاطلين عن العمل؛ مكان عبورٍ، وتلاقٍ، وصفقات، بناه ملكٌ كافر، كي يشتري به ولاء شعبٍ سفسطيٍّ مشاغب، ويُرضي كبرياء طبقة الكهنة وجشعها وبخلها، فأصبح أداة حرب، ومركز بيع وشراء، وبدا، في نظر المسيح، قلعة أعداء الحقيقة وملجأهم.

صعد يسوع إلى الهيكل، كي يقوّض الهيكل. لقد ترك لرومان تيطس مهمّة تدمير الجدران، وتفكيك الحجارة، وحرق المباني، ونهب الذهب والنحاس، وتحويل صرح هيرودُس الضخم إلى كتلةٍ ملعونة يتصاعد منها الدخان. وتولّى يسوع تقويض القِيَم التي يظهرها الهيكل المتكبّر، بكُتله المتراكبة والمتمادية، وبشرفاته المبلّطة، وأبوابه الذهبيّة. يسوع الصاعد إلى الهيكل هو الذي تجلّى على الجبل في مواجهة الكتبة الذين جفّت نفوسهم، وهم منكبّون على مخطوطاتهم العتيقة؛ هو مسيح الملكوت الجديد في مواجهة مغتصب الملك الذي أفسدته المساومات، والمخازي، هو الإنجيل في مواجهة التوراة، هو المستقبل في مواجهة الماضي، هو نار الحبّ في مواجهة رماد الحرف. ساعة الصدام قد أَذنت، وها إنّ يسوع، وسط ترانيم

ذويه واندفاعهم، يصعد نحو معقل أعدائه الباذخ. إنّه يعرف الطريق، ويتذكّره. فلطالما سلكه، صغيراً، مجروراً بيده، وسط سيل الجليليّين، والصخب، والغبار! وفيما بعد، وهو فتى نكـــرة، تائه بين الجموع، عندما كانت تصيبه الشمس الحارقة بالدوار والنصَب، طالما رفع أبصـــاره نحو الجدران الشاهقة، وراودته الرغبة في تسلّق قمّتها، علّه يجد، فوق، في الحرم المقــدّس، شيئاً من الظلّ يريح عينيه، وشيئاً من الماء يرطّب شفتيه، وكلمة عزاء لقلبه !

أمّا اليوم، فقد تبدّل كلّ شيء، فلا أحد يقوده، بل هو يقود الآخرين. وهو ما جاء ليعبُد، بل ليعاقِب. إنّه يعلم أنّ خلف واجهات القبر العالي لا يوجد سوى الرماد والتفسّــخ : أعــداؤه الذين يبيعون رماداً، ويتغذّون بالتعفّن. وأوّل خصم يواجهه هو شيطان الكسْب.

دخل فناء الوثنيّين، وهو الأكثر اتّساعاً وازدحامــاً، وإذا بشــرفته الرحبــة المبلّطــة المغمورة بالشمس لم تعد فناء معبد، بل ساحة سوقٍ قذر، صاخب، تدوّي فيه صــيحات تلــك الجمهرة من الصيارفة، والباعة، والسماسرة، والمشترين، وجميعهم يتبادلون النقود. وها هــم باعة البهائم، مع ثيرانهم وقطعان غنمهم؛ وباعة العصافير والحمام، واليمام، على مقربةٍ مــن صفوف أقفاصهم؛ وموائد الصيارفة وقد علتها طوسٌ مليئةٌ بالنقود النحاسيّة والفضيّة. الباعــة الغائصون في الروث، يجسّون خواصر الحيوانات المعدّة للأضاحي، أو يجــأرون بنــداءاتهم الرتيبة إلى الزوجات النفساوات، وإلى السائحين القادمين بتقادم دسمة، وإلى البــرص الــذين يتعيّن عليهم تقديم طيورٍ حيّة من أجل شفاءٍ مرجوّ أو محقّق؛ والسماســرة المتسـلّلون بــين الجماعات المتراصّة؛ والقرويّون الحذرون البخلاء، الذين يسترسلون في الحديث قبل أن يفكّوا رباط كيسهم من أجل تبديل نقود التقدمة؛ وبين فينةٍ وأُخرى، يغطّي ثــورٌ ضَــجِر، بخــواره المدوّي، ثغاءَ الحملان الهزيل، وصيحات النساء الحادّة، ورنين الشواقل والدراخمات.

لم تكن هذه المناظر جديدة على يسوع. فقد كان يعلم أنّ بيت اللّه قد حُوّل إلى بيــتٍ لمامون، وأنّ عبدة المادّة، عوضاً عن إقامة الصلاة الصامتة المرفوعة للروح، يتاجرون فيه، بالتواطؤ مع الكهنة، ببراز إبليس. ولكنّه، في هذه النوبة، لم يحبس غيظه واشمئزازه، وتمهيداً لتدمير الهيكل، بدأ بتدمير السوق. ذلك المتسوّل الأبديّ، ذلك الفقير الذي يواكبه فقراء، انقضّ على رجال المال. تناول حبالاً، وجدلها سوطاً، واشتقّ لذاته ممرّاً وسط الجمع المذهول؛ ومنذ الصدمة الأولى، تهاوت موائد الصيارفة، وانتثرت النقود على الأرض وسط صيحات الدهشة والغيظ، وانقلبت مقاعد بائعي الطيور على الحمام الذي تطاير. وإذ تبيّن رعاة البهائم الخطــر الداهم، دفعوا ثيرانهم وخرافهم نحو المخارج؛ وتأبّط بائعو العصافير أقفاصهم، وجــدّوا فــي الفرار؛ وتعالت الصيحات إلى السماء، صيحات تأييد أو استنكار؛ واجتذب الصخب قوماً مــن باحاتٍ أُخرى؛ في حين ما انفكّ يسوع، محاطاً بأجرأ أتباعه، ملوّحاً بسوطه، طــارداً ســائر

بائعي النقود نحو الأبواب، مردّداً بصوتٍ جهير : أبعدوا سِلَعكم من هنا ! فبيت اللّه، هو بيت صلاة، وقد جعلتم منه مغارة لصوص.

وفرّ آخر الصيارفة خارج الباحة، مثل خِرَق بالية تذروها ريح الشمال.

التجارة المؤلّهة

لم يكن عمل يسوع مجرّد تطهيرٍ للهيكل، بل كان تظاهرةً تعلن عن نفوره من مامّون وعبيده. "الأعمال"، هذا الأله الحديث، هي، في نظره، نمطٌ من السرقة. وإذن، فالسوق هو مغارة لصوصٍ يُغالون في مظاهر المجاملات، ومعقل ناهبين مجازين. بيد أنّ ما تشجّعه التقاليد الشائعة، وما تتيحه الشريعة، لا يطيقه من لا يتردّون إلى صفقات العالم، ولا يبتغون من مكسبٍ سوى المكسب الروحيّ. ومن جميع ضروب هذه السرقة المشروعة المدعوّة تجارة، ليس أبغض، وأشدّ خزياً، من تجارة النقود. فعندما يعطي أحدهم نعجةً لقاء دراهم، من المحقّق أنّه يحصل على مقدارٍ من الدراهم أكبر من كلفة النعجة؛ وهو يعطيك، أقلّه، غير رمز الثروة المعدنيّ المقيت، كائناً حيّاً سيوفّر لك الصوف في الربيع القادم، وسيولد منه حمل، وسيكون بوسعك أكله، إن شئت. ولكنّ مقايضة المال بالمال هو مخالفٌ للطبيعة، مخالفٌ للمنطق، شيطانيّ. كلّ ما يُشتمّ منه رائحة الصيرفة، والصرافة، والحسم، والربى هو خزيٌ سرّيّ منفّر طالما أرعب نفوساً بسيطة، أعني نفوساً نظيفة وعميقة. إنّ الفلاّح الذي يبذر الحبّ، والخيّاط الذي يفصّل الثوب، والنسّاج الذي ينسج الصوف والكتّان، يستحقّون، إلى حدٍّ ما، ربحهم، لأنّهم يضيفون شيئاً إلى الأرض، وإلى القماش، وإلى الصوف. ولكن أن تلد أكداسُ من العملات مزيداً من العملات، بلا جهدٍ ولا عمل، ومن غير أن ينتج الإنسان شيئاً مرئيّاً، يمكن الإفادة منه أو التمتّع به، فهذه فضيحةٌ تصدم كلّ خيال، وتتخطّاه. في مكدّس المال، وفي الصرّاف، وفي المصرفيّ، يتجلّى، عارياً،عبد الرُقى السحريّة الشيطانيّة. وإبليس، عرفاناً بجميل رجال المصارف والمال، يهبهم، حصراً، سيادة الأرض؛ وما انفكّ هؤلاء، حتّى اليوم، يسودون الشعوب، ويثيرون الحروب، ويجوّعون الأُمم، ويجتذبون، بحركة امتصاصٍ جهنّميّة، حياة الفقراء، وقد تحوّلت ذهباً يقطر عرقاً ودماً.

إنّ المسيح الذي يرأف بالأغنياء، ويمقت الثروة، لأنّها الحاجز الرئيس الذي يحجب رؤية ملكوت السماوات، قد كنّس مغارة اللصوص، وطهّر الهيكل، حيث سيلقّن الحقائق

الأخيرة التي ما زال يتعيّن عليه إعلانها. غير أنّه، بعمله العنيف هذا، استعدى كلّ طبقة التجّار البورجوازيّة في أورشليم. والتجّار طالبوا أسيادهم بمعاقبة هذا الرجل الذي يقوّض تجارة التلّة المقدّسة. وقد وجد رجال المال، بيُسر، آذاناً صاغية لدى رجال الشريعة، الناقمين على يسوع لأسبابٍ أُخرى، ولا سيّما وأنّه، بتعرّضه لتجارة الهيكل، قد قضى على كهنة الهيكل أنفسهم، وأضرّ بمصالحهم. فأكثر التجارات ازدهاراً كانت تخصّ أبناء حنّان، أي أقرب أقرباء رئيس الكهنة قيافا. وكلّ الحمام الذي كان يباع للنساء النفساوات، في باحة الأُمم، كان يأتي من أرز حنّان، وكان الكاهن الذي يورّد اليمام يظفر بمبلغٍ طائل، كلّ شهر، والصيارفة الذين لا يحقّ لهم الإقامة داخل الهيكل، كانوا يؤدّون للأُسَر الصدّوقيّة الكبيرة التابعة للأرستقراطيّة الكهنوتيّة، نسبةً مرتفعة من آلاف الشياقل التي كان يدرّها تبديل العملات كلّ سنة. أوَ لم يكن الهيكل نفسه مصرفاً وطنيّاً كبيراً، بخزائنه الفولاذيّة المحصّنة، وصناديقه الكامنة في قاعات الكنز ؟

لقد ألحق يسوع ضربةً أليمةً بهيبة عشرين ألف كاهن في أورشليم، وبثرواتهم، وفضح قِيَم الحرف المشوّه الأعرج الذي، باسمه، كانوا يحكمون ويسمنون. وطرد شركاءهم من صيارفةٍ وباعة. وإن كُتبت له الغلبة لعمّهم الدمار. ولكنّ الطبقتين المهدّدتين اتّحدتا اتّحاداً أوثق، من أجل إزاحة الدخيل الخطر. واتّفق الكهنة والتجّار، ربّما في ذلك المساء عينه، على شراء خائنٍ وصليب، على أن تقدّم البورجوازيّة مبلغ المال القليل الضروريّ، وعلى أن يجد الإكليرُس الذريعة الدينيّة. أمّا الحكم الأجنبيّ، الحريص على إرضاء البورجوازيّة والإكليرس معاً، فسيقدّم جنوده.

و لكن يسوع، إثر خروجه من الهيكل، يمّم شطر بيت عنيا، عبر جبل الزيتون.

أفاعٍ وقبور

عندما عاد يسوع، صباح اليوم التالي. كان باعة البهائم والصيارفة لاطين، خارجاً، على مقربةٍ من الأبواب، ولكنّ الساحات كانت تضجّ بجماعاتٍ متوتّرة.

الحكم الذي نطق به ونفّذه يسوع بحقّ اللصوص الشرفاء، كان قد دوّى في المدينة الغافية. وقد كان لضربات الحبال فعل حجارة أُلقيت على وكر ضفادع. وكانت فرقعات السوط المعاقِب قد أيقظت الأغنياء والفقراء، بغتة، فانتابت هؤلاء رعشة بهجة، وطغت على أولئك موجة رعب.

و منذ الصباح الباكر تقاطر الجميع مصعّدين نحو المكان العالي، من الأزقّة الظليلة، ومن البيوت الراقية، من المحترفات ومن الساحات، وقد أهمل الجميع عملهم، واستولى عليهم القلق المبهم، الذي يخامر من يتوقّع معجزةً أو انتقاماً. عمّال مياومون، ونُسّاج، وصبّاغون، وإسكافيّون، ونجّارون، كانوا، جميعهم، هناك، لأنّ جميعهم كانوا يمقتون رجال المال، الذين يجزّون فقرهم جزّ الخراف، وبرباهم كانوا يغتنون على حساب إملاقهم. وقد انضمّ إلى أولئك الكادحين منبوذو المدينة، لا بسو الأسمال الرثّة، والمقمّلون، سجناء التسوّل الأبديّ، وقد كست أجسادهم قشور البَرص، وبرزت قروحهم العارية، ونتأت عظامهم شاهدةً على جوعهم. وجاء، أيضاً، الحجّاج الغرباء، وحجّاج الجليل الذين انضووا إلى موكب يسوع المنتصر؛ والعبرانيّون القادمون من جاليات سوريّة ومصر، مزدهين بأجمل ثيابهم، كالأقرباء البعيدين الذي لا يلتقون إلاّ بمناسبة الأعياد الكبرى، في بيت الأُسرة.

وها هم يصعدون، أيضاً، أفواجاً من أربعة أو خمسة، الفرّيسيّون والكتبة، أولئك الإخوة الجديرون بعضهم ببعض. الكتبة هم علماء الشريعة، والفرّيسيّون متزمّتو الشريعة. معظم الكتبة كانوا فرّيسيّين، وكثيرون من الفرّيسيّين كانوا كتبة. تخيّلوا أستاذاً يضيف إلى ادّعاء العلم تقوى المتحذلقين، أو متزمّتاً في الدين مصاباً بعجرفة معلّمٍ يُصدر الفتاوى، تتكوّن لديكم صورةٌ حديثة للكاتب الفرّيسيّ... وفي ذلك الصباح صعدوا إلى الهيكل، مفعمين صَلَفاً، يطوون صدورهم على أسوأ النوايا، يسيرون مزهوّين، متلفّعين بمعاطفهم الطويلة، المتأرجحة الأهداب، بصدورٍ منتفخة، وبآنافٍ قلقة مرتعشة، وبخطوات تنمّ عن مهابة الزعماء المحظيّين من اللّه، وعن استنكارهم.

و كان يسوع الواقف وسط آلاف الأنظار التي تعكس له قسطاً من نوره، ينتظرهم. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يراهم فيها، متحلّقين من حوله. فلكم من مناوشاتٍ نشبت بينه وبين فرّيسيّي المناطق. هنا وهناك، عبر البلاد كانوا فرّيسيّين أولئك الذين طالبوا بإشارة من السماء دليلاً فائق الطبيعة على مسيحانيّته، فالفرّيسيّون، على نقيض الصدّوقيّين الريّابين، الغارقين في إيبقوريّتهم الشرعيّة، كانوا يؤمنون بمجيء المخلّص الوشيك، بيد أنّ الفرّيسيّين كانوا يرون المسيح شبيهاً بهم، متشدّداً في تطبيق الشريعة؛ بل كانوا يظنّون أنّهم، كي يكونوا جديرين باستقباله، حسبُهم أن يحافظوا على نظافتهم الخارجيّة، وأن يتحاموا مخالفة أدنى وصيّة كتابيّة، إذ إنّ المسيح، ابن داود، لن يتنازل إلى خلاص من لم يكن شديد الحرص على تجنّب أيّ اتّصالٍ بالوثنيّين، ومن يكون قد خالف أصغر وصايا التطهّر الشرعيّ، ومن لم يسدّد، بدقّة، فرائض العشر، ومن لم يحترم راحة السبت بأيّ ثمن. وقد تعذّر على يسوع أن يكون، في نظرهم، هو المُنتظر الإلهيّ، إذ لم تنبئ به أيّة إشارة سحريّة، فهو قد اقتصر على شفاء المرضى، والتحدّث عن الحبّ، أي، بالإجمال، اكتفى بالحبّ. وشوهد يشارك العشّارين

والخطأة طعامهم؛ وكثيرون اغتاظوا لرؤية تلاميذه لا يغسلون أيديهم قبل الجلوس إلى مائدة الطعام.

غير أنّ الأسوأ، الأمر المريع، الفضيحة التي لا تطاق، كانت مخالفته لراحة السبت، إذ لم يتحرّج من إجراء الأشفية في أيّام السبت؛ ولم يكن يرى خطأ في إغاثة إخوته البائسين في ذلك اليوم، لا بل إنّه افتخر بذلك، وتجرّأ فجدّف، معلناً أنّ السبت وُجد من أجل الإنسان، ولم يوجد الإنسان من أجل السبت.

شكٌّ واحد كان يخامر أذهان الفرّيسيّين : هل يسوع واهن العقل أمّ إنّه محتال ؟ ولكي يمتحنوه طالما سعوا إلى إيقاعه في شراكٍ لاهوتيّة، أو أحابيل جدَليّة، ولكنّ محاولاتهم باءت بالفشل. وطالما هو ظلّ متشرّداً في الأرياف، جارّاً وراءه بضع عشرات من القرويّين، تركوه وشأنه، موقنين بأنّ آخر هؤلاء الصعاليك سيتركه، يوماً، خائباً. ولكن ها إنّ الأمور تتّخذ منحىً خطيراً. فيسوع هذا، تواكبه عصابةٌ من الفلاّحين المخمورين، استباح دخول الهيكل وكأنّه سيّده. لقد خدع أولئك الجهلة المساكين كي يُحيّوا فيه المسيح. وفضلاً عن ذلك اغتصب دَوْر الكهنة، ولكي يظهر بمظهر الملك، طرد، طرداً مخزياً، تجّاراً شرفاء، أشخاصاً وَرِعين معجبين بالفرّيسيّين، لا بل متمثّلين بهم في كلّ شيء. حتّى ذلك اليوم، لم يُظهر الفرّيسيّون والكتبة سوى التساهل والرأفة حياله. ولكن، بعد اليوم، ستكون الطيبة المنقطعة النظير لدى أولئك المعلّمين المغرقين في الإنسانيّة، في غير محلّها، بل ستكون خيانة. فالفضائح، والتدنيس المتكرّر، والتحدّي العلنيّ، تقتضي عقاباً وانتقاماً. وعلى المسيح الزائف أن يُزال، في الحال. وكان الكتبة والفرّيسيّون يتسلّقون التلّة كي يتأكّدوا أنّ القحة لم تبلغ به حدّ العودة إلى ذلك المكان الذي أشاع فيه عدوى تبجّحه.

و كان يسوع هناك، ينتظرهم، وسط حشد الحجّاج المتموّج. كان يبتغي أن يقول لهم، أمام الجميع، وتحت شهادة الشمس الفاضحة، رأيه فيهم، وأن يعلن لهم حقيقتهم النهائيّة. بالأمس كان سوطه قد أدان باعة البهائم، وتجّار العملة المحتالين، وقد جاء، اليوم، دور تجّار الكلام، ومرابي الشريعة، وصرّافي الحقيقة. ولكنّ ذلك اليوم لم يكن يوم القضاء عليهم، فهم ما انفكّوا، في كلّ جيل، يتكاثرون، وينتحلون أسماء جديدة. ولكنّهم، أينما وُلدوا، وحيثما سادوا، ستظلّ الإدانة مطبوعة على وجوههم، لا تُمحى.

أبناء أخي قايين

" الويل لكم أيّها الكتبة والفرّيسيّون المراؤون "

قد تُختزَل خطيئتكم في واحدة، ولكنّها الأكثر نفثاً للسمّ، والأقلّ قابليّة للغفران: الخطيئة بحقّ الروح، إهانة الحقيقة، خيانة الحقيقة والروح؛ هدر الثروات النقيّة الوحيدة التي يمتلكها العالم. اللصوص يسلبون خيراتٍ معدّةً للاستهلاك، والقتلة يميتون أجساداً آيلة إلى فناء، والبغايا يدنّسنَ أجساداً مصيرها التفسّخ. أمّا المراؤون، الفرّيسيّون، فيدنّسون أقوال المطلق، ويسلبون وعود الأبديّة، ويقتلون النفوس. كلّ شيء فيهم خداع : اللباس والخطاب، التعليم والممارسة. أقوالهم تنكرها أفعالهم، وباطنهم لا يتوافق مع ظاهرهم، وقذارتهم السرّيّة تكذّب كلّ مقتضياتهم، وتبطلها. مراؤون لأنّهم يلقون أحمالاً باهظة على كواهل الآخرين، ثمّ لا يرفعون إصبعاً واحدة لمؤازرتهم. مراؤون لأنّهم يتلفّعون بالمعاطف الطويلة المطرّزة، والعصائب العريضة، لكي ينتزعوا احترام الناس في الساحات العامّة، ولكي يُدعوا معلّمين، في حين أنّهم خبّأوا مفتاح المعرفة، وأوصدوا أبواب ملكوت السماوات، حيث لا يستطيعون أن يَدخُلوا ولا أن يُدخِلوا أحداً. مراؤون لأنّهم يطيلون الصلوات على مرأى الجميع، ثمّ يلتهمون بيوت الأرامل، ويستغلّون المستضعفين والمنبوذين. مراؤون لأنّهم ينظّفون ويغسلون ظاهر الصحاف والكؤوس، وهم في داخلهم مملوؤون نهباً، وشراهة، ورجساً. مراؤون لأنّهم يحرصون على دقائق الطقوس، والوضوء، ولا يكترثون بالجوهريّ؛ يصفّون البعوضة ويبتلعون الجمل. مراؤون لأنّهم يراعون أصغر الوصايا، ويهملون الخطير منها. فهم يؤدّون العشر عن النعناع، والشبث، والكمّون، ولكنّهم خالون من العدل، والأمانة، والرحمة. مراؤون لأنّهم يقيمون نُصُباً للأنبياء، ويكرّمون قبور الصالحين الأقدمين، ولكنّهم يضطهدون الأبرار الأحياء، ويتأهّبون لقتل الأنبياء. " أيّها الحيّات، ونسل الأفاعي، كيف تفلتون من دينونة جهنّم ؟ من أجل ذلك، ها أنذا أرسل إليكم أنبياء، وحكماء، وكتبة، فمنهم من تقتلون وتصلبون، ومنهم من تجلدون في مجامعكم، وتطاردون من مدينةٍ إلى مدينة، لكي يقع عليكم كلّ دمٍ زكيّ سُفك على الأرض، من دم هابيل الصدّيق إلى دم زكريّا بن برخيا الذي قتلتموه بين المقدس والهيكل! "

إنّهم ورثة قايين، وذرّيّته، وأبناء أخيه، ذابحو إخوتهم، وجلاّدو القدّيسين، وصالبو الأنبياء. ومثلما فعل بقايين، دمغ الله وجوههم بعلامة، علامة الخلود المغلّفة بالسرّ. فهم لا يُقتلون لأنّ على أيديهم أن تقترف القتل. بفضل هذه العلامة نجا قاتل أخيه الأوّل.

وعبر جميع الأجيال سينجو الفرّيسيّون القتلة، لأنّ اللّه يريد استخدامهم من أجل مرامي عدله السامية، التي تبدو حمقاً وجنوناً، في عيون الضعفاء الكليلة.

إنّ قراراً أبديّاً، لا يستطيع معظم الناس استجلاء سرّه، يفرض أشنع ميتة على مقلّدي الله.

ولكنّ الإنسان البسيط لا يقوى على قتل القدّيس، ولا يستطيع، كذلك، الخاطئ، تلك اليرقة العجيبة التي قد تخرج منها قداسةٌ محتملة. ولا يقوى القدّيس على قتل قدّيس، إذ إنّه، بذلك، يفقد قداسته، بقتله الأخ الوحيد الذي وهبه اللّه إيّاه. وبالتالي خُلق، من أجل كلّ العصور وجميع الشعوب، جنس الفرّيسيّين الذي لا يفنى، جنس الذين لم يعهدوا، يوماً، بساطة الطفل، ولا سبيل الخلاص؛ الذين ليسوا خطأة، في نظر الجسد، ولكنّهم، من رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم، تجسيدٌ لأحقر خطيئة؛ الذين يرغبون في الظهور بمظهر القدّيسين ولكنّهم يمقتون القدّيسين الحقيقيّين. إلى هؤلاء، إلى تلك الأدوات المؤهّلة لمجزرة رهيبة حتميّة، أوكل الله دور جلاّدي الكاملين. وقد أخلصوا لمهمّتهم، وصمدوا صمود ساكني جهنّم الأصليّين، ودُمغوا مثل قايين، وخلّدوا خلود الرياء والشراسة، واستمرّوا في الوجود إثر اندثار جميع الإمبراطوريّات، وتفتّت كلّ الممالك. بوجوهٍ مختلفة، وأزياء متنوّعة، وتحت قوانين وحجج متباينة، غزوا العالم، كثيري الإنجاب، صامدين حتّى اليوم. وعندما تعذّر عليهم القتل بالمسامير والنار، بالفأس والمدية، استخدموا، بنجاحٍ فائق، اللسان والقلم.

و إذ كان يسوع يكلّمهم، هكذا، في ضوء الساحة الساطع، حيث تراصّ الشهود، كان يدرك أنّه يخاطب حكّامه، والذين سيكونون صانعي موته الحقيقيّين، ومنذ ذلك اليوم بُرّر صمته حيال قيافا و بيلاطس. لقد أدانهم وسيدينونه. لقد كان البادئ بإصدار الحكم فيهم، ولن يكون لديه ما يضيفه، عندما يقرّرون محاكمته.

عندما يحدّثهم عن ذواتهم تتوارد على شفاهه صُور الموت: أفاعٍ وقبور. الحيّات السوداء التي تدفعها خيانتها إلى سكب سمّها الخفيّ على من تمسّه. والقبور المبيّضة، ظاهريّاً، والمليئة، في الداخل، تعفّناً كريهاً.

هؤلاء الفرّيسيّون، وكلّ ذرّيّتهم الشرعيّة، يختبئون في ظلّ الأموات كي يُعدّوا سمومهم. إنّهم باردون كالصقيع، مثل جلد الأفاعي، ومثل حجارة القبور : ولن يفلح، يوماً، في إدفائهم، لا نار الشمس، ولا نار الحبّ، ولا نار جهنّم. إنّهم يعرفون الكلمات كلّها، ما خلا كلمة الحياة.

" الويل لكم، أيّها الكتبة والفرّيسيّون المراؤون، لأنّكم تشبهون القبور الدارسة، يطؤها الناس ولا يدرون ". وحده يسوع يعرف، ولذلك لن يمكث أكثر من يومين في اللحد الذي أعدّوه له.

حجر على حجر

كان الثلاثة عشر خارجين من الهيكل، كي يصعدوا، كما في الأيّام السابقة، إلى جبل الزيتون، وإذ بأحد التلاميذ – ربّما يوحنّا ابن سالومي الذي ما زال فتى سريع الإعلان عن إعجابه، أو، ربّما الإِسخريوطيّ الذي يجلّ الغنى – يقول ليسوع :

– أنظر إلى الأبنية الجميلة، والحجار الرائعة !

ورفع المعلّم نظره إلى الصرح العالي المكسوّ بالمرمر، الذي نصبه بذخ هيرودُس على التلّة، وأجاب :

– " أترى هذا الصرح العظيم ؟ لن يُترك فيه حجر على حجر إلاّ ويُنقَض ".

انتابت ذاك الذي كان، للحظات، يعبّر عن إعجابه، قشعريرةٌ مباغتة. ولم يقوَ أحدٌ على الإجابة، بل مضوا جميعهم، في حيرةٍ وحمق، يمضغون هذه الأقوال، القاسية على آذان يهود مادّيين، وعلى قلوب قرويّين طموحين. ذاك الذي كان يحبّهم طالما قال لهم، في الآونة الأخيرة، أقوالاً يصعب سماعها، ويصعب فهمها، ويصعب تصديقها، ولكنّهم لا يذكرون أنّهم سمعوا كلماتٍ في مثل قسوة التي تطرق آذانهم الآن. كانوا يعلمون أنّه المسيح، وأنّ عليه أن يتألّم ويموت، ولكنّهم كانوا يأملون أنّه سينهض في الحال إلى مجد انتصار داود جديد، كي يهب إسرائيل الوفرة والبحبوحة، ويمنحهم، هم، الذين كانوا له أوفياء في تشرّد البؤس والمخاطر، مكافآت السيطرة الكبرى. ولكن كان لا بدّ من أن تظلّ اليهوديّة تحكم الأرض، وتظلّ أورشليم تحكم اليهوديّة، وأن يبقى مركز السلطة هيكل الملك العظيم. ولئن كان الصدّوقيّون، والفرّيسيّون، والكتبة هم الذي يحتلّون الهيكل اليوم، فالمسيح كفيل بطردهم لإحلال تلاميذه في محلّهم. كيف يمكن، إذن، أن يُقوّض الهيكل، أثر الماضي الرائع، وقلعة الحكم المستقبليّ المرجوّ ؟

هذه الكلمات عن الحجارة كانت أقسى وقعاً من الحجارة نفسها على سمعان المدعوّ صخراً، وعلى سائر رفاقه. ألم يكن المعمدان قد قال إنّ الله قادر على أن يحوّل حجارة الأردنّ إلى أبناء لإبراهيم ؟ أوَ لم يقلْ إبليس أنّ ابن اللّه قادرٌ على تحويل حجارة الصحراء إلى أرغفةٍ من خبز الدقيق؟ ويسوع نفسه، ألم يقلْ، وهو يجتاز أسوار أورشليم، أنّ الحجارة قمينة بأن تحيّيه بهتافها، وبالأناشيد، إن أحجم البشر عن ذلك ؟ أوَ لم يُسقط من أيدي أعدائه الحجار التي جمعوها ليرجموه بها، وتلك التي كانوا يتحفّزون ليرجموا بها المرأة الزانية ؟

و مع ذلك عجز التلاميذ عن فهم خطابه بشأن حجار الهيكل. لم يشأوا ولم يستطيعوا أن يفهموا كيف يمكن لتلك الأحجار الجسيمة، التي انتُزعت بصبرٍ من الجبال، وجرّتها الثيران على مدى مسافاتٍ بعيدة، ونحتت باليد والإزميل، ونضّدها بنّاؤون ماهرون وفق أُصول الفنّ، كي تصبح أروع هيكلٍ في الوجود، تلك الحجارة الدافئة المتألّقة تحت أشعّة الشمس، كيف يمكن أن يفكّكها الدمار ثانيةً، ويحطّمها.

و ما كادوا ينتهون إلى جبل الزيتون، وما كاد يسوع يجلس قبالة الهيكل، حتّى أطلقوا العنان لفضولهم المكبوت :

– إشرح لنا متى ستحدث هذه الأمور، وما هي علامة مجيئك.

و كان جوابه الخطاب حول الأشياء الأخيرة، الخطاب الثاني على الجبل. كان قد قال حينئذٍ، في مستهلّ اعتلانه، كيف ينبغي أن يعيد المرء خلق ذاته كي يؤسّس الملكوت. والآن، وقد بات على خطوتين من الموت، علّم ما سيكون عقاب المخالفين، ومجيؤه الثاني.

هذا الخطاب الذي لم يُصغَ إليه كالآخر، ولم يحفظ، لا يجيب، كما يظنّ معظم الناس، على سؤال واحد. فالتلاميذ طرحوا سؤالين : متى سيحدث هذا الذي قلت عنه، أي دمار الهيكل ؟ وما هي علامات مجيئك ؟ وأعطى يسوع جوابين. فأعلن عن الأحداث التي ستسبق نهاية أورشليم، ثمّ وصف علامات ظهوره الثاني.

هذا الخطاب النبويّ الذي يُتلى دفعة واحدةً في الإنجيل، يتألّف من جزئين. فهناك نبوءتان منفصلتان : أولاهما تحقّقت قبل أن يندثر جيل يسوع، وفي غضون أقلّ من أربعين سنة بعد موته. أمّا أيّام النبوءة الأخرى، فلم تحِن بعد، ولكن ربّما لن ينقرض هذا الجيل قبل أن تظهر بوادرها الأولى.

نعاج وتيوس

كان يسوع عليماً بوهن تلاميذه. وهن الروح، وربّما، أيضاً، وهن الجسد : فحذّرهم من خطرَيْن داهمَيْن : الكذب، والاستشهاد :

" إحذروا أن يضلّكم أحد. فإنّ كثيرين سيأتون منتحلين اسمي ويقولون : أنا هو المسيح، ويُضلّون كثيرين... حينئذٍ إن قيل لكم : هو ذا المسيح هنا، أو هناك، فلا تصدّقوا؛

فإنّه سيقوم مسحاء دجّالون وأنبياء كذبة، ويأتون بآيات عظيمة، وخوارق، يُضلّون بهـا، لـو استطاعوا، حتّى المختارين أنفسهم... "

و لكنّهم إن هم أفلتوا من شراك المسحاء الدجّالين، إلاّ أنّهم لن ينجوا من اضـطهادات أعداء المسيح الحقيقيّ. " حينئذٍ سيسلمونكم إلى قبضة الضيق، ويقتلونكم، ويبغضكم جميع الأمم من أجل اسمي... وسيلقون الأيدي عليكم، ويضطهدونكم، ويدفعونكم إلى المجامع والسـجون، ويسوقونكم إلى الملوك والولاة من أجل اسمي... وسيسلمكم حتّى الوالدون والإخوة والأقرباء، والأصدقاء أنفسهم، ويقتلون كثيرين منكم. وسيبغضكم الجميع من أَجل اسمي. ولكنّ شعرةً من رؤوسكم لن تهلك، فإنّكم، بثباتكم، تكتسبون الحياة... ومن يصمد إلى المنتهى يخلص. "

و حينئذٍ تشرع تظهر علامات العقاب القريـب : "و ستسـمعون بحـروبٍ، وبأنبـاء حروب. انظروا ! لا تجزعوا، فإنّه لا بدّ من أن يكون هذا. ولكن لا يكون المنتهـى إذ ذاك. فإنّها ستقوم أمّة على أمّة، ومملكة على مملكة، وتكون أوبئة، ومجاعات، وزلازل، في أماكن شتّى... وتكون ظاهرات رهيبة، وعلامات عظيمة في السماء ".

هذه إنذارات أوّليّة. إنّ نظام العالم سيضطرب. والأرض التي يسودها السلام ستشـهد قيام الإنسان على الإنسان، والشعب على الشعب. والأرض نفسها التي خضّبتها الدماء، ستقوم على البشر، وستهتزّ تحت أقدامهم، مدمّرةً البيوت، متقيّئةً الرماد، ولكأنّها، من فوهات جبالها، تلفظ كلّ أمواتها، وتحرم قاتلي إخوتهم حتّى ذلك الطعام الذي يصفرّ، كلّ صيف، في الحقول.

و حينئذٍ، عندما يتحقّق كلّ شيء، سيحلّ العقاب بالشعب الذي أبى أن يولد ثانيةً فـي يسوع، وأن يتقبّل البشارة، وبالمدينة التي تقتل الأنبياء، وتصلب ربّها على الجلجلة، وتضطهد شهودها.

" وإذا رأيتم أورشليم، وقد أحاقت بها الجيوش، فاعلموا، حينئذٍ، أنّ خرابها قـد بـات وشيكاً... ومتى رأيتم رجاسة الخراب، التي قيل عنها بدانيال النبيّ، قائمةً في المكان المقدّس، فحينئذٍ، الذين في اليهودية، فليعتصموا بالجبال، والذين في المدينة فليخرجوا منها، والذين فـي الحقول فلا يدخلوا المدينة؛ ومن كان على السطح، فلا ينزل ليأخذ من بيته متاعاً، والذي فـي الحقل، فلا يرجع إلى الوراء ليأخذ رداءه. ويلٌ للحوامل والمرضعات، في تلك الأيّام! فصـلّوا لئلاّ يكون هربكم في الشتاء أو في يوم السبت، ذلك بأنّه سيكون، حينذاك، ضيقٌ شديد لم يكن مثله منذ بدء العالم حتّى الآن، ولن يكون. لأنّه سيكون ضيقٌ شديدٌ على البلد، وغضبٌ علـى هذا الشعب. فيسقطون بحدّ السيف، ويُسبَوْن إلى جميع الأمم. وتدوس الأمم أورشليم إلـى أن تنقضي أزمنة الأمم ".

انتهت النبوءة الأولى. ستؤخذ أورشليم وتدمّر، ومن الهيكل الذي ستدنّسه رجاسة الخراب لن يبقى حجر على حجر. ولكنّ يسوع لم يقل، بعد، كلّ شيء : فهو لم يتكلّم عن مجيئه الثاني.

"سيدوس الأمم أورشليم إلى أن تنقضي أزمنة الأُمم ". ما هي أزمنة الأمم هذه ؟... إنّها الأزمنة المهيّأة، الملائمة، المناسبة للأمم الوثنيّة، وبعبارةٍ أُخرى، هي الأزمنة التي سيعتنق فيها غير اليهود الإنجيل، الذي بُشّر به اليهود أوّلاً. ولذلك لن تكون النهاية الحقيقيّة، طالما لم تبلّغ الرسالة إلى جميع الأمم.

مجيء المسيح الثاني هو نهاية هذا العالم، وبدء العالم الحقيقيّ، والملكوت الأبديّ. نهاية اليهوديّة أُعلن عنها بعلامات بشريّة وأرضيّة؛ أمّا النهاية الأخرى فستسبقها علامات سماويّة وإلهيّة. " تظلم الشمس، ويفقد القمر ضوءه، وتتساقط النجوم من السماء، ويحلّ على الأرض كربٌ للأمم، وهلعٌ من عجيج البحر وجيشانه. وتزهق نفوس الناس من الذعر، في انتظار ما سيأتي على المسكونة؛ لأنّ قوّات السماوات ستتزعزع. وحينئذٍ تظهر في السماء إشارة ابن الإنسان قادماً على الغمام بملء القدرة والمجد "

من أجل نهاية أورشليم، وحدها الأرض الصغيرة رزئت. ولكن من أجل النهاية الشاملة ستضطرب السماء. وسط الظلمة الكبيرة المفاجئة، لن يُسمع سوى دويّ المياه، وصيحات الرعب. إنّه يوم الربّ، يوم غضب الربّ، الذي تنبّأ به، في زمانهم: حزقيال، وإرميا، وأشعيا ويوئيل : " يوم الربّ قريب وسيأتي مثل عاصفة يرسلها الكلّيّ القدرة. يوم ظلمةٍ وليلٍ صفيق... الأرض التي كانت، عند مجيئه، فردوس ملذّات، تركها مدمّرة قفراء... سينتاب البشر الكرب، وسترتدي وجوهم لون التراب. سترتخي سواعدهم، وترتعد قلوبهم. سيُحطَّم البشر، وستستولي عليهم الهموم والآلام؛ سيتألّمون كالنساء في المخاض، وكالحمقى سينظر كلّ منهم في وجه جاره... هوذا يوم الربّ يأتي، يوم غضبٍ ونقمة، يوم سخطٍ وهيجان، من أجل تحويل الأرض إلى قفر، وطرد الخطأة منها. نجوم السماء الرائعة فقدت نورها واسودّت، وستعتّم الشمس عند إشراقها، ولن يعطي القمر ضوءاً. وستُطوى السماوات كالكتاب، وسيسقط جندها مثل أوراق الكرمة أو التينة ".

هذا هو يوم الآب، يوم ظلمةٍ في السماء، ويوم رعبٍ على الأرض. ولكن، في الحال سيشرق يوم الابن. وهو لن يظهر في صدر زريبة، ولكن في أعالي السماء، ولن يظهر بائساً خفيّاً، ولكن في قدرة مجده وبهائه. " وسيرسل ملائكته فيجمع مختاريه من مهابّ الريح الأربعة، من أقصى الأرض إلى أقصى السماء". وعندها سيستيقظ جميع الراقدين في القبور، وسيبدأ الفرز الحتميّ : "ومتى جاء ابن البشر في مجده، وجميع الملائكة معه، فحينئذٍ يجلس

على عرش مجده، و يُحشَر لديه جميع الأُمم، فيفصل بعضهم عن بعضٍ، كما يفصل الراعي الضأن عن المعز، ويجعل الضأن عن يمينه، والمعز عن شماله.

" حينئذٍ يقول الملك للذين عن يمينه: "تعالوا، يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ إنشاء العالم، لأنّي جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، وعرياناً فكسوتموني، وكنت مريضاً فعدتموني، ومحبوساً فأتيتم إليّ " . حينئذٍ يُجيبه الصدّيقون قائلين: "يا ربّ، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشانَ فسقيناك، ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أوعرياناً فكسوناك، ومتى رأيناك مريضاً فعدناك، أو محبوساً فأتينا إليك؟" فيجيب الملك ويقول لهم: "الحقّ أقول لكم إنّ كلّ مرَّة صنعتم ذلك إلى أحد هؤلاء الصغار، الذين هم إخوتي، فإليّ قد صنعتموه".

"حينئذٍ يقول للذين عن شماله: "اذهبوا عنّي، أيّها الملاعين، إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكته: لأنّي جعتُ فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، وكنت غريباً فلم تؤووني، وعرياناً فلم تكسوني، وكنت مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني". حينئذٍ يجيبون، هم أيضاً، ويقولون: "يا ربّ، متى رأيناك جائعاً أو عطشانَ، غريباً أو عرياناً، مريضاً أو محبوساً، ولم نخدمك؟" حينئذٍ يجيبهم قائلاً: "الحقّ أقول لكم إنّكم كلّ مرَّةٍ لم تصنعوا ذلك إلى أحد هؤلاء الصغار، فإليّ لم تصنعوه".

"فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبديّ، والصدّيقون إلى الحياة الأبديّة".

حتّى في أوج مجده، كديّان اليوم الأخير، لا يذهل يسوع عن الفقراء والبائسين الذين أحبّهم حبّاً جمّاً في أثناء مجيئه الأوّل. إنّه حريصٌ على الظهور، وكأنّه واحدٌ من أولئك الصغار الذين يتسوّلون عند الأبواب، والذين يزدريهم الكبار. لقد كان، على الأرض، ذاك الذي جاع إلى الخبز والحبّ، وعطش إلى الماء والاستشهاد؛ الذي كان غريباً في بلده، ولم يعرفه إخوته؛ الذي عري كي يُكسي العراة؛ كان المبتلى بالحزن والكرْب، ولم يُعزِّه أحد؛ الذي سُجن في سجن الجسد الزريّ، وفي سجن الأرض الضنك. كان الجائع الإلهي إلى النفوس، الظمئ إلى الإيمان، الغريب القادم من وطنٍ لا يوصف، العاري تحت العصيّ والبصاق، المصاب بجنون الحبّ المقدّس. وهو، اليوم، لا يفكّر في ذاته أكثر ممّا كان يفكّر عندما كان بين البشر.

مبدأ خياره لا يحمل سوى عنوان واحد: "الرحمة". فطيلة الوقت الممتدّ بين مجيئه الأوّل ومجيئه الثاني، ظلّ يحيا في شكل الفقراء والحجّاج، المرضى والمستشهدين، المشرّدين والعبيد. وهو، الآن، يفي ديونه. فأعمال الرحمة التي قدّمت " للصغار "، قدّمت له، وسيؤدّي المكافآت باسم الجميع. والذين أبوا استقباله عندما ظهر في أجساد البؤساء التي يتعذّر إحصاء عديدها، سيدانون بعذاب أبديّ، لأنّهم، بطردهم البائس، طردوا اللّه؛ وبإمساكهم الماء والخبز

والرداء عن الفقير، جعلوا ابن اللّه يعاني الظمأ والجوع والبرد. الآب لا يحتاج إلى عـونكم، لأنّ كلّ شيء لـه، وهو يحبّكم حتّى عندما تلعنونه. ولكن ينبغي أن يُحَبّ الآب في شـخص أبنائه. والذين رفضوا إرواء العطشان، سيعطشون إلى الأبد؛ والـذين لـم يكسـوا العريـان سيقاسون النار أبديّاً؛ والذين لم يؤاسوا السجين سيكونون سجيني جهنّم أبديّاً؛ والذين لم يرحّبوا بالغريب، لن يُرحَّب بهم في السماء إلى الأبد. وأسنان الذي لم يغِث المحموم سستصطكّ بحمّى أبديّة.

الفقير العظيم، في يوم مجده، سيجازي كلّ إنسان، الجزاء العادل، بغناه اللامحـدود. وحينئذٍ ستأهل السماء العارية بشموسٍ أُخرى أشدّ سطوعاً، وستتألّق النجوم بألقٍ أكثر سنىً في السماء، وستكون سماءٌ جديدة، وأرضٌ جديدة؛ ولن يحيا القائمون من الموت، كما نعيش، فـي هذه الدنيا، على غرار البهائم، بل سيحاكون الملائكة.

كلمات لن تزول أبداً

متى ستحدث هذه الأشياء ؟ نحن نعرف علاماتها، ولكن متى ستظهر ؟ هل سـنكون، حينئذٍ، ما زلنا أحياء تحت الشمس، أم إنّ أحفاد أحفادنا سينتظرونها عندما لن نكـون سـوى رمادٍ في بطن الأرض ؟

حتّى النهاية ظلّ الاثنا عشر مغلقين مثل اثني عشر حجراً. الحقيقة إلى جانبهم، ولكنّهم لا يرونها. والنور وسطهم، ولكنّه لا ينفذ إليهم. ويا ليتهم كانوا، من الحجار، الماس الذي يقسّم الأشعّة التي تلمسه إلى انعكاسات عديدة. ولكنّها حجارٌ خاميّة، انتُزعت، للتوّ، من ظلّ المناجم، حجارٌ صمّاء، كتيمة، قد تبعث فيها الشمس شيئاً من الفتور، ولكنّها لن تحرقها؛ حجـارٌ قـد تستضيء من الخارج، ولكنّها لا تعكس السنى. لم يدركوا، بعد، أنّ يسوع ليس عرّافاً سـوقيّاً، من تلاميذ الكلدانيّين، وأنّ لا عهد له بتبجّحات المنجّمين المعتدّة. لم يدركوا أنّ نبوءةً لأجـلٍ محدّد، لن تكون ذات جدوى فوريّة، كفيلة بفرض إصلاحٍ يقتضي من البشرسهَراً دائماً، وربمّا لم يعوا جيّداً أنّ نبوءة بستان الزيتون المنبئة بنهاية العالم،هي نبوءة مزدوجة، تتعلّق بحـدَثَيْن متميّزين، و بعيدَيْن أحدهما عن الآخر. أولئك الصيّادون القرويّون الذين يعدّون البحيرة بحراً، ويعدّون اليهوديّة هي العالم كلّه، ربّما خلطوا بين نهاية الشـعب العبـريّ، ونهايـة الجـنس البشريّ، بين عقاب أورشليم، ومجيء المسيح الثاني. ولكنّ خطابات يسوع، وإن هي كانـت موحّدة في الأناجيل الإزائيّة، تُبرز نبوءتَيْن متميّزتَيْن، واستحقاقَيْن رئيسيَّيْن. النبوءة الأولـى تعلن نهاية الملك اليهوديّ، وعقاب أورشليم، ودمار الهيكل؛ أمّا الثانية فتنبـئ بنهايـة العـالم

القديم، وبظهور يسوع مجدّداً، وبمحاكمة الرحومين والذين لا رأفة فيهم، وبمبدأ الملك الجديد. الاستحقاق الأوّل قريب – لن يمضي هذا الجيل قبل أن تتحقّق هذه الأشياء – ولكأنّه استحقاقٌ محلّيّ ومحدود، وهو لا يهمّ سوى العالم اليهوديّ، ولا سيّما حاضرته. عن النبوءة الثانية نجهل ساعتها ويومها، إذ إنّ بعض أحداثٍ، بطيئة الحدوث ولكنّها ضروريّة، ينبغي أن تسبق النهاية التي ستكون، على نقيض الأخرى، شاملة. الأولى تحقّقت، حرفيّاً، أقلّ من أربعين سنة بعد الصلب، عندما كان كثيرون ممّن عرفوا يسوع ما يزالون على قيد الحياة. أمّا المجيء الثاني، المنتصر، الذي نذكره يوميّاً حتّى اليوم، في قانون الإيمان، فما برح ينتظره الذين يؤمنون بما قيل، يوماً: " السماء والأرض تزولان وكلامي لن يزول ".

لم تمضِ سوى سنواتٍ معدودات على موت يسوع، عندما شرعت تظهر علامات النبوءة الأولى. فقد غصّت اليهوديّة بالأنبياء الكذبة، والمسحاء الكذبة، والتلاميذ الزائفين، وقد خرجوا خروج الأفاعي من جحورها عند اشتداد القيظ. فقبل نفي بُنطس بيلاطس ظهر في السامرة دجّالٌ وعد بالعثور على أواني الهيكل المقدّسة التي دفنها موسى في جبل جرزّيم. وكان السامريّون يعتقدون أنّ استخراج هذه الآنية هو تبشير بمجيء المسيح. وتألّفت عصابةٌ مسلّحة، مهَدّدة، على الجبل، حيث بدّدتها السيوف الرومانيّة. وتحت حكم كوسبيُس فادُس، الوالي الذي حكم بين عامي 44 و66، نهض المدعوّ " تودا " مدّعياً أنّه شخصيّة عظيمة ووعد بالمعجزات. واتّبعه أربع مئة رجل، ولكن قُبض عليه، وقُطع رأسه، وأبيد الذين آمنوا به. وبعده برز يهوديّ من مصر، استطاع لمّ أربعة آلاف يائس من حوله، وخيّم في جبل الزيتون، معلناً أنّ أسوار أورشليم ستنهار بإشارة منه. وقد هاجمه الوالي فيلكس وأكرهه على الهرب إلى الصحراء. في أثناء ذلك، كانت تتعاظم، في السامرة، شهرة سمعان الساحر، الهزيل، الذي كان يفتن الشعب بالشعوذات والخوارق مدّعياً أنّه قدرة اللّه. وقد آمن به الجميع. ولمّا شهد سمعان هذا عجائب بطرس، أراد اعتناق المسيحيّة، ظانّاً أنّ الإنجيل ليس سوى واحد من الأسرار الشرقيّة العديدة، وأنّه يكفي الإلمام بمبادئه لاكتساب قدراتٍ جديدة. ولمّا رفضه بطرس، أصبح أَبا الهرطقة... وكثر أصحاب الشِّيع والبدَع... وقد حذّر الرسول بولس، في رسالته إلى تيموثاوس، من هيميناوُس، وفيلينُس والإسكندر، الخدّاعين المموّهين بهيئة تلاميذ المسيح، الذين كانوا يشوّهون الحقيقة، وينشرون بذور البِدَع في الكنائس الأولى...

العلامة الثانية لم تتلكّأ: فما إن شرع التلاميذ يبشّرون بالإنجيل في أورشليم، حتّى زُجّ ببطرس ويوحنّا في السجن، وأُمرا بألاّ يأتيا على ذكر اسم يسوع، وبعد أن أُفرج عنهما، قُبض عليهما ثانية، وسُجِنا. واستفانُس، وهو أحد أكثر المرتدّين الجُدد اندفاعاً، اقتاده الكهنة إلى خارج المدينة ورجموه. وتحت حكم أغريبا تجدّدت الاضطهادات : ففي عام 42 أَعدم سليل هيرودُس، بحدّ السيف، يعقوب الكبير، أخا يوحنّا. وللمرّة الثالثة زُجّ ببطرس في السجن. وعام

62 قُذِف بيعقوب البارّ، المدعوّ أخا الربّ، من شرفة الهيكل، وأُجهز عليه بالرجم. في عام 50 كان كلوديُس قد طرَد من روما اليهود المسيحيّين؛ وفي عام 58، بمناسبة ارتداد بومبونيا غريشينا، أُعلنت الحرب على المرتدّين إلى المسيحيّة في عاصمة الإمبراطوريّة. وعام 64، وفّر حريق روما، الذي ابتغاه ونفّذه نيرون، الذريعة للاضطهاد الأوّل الأكبر؛ واستُشهد عددٌ لا يحصى من المسيحيّين في روما وفي المناطق. فصُلب كثيرون، وآخرون جُعلوا مشاعل حيّة أضاءت نزهات قيصر الليليّة؛ وكثيرون أُلبسوا جلود حيوانات، وقُدِّموا طعاماً للكلاب، وكثيرون، أخيراً، أُكرهوا على لعب أدوار في مهازل جهنّميّة، وقضوا نحبهم في المسارح تحت أنياب الأسود.... بطرس صُلب، ورأسه إلى أسفل، وبولس أنهى، تحت الفأس، حياةً لم تكن، منذ ارتداده، سوى سلسلةٍ من الشدائد والآلام. وكان، عام 57، عشر سنوات قبل موته، قد جُلد خمس مرّات من قِبَل اليهود، وضُرِب بالعصيّ، من قِبَل الرومانيّين، ثلاث مرّات، وسُجن سبع مرّات، وغرق ثلاث مرّات، وفي ليسترة رُجم حتّى ظُنّ ميتاً. وتعرّض معظم التلاميذ إلى مصيرٍ مماثل. فاستُشهد توما في الهند، وصُلب أندراوس في باتراس، وبرتلماوس في أرمينيا. وعلى الصليب أيضاً، على غرار معلّمهما، لقي سمعان، وماتياس نحبهما.

و لم تغب الحروب، وإشاعات الحروب، فعندما أُميت يسوع، كان سلام أوغسطس مازال سائداً المسكونة. ولكن، سرعان ما شوهد قيام شعبٍ على شعب، وأمّةٍ على أمّة... وواكب الرزايا التي أعلنها يسوع اهتزاز الإمبراطوريّة. لقد انتحب كاليغولا المجنون إذ لم يكن يحدث شيءٌ مريع إبّان حكمه؛ وكان يتمنّى المجاعات، والأوبئة، والزلازل. وإن لم تلَبّ، في الحال، تمنّيات ذلك الفاسق المصاب بالصرع، إلاّ أنّ عهد كلوديُس شهد سلسلةً من السنوات العجاف التي أشاعت المجاعة في روما. وفي عهد نيرون اقترن الطاعون بالمجاعة، وسُجّل، في روما وحدها، مدى خريف واحد، ثلاثون ألف وفاة.

عام 61 و62 حدث زلزال فاهتزّت آسية، وآخائيّة، ومقدونية، وألمّت أضرار فادحة بمدن هييرابولس، واللاذقيّة، وكولوسّي. وجاء دور إيطاليا عام 63 : إذ ضرب الزلزال كلاًّ من نابولي، ونوسيرا، وبومبييي؛ وساد الرعب كلّ كامبانيا. ولكأنّ تلك الكوارث لم تكن كافية، فاجتاحت إيطاليا، بعد ثلاث سنوات، الفيضانات والأعاصير، التي، بقضائها على المواسم، ضاعفت تهديدات المجاعات. وفيما كان " غالبا " يدخل روما، دوّت الأرض دويّاً مريعاً، واهتزّت تحت قدميه. لقد تحقّقت النبوءات، وأذنت ساعة عقاب اليهوديّة.

الزلزال الذي ضرب أورشليم يوم جمعة الجلجلة، كان إيذاناً بالاضطرابات اليهوديّة. فشعب قاتلي الآلهة لم يعهد السلام – سلام الهزيمة والعبوديّة – حتّى اليوم الذي لم يبقَ فيه، من الهيكل، حجرٌ على حجر...

كانت نبوءة دانيال المتعلّقة برجس الدمار، والتي ذكّر بها المسيح، قد أخذت تتحقّق عندما دنّس انطيوخس ايبيغانُس الهيكل، بوضعه تمثال جوبيتير الأولمبيّ، فيه. وفي العام 39، كان كاليغولا المجنون، الذي أعلن نفسه إلهاً، وأمر أن يُعبد، بصفته هذه، في أماكن عديدة، وأوعز إلى الوالي بترون بنصب التمثال الإمبراطوريّ في حَرَم الهيكل. ولكنّه لقي حتفه قبل أن يُنفّذ أمره. بيد أنّ أنماطاً أخرى من التدنيس كانت تجول في فكر يسوع. فالمكان المقدّس، قد احتلّه الخنجريّون، إبّان الثورة الكبرى، فأصبح ملاذاً للقتلة، وتدفّقت الدماء في الأروقة المهيبة، ومنها دماءٌ كهنوتيّة. وكذلك سيمت المدينة المقدّسة رجس الخراب عندما جاء سيستيُس غالوّس، في أيلول 66، على رأس أربعين ألف رجل، كي يقمع المتمرّدين، فخيّم حول أورشليم، رافعاً الشعارات الأمبراطوريّة التي كان اليهود يمقتونها، بصفتها نُصُباً وثنيّة، والتي أحجم الأباطرة، حتّئذٍ، عن إدخالها إلى المدينة، تعبيراً عن تسامحهم.

و لكن، إذ لقي سيسيتُس غالّس من المقاومة أكثر ممّا توقّع، انسحب، وبدا انسحابه فراراً، ممّا أثلج قلوب المتشدّدين اليهود الذين رأوا في هذا النصر علامة حمايةٍ إلهيّة. وفي تلك الحقبة، بين الهجوم الأوّل والهجوم الثاني، عندما أحاق تدنيسٌ مزدوج بالمدينة وبالهيكل، فرّ مسيحيّو أورشليم، امتثالاً لنبوءة يسوع، إلى بيلاّ، في ما وراء الأُردنّ. غير أنّ روما أبت الاستسلام لليهود؛ فكُلّف بالحملة التأديبيّة تيطس فلافيوس فيسباسيانُس، الذي انقضّ، عام 67، على الجليل، وأخضعه. وفيما كان الرومانيّون مخلدين إلى استراحة الشتاء، التجأ إلى أورشليم يوحنّا الجيسكاليّ، أحد زعماء المتشدّدين اليهود؛ وعلى رأس عصابةٍ من الإيدوميّين، قلب الحكم الأرستقراطيّ، وأشاع في المدينة اضطراباً وسَكْبَ دماء.

و فيما كان فيسباسيانُس ماضياً إلى روما كي يتولّى الإمبراطوريّة، أوكل القيادة إلى ابنه تيطس، الذي وصل إلى أورشليم، واحتلّها، في فصح عام 70. وبدأت، حينذاك، الأيّام الرهيبة، إذ لم يتخلّ المتشدّدون، حتّى في مواجهة أقصى المخاطر، عن هياجهم المستعر، وقد انشطروا إلى فئات، وتنازعوا على حكم المدينة بقوّة السلاح. فكان يوحنّا الجيسكالي يحتلّ الهيكل، وسمعان الغيرازيّ يبسط سطوته على القسم السفليّ من المدينة؛ وكان أتباعهما يصرعون جميع من نجوا من بطش الرومانيّين. بيد أن تيطس كان مُحكماً قبضته على سورَيْن من أسوار المدينة. وفي الخامس من تمّوز استولى على قلعة أنطونيا. وأُضيفت إلى ويلات الحصار والمذابح بين الإخوة، أهوال المجاعة، التي بلغت حدّاً جعلت أمّهات يقتلنَ أبناءهنّ كي يأكلنهم، حسب رواية يوسيفُس.

و في العاشر من آب أُخذ الهيكل وأُحرق؛ ونجح المتشدّدون اليهود في الاعتصام في القسم العلويّ من المدينة، غير أنّ المجاعة أكرهتهم على الاستسلام في السابع من أيلول. وتحقّقت نبوءات يسوع، إذ دُمِّرت المدينة، بأمرٍ من تيطس، ولم يبقَ من الهيكل، الذي أتى

عليه الحريق، حجرٌ على حجر. وأُسلم اليهود الناجون من المجاعة ومن خناجر المتشدّدين إلى انتقام الجند المنتشين بخمرة النصر. والذين بقوا على قيد الحياة، نُفوا إلى مصر حيث حُكم عليهم بالعمل في المناجم. وقُتل الكثيرون منهم في المسارح لتسلية الرعاع. واقتيد أجملهم أسرى، إلى روما، لكي يشتركوا في احتفالات نصر فيسباسيانُس وتيطس. وفي روما ذُبح بعض زعماء المتشدّدين اليهود أمام نُصُب الأصنام.

" إنّني أقول لكم إنّ هذا الجيل لن ينقضي قبل أن تتحقّق كلّ هذه الأشياء ". كان ذلك في العام 70 من عهد المسيح، ولم يكن كلّ جيله قد انحدر، بعد، إلى اللحد. واحدٌ، على الأقلّ، ممّن سمعوا نبوءته على جبل الزيتون، وهو يوحنّا، كان شاهداً على عقاب أورشليم، ودمار الهيكل. ففي الموعد المحدّد، أعيد تدوين أقوال يسوع، حرفاً حرفاً، بدقّةٍ مريعة، بالدم والنار.

المجيء الثاني

النهاية الأولى، الجزئيّة، المحلّيّة، نهاية الشعب قاتل الآلهة، قد تحقّقت. ووفقاً لحكم المسيح، انتثرت حجار الهيكل بين الأطلال، وروّاد الهيكل سيموا العذاب وقُتلوا، أو شرّدوا بين الأمم.

و بقيت النبوءة الثانية، متى سيعود ابن الإنسان على غمام السماء، تسبقه الظلمة، وتبشّر به أبواق الملائكة ؟ لقد قال يسوع إنّ ما من أحدٍ يعرف يوم مجيئه هذا. وقد شُبّه ابن الإنسان ببرقٍ يسوط السماء، بغتةً، من المشرق إلى المغرب، وبسارقٍ يأتي، خلسةً، ليلاً؛ وبسيّدٍ مسافرٍ يعود، على غير موعد، كي يفاجئ خدّامه، فلا بدّ من السهر والتأهّب الدائم. تطهّروا فأنتم تجهلون ساعة مجيئه، والويل لمن لا يكون أهلاً للمثول أمامه : " فاحذروا، إذن، لئلاّ تثقُل قلوبكم في السكر والقصوف، وهموم الحياة الدنيا، فيقع عليكم ذلك اليوم بغتةً، وقوعَ الفخّ، لأنّه سيُطبق على جميع الذين على وجه الأرض كلّها. فاسهروا، إذن، وصلّوا في كلّ حين، لكي توجَدوا أهلاً للنجاة من جميع ما سيأتي، وتمثلوا وقوفاً بين أيدي ابن البشر"

... ولكنّ البشر قد نسوا يسوع ووعوده، وهم يعيشون، وكأنّ العالم سيدوم أبداً، غير مهتمّين إلاّ بمصالحهم الأرضيّة والجسديّة. وعلى حدّ قول يسوع، مثلما كان يحدث في الأيّام التي سبقت الطوفان، حيث كان القوم يأكلون ويشربون، ويتزوّجون، حتّى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، والناس سادرون في غيّهم إلى أن أطاح الطوفان بجميعهم، هكذا سيحدث لدى مجيء ابن البشر. هكذا حدث أيضاً في أيّام لوط : فقد كانوا يأكلون، ويشربون، ويشترون ويبيعون، ويغرسون، ويبنون؛ ولكن يوم خرج لوط من صادوم، هطل من السماء مطر نارٍ وكبريت أهلك كلّ الشعب. هكذا سيحدث لدى ظهور ابن البشر الثاني.

و هذا ما يحدث الآن، رغم الحروب والأوبئة التي حصدت، في سنواتٍ قليلة، ملايين الأحياء. فالقوم، اليوم، يأكلون ويشربون، ويبيعون ويشترون، ويكتبون، ويتمتّعون. ولا أحد يذكر اللصّ الإلهيّ الذي سيأتي في غفلةٍ من الجميع؛ لا أحد ينتظر المعلّم الحقّ، الذي سيظهر بغتةً، لا أحد يرقب السماء، مستبيناً هل البرق يشعلها من المشرق إلى المغرب.

إنّ ظاهر حياة الأحياء هو نومٌ مضطربٌ محموم. يبدون يقظين لأنّهم يجرون، بلا هوادة، وراء متاعٍ ليس سوى حمأة وسمّ، لا يتطلّعون إلى السماء، ولا يخشون إلاّ إخوتهم. وهم، ربّما، يتوقّعون أن يوقظهم، في الساعة الأخيرة، الأموات القدامى، الذين سيُبعَثون عند اقتراب الناهض من الموت.

غير المرغوب فيه

فيما كان يسوع يدين الهيكل وأورشليم، كان الذين يغتنون من الهيكل، وسادة أورشليم، يتأهّبون لإدانته.

جميع الذين يملكون، ويعلّمون، ويحكمون، لا ينتظرون سوى اللحظة الملائمة كي يقتلوه بلا مخاطرة. كلّ من له اسم، وكرامة، ومدرسة، وتجارة، ووظيفة دينيّة، أو ذرّة سلطة، خصمٌ له. لقد جاء كي يناهضهم، فناهضوه، وخُيّل إليهم، في حماقة من بلغوا مآربهم، أنّهم سينقذون أنفسهم بقتله. وقد غاب عنهم أنّ موته ضروريّ كي يبدأ عقابهم.

كي ندرك جيّداً البغض الذي كان يجمع طبقات أورشليم العليا على يسوع – بغض الكهنة، والعلماء، والتجّار – علينا أن نذكر أنّ المدينة المقدّسة، التي كانت، ظاهريّاً، تحيا من أجل الإيمان، كانت، واقعيّاً، تعيش من الإيمان. فهي الحاضرة اليهوديّة الوحيدة، التي يحلّ، فيها، تقديم ضحايا مقبولة، ومرضيّة، إلى اللّه القديم. ومن ثمّ كانت أمواج اليهود تصعد إليها، كلّ سنة، في أيّام الأعياد الكبرى، من الولايات الفلسطينيّة، ومن جميع أنحاء الإمبراطوريّة. لم يكن الهيكل المعبد الشرعيّ الوحيد لليهود، فحسب، ولكنّه كان، من أجل خدّامه، ومن أجل جميع العائشين في ظلّه، الضرع الكبير الذي يغذّي العاصمة بالضحايا، والتقادم، والعشور، وكان، خاصّة، يغنيها بدفق الحجّاج الدائم. وقد ذكر فلافيوس يوسيفُس أنّ المدينة كانت تحضن، في المناسبات الاستثنائيّة، حتّى ثلاثة ملاييين غريب.

السكّان المقيمون، كانوا يعيشون، طوال السنة، من حبوب الهيكل، وكانت ثروات تجّار البهائم، وأصحاب الفنادق، والصيارفة، وحتّى المهنيّين تعتمد على ثروة الهيكل. في زمن المسيح، كانت الطبقة الكهنوتيّة تعدّ، ما عدا جماعة اللاويّين العديدة، عشرين ألفاً من ذرّيّة هارون، يستمدّون دخلهم من العشور العينيّة، وضرائب الهيكل، ومن فِدى الأبكار– أبكار البشر كانوا يدفعون خمسة شواقل عن كلّ رأس –، وكانوا يتغذّون من لحوم الضحايا التي لا يُحرق سوى دهنها. إليهم كانت تُقدّم بواكير القطعان والمواسم. وحتّى خبزهم كان يقدّمه لهم الشعب، إذ كان مفروضاً على كلّ ربّ أُسرة أن يقدّم للكهنة جزءاً من أربعة وعشرين جزءًا من الخبز الذي يخبزه في تنّوره. وكما أسلفنا، كثيرون من الكهنة كانوا يكسبون من تربية الحيوانات التي يتعيّن على المؤمنين شراؤها، وتقديمها للهيكل. وآخرون كانوا شركاء الصيارفة، ولا يُستَبعد أن يكون بعضٌ منهم مصرفيّين حقيقيّين، إذ كان الشعب، يودع مدّخراته، طوعاً، في صناديق الهيكل.

كانت، ثمّة، شبكة مصالح مؤتلفة تجمع بين قصر هيرودُس، وحصيرة البائع، وكوخ الإسكافي. الكهنة كانوا يعتاشون من الهيكل، وكان كثيرون منهم تجّاراً وأثرياء. الأغنياء كانوا

في حاجةٍ إلى الهيكل لكي يضاعفوا أرباحهم، ويفرضوا على الشعب احترامهم. وكان التجّار يعقدون صفقاتٍ مع الأغنياء، ومع شركائهم من الكهنة، ومع الحجّاج الذين يجتذبهم الهيكل من كلّ أرجاء الكون. وكان المهنيّون والفقراء يعيشون من الفتات والبقايا المتساقطة من موائد الكهنة، والأغنياء، والتجّار والحجّاج.

كان الدين، إذن، هو الصناعة الكبرى، بل، ربّما الوحيدة، في أورشليم، ومن ثمّ، كان كلّ مساسٍ بالدين وبممثّليه، وبالصرح المرئيّ الذي كان مركزه المتألّق المثمر، يُعدّ عملاً عدائيّاً من قِبَل شعب أورشليم، ولاسيّما من قبل من كانت تعود إليهم الثروة والمغانم.

و يسوع، بإنجيله، كان يهدّد مداخيل الطبقات المحظيّة. فلئن كان على كلّ وصايا الشريعة أن توجز في أعمال المحبّة، لن يكون، بعد، مكانٌ للكتبة وعلماء الشريعة الذين يعيشون من تفسيراتها. وإن كان اللّه يزدري تضحيات البهائم، ويكتفي بنقاء النفس وبالصلاة السرّيّة، فلن يبقى للكهنة سوى إيصاد أبواب المعبد، والبحث عن مِهنٍ أخرى؛ وسيرى بائعو الثيران، والأغنام، والحملان، والماعز، والحمام، والعصافير، أرباحهم تتضاءل، بل تنضب. وإن كان الظفر بمحبّة اللّه يقتضي تغيير السلوك، ويجعل غير كافٍ غسل الأقداح، وأداء العشور بدقّة، لتلاشت تعاليم الفرّيسيّين وسطوتهم. وإن جاء، أخيراً، المسيح، وأعلن أنّ أولويّة الهيكل قد ولّى زمانها، وأنّ التقادم نافلة، لانقلبت عاصمة البلاد، بين ليلةٍ وضحاها، مدينةً محرومةً منهارة، ولتحوّلت، مع كرّ الأيّام، إلى قرية فقراء خاملة الذكر، بل إلى صحراء.

يسوع الذي كان يؤثر الصيّادين، إن هم كانوا أنقياء ومحبّين، على رؤساء الكهنة، وكان يذود عن حياض الفقراء ضدّ الأغنياء، ويقيم للأطفال الجهلة وزناً أكثر ممّا يقيم للكتبة اللذين عميت بصائرهم عن أسرار الكتاب، كان كفيلاً باستقطاب بُغض اللاويّين، والتجّار، وعلماء الشريعة. لقد كان الهيكل، والمجمع العلميّ، والمصرف، أعداءً له. وهؤلاء عندما ستمسي الضحيّة جاهزة، سيستدعون، مُكرَهين، السيف الرومانيّ كي يضحّوا بها على هيكل راحة بالهم.

منذ فترة، كانت حياة يسوع قد أضحت غير آمنة. فعلى حدّ قول الفرّيسيّين، كان هيرودُس يسعى إلى قتله، منذ نهاية إقامته في الجليل. وربّما هذا ما قاده إلى قيصريّة، خارج الجليل حيث تنبّأ بآلامه. ومنذ عودته إلى أورشليم،أحاق به رؤساء الكهنة، والفرّيسيّون والكتبة، لكي يمدّوا له شباكاً، ويسجّلوا أقواله.

تلك الحثالة القلقة السامّة أطلقت في إثره شرذمة من الجواسيس الذين لن يلبثوا أن يستخدموهم بمثابة شهود زور. ويذكر الإنجيليّ يوحنّا أنّ الأمر قد صدر، فعلاً، إلى بعض العسس كي يقبضوا عليه، ولكنّهم لم يجرأوا أن يلقوا عليه أيديهم. وقد فاض الكيل، في أعقاب إعماله السوط بظهور الباعة والصيارفة، وتهجّمه العلنيّ على الكتبة والفرّيسيّين، وتلميحاته

إلى دمار الهيكل. كان الوقت يلحّ. فأورشليم تغصّ بالغرباء، وكثيرون منهم كانوا ينصتون إليه. وكانت الفرصة مهيّأة للاضطرابات، وربّما لانتفاضة العصابات الإقليميّة، الأقلّ تعلّقاً بامتيازات العاصمة ومصالحها. كان لا بدّ من إجتثاث العلّة منذ نشأتها، ولم يُعثر على وسيلةٍ أكثر أماناً من إزالة المجدّف. كان الوقت يلحّ، وبعد أن تفاهم، سرّاً، ثعالب الهيكل والتجارة،حزموا أمرهم على الدعوة إلى التئام السنهدرين، للتوفيق بين الشريعة وجريمة القتل.

مبدأ قيافا

كان السنهدرين مجلس الأرستقراطيّة الأعلى الذي يحكم العاصمة، ويتألّف من كهنةٍ حريصين على زبانيةٍ توفّر لهم السلطة والمغانم المادّيّة، ومن كتبةٍ مكلّفين بالحفاظ على نقاء الشريعة، واستمرار التقليد، ومن شيوخٍ يمثّلون مصالح البورجوازيّة المعتدلة والثريّة.

و قد أجمعوا، كلّهم، على ضرورة الإيقاع بيسوع، والقبض عليه مباغتةً، وإعدامه بتهمة التجديف على اللّه وعلى السبت. وحدَه نيقودمُس حاول الدفاع عنه، ولكنّهم سارعوا كلّهم إلى إخراسه قائلين: " ما العمل ؟ فهذا الرجل يجري المعجزات، ويجتذب العديد من التلاميذ. فإن تُرك وشأنه، لآمن به الجميع، ولبادر الرومانيّون إلى تدمير مدينتنا وأمّتنا ". مصلحة الدولة العليا، وخلاص الوطن، هما الذريعة التي تتوسّلها التكتّلات الحزبيّة، كي تموّه، بشرعيّةٍ مثاليّة، الدفاع عن مصالحها الخاصّة.

قيافا، الذي كان، في تلك السنة، رئيس الكهنة، حسم الشكوك بالحكمة التي برّرت دائماً، أمام حكمة العالم، التضحية بالأبرياء: " إنّكم لا تفهمون شيئاً، ولا تدركون، أنّه خيرٌ لكم أن يموت رجلٌ واحدٌ عن الشعب، ولا تموت الأمّة بأجمعها ". هذه الحكمة، في فم قيافا، في تلك المناسبة، وفي ما كانت تضمره، كانت تقطر حقارة، وعلى غرار كلّ الخطابات التي كانوا يتلفّظون بها في السنهدرين، كانت تتّشح بالرياء. ولكن إن ارتقينا بها إلى معنى أسمى، وانتقلنا بها إلى حيّز المطلق – مستبدلين لفظة "الأمّة" بلفظة "البشريّة" – لكان المبدأ الذي كان يعلنه رئيس مجمع المختونين، هو المبدأ الذي ارتضى به يسوع في قلبه، والذي كان سيصبح، بصيغةٍ أخرى، سرّ المسيحيّة الجوهريّ. وقيافا نفسه، الذي كان عليه، وحده، أن يدخل قدس الأقداس الخاوي، كي يقدّم ليهوه خطايا الشعب، لم يكن يدرك كم كانت كلماته، وهي تعبيرٌ فظٌّ عن شعورٍ صلِف، تتوافق مع فكر ضحيّته.

أن يكون البارّ، وحده، مؤهَّلاً لافتداء الظلم، وأن يكون الطاهر، وحده، قميناً بوفاء ديون الأنجاس، وأن يكون الله وحده، في كرمه اللامتناهي، كفيلاً بالتكفير عن الأخطاء التي

يرتكبها الإنسان بحقّه، هذا المبدأ الذي يبدو للإنسان قمّة الجنون، لأنّه قمّة الحكمة الإلهيّة، لم يكن يتألّق في نفس الصدّوقيّ العفنة، عندما أطعم السبعين المتواطئين معه بحكمته الرامية إلى إخراس أيّ شعور بالذنب قد يؤرّق ضمائرهم. قيافا هذا، الذي سيكون مع إكليل الشوك، واسفنجة الخلّ، إحدى أدوات آلام المسيح، لم يجُل بباله أنّه كان يقدّم، في تلك اللحظة، شهادةً علنيّة، وإن هي كانت محجّبةً وغير إراديّة،عن المأساة الإلهيّة الوشيكة الحدوث.

بيد أنّ المبدأ القائل بأنّ البريء جديرٌ بالتكفير عن المذنبين، وبأنّ موت شخصٍ واحد قد يؤدّي إلى خلاص الجميع، لم يكن غريباً عن وجدان الأقدمين. فقد كانت أساطير الوثنيّين البطوليّة تشيد بتضحيات الأبرياء الطوعيّة...

غير أنّ تلك التضحيات، إن هي كانت طوعيّة، كانت تخلّص كائناً واحداً، أو مجموعةً محدودة من البشر؛ وإن هي كانت إكراهيّة، كانت تضيف جريمةً جديدةً إلى الجرائم التي كانوا يدّعون التكفير عنها. ومن ثمّ كانت إمّا ثمرة مودّة خاصّة، أو شرّاً من شرور الخرافات.

و لم يكن قد شوهد، بعد، إنسانٌ يأخذ على عاتقه كلّ خطايا البشر، ولا شوهد إلهٌ يسجن ذاته في حقارة الجسد، بغية إنقاذ الجنس البشريّ برمّته، وتمكينه من الارتقاء من البهيميّة إلى القداسة، ومن مهانة الأرض إلى ملكوت السماوات. ذلك الكامل الذي أخذ على عاتقه كلّ النقائص، ذلك البارّ الذي احتمل جميع المعاصي، قد ظهر في عهد قيافا، في مظهر شريدٍ، بائس. ذاك الذي يموت عن الجميع، ذلك العامل الجليليّ الذي أَقضّ مضاجع أغنياء أورشليم وكهنتها، كان هناك، على جبل الزيتون، وعلى مقربةٍ من السنهدرين. وقد قرّر أعضاء السنهدرين السبعون القبض عليه قبل الفصح، وهم لا يعلمون ما يفعلون، ولا يدكون أنّهم كانوا ينفّذون، في تلك اللحظة، مشيئة المضطَهد، ولكنّهم، في صغارتهم، وعلى غرار كلّ الأسياد، لم يكن يمسكهم عن تنفيذ قصدهم سوى خشيتهم ممّن يحبّون يسوع. " وكان رؤساء الكهنة والكتبة يتلمّسون حيلةً للقبض عليه، وقتله، غير أنّهم قالوا : " لا في العيد، لئلاّ يقع شغبٌ في الشعب"

وفي الغداة، ولكأنّه ينبغي إنقاذهم من حيرتهم، جاءهم أحد الاثني عشر : القيّم على كيس المال، يهوذا الإِسخريوطيّ.

سرّ يهوذا

كائنان فقط أحاطا بسرّ يهوذا : يسوع، والخائن نفسه

ستّون جيلاً من المسيحيّين أعملت الفكر في ذلك السرّ، بيد أنّ رجل إسقريوط، مع أنّه استنفر، على الأرض، جيشاً من الأتباع، يظلّ كتيم السرّ، مستعصيه. وهو السرّ البشريّ الوحيد في الأناجيل. يمكننا أن نفهم، بلا عناء، الروح الشيطانيّ الذي يسكن هيرودُس وأمثاله، ونقمة الفرّيسيّين التي يضرمها الحسد، وظمأ حنّان وقيافا إلى الانتقام، وتخاذل بيلاطس وجبنه، ولكنّنا لا نفهم، بنفس الوضوح، عار يهوذا. فالإنجيليّون الأربعة قلّما تحدّثوا عنه، وعن الأسباب التي أقنعته ببيع مليكه؛ بل اكتفوا بالقول : " إنّ إبليس دخل فيه ". ولكنّ هذه العبارة ليست سوى وصفٍ لجريمته. لقد استولى الشرّ على قلبه : إذن حدَث ذلك بغتةً. قبل ذلك، وربّما قبل المأدبة في بيت عنيا، لم يكن يهوذا في قبضة العدوّ. ولكن ما الذي حمله على الاندفاع إليها بغتةً ؟ ولمَ دخل إبليس فيه، ولم يدخل في أيٍّ من الآخرين ؟

ثلاثون ديناراً مبلغ ضئيل، ولاسيّما لإنسانٍ جشع، وهو لا يكفي لحمل رجلٍ يصفه رفاقه بالبخل، على ارتكاب أبشع وأحقر خيانة يذكرها التاريخ. يقال أنّ ثلاثين ديناراً كانت ثمن عبد. بيد أنّ سفر الخروج يقول، خلافاً لذلك، إنّه إن أُصيب عبدٌ أو عبدةٌ بطعنة قرن ثور، فعلى صاحب الثور أن يؤدّي ثلاثين شاقلاً. و التباين بين الحالتين من البعد بحيث لم يخطر ببال علماء السنهدرين التأسّي بتلك السابقة ، حرصاً على التقيّد الشديد بالشريعة.

أرهب دليلٍ يشير إلى الخيانة هو المهمّة التي اختصّ بها يهوذا ذاته بين الاثني عشر. فقد كان بينهم عشّارٌ قديم، هو متّى، وكان هو الأولى بتولّي الإشراف على الزهيد من المال الضروريّ لنفقات الجماعة. ولكنّنا، عوضاً عن متّى، نرى رجل إسخريوط هو من أوكل إليه التصرّف بالتقادم. والمال خدّاع ومليء بالمخاطر. إنّ مجرّد التداول بالمال، ولو كان مال الغير، يسمّم. ولا عجب إن وصف يوحنّا يهوذا باللصّ : " إذ كان الكيس معه، كان يأخذ ما يوضع فيه ".

و مع ذلك، لا بدّ من التفكير بأنّ رجلاً نهِماً إلى المال، ما كان ليبقى طويلاً ضمن جماعة على مثل ذلك الفقر. ولو هو ابتغى أن يغتني من السرقات لاختار مركزاً أكثر ملاءمةً وأوفر ثمراً من ذلك الذي ارتضاه. وإن هو احتاج إلى الثلاثين ديناراً الزريّة، أما كان استطاع الظفر بها، بوسيلةٍ أُخرى، وحتّى الهرب بالكيس عوضاً عن بيع يسوع للكهنة ؟

هذه الخواطر القريبة من المنطق، المتعلّقة بجريمةٍ على هذا القدر من الغرابة، قد حدت بالكثيرين، منذ فجر المسيحيّة، إلى تلمّس دوافع أُخرى لصفقة يهوذا الدنيئة. وقد تخيّلت بدعة من دُعوا القايينيّين، أنّ يهوذا، لمّا علم بأنّ على يسوع، بإرادته وإرادة الآب، أن يمضي إلى الموت بفعل خيانة، ولكيلا ينقص شيء من آلام الفداء الأعظم، ارتضى أن يقاسي ألم عار الخيانة الأبديّ، لكي يتحقّق كلّ شيء. وبالتالي كان يهوذا في نظرهم، أداة الفداء الضروريّة والطوعيّة، ومن ثمّ، كان بطلاً وشهيداً، جديراً بالتكريم لا باللعنة.

نظريّةٌ أُخرى ترى أنّ الإسخريوطيّ كان يحبّ شعبه ويرجو تحريره، وربّما كان يشارك الغيورين مشاعرهم، وقد انضمّ إلى يسوع آملاً أن يكون هو المسيح الذي تتصوّره عامّة الشعب : أي ملك يستعيد الأمجاد، ويرمّم إسرائيل. ولكنّه، عندما تبيّن، رويداً رويداً، ورغم بلادة ذهنه، أنّه أخطأ الخيار، واستدلّ، من خطابات المعلّم، أنّه وقع على مسيحٍ من نمطٍ آخر، أسلمه إلى أعدائه، كي يداوي حرقة خيبة أمله. بيد أنّ هذا التخيّل الذي لا توفّر له النصوص المعترف بها، ولا النصوص المزيّفة، أيّ دعم، لا يسعه أن يبرّر بائع المسيح: فقد كان بوسعه أن يهجر الاثني عشر، ويجد، بيُسر، رفاقاً آخرين أكثر توافقاً مع تطلّعاته.

و رأى آخرون أنّ سبب خيانته الحقيقيّة يكمن في فقده الإيمان. فهو كان قد آمن إيماناً راسخاً بيسوع، ولكنّه غدا عاجزاً عن الإيمان. فخطابات يسوع عن نهايته الوشيكة، وعداء العاصمة الذي كان يهدّده، وتلكّؤه في إظهار انتصاره، أدّت إلى إفقاده كلّ ثقة في ذاك الذي اتّبعه حتّذٍ. فما عاد يرى المُلْك قادماً، بل الموت، وربّما من خلال تسقّطه أخبار الشعب، سمع إشاعات تتعلّق بنوايا الكهنة، وخشي ألاّ يكتفي السنهدرين بضحيّةٍ واحدة، وأن يشمل بإدانته جميع الذين كانوا يتبعون يسوع منذ سنوات، فغلبه الخوف – وربّما كان الخوف هو الوسيلة التي استخدمها إبليس للسيطرة عليه– فانتقل إلى الخصم، ظانّاً أنّه، بالخيانة، سينقذ حياته. وهكذا كان فقدان الإيمان، مقروناً بالجبن، هو الدافع المخزي لخيانته المخزية.

و تخيّل بريطانيّ، اشتهر بتعاطيه المخدّرات، دفاعاً غريباً عن الخائن، فادّعى أنّ يهوذا كان مؤمناً، بل موغلاً في الإيمان؛ وكان من شدّة القناعة بأنّ يسوع هو، حقّاً، المسيح، بحيث أسلمه إلى المحكمة، لكي يدفعه إلى إظهار شرعيّة رسالته المسيحانيّة. ولفرط رجائه، لم يستطع تخيّل أنّ يسوع قد يُقتل؛ أو إنّه، إن كان لا بدّ من موته، فهو كان يوقن، أنّه سيقوم، في الحال، لكي يظهر مجدّداً، على يمين الآب، ملكاً على إسرائيل وعلى العالم. ولكي يستعجل ذلك اليوم العظيم، وليقينه بأنّ صديقه الإلهيّ لا يمكن أن يمسّه سوء، أراد أن يضغط عليه، ويوفّر له فرصة تأكيد كونه ابن اللّه الحقّ، بوضعه في مواجهةٍ مع من جاء لكي يحلّ محلّهم. وبالتالي، لم يكن عمل يهوذا خيانة، بل خطأ تقدير ناجماً عن عدم فهمه المعنى الحقّ لتعليم المعلّم، وقد أسلم يسوع لا انتقاماً، ولا جشعاً، ولا جبناً، بل عن حماقة.

و ارتأى آخرون أنّ دافع الخيانة هو الانتقام، فلا خيانة في معزل عن البغض. لمَ كان يهوذا يمقت يسوع ؟ إنّهم يرجعون ذلك البغض إلى العشاء في بيت سمعان، وإلى عطر المرأة الباكية، وإلى عتاب يسوع له، الذي آلمه، ولا سيّما وأنّه طالما كان قد أخذ عليه، من قبل، حِيَل بخله. وقد اقترنت نقمة التوبيخ بالحسد المضطرم، دائماً، في النفوس الدنيئة. وحالما تسنّت له إمكانيّة الانتقام، من غير مخاطرة، شخص إلى قصر قيافا.

و لكن هل خطَر له، حقّاً، أنّ خيانته ستفضي بيسوع إلى الموت، أم إنّه افترض أنّهم سيكتفون بتأنيبه، أو جلده، ومنعه من مخاطبة الجموع ؟ من تتمّة قصّته يمكن تخيّل أنّ الحكم الذي أُنزل بيسوع قد أرعبه، إذ رأى فيه نتيجةً مريعة، وغير متوقّعة، لقبلته. ويروي الإنجيليّ متّى يأسه بأسلوبٍ يتيح افتراض أنّه صُدم لهول ما حدَث، بسبب خطئه. كانت النقود التي حصل عليها تحرقه، ولكنّ الكهنة رفضوا استعادتها، فقذف بها في الهيكل. ولكن، حتّى بعد إعادتها، لم يعرف السلامُ إلى قلبه سبيلاً، وهرع ليشنق نفسه، ويموت في نفس اليوم الذي ماتت فيه ضحيّته. إنّ لوقا، في أعمال الرسل، يروي قصّة مختلفة عن نهاية يهوذا، ولكنّ التقليد المسيحيّ قد فضّل، دائماً، رواية الندم الوجيع والانتحار.

عبثاً يسعى غير المقتنعين بما قيل إلى استبيان الحقيقة. ولكنّ الأسرار تتشابك حول سرّ يهوذا. ولكنّنا لم نستعِن، بعدُ، بشهادة من أحاط، خيراً من الجميع، وحتّى من يهوذا نفسه، بسرّ الخيانة الحقّ. فلدى يسوع وحده، الذي كان ينفذ إلى أعماق نفس الإسخريوطيّ، مثلما ينفذ إلى أعماق جميع النفوس، والذي كان يعلم مسبقاً ما سيقوم به الإسخريوطيّ، الكلمة الأخيرة في هذا الشأن.

لقد اختار يسوع يهوذا كي يكون أحد الاثني عشر، ولكي يحمل، على غرار الآخرين، البشرى السعيدة. فهل كان من شأنه أن يختاره، ويحتفظ به معه، إلى جانبه، على مائدته، لو أنّه توسّم فيه مجرماً لا رجاء في شفائه ؟ وهل كان من شأنه أن يوكل إليه أعزّ ما لديه، وأغلى ما في الوجود : التبشير بالملكوت؟

حتّى الأيّام الأخيرة، حتّى المساء الأخير، لم يعامله معاملةً تختلف عن معاملته الآخرين. فله أيضاً، وهب جزءاً من جسده تحت شكل الخبز، وجزءاً من روحه تحت مظهر الخمر. رجلا يهوذا، – اللتان حملتاه إلى قيافا – غُسلتا وجُفّفتا، هما أيضاً، بتَيْنك اليَدَيْن اللتين ستُسمَّران، بفضل تواطؤ يهوذا، في اليوم التالي. وعندما وصل يهوذا، وسط وميض السيوف، وأنوار المصابيح الحمراء، تحت ظلال أشجار الزيتون الداكنة، وقبّل "بلهفة" على حدّ قول متّى، ذلك الوجه الذي ما انفكّ يتعرّق دماً، لم يردّه يسوع، بل قال له:

–" ما جئت تفعل، يا صديقي ؟ "

"صديقي" ! إنّها المرّة الأخيرة التي يكلّم فيها يسوع يهوذا، ولكنّه، حتّى في تلك اللحظة، لا يستطيع أن يدعوه إلاّ باسمه المألوف، اسم اليوم الأوّل. ليس يهوذا، في نظره، رجل الظلمات، الذي يوافي في عتمة الليل لكي يسلمه إلى الجند الأشرار، بل هو الصديق، ذاك الذي كان لسُوَيْعاتٍ قليلةٍ كرّت، يجلس على مقربةٍ منه، حول قصعة الحمَل والأعشاب المرّة، ذاك الذي ارتشف بشفتيه، من كأسه، ذاك الذي طالما، في ساعات الراحة، في ظلّ جدار، أو في فيء شجرة، استمع مع الآخرين، استماع تلميذٍ وصديقٍ وأخ، إلى كلمات الوعد

الكبرى. صحيحٌ أنّ يسوع قال، على مائدة العشاء الأخير: "الويل لذلك الرجل الذي يُسلَم ابن الإنسان عن يده ! فقد كان خيراً له لو لم يولد، قطّ ". ولكن الآن، وقد مثل الخائن أمامه، وقد أُنجزت الخيانة؛ الآن، وقد أضاف يهوذا إلى غدر الخيانة إهانة القبلة، استعاد ذاك الذي أوصى بحبّ الأعداء، القول الرقيق، المألوف، الإلهيّ :

–" ما جئت تفعل، يا صاح ؟ "

إنّ شهادة ضحيّة الخيانة تضاعف حيرتنا، عوضاً عن إماطة النقاب عن السرّ الرهيب. إنّه يعلم أنّ يهوذا لصّ، ويوكل إليه الكيس؛ ويعرف أنّه ضالّ، ويوكل إليه كنز حقيقةٍ أثمن من كلّ مال العالم. إنّه يعلم أنّ يهوذا سيسلمه، ويشركه في ألوهته بتقديمه له الخبز والخمر. إنّه يراه وهو يرشد إليه أولئك الذين سيقبضون عليه، ومع ذلك، يسبغ عليه، مرَّةً أُخرى، كما في السابق، ودائماً، اسم " الصديق " المقدّس !

"كان خيراً له لو لم يولد!" هذه الكلمات قد لا تكون إدانة، بقدر ما هي مبادرة رأفة، أوحتها فكرة مصيرٍ لا مفرّ منه. لئن أبغض يهوذا يسوع، إلاّ أنّنا لا نلحظ، في أيّة لحظة، يسوع ينفر من يهوذا. إنّ يسوع يعلم أنّ صفقة يهوذا ضروريّة، بقدر ما سيكون ضرورياً وهن بيلاطس، وغيظ قيافا، وبصقات الجند، وعارضتا الصليب ومساميره. إنّه يعلم أنّ على يهوذا أن يفعل ما يفعل، ولا يلعنه أكثر ممّا يلعن الشعب الذي يطالب بصلبه، أو المطرقة التي تثبّته بالصليب. رجاءٌ واحدٌ يرد على شفتيه من أجل تقصير أمد النزاع الرهيب: "ما تعتزم فعله، أسرع في فعله".

إنّ سرّ يهوذا مربوط، بعقدة مزدوجة، بسرّ الفداء، وسيظلّ لنا، نحن الواهنين، سراً، لا تضيئه لنا أيّة مقاربة. فيوسف، أيضاً، باعه أحد إخوته يدعى يهوذا، على غرار الإسخريوطيّ، لتجّارٍ إسماعيليّين، لقاء عشرين قطعةٍ من الفضّة. ولكنّ يوسف، وهو صورة المسيح الجسديّة، لم يُبع إلى أعدائه، كي يقتلوه. والغدْر الذي كان ضحيّته قاده إلى الثروة؛ فقد أصاب من الغنى ما أغنى به أباه، واتّصف بالكرم بحيث صفح عن إخوته.

و يسوع لم يُخَنْ، فحسب، بل بيع. خين لقاء مال، بيع بثمن بخس، قويض مقابل نقدٍ رائج. كان موضع مقايضة، سلعة دُفع ثمنها وسُلّمت. ويهوذا، المكلّف بالكيس، أمين الصندوق، لم يظهر فقط بمظهر الواشي، ولم يكن قاتلاً يطعن بالخنجر، بل كان تاجراً، وبائع دم. واليهود، البارعون في هذا المضمار، هم، جزّاري العليّ، ذبّاحي الضحايا ومقسّميها، كانوا أوائل زبانية يهوذا وأواخرهم. بيع يسوع كان الصفقة الأولى التي عقدها التاجر المرتجل: صفقة هزيلة، في الواقع، ولكنّها صفقةٌ تجاريّة حقّة، عقدٌ صالح للتنفيذ، عقدٌ شفويّ، ولكنّ المتعاقدين التزموا به بدقّة.

لو لم يُبع يسوع لنقص شيءٌ من تمام مهانة التكفير؛ ولو دفع ثمنه ثلاثة مئة شاقلٍ ذهباً عوضاً عن ثلاثين من الفضّة، لتضاءلت المهانة قليلاً، ولكنّها كانت تضاءلت على أيّة حـــال. وقد كُتب، منذ الأزل، أنّه سيُشرى بثمنٍ بخس، وفي جميع الحالات، بالفضّة.

لكي تتجلّى القيمة اللامحدودة فائقةَ الطبيعة، ولكن قابلةً للتداول، كان لا بُدّ من تبادلها بقيمةٍ زهيدة، بمعدنٍ لا قيمة له. أوَلم ينهج، على هذا النحو، المُباع نفسه الذي ابتغى، بدم كائنٍ واحد، افتداء كلّ دمٍ سُفِك على الأرض، منذ قايين حتّى قيافا ؟

و لو أنّه بيع كعبد، كما كانت تباع، حينئذٍ، في الساحات العامّة، أجسادٌ كثيرة مـــزوّدة بنفوس، لو بيع كرأسمالٍ بشريّ، كأداة عملٍ حيّة، لتلاشت المهانة، ولتأخّر الفداء. ولكنّه بيـــع بيع العجل للجزّار، بيع البريء الذي يشتريه الجزّار كي يقتله، كي يبيعه بالتجزئة، كي يوزّعه إرباً إرباً لآكلي اللحوم.

المضحّي المكرّس، قيافا، لم تتسنَّ له، حتّى في أجمل أيّامه، ضحيّةٌ بهذا الحجم. فمنذ نحو ألفين من السنين يتغذّى المسيحيّون بهذه الضحيّة، ولكنّها تظلّ أبداً، كاملة، والملتهمون لا يشبعون.

كلٌّ منّا أسهم بحصّته، المفرطة الصِّغر، كي يبتاع من يهوذا هذه الضحيّة التـــي لـــم تُستهلك أبداً، وقد اشتركنا، جميعنا، في جمع المبلغ المرئيّ الذي أُدّي ثمناً للمحرّر: ولم يكـــن قيافاً سوى منتدبٍ عنّا. حقل الدم اشتُري بهذا المال : ذلك الحقل الذي أُدّي الدم ثمناً له، هـــو إرثنا وملكنا. وقد اتّسع هذا الحقل اتّساعاً يتعذّر فهمه، وامتدّ بحيث غطّـــى نصـــف مســـاحة المسكونة : مدن بكاملها، مدنٌ غاصّة بالسكان، مبلّطة، مضـــاءة، منظّفـــة، مـــدن حوانيـــت ومواخير، تتألّق فيه من الشمال إلى الجنوب. ولكي يتعاظم الســـرّ، أضـــحت أمـــوال يهـــوذا تستعصي على الاحصاء، وقد تضاعفت آلاف المرّات، بفضل خياناتٍ امتدّت على العديد من القرون، بفضل جميع الصفقات المعقودة، وخاصّة بفضل تراكم الفوائد. فلا شـــيء يخصـــب ويثمر كالدم. بوسع الإحصاءات، التي حلّت، في عصرنا، محلّ العرّافين، أن تثبـــت أنّ كـــلّ أسوار الهيكل لن تتّسع، بعد الآن، للأموال التي ولّدتها، حتّى أيّامنا، الثلاثون ديناراً التي رماها في الهيكل، وهو يهذي ندماً، الرجل الذي باع إلهه.

حامل الجرّة

لقد أُدّي الثمن. وبات المشترون لا يطيقون الانتظار، ويطالبون بسلعتهم قبل العيد، فالعيد الكبير، عيد الفصح، يقع في يوم السبت، واليوم هو يوم الخميس.

لم يبقَ ليسوع سوى يومٍ من الحرّيّة واحد، اليوم الأخير. وقبل أن يغادر أصدقاءه، – أولئك الذي سيهجرونه في هذه الليلة – ودّ أن يغمس الخبز معهم، في طبقٍ واحد، مرّة أُخرى، على مائدة السلام.

قبل أن يغسل محيّاه بصاقُ الجنود الرومانيّين والرعاع اليهوديّ، ابتغى أن يجثو ويغسل أرجل الذين سيضربون، حتّى رمقهم الأخير، على دروب الأرض، كي يرووا حكاية موته. وقبل أن ينثال دمه من يديه، ورجليه، وقلبه، أراد أن يهب بواكيره من يبتغون أن يكونوا معه نفساً واحدة حتّى النهاية.وقبل معاناته العطش، وهو مسمّر على العارضتَيْن المضمومتَيْن، شاء أن يشرب، مع رفاقه، عصير الكرمة في كأسٍ واحدة. وستكون عشيّة موته رمزاً لمأدبة الملكوت.

كان صباح الخميس، أوّل أيّام الفطر، وسأله التلاميذ : " أين تريد أن نعدّ الفصح ؟ "

للثعالب أوجرة، وليس لابن الإنسان منزل، فبيت الناصرة، قد هجره هجراً مؤبّداً. وبيت سمعان، في كفرناحوم، بعيد، وقد كان هذا البيت، في مطلع رسالته، بمثابة بيته؛ وكذلك كان نائياً، خارج المدينة، منزل الشقيقتَيْن في بيت عنيا، حيث كان كأنه السيّد. أمّا في أورشليم، فليس له سوى أعداء، أو أصدقاء خجولين. ولن يستقبله يوسف الأريماثيّ إلاّ في الليلة التالية، في مغارةٍ مظلمة مؤاتية لمآدب الديدان.

و لكن المحكوم، في يومه الأخير، ينعم بالحظوة التي يطلبها، وكلّ بيوت أورشليم له. وسيهبه الآب البيت الأكثر ملاءمة لاحتضان الفرح الأخير الذي سينعم به المطارَد، ومن ثمّ أنفذ رسولَيْن مزوّدَيْن بهذا الأمر المبهم :

– " إذهبا إلى المدينة، فيلقاكما رجلٌ يحمل جرَّة ماء، فاتبعاه، وحيث يدخل تقولان لربّ البيت: المعلّم يقول أين المكان الذي آكل فيه الفصح مع تلاميذي ؟ فيريكما علّيّة كبيرة، مفروشة، مهيّأة، فأعدّا لنا، هناك، كلّ شيء ".

لقد ظنّ بعضهم أنّ ذلك الرجل كان من معارف يسوع، وأنّه كان قد تفاهم معه، مسبقاً، وهذا خطأ. فلو كان الأمر كذلك لكان أرسل يسوع تلميذيه إليه، وزوّدهما باسمه، من غير حاجةٍ إلى علامة الجرّة.

كثيرون هم الذين كانوا، في صبحية العيد تلك، يصعدون إلى نبع سلوام حاملين الجرار؛ وليس على التلميذين أن يختارا، بل أن يخاطبا أوّل حامل جرَّة يقابلانه، و هما لا يعرفانه، وإلاّ لكانا طلبا منه التوقّف، ولما اضطرّا إلى تأثّر خطاه كي يريا أين يدخل. وبما أنّ لدى معلّمه خادماً، فهو ليس من الفقراء، ولا ريب أنّ في بيته قاعة للمآدب. ومن المؤكّد أنّه يعرف المعلّم، أو، أقلّه، سمع عنه، ففي أورشليم، في تلك الأيّام، لا يتكلّمون إلاّ عنه. ورسالته التي حملها التلميذان لا تحتمل الرفض : " المعلّم يبلّغك : إنّ ساعتي قريبة". ساعته هي ساعة موته، ومن يردّ عن بيته مدنفاً يودّ إشباع جوعه للمرّة الأخيرة ؟

و مضى التلميذان، ولقيا حامل الجرّة، ودخلا البيت، وكلّما المعلّم، وأعدّا المأدبة: الحمل المشويّ، والأرغفة المستديرة بلا خمير، والأعشاب المرَّة، والمرق الأحمر، ونبيذ الشكر، والماء الساخن. وفي القاعة نضّدا الفُرش والوسائد حول المائدة، وعلى المائدة بسطا سماطاً أبيض جميلاً، وعلى السماط وضعا الأطباق، والشمعدانات، والجرَّة المملوءة خمراً، والطاسة الوحيدة التي سيرتشف منها الجميع. لم يغفلا شيئاً. فقد ألفا مثل هذه الإعدادات. في طفولتهما، في المنزل الأبويّ، على شاطئ البحيرة، كانا يراقبان بعينَيْن جاحظتَيْن، تهيئة أكثر أعياد السنة حرارة. ولم تكن تلك هي المرَّة الوحيدة التي يتناولون فيها، جميعهم، الفصح معاً مذ شرعوا يعيشون مع الذي يحبّونه

و لكن في ذلك اليوم الذي كان اليوم الأخير (وربّما اخترقت الحقيقة الفظيعة، أخيراً، أذهانهم البليدة)، ومن أجل هذا العشاء، الذي سيكون عشاء الثلاثة عشر الأخير، وهم أحياء؛ من أجل هذا الفصح الأخير ليسوع، والفصح الشرعيّ الأخير لليهوديّة العتيقة – إذ إنّ عهداً جديداً سيُستهلّ للعالم أجمع –، ومن أجل مأدبة العيد تلك التي كانت ذكرى حياة وإنذار موت، نفّذ التلميذان تلك المهامّ المتواضعة بحنانٍ متجدّد، وبفرحٍ ساجٍ متأمّل ومؤثّر حتّى استمطار الدموع.

عند غروب الشمس وافى التلاميذ مع يسوع، وجلسوا إلى المائدة المعدّة، وجميعهم صامتون، يُرهقهم إحساسٌ داخليّ يتوجّس كلٌّ منهم خشية اكتشافه في عيون رفاقه.

كانوا يذكرون ذلك العشاء، الذي كاد يكون جنائزيّاً، لدى سمعان، وشذا العطر، والمرأة ونحيبها الطويل الصامت، وأقوال يسوع في ذلك المساء، أقوال الأيّام الأخيرة، والإنذارات الأخيرة بالمهانة والموت، وأمارات البغض المتفاقم من حولهم، ومعالم المؤامرة التي أمست بيّنة، وموشكة على البروز من الظلمة، ترشدها المشاعل.

و لكنّ اثنين منهم – ولأسباب متناقضة – كانا أشدّ إرهاقاً وتأثّراً من الجميع : الاثنين اللّذين لن يشهدا المساء التالي، إذ كان عليهما أن يلقيا حتفهما : يسوع ويهوذا – البائع والمُباع، ابن اللّه، وصنيعة إبليس.

كان يهوذا قد حدّد كلّ شيء، وبات يحمل الثلاثين ديناراً، وقد حزمها بإحكام لكيلا يُسمع طنينها، وتيقّن أنّها لن تُنتزَع منه. ولكنّه كان يفتقد الراحة. كان عدوّ الله قد دخل إليه، ولكنّ صديق المسيح لم يكن قد مات فيه تماماً، وكان يرهقه أن يراه، هنا، وسط ذويه، هادئاً، ولكن تتجلّى عليه مخايل أسى من ينفرد بمعرفة سرّ، وبالاطّلاع على جريمة، وخيانة؛ وأن يراه مازال حرّاً، إلى جانب من يحبّونه، وأن يراه حيّاً، وكلّ دمه في عروقه، تحت حماية الجلد الهزيلة.

و لكنّ المشترين ماعادوا يطيقون الانتظار؛ وقد اتُّفق على التسليم، في تلك الليلة عينها، وتوجّب التنفيذ. ولكن ما عسى يحلّ بيهوذا لو أنّ يسوع، الذي كان عليماً، فضح أمره أمام الأحد عشر، ولو أنّهم، هم، في سبيل إنقاذ المعلّم، انقضّوا عليه، وأوثقوه، وقتلوه؟ لقد شرع يشعر أنّ تسريع موت يسوع غير كافٍ لإنقاذه، هو نفسه، من الموت، الذي كان يوجس منه خشية، ويوجعه قربه.

كلّ هذه الخواطر كانت تزيد قِناعه المظلم تجهّماً، وتروّعه، بين فينةٍ وفينة. وفيما كان أكثر التلاميذ اندفاعاً منهمكين في الإعدادات الأخيرة، كان، هو، يحدّق، خلسة، في عيني يسوع، العينَيْن الصافيتَيْن، اللّتين يغشاهما برقّة حزن التجرّد المحبّ، ولكأنّه يودّ أن يقرأ فيها بطلان المصير الوشيك.

و قطع يسوع الصمت السائد بقوله :

– لشدّ ما اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم ! فإنّي أقول لكم إنّي لن آكله، بعدُ، إلى أن يتمّ في ملكوت اللّه.

لم يكن يسوع قد أفصح، قطّ، من خلال أيٍّ من أقواله الأُخرى لأصدقائه، عن قوّة حبّه الكمين لهم، حيث يتجلّى الصبوّ إلى الاتّحاد الكامل، إلى طقسٍ قديمٍ مهيّأ لتجديدٍ سامٍ. إنّهم يعلمون أنّه يحبّهم، ولكنّها كانت المرَّة الأولى، في ذلك المساء، التي وعت فيها قلوبهم المضنّاة المسكينة، وعياً حادّاً، مدى حبّه لهم. إنّه يعلم أنّ هذا العشاء هو لحظة الرقّة الهادئة الأخيرة قبل موته، ومع ذلك اشتهاها بشدّة، وبمثل اللهفة التي نشتهي بها أكثر الأشياء اشتهاءً، والتي طالما اشتهيناها، بتلك الحرارة التي يعهدها من كلّهم هوى، ونار، وحبّ، ومن يناضلون في سبيل نور انتصار، ومن يتألّمون من أجل مكافأةٍ عليا. لقد اشتهى، بحرقة، تناول هذا الفصح معهم، هو الذي تناوله معهم من قبل، وشاركهم طعامهم آلاف المرّات، على مقاعد المركب، وفي بيوت أصدقاء، وأناسٍ مجهولين، وأغنياء، وعلى منحدرات الطرقات، وفي الحقول الجبليّة، وفي ظلال حافّات السواقي وفيء الأشجار، ومع ذلك، لطالما اشتهى تناول هذا الفصح، الفصح الأخير معهم.

يبدو وكأنّ أجواء الجليل السعيد، ونسائم الربيع المنصرم الساجية، وشمس عيد الفصح الأخير، وشعانين يومٍ ليس ببعيد، قد امّحت جميعها من ذاكرته. وها هو، الآن، لا يرى سوى أصدقائه الأوائل والأخيرين، أولئك الذين ستمزّقهم الخيانة، وسيبدّدهم الخوف، ولكنّهم ما برحوا، حتّى تلك اللحظة، من حوله، في الحجرة ذاتها، وعلى المائدة عينها، يشتركون في الألم الداهم نفسه، ويشتركون، أيضاً، في نور يقينٍ فائق الطبيعة.

لقد تألّم حتّى هذا اليوم، ولكن لا من أجله، بل من أجل الرغبة الحارقة في تلك الساعة الليليّة، حيث تُستشمّ رائحة الوداع الحاسم. وفي هذا الاعتراف بالحبّ يستضيء وجه المسيح، الذي سيُصفع قريباً، بذلك الحزن الملكيّ الذي يحاكي الفرح، محاكاةً غريبة.

خذوا فكلوا

هؤلاء الرجال الثلاثة عشر يبدون ملتئمين حول مائدة، تنفيذاً لطقسٍ عتيق، واحتفالاً بذكرى تحرير شعبهم من بؤس مصر. ثلاثة عشر رجلاً من عامّة الشعب ينتظرون أمام مائدةٍ يتصاعد منها قتار الحمل وفوْح النبيذ، إيذاناً بعيدٍ حميم.

ذلك هو الظاهر فحسب. ففي الواقع، إنّها عشيّة انفصالٍ وهجران. إثنان من الثلاثة عشر – ذاك الذي يسكنه اللّه، وذاك الذي يسكنه إبليس – سيموتان قبل انقضاء ليلٍ آخر، أبشع ميتة. والآخرون سيتشتّتون غداً، تشتّت الحصّادين لدى أوّل انهمار بَرَد. بيد أنّ هذا العشاء، هو في آنٍ واحد، زاد خير، وبدايةٌ رائعة. فبفضل هؤلاء الثلاثة عشر من اليهود، سيتحوّل الاحتفال بالفصح اليهوديّ، إلى ما هو أسمى وأشمل بما لا يُقاس، إلى ما لا يُضاهى، ولا يحيق به وصف : إلى السرّ المسيحيّ الكبير، إذ سيصبح مجرّد مضغ الخبز تواصلاً فعليّاً مع اللّه.

ليس الفصح، لليهود، سوى ذكرى هروبهم خارج مصر. هذا الفرار المظفّر من المهانة والخضوع، الذي واكبه كثيرٌ من المعجزات، والذي تمّ تحت حمايةٍ من اللّه واضحة، لم ينسَه، قطّ، ذلك الشعب، الذي، مع ذلك، سيحني رقبته لنير عبوديّاتٍ أُخرى، وسيخضع لعار أصنافٍ أُخرى من النفي، واستذكاراً أبديّاً لهذا الخروج فُرِض على اليهود احتفالٌ سنويّ، اشتُقّ

اسمه من كلمة تعنى العبور، ويتمثّل في مأدبةٍ ينبغي أن تذكّر بمأدبة الهاربين المرتجلة والسريعة. خروفٌ أو جديٌ مشويّ على النار، أي بالأسلوب الأكثر بساطة؛ وخبزٌ غير مخمّر من جرّاء عدم اتّساع الوقت لتخمير العجين. وهم يأكلون متمنطقين بأحزمتهم، وأربطة أحذيتهم مشدودة، وعصاهم في يدهم، في عجلةٍ شديدة، مثل قومٍ على أُهبة سفر. الأعشاب المرَّة تُمثّل الخضروات الزريّة البرّيّة التي انتزعها الهاربون، على طريقهم المتمادي الطول، كي يخدعوا بها جوعهم. والمرق الأحمر الذي يغمسون فيه خبزهم يذكّر بالآجرّ الذي كان على اليهود المستعبَدين، شيّه، لاستخدام فرعون. أمّا الخمرة فهي رمز فرح الفرار، وكرمة الأرض الموعودة، ونشوة شكر اللّه الأزليّ.

و قد تقيّد يسوع بنظام المأدبة الدهريّ. فعقب الصلاة، مرّت الكأس من يدٍ ليد، مرفقةً باستدعاء اسم اللّه، ثمّ وزّع الأعشاب المرّة، وملأ، ثانية، الكأس التي كان على كلّ من المتحلّقين حول المائدة أن يرتشف منها جرعة، بالتتالي.

ما كان طعم النبيذ في فم الخائن، عندما تلفّظ يسوع، وسط الصمت الخانق، بكلمات التوق والرجاء، التي استثنت يهوذا، وتوجّهت فقط إلى أولئك الذين سيجلسون على مائدة الفردوس الأبديّة؟ :

– خذوا فاشربوا، فإنّي أقول لكم إنّني لن أشرب، بعد، من عصير الكرمة هذا، حتّى أشرب معكم الخمرة الجديدة في ملكوت الله.

وداعٌ مفعمٌ ألماً، ولكنّه، في الآن عينه، تأكيدٌ لوعدٍ علنيّ. وربّما لم يسمع التلاميذ سوى الوعد. وتراقصت، في عيونهم، رؤية المأدبة السماويّة، التي تخيّلوها وشيكة الحدوث: فبعد القطاف القريب، ووضع الخمرة الجديدة في البراميل، سينفّذ المعلّم وعده وسيعود كي يدعونا إلى المأدبة الأبديّة، إلى أعراس الأرض والسماء الكبرى. إنّنا رجالٌ كهول، بل أكثر من كهول، وها إنّ الشيخوخة قادمة، فإن تأخّر العريس، لن يجدنا بين الأحياء، وسيكون وعده استخفافاً بثقتنا.

و بعد أن اطمأنّوا إلى يقين التئامهم الوشيك حول عشاءٍ أكثر مجداً، أنشدوا معاً، وفقاً للعادة المألوفة، مزامير الشكر الأوّل : نشيد شكرٍ لأبي ذاك الذي كان يخدمهم: "اهتزّي، أيّتها الأرض، لحضور الربّ ". بأيّة قناعةٍ سعيدة، رتّلوا تلك الكلمات القديمة التي تلوّنت، في تلك اللحظة، بمعنًى قشيب! فهم، أيضاً، بائسون، وستنتشلهم شفاعة ابن اللّه من الرغام؛ وهم، أيضاً، فقراء، ولكن ابن اللّه سينقذهم من دمنة إملاقهم كي يودع بين أيديهم كنوزاً لا تنضب.

و تبيّن يسوع وهن إدراكهم، فتناول الأرغفة المبسوطة على السماط، وباركها، وكسرها، وقدّم لكلٍّ منهم قطعته، واضعاً تحت أنظارهم، جميعاً، الحقيقة المريعة :

– خذوا، فكلوا، هذا هو جسدي المبذول من أجلكم. وأنتم افعلوا مثل ذاك، تذكاراً لي.

إذن، هو لن يعود قريباً، كما خيّل لهم. فبعد أيّام القيامة الخاطفة، سيتلكّأ مجيئه الثاني، بحيث سينسونه وينسون موته.

" إفعلوا هذا، تذكاراً لي ". كسر الخبز، على المائدة المشتركة، بين من ينتظرون، سيكون علامة إخاءٍ جديد. لن أقتصر على الحضور، بين ظهرانيكم، كلّما كسرتم الخبز، ولكنّكم، أيضاً، بهذا الخبز ستتّحدون بي اتّحاداً حميماً. ومثلما أنا أجعل من هذا الخبز كِسَراً، كذلك سيقطّع أعدائي جسدي إرْباً إرْباً؛ وكما أنّ هذا الخبز الذي تأكلونه هذا المساء، سيغذّيكم حتّى الغد، كذلك، سيُشبع جسدي الذي سأقدّمه، وأنا أموت، لجميع البشر، جوع من سيؤمن بي، حتّى اليوم الذي ستُفتح فيه أهراء ملكوت السماوات، عندما ستصبحون شبيهين بالملائكة، تحت أنظار الآب. إنّني إذن، أترك أكثر من ذكرى : فسأكون حاضراً، حضوراً مغلّفاً بالسرّ، ولكنّه واقعيّ، في كلّ ذرّة خبزٍ ستُكرّس لي، وسيكون هذا الخبز غذاء الحياة الضروريّ للنفوس، وهكذا سيتحقّق وعدي بأن أبقى معكم حتّى انتهاء الدهور.

في هذا المساء، كلوا من هذا الخبز الفطير، من هذه الأرغفة المصنوعة من ماءٍ ودقيق قمح، المعجونة بأيدٍ بشريّة، التي تعرّضت لحرارة التنّور، والتي قسّمتها يداي اللتان ما برحتا حيّتيْن، والتي، بفعل حبّي، تحوّلت إلى جسدي كي تصبح غذاءكم الأبديّ. إنّه يطيب لقلب الصديق أن يقتسم مع أصدقائه الخبز المولود من الأرض، الخبز الذي كان نبتةً خضراء محاقةً بالزنابق، وسنبلةً ناضجةً تنحني على ساقها، ثقيلةً، شقراء. أنتم تعلمون كم تنطوي عليه لقمة الخبز من تعبٍ وقلق. الثيران الضخمة التي تجرّ المسحاة، والفلاّح الذي ينثر قبضات القمح في الثلم الشتويّ، والنبتة الجديدة المنتصرة، برقّة، على ظلمة التربة الرطبة، والحصّادون المنحنون، أيّاماً بأكملها، برقابهم التي لوّحتها الشمس، والمنجل الذي يمسي، في آخر النهار، أثقل من الفأس؛ ثمّ ربط الحُزَم، وحملها إلى البيدر، ودرسها. ثمّ انتظار شيءٍ من الريح – ليست شديدة القوّة، ولا شديدة الضعف – لتذرية الحَبّ، وفرزه عن القشّ؛ ثمّ يحين أوان الطحن، وغربلة الدقيق لفرز زهرته عن النخالة، وتسخين الماء، وإعداد العجين، وإضرام التنّور بالحطب والأعشاب الجافّة، على أن يتمّ كلّ ذلك في حبٍّ وصبر، كي يُحصل على ذلك الخبز الذي يقتسمه الأب مع أبنائه، والصديق مع أصدقائه، والمضيف مع الغرباء. أمام نار الشمس، ونار التنوّر، تصبّب عرق الحارث، والباذر، والحاصد، والمذريّ، والطحّان، والخبّاز، قبل أن تتحوّل حبّة البذار إلى خبزٍ ذهبيٍّ على مائدتنا.

في الحقيقة إنّه لعذبٌ تناول الخبز الطيّب مع الأصدقاء... ولكم تناولتموه معي في بيوت الفقراء! وسيتعيّن عليكم أن تستعطوه باسمي، سحابة حياتكم. ستنالون الكِسَر العفنة التي تأباها الكلاب، والكِسَر الجافّة التي بقيت في قعر المعجن، وتلك التي عضّها الصغار والشيوخ، ثمّ رموها أمام النار، أو على البلاط. ولكنّكم تعرفون التعب، وليالي الصوم، ووجه الفقر

الشاحب. أنتم معافون، ولكم متانة فكّ آكلي الخبز القاسي. ولن تيأسوا إن لم يُفسح لكم مكـــانٌ على المائدة.

و لكن، في الحقيقة، إنّه أشدّ عذوبةً على قلب من يحبّكم أن يحوّل الخبز الخارج مـــن الأرض القاسية، ومن الكدح الشاقّ، إلى جسد من سينحدر كلّ يوم من السماء، إنـــاء النعمـــة المرئيّ.

تذكّروا الصلاة التي لقّنتكم إيّاها : أعطِنا، اليوم، خبزنا اليوميّ. إنّ خبزكم اليـــوميّ لليوم وللأبد هو هذا الخبز : جسدي. من يأكل هذا الخبز، الذي سيتحوّل، كلّ صـــباح، علـــى مدى قرونٍ لا تُحصى، إلى عددٍ لا يحدّه حصرٌ من لُقم خبزٍ متحوّل، لن يجوع أبداً. وكلّ من يرفضه لن يرتوي أبداً، إلى دهر الدهور.

خمر ودم

بعد أن أكلوا الحمَل مع الخبز والأعشاب المرَّة، ملأ يسوع، للمـــرّة الثالثـــة، الكـــأس المشتركة، وقدّمها للتلميذ الجالس إلى جانبه، وقال : " إشربوا من هذا جميعكم، فهذا هو دمي، دم العهد المهراق من أجل خلاص الكثيرين. "

لم تكن قد أذنت، بعد، الساعة التي ينثال فيها دمه على الأرض، ممزوجـــاً بعرقـــه، هناك، على التلّة، تحت أشجار الزيتون؛ ولم يكن دمه قد انزلق، بعد، فوق المسامير، وانساب، قطرةً قطرة، على أرض الجلجلة. غير أنّ رغبته في منح الحياة مع حياته، وفي افتداء كلّ ألم العالم بآلامه، وفي منح ولو جزءٍ من جوهره إلى أقرب ورثته، وفي إيداع ذاته بالكامل بـــين يدي محبّيه، هذه الرغبة كانت من الشدّة بحيث استبقت تضحية الذات، وجعلت البذل ممكنـــاً. ولئن كان الخبز، هنا، هو الجسد، فيسوغ القول إنّ الدم هو النفس.

... عندما تلقّى موسى الشريعة، أمر بذبح عجول، وجمع في طسوتٍ نصف دمائهـــا وسكب النصف الآخر على الهيكل. "حينئذٍ أخذ موسى من هذا الدم ورشّ الشعب قائلاً : هـــذا هو دم العهد الذي عقده الربّ معكم... "

و لكن، فيما بعد، عقب امتحان الدهور، أعلن الله، بصوت أنبيائه، أنّ العهد القديم قد أُبطل واندثر، وأنّ عهداً جديداً بات ضروريّاً. فدم الحيوانات الذي سُكب على رؤوسٍ عنيدة، وعلى وجوه مجدّفين، قد فقد مفعوله الأصليّ، وأضحى لا مفرّ من دمٍ آخر، أرفع منشأً، وأثمن جوهراً، من أجل إبرام العهد الجديد، ومن أجل عقد العهد النهائيّ بين الآب، وذلك الجنس الخائن للعهود. ولطالما حاول اللّه، بشتّى الأساليب، في عهد الآباء، اقتياد اليهود، عنوةً، إلى باب الخلاص الضيّق. بيد أنّ مطر النار على صادوم، وماء الطوفان المطهّر، وأسر مصر، والمجاعة في الصحراء، قد روّعتهم، ولكنّها فشلت في إصلاحهم.

وها قد جاء الآن محرّر، أكثر ألوهةً، وأوفر إنسانيّةً من قائد الخروج القديم. فموسى أنقذ شعباً، وتكلّم من على جبل، وأعلن عن أرض ميعاد. أمّا يسوع، فلا ينقذ شعبه فقط، بل جميع الشعوب؛ والشريعة التي جاء بها لم يحفرها في حجر، بل دوّنها في القلوب. والأرض التي وعد بها ليست موطن أعشابٍ كثيفة مخضلّة، وكرومٍ جميلة العناقيد، بل هي ملكوت قداسة، وفرحٍ أبديّ. موسى قتل رجلاً، ويسوع أنهض موتى. موسى حوّل الماء دماً. ويسوع، بعد أن كان، قد حوّل الماء خمراً، في مأدبة عرس، حوّل الخمرة دماً، دمه الخاصّ، في أثناء وجبة خطوبته الكئيبة مع الموت. موسى مات وقد شبع أيّاماً ومجداً، على قمّة جبل منعزل، مُمجّداً من شعبه. ويسوع سيموت محاطاً بشتائم من يحبّ.

إنّ دم الحيوانات الأرضيّة النجس، تلك الضحايا الوضيعة المرغمة، لم يعد صالحاً. وها قد أُبرمت، هذا المساء، معاهدةٌ جديدة، بكلمات ذاك الذي قدّم، في الكأس، تحت مظهر الخمر، دمه الخاصّ ونفسه : " هذا هو دمي، دم العهد الجديد، المسفوك من أجلكم ".

هذا الكلام ليس موجّهاً إلى الاثني عشر الحاضرين، فحسب، فهؤلاء يمثّلون في عينيّ يسوع البشريّة كلّها، البشر الذين يعيشون في هذه الحقبة، وجميع الذين سيولدون من بعد. إنّ الدم الذي سينثال، غداً، على الجلجلة هو دمٌ حقيقيّ، دمٌ صافٍ وحارٌّ، يختلج بالحياة؛ سيتخثّر على الصليب، ولن تفلح دموع جميع المسيحيّين في محو آثاره، أبداً. ولكنّ دم العشاء الأخير، العجيب، هو صورة نفسٍ بذلت ذاتها بلا تحفّظ، واستسلمت بلا رجوع، كي تتمثّل بها النفوس التي ما انفكّت سجينة أجسادٍ بشريّة. هذه النفس تهب ذاتها لمن يستدعونها، ولمن يردّونها. وقد تألّمت في سبيل من يرحّبون بها، ومن يلعنونها. إنّ عماد الدم الذي تلا عماد الماء بيد يوحنّا، وعماد الدموع، بواسطة امرأة بيت عنيا، وعماد البصقات من قبل اليهود والرومانيين، إنّ عماد الدم هذا الذي يحاكي، بحمرته، عماد النار الذي أعلنه نبيّ النار، والذي سيمتزج بالدموع التي ستسكبها النساء القدّيسات على الجثمان الملطّخ بالدماء، هو السرّ الأسمى الذي سيورّثه، هذا المساء، يسوع المخان لخائنيه.

و لكأنّي بيسوع يقول: " لقد اقتسمت معكم الخبز – الخبز الذي تلتمسونه من الآب كلّ يوم – كما سيُقتسم جسدي غداً. إنّني، الآن، أُقدّم لكم دمي، في هذه الخمرة التي أرتشفها معكم للمرَّة الأخيرة على هذه الأرض. وكلّما فعلتم ذلك لذكري، لن تتضوّروا جوعاً، ولن تتلظّوا ظمأً. أفضل الأغذية خبز القمح، وخير شرابٍ خمر الكرمة : بيد أنّ الخبز والخمر اللّذين وهبتكما، هذا المساء، سيشبعانكم، وسيرويانكم، طيلة حياتكم، بفضل تضحيتي، وبفضل هذا الحبّ الذي حداني إلى التماس الموت، والذي سيظلّ سائداً، في ما يتخطّى الموت".

كان أوليس ينصح آخيل بأن يعطي الآخئيّين خبزاً وخمراً، قبل المعركة، قائلاً: "هذه هي عناصر القوّة والبسالة"، ففي رأي الإغريقيّ، تكمن قوّة الأعضاء في الخبز، والجرأة على القتل تثوي في الخمرة. فلتُنشِ الخمرة، إذن، الرجال كي يقتلوا، ولينعشهم الخبز، كي تضرب سواعدهم بلا وهَن. أمّا الخبز الذي يمنحه يسوع فيقوّي النفس لا الجسد، وخمرته تولي نشوة الحبّ الإلهيّة، ذلك الحبّ الذي سيدعوه الرسول جنون الصليب، مستثيراً استنكار أحفاد أوليس.

يهوذا، مثل الآخرين، أكل من هذا الخبز وشرب من هذه الخمرة، وتغذّى بذلك الجسد الذي تاجر به، وارتوى من ذلك الدم الذي سيسهم في إراقته. ولكنّه لم يمتلك جرأة الاعتراف بحقارته، والانكباب، باكياً، عند أقدام من كان سيبكي معه. وحينئذٍ أطلق الصديق الوحيد المتبقّي ليهوذا هذا التحذير: " الحقّ أقول لكم، إنّ واحداً منكم سيسلمني "

و ارتعد الأحد عشر لسماعهم هذا الإنذار. هم، أيضاً، بُعيد قليل، سيدَعون يسوع بين أيدي جند قيافا، ولكن لم يكن ليخطر ببال أحدهم أن يبيعه لقاء مال. وكانوا يراقبون بعضهم بعضاً واجفين، وهم يخشون أن يقرأوا على محيّا أحدهم شحوباً فاضحاً، وسألوا جميعهم، الواحد تلو الآخر : " هل انا هو، يا سيّد ؟ " وكذلك فعل يهوذا، جاهداً في إخفاء عاره تحت مظهر دهشةٍ مصطنعة، ولكنّ يسوع، الذي لن يدافع غداً عن نفسه، أبى، أيضاً، أن يتّهم، فاكتفى بترديد نبوءةٍ موجعة، في عبارةٍ أشدّ وضوحاً، فقال: " ذاك الذي وضع يده معي في القصعة، هو الذي سيخونني ".

و إذ كان الجميع تائهين في شكّهم القاسي، ويحدّقون فيه، جامدين، قال مجدّداً: "إنّ يد من سيسلمني، هي، هنا، على المائدة"

و لم يُضِف شيئاً. ولكنّه، كي ينفّذ، حتّى النهاية، التقليد العتيق، ملأ الكأس للمرّة الرابعة، وقدّمها للجميع كي يشربوا. وحينئذٍ تعالى ثلاثة عشر صوتاً منشداً النشيد المقدّس الذي يختم الطقس الفصحيّ. وكان يسوع يردّد كلمات صاحب المزامير القويّة، التي تبدو وكأنّها تأبينٌ نبويّ، قبل الدفن : " الأبديّ سندي، فلا أخاف. فما يستطيع البشر أن يفعلوه بي؟... كانوا قد أحاقوا بي كالزنابير، ولكنّهم انطفأوا مثل نار شوك... لن أموت، بل سأحيا. لقد أدّبني

الأبديّ بقسوة ولكنّه لم يسلمني إلى الموت. افتحوا أبواب العدل كي أدخل وأمجّد الأزليّ... الحجر الذي رذله البنّاؤون قد صار حجر زاوية... قيّدوا الضحيّة بالحبال، واقتادوها إلى زاوية الهيكل..."

لقد غدت الضحيّة جاهزة، وسيرى قاطنو أورشليم، غداً، هيكلاً جديداً من خشب وحديد. ولكنّ التلاميذ كانوا شاردين، مشوّشي الفكر، فلم يدركوا، من التراتيل القديمة، التي أنشدوها، تلميحاتها المشؤومة، ولا إشاراتها المنتصرة.

و بعد أن فرغوا من الإنشاد، خرجوا، في الحال، من الحجرة، ومن المنزل. وما إن أصبحوا خارجاً حتّى توارى يهوذا في ثنايا الليل. وتبع الآخرون، صامتين، يسوع الذي يمّم صوب جبل الزيتون، مثلما أَلِف أن يفعل، كلّ مساء.

أَبّا، أيّها الآب

كان هناك بستانٌ فيه معصرة زيت، فسُمّي "جتسماني"، (أي معصرة الزيت). كان رابضاً على تلّة مرتفعة حيث أَلِف يسوع وتلاميذه قضاء الليل، إمّا هرباً من ضوضاء المدينة الكبيرة، ومن روائحها الكريهة، وهم الذين اعتادوا هواء الريف الساكن النقيّ، أو خوفاً من غدر الخيانة، إن هم أقاموا وسط مساكن أعدائهم.

و حالما انتهوا إلى هناك، قال يسوع لتلاميذه : " أمكثوا ههنا، ريثما أمضي وأُصلّي، غير بعيدٍ عنكم ". ولكنّ قلبه كان مفعماً حزناً وكمداً، بحيث لم يُطِقْ أن يبقى وحيداً. فاستدعى الثلاثة الذين كان يؤثرهم بحبّه، سمعان بطرس، ويعقوب ويوحنّا. وعندما باتوا على انفراد "طفق يحزن ويكتئب، قائلاً: "إنّ نفسي حزينة حتّى الموت. إلبثوا ههنا، واسهروا معي".

لا أحد يعلم هل هم أجابوا، وبمَ أجابوا. ولكن يبدو أنّهم لم يعثروا، لمؤاساته، على تلك الكلمات التي تنبع من القلب، عندما يتألّم الإنسان لألم كائنٍ حبيب، بدليل أنّه انتحى عنهم أيضاً، وابتعد مسافةً قصيرة، وأَقام وحيداً يُصلّي.

لقد جثا على الأرض، ثمّ خرّ، معفّراً وجهه بالتراب وقال :

– أبّا، أبتِ، إنّك على كلّ شيء قدير؛ أيّها الآب، إن أمكن، فلتبعد عنّي هذه الكأس.

الآن، وقد بات وحيداً، وحيداً في قلب الليل، وحيداً وسط البشر، وحيداً أمام اللّه، أمسى بمكنته أن يظهر وهنه، بلا خجل. فهو إنسان، من لحمٍ ودم، يسير ويتنفّس؛ ويعلم أنّ أجَله قريب، وأنّ هذه الآلة التي هي جسده ستتوقّف، وأنّ قلبه سيكفّ عن الخفقان، وأنّ جسده سيُطعن ويُخترَق، وأنّ دمه سينثال على الحضيض.

إنّها التجربة الثانية. وكان الإنجيليّ قد قال إنّ إبليس، بعد أن فشل في تجربته له في الصحراء، "تركه إلى حين". تركه حتّى هذه الساعة. والآن، في هذه الصحراء الجديدة، في هذه الظلمة حيث يسوع وحيد، وأكثر وحدةً ممّا كان في الصحراء حيث كانت الوحوش المفترسة تخدمه – فيما، هنا، وحوشٌ أُخرى، مثقّفة ومن علّيّة القوم، تتربّص به كي تمزّقه – في صحراء الرعب والليل هذه، عاد إبليس كي يمدّ له آخر شباكه. في المرّة الأولى، كان قد وعده بأمجاد الأرض، وبالانتصارات والخوارق، وحاول اجتذابه بطعم السلطة. وهو الآن يلجأ إلى وسيلةٍ مغايرة، ويبني محاولته على وهنه. في مطلع رسالته قاوم المعمَّد المفعم رجاءً، الذي كان يضطرم فيه حبٌّ واثق، وصمد في وجه التجربة ولم ينحنِ؛ وأمّا المسيح الذي انتهى إلى آخر شوطه، وهجره أحبابه، وخانه تلميذه، وراح يبحث عنه أعداؤه، فهو كفيل بأن يقهره الخوف، حيث عجزت الكبرياء عن قهره.

.... إنّه يعلم أنّ عليه أن يموت، وأنّ موته محتّم، وأنّه جاء لكي يموت، ولكي يهب بموته الحياة، وكي يُثبت، بموته، حقيقة الحياة العظمى التي أعلنها؛ ولم يفعل شيئاً كي يتجنّب الموت؛ لقد ارتضى الموت، طوعاً، في سبيل ذويه، وفي سبيل البشر أجمعين، الذين يجهلونه، والذين يبغضونه، والذين لم يولدوا بعد؛ وقد أنبأ أصدقاءه بموته، وأعطاهم بواكير موته، خبز جسده، ودم نفسه، ولا يحقّ له أن يسأل أباه إقصاء الكأس عن شفتيْه، وإرجاء نهايته. لقد كتب أقواله على غبار الساحة، وسرعان ما محاها ودوّنها في قلوب بعض التلاميذ، ولكنّه يعلم أنّ الكلمات المحفورة في قلوب البشر لا تدوم طويلاً. ولكي تخلد حقيقته على الأرض، إلى الأبد، ولكي تتجلّى بحيث لا ينساها أحد، عليه أن يدوّنها بدمه، فالحقائق هي من طبيعة الدم، وينبغي أن ندوّنها بدم عروقنا على صفحات الأرض، لكي لا يمحو شيئاً من آثارها مرورُ البشر، وكرُّ الدهور. الصليب هو النتيجة المحتّمة لعظة الجبل. فمن يأتِ بالحبّ، يمسِ ضحيّة البغض، والبغض لا يُقهر إلاّ بقبوله. إذ لا بدّ من دفع ثمن كلّ شيء، دفع ثمن الخير أكثر من دفع ثمن الشرّ، وثمن الخير الأسمى أي الحبّ، هو الشرّ الأقصى الذي بيد البشر حوزته : أي القتل.

بيد أنّ كلّ ما نعرفه، بالإيمان وبالوحي، عن ألوهة يسوع، يعارض، معارضةً قاطعة، فكرة أن يكون استسلم للتجربة. فلو أنّه خشي، حقّاً، العذاب والموت، ألم يكن بوسعه تجنّبهما ؟ فمنذ أيّامٍ عديدة كان يعلم أنّ أعداءه يسعون إلى إعدامه ؟ وكان لديه وسائل كثيرة للإفلات حتّى في تلك الليلة، من جماعة الكلاب المتحفّزة للانقضاض عليه. فقد كان بوسعه، وحيداً، أو

برفقة أخلص أصدقائه، انتهاج الدرب الذي يقود إلى الأردنّ، ومن هناك، عبر دروب ملتوية، بلوغ تيترخيّة فيليبّس، حيث كان قد التجأ، قُبَيل ذلك، نأياً عن حقد هيرودس أنتيباس. وكانت الشرطة اليهوديّة على قدرٍ من الهشاشة والبدائيّة، بحيث كان سيتعذّر عليها اللحاق به. ولكنّه، ببقائه، أثبت ارتضاءه الموت وما يواكبه من أهوال. إنّ انتحاره –أوَ ليس موقفه انتحاراً وفق المنطق البشريّ ؟– انتحاره الإلهيّ، بأيدٍ غريبة، يحاكي انتحار الأبطال الأقدمين، الذين كانوا يلتمسون الموت، باللجوء إلى سيف صديق أو عبد. أجل، لم يكن هلاكه مصيراً لا مهرب منه. ولكن أيّة حياة تلك التي كان سيحياها لو هو لاذ بالفرار ؟ شيخوخةٌ لا مجد فيها، وقيادةٌ خائفة لشيعة سرّيّة، وتلاشٍ، وسأم، وموت، مثل جميع البشر.

أوَليس خيراً له، وبلا قياس، إتمام بذر الإنجيل من على الصليب، وإرواء البذور، بدمه؟ حقيقته، قد قالها، وهي، الآن معلنة، وكلّ ما يتعيّن، بعد، هو قرنها بصورة موتٍ رهيب، لكي تُذكر أبديّاً. وربّما كان من شأن هذا الدم أن يُبقي التلاميذ يقظين إلى الأبد، مثل شرابٍ منعش.

و لكن إن لم تكن رهبة الموت هي الكأس التي يبتغي يسوع إبعادها، فما هي تلك الكأس ؟ أهي كأس خيانة ذاك الذي اختاره وأحبّه، ذلك التلميذ الذي، في هذا المساء عينه، شبع من جسده، وارتوى بدمه ؟ أو كأس الإنكار الوشيك، من قبَل التلميذ الآخر الذي اعترف به مسيحاً، في قيصريّة، والذي، منذئذٍ، وضع فيه أَمله الأكبر ؟ أهو هجران جميع الآخرين الذي سيفرّون مثل حملانٍ خائفة، عندما يفترس الذئب أمّها ؟ أهو ألم إنكارٍ أوسع رقعة، إنكار شعبه كلّه ؟ فهذا الشعب الذي وُلد منه يزدريه، ويتوّخى إزالته مثل ولدٍ غير مرغوب فيه، ابن الصدفة الذي يؤتي العار، وهو يجهل أنّ دم ذاك الذي جاء ليخلّصه سيدمغه في جبينه بسِمَةٍ لا تُمحى.

و لربّما هو استشفّ، في كثافة ليلة السهاد، ما سيكون، عبر القرون، مصير أبنائه الأبعدين، وشدائد قدّيسيه الأوّلين، والخلافات التي ستنشب بينهم، والتخاذلات، والاستشهادات، والمذابح؛ وحالما تحمّ ساعة النصر، وهن المكلّفين بقيادة الشعوب، والانشقاقات التي لا التئام لها، وتمزّق الكنائس، وشذوذ البدَع وكبرياؤها، وطوفان الشِّيَع، وروح الفوضى التي يبثّها أنبياء كذبة، وتهوّر المصلحين المتمرّدين، والمتاجرة بالأقداس، وفسق الذين سينكرونه بأعمالهم، ويمجّدونه بحركاتهم الظاهرة وبأقوالهم؛ واضطهاد المسيحيّين بعضهم بعضاً؛ وتخاذل الفاترين؛ وهجران المتكبّرين؛ وسيطرة الفرّيسيّين والكتبة الجُدد، الذين سيشوّهون تعليمه وسيخونونه؛ وعدم فهم إنجيله عندما يقع بين يدي باحثين عن المهاترة، ومجرّدي الكلام عن مضمونه، ومُدّعي الرؤى، وعدّادي المقاطع، ووازني ما لا يزان، ومقسّمي ما لا يُقسَم،

يدفعهم تهوّرهم العلميّ إلى بقر بطون الأشياء الحيّة، وإلى تجزئتها إلى قِطَعٍ صغيرة، بحجّة بعثها إلى حياةٍ جديدة.

و بإيجاز، ليست كأس يسوع هي ما يلحق به، هو، من ألم، بل ما يقترفه من شرّ الآخرون، الحاضرون والأحياء، والبعيدون، في المستقبل. إنّه لا يسأل الآب أن ينقذه من الموت، بل أن يُنقذ من الشرّ، الآن وفي المستقبل، أولئك الذين يعلنون إيمانهم به. حزنه هو حزن حبّ، لا حزن خوف.

و لكن لن يعلم أحدٌ أبداً فحوى ما قاله، حقّاً، الابن للآب، في وحشة جبل الزيتون. مسيحيٌّ فرنسيٌّ عظيمٌ سمّى رواية أحداث تلك الليلة، سرّ يسوع. إنّ سرّ يهوذا هو السرّ البشريّ الوحيد في الإنجيل. وصلاة الجتسماني هي السرّ الإلهيّ الذي لا يُسبر له غور في تاريخ المسيح.

عرق ودم

بعد أن صلّى يسوع، عاد أدراجه، آملاً أن يجد تلاميذه ينتظرونه. ولكنّهم، هم الثلاثة، كانوا مستغرقين في النوم على الحضيض، ملتحفين بمعاطفهم. المختارون الأثيرون: بطرس ويعقوب ويوحنّا، كانوا مستسلمين لسلطان السُّبات؛ فالمخاوف المبهمة التي اعترتهم، في الأيّام الأخيرة، والكآبة المرهقة التي خيّمت على العشاء الأخير الذي اختُتم بكلماتٍ خطيرة، وبتوجُّساتٍ تقطر غمّاً، كلّ تلك المؤثّرات المتعاقبة، كانت قد انتهت بهم إلى ضربٍ من النعاس، هو أقرب إلى الخَدَر منه إلى الإغفاء الطبيعيّ. وخاطبهم صوت المعلّم : " أَلم تستطيعوا أن تسهروا معي ساعةً واحدة ؟ إسهروا وصلّوا، لكيلا تقعوا في التجربة. إنّ الروح نشيط، أمّا الجسد فضعيف ".

هكذا ناداهم صوت المعلّم. يا لنبرة ذلك الصوت، في صمت الليل المريع ! ومن منّا لا يسمعه في أعماق ذاته ؟

هل سمع التلاميذ أقوال يسوع، وقد هيمن عليهم النعاس، وكأنّهم في حلم ؟ وهل أجابوه، خجلين، وهم يفركون بأيديهم عيوناً أثقلها الكرى ؟ ولكن بمَ عساهم يجيبون ذلك القلِقَ الذي لن يعهد، بعدُ، نوماً، وقد استولى عليهم اضطراب الإيقاظ المفاجئ؟

ابتعد يسوع، ثانية، وقد عصر الغمّ قلبه. أوَ لم تراوده، هو أيضاً، تلك التجربة التي حذّر تلاميذه من السقوط فيها، مزيّنة له الهرب، أو إنكار رسالته، كما سينكره أصدقاؤه، أو

مقاومة العنف بالعنف، أو اقتضاء ثمنٍ باهظٍ لحياته ؟ أو لعلّه، بتوسُّلٍ جديدٍ بائس، يلتمس أن ينأى عنه الخطر الداهم ؟

و ها إنّه وحيدٌ، من جديد، وأكثر وحدةً وعزلةً من قبل، عزلة مطلقة تحاكي وحشة اللامحدود. حتّئذٍ، كان يأمل أن يسهر أصدقاؤه إلى جانبه. ولكنّهم، هم أيضاً، وقد أُوسعوا غمّاً، تخلّوا عنه. تخلّت عنه نفوسهم، قبل أن تتخلّى عنه أجسادهم، وتركوه وحيداً. لم يستطيعوا أن يقدّموا له هذه الخدمة الأخيرة، هم الذين تلقّوا منه الكثير. في مقابل منحه إيّاهم دمه وروحه، في مقابل الجمّ من الحبّ والوعود، لم يسألهم سوى مقاومة النعاس، ساعةً واحدة، وهذا القليل لم يستطيعوا تقديمه له. ومع ذلك، وفي تلك اللحظة، هو يتألّم ويكافح من أجل هؤلاء النيام. ذاك الذي وهب كلّ شيء، لن ينال شيئاً. وفي ليلة النبذ تلك، رُدّت كلّ صلواته، وأمسك عنه الآب، مثلما أمسك عنه البشر، كلّ عون.

إبليس نفسه ابتعد متسربلاً بظلمته، والمسيح وحيد، وحدةً مُبرَمة. إنّه وحيد، مثلما هم دائماً وحيدون أولئك الذين يرتقون فوق الآخرين، ويُعانون في الليل، لكي يهبوا الجميع النور. وسط الشعب الغافي، وحده البطل متيقّظ : إنّه القبطان الساهر على السفينة، في عزلة البحر والليل، فيما الرفاق ينالون قسطهم من الراحة.

يسوع هو الأكثر وحدةً بين جميع المتوحّدين الأبديّين. المدينة الغافية تبسط، في ما وراء قدرون، بياضها الليليّ الموشّى بالظلّ، وفي جميع المدن، في جميع بيوت الأرض، ينام، في تلك الساعة، جنس البشر الزائل. وحدهم يسهرون، في تلك الساعة، المرأة التي تترقّب نداء الرجل، والسارق المتربّص في العتمة، وربّما فيلسوف يبحث، متأمّلاً، متسائلاً هل اللّه موجود.

و لكن، في تلك الليلة، آخرون كانوا ساهرين : زعماء اليهود وأزلامهم، في حين أنّ من كان عليهم الذود عن يسوع، أو، أقلّه، من كان بوسعهم مؤاساته، أولئك الذين يدّعون حبّه، وربّما يحبّونه بطريقتهم، هؤلاء غارقون في أحضان الكرى. ولكنّ الذين يبغضونه ويبتغون قتله لا ينامون. فقيافا لا يجد إلى النوم سبيلاً، ووحده يسهر، من التلاميذ، يهوذا.

حتّى مجيء يهوذا، كان المعلّم وحيداً مع حزنه. ولكي يخفّف من وطأة وحدته، التفت صوب أبيه، مصلّياً من جديد. مرَّة أُخرى، حاولت كلمات التوسّل، التنامي إلى شفتيه، ولكنّه ردّها. فإن ارتعد منه الجسد، إلاّ أنّ الإله الذي يقطنه ويحدوه، كان راضياً، فرِحاً بما أراد. ذلك الصراع هزّ كلّ كيانه إلى أن ضمن له أنّ النصر جهدٌ أقصى، جهدٌ يفوق طاقات البشر. فتهاوى، منتصراً. ارتمى، مُنهكاً، ولكنّه كان منتصراً.

مرَّةً أُخرى روّض الروح الجسد، ولكن، بعد هذا الصراع، لم يعد الجسد سوى كتلةٍ هامدةٍ تنزف. لقد سيمت الطبيعة البشريّة من العنف ما هدّ أركانها، وغمر العرق الله، ولكأنّه

بذل جهداً مرهقاً. لم يكن العرق الذي يتصبّب منه هو ذاك الذي يبلّل صدغي من يسير تحت الشمس، ولا عرق من يكدح في الحقل، أو من يهذي من الحمّى، بل كان ماءً ينضح من كلّ جسمه. الدم الذي وعد به البشر بدأ ينثال على عشب بستان الزيتون. فقد أخذت قطرات دمٍ كبيرة تنهمر على الأرض، ممزوجةً بالعرق، وهي أولى ضرائب الجسد الخاضع، وبدء الانعتاق، كما لو أنّه، بنبذه طبيعته البشريّة مع ذلك السائل الدامي، كان يتخفّف من عبء التكفير الأشدّ ثقلاً.

و حينئذٍ، من شفتيه المبلّلتين بالدموع، والعرق، والدم، تفجّرت صلاةٌ جديدة :

–" يا أبتاه، إن لم يكن بدٌّ من شربي هذه الكأس، فلتكن مشيئتك".

بذلك أُنكرت كلّ دناءة، وأنكر الفرد ذاته، متخلّياً عن إرادته، مستغرقاً في الكلّيّ، إذ إنّه، فيه وحده، يجد الحرّيّة الحقّة. لم يعد يسوع إنساناً، بل هو الإنسان، الإنسان المتّحد اتّحاداً كاملاً باللّه، الذي بات، مع اللّه، واحداً : أريد ما أنت تريد. غلبته على الموت باتت محقّقة؛ إنّه يشترك مع الأبديّ؛ إنّه إله، ومن ثمّ، لن يموت : "من شاء أن يخلّص نفسه يهلكها، ومن أهلك نفسه يخلّصها".

و نهض يسوع، وقد سكنت نفسه، وعاد إلى تلاميذه الذين لم يكن لتحذيره الحزين، فيهم، أيّ أثر. فقد استسلموا، مجدّداً، لسلطان النوم، وقد أنهكهم النَصب. في هذه النوبة، لم يوقظهم يسوع، فهو ما عاد في حاجةٍ إلى مؤاساتهم. ولكنّه ارتمى على ركبتيه، ثانية، ووجّه لأبيه عبارة الاستسلام الأقصى: "لا كما أشاء، بل كما تشاء أنت"

لم يعد اللّه في خدمة الإنسان، فحتّئذٍ كان الناس يسألون اللّه، مقابل التراتيل والتقادم، تحقيق رغباتهم، طالبين الثروة، والخلاص، وخصب الحقول، والقضاء على الأعداء. وها قد جاء من قَلَب كلّ شيء، وغيّر معنى الصلاة القديم: لا ما يرضيني، يا ربّ، بل ما يرضيك: "لتكن مشيئتك على الأرض، كما في السماء". ففي التوافق بين مشيئة الآب العليا، ومشيئة الإنسان الخاضعة، في تلاقيهما وتماثلهما، تكمن السعادة الوحيدة. وما همّ إن دفعتني مشيئة اللّه إلى أيدي الجلاّدين، وسمّرتني على عارضتين من خشب، مثل بهيمة مؤذية ملعونة ؟ إن كنتُ أؤمن بالآب، فأنا أعلم أنّ الآب يحبّني أكثر ممّا يسعني أن أحبّ ذاتي، وأنّه يعلم عنّي أكثر ممّا أستطيع أن أعرف. ومن ثمّ، هو لا يستطيع أن يريد لي سوى الخير، حتّى ولو بدا هذا الخير، في عيون البشر، أكثر الشرور بشاعة. ولا ريب أنّ خيري هو إرادتي ما يشاؤه الآب.جنونه هو أكثر حكمةً، بما لا يُقاس، من حكمتنا، والاستشهاد الذي يفرضه عليّ، هو نعمةٌ تفوق كلّ فرحٍ أرضيّ.

لقد بات بوسع التلاميذ أن يناموا، وبوسع جميع البشر أن يستغرقوا في السُّبات، فلم يعد المسيح وحيداً، إنّه سعيدٌ بالتألّم، سعيدٌ بالموت، لقد وجد سلامه في شدّة النزاع. وها هوذا يشدّ السمع، في شبه رغبةٍ قلقة، كي يسمع، في ثنايا الليل، وقع خطوات يهوذا المصعّدة.

بادئ الأمر لم يسمع سوى خفقات قلبه الساكن. ثمّ تنامى إليه، مثل صدى وطءٍ خافت، ثمّ أخذت تظهر وتختفي، هناك، من خلال الأشواك المحيقة بالطريق، أضواء حمراء. إنّهم أزلام قيافا الساعون خلف يهوذا.

حينئذٍ التفت يسوع إلى التلاميذ الثلاثة الذين ما برحوا نياماً، وقال لهم بجرْسٍ هادئ: "هيّا، لقد أزفت الساعة، فلننهض ونسِرْ، فالخائن يقترب" .

و أيقظت الجلبة سائر التلاميذ الذين كانوا نائمين، على مسافةٍ قريبة، فهبّوا واقفين، ولكن لم يتسنّ لهم الردّ على المعلّم، فقد وصلت الفرقة، وتوقّفت، فيما كان يسوع ما زال يتكلّم.

ساعة الظلمات

هؤلاء الجند هم أوباشٌ مأجورون من قبل السنهدرين، ومن الهوامّ القارضة التي يعجّ بها الهيكل. إنّهم أحقر طفيليّي المعبد، من بوّابين وكنّاسين، وقد أُلبسوا، على عجل، ثياب محاربين، وامتشقوا، في ذلك المساء،سيوفاً، مستبدلين بها المكانس والمفاتيح. يقول الإنجيليّون إنّهم كانوا حشداً كبيراً، مع علمهم بأنّهم لا يواجهون سوى اثني عشر رجلاً لا يملكون سوى سيفَيْن. ولا غروَ في ذلك، فالأنبياء، حتّى العزّل منهم، يشيعون دائماً، في قلب الرعاع، رعدة.

من غير المرجّح أن يكون بين هؤلاء جنود رومانيّون، أو قائد ألف، فقد استهدف قيافا وضع الوالي أمام أمرٍ واقع، وكانت القوّات القليلة التي يتحكّم بها، وهي أثرٌ ضئيل لجيش داود، بمساعدة بعض الزبانية والخدم، كافية للقيام بمهمّتها، بلا مخاطرة.

تلك اللمامة من الأنذال كانت قد صعّدت وهي تحمل المشاعل والفوانيس، ولكأنّها تقيم حفلةً ليليّة. كان اللهب يتراقص، فيضيء، بانعكاساتٍ حمراء، وجوه التلاميذ المتجهّمة، ووجه يهوذا الشاحب. وقدّم يسوع وجهه الذي لطّخه النجيع، ومع ذلك كان يتألّق أكثر من جميع الأنوار، لقبلة الإسخريوطيّ، قائلاً : – "علامَ جئت، يا صاح؟ ألتسلم ابن البشر بقبلة؟"

كان يسوع يعلم أنّ تلك القبلة هي أولى عذاباته، وأقساها احتمالاً، وأنّها العلامة التي، بها، سيتعرّفه جند قيافا، بعد أن أنذرهم يهوذا، في الطريق: "ذاك الذي سأقبّله، هو من تسعون

إليه، فتأكّدوا من القبض عليه". غير أنّ تلك القبلة كانت، أيضاً، اللطخة الأولى، والأكثر بشاعة، التي لوّثت فماً تفجّرت منه، في الجحيم الأرضيّ، الكلمات الأكثر إلهيّةً التي تسنّى للبشر سماعها يوماً. لا البصقات، ولا صفعات رعاع اليهود والجند الرومانيّين، ولا الإسفنجة المشبعة خلاًّ التي لامست شفتيه، تقارب، في بشاعتها، تلك القبلة من فم من كان يدعوه صديقاً ومعلّماً، من رشف من كأسه، وأكل من خبزه.

بعد أن شهدوا العلامة المتّفق عليها، دنا أكثر الجند جرأة، فقال لهم الربّ :

-" عمّن تبحثون ؟

-عن يسوع الناصريّ.

-"أنا هو"

و لدى سماعهم ذلك الجواب، تراجعوا، ربّما بتأثير نبرة صوته الهادئ، أو ببريق عينيه الإلهيّتين. أمّا يسوع، الذي كان، حتّى في تلك اللحظة، قلقاً على خلاص ذويه، فقال:

-" لقد قلت لكم إنّني أنا يسوع، وبما أنّكم تطلبونني، أنا، دعوا هؤلاء يمضوا في سبيلهم "

و حينئذٍ، في حومة الفوضى، أفاق بطرس من خَدَره وخوفه، فاستلّ سيفاً، وقطع به أذن ملكس، خادم قيافا. لم يكن سلوك بطرس، في تلك الليلة، سوى مجموعة تشوّش وتناقضات. ففي أعقاب العشاء كان قد أقسم بعدم التخلّي عن يسوع، مهما حدث، وإذ به، في البستان، يستسلم للسبات، ولا يقوى شيء على إيقاظه، وها هو ذا الآن يتصدّى، بعد لأيٍ، للدفاع عن معلّمه، بالسيف، وعمّا قريب سينكر، بقسمٍ، معرفته له.

غير أنّ سلوكه النافل والانفعاليّ هذا، سرعان ما استنكره يسوع قائلاً :

- " أعد سيفك إلى غمده، فمن استخدم السيف، هلك به. أأرفض ارتشاف الكأس التي أعدّها لي أبي ؟ "

ومدّ يديه للجند الذين سارعوا إلى قيدها بحبالٍ جاؤوا بها. وفيما كانوا يقيّدونه قال لهم: "لقد جئتم مسلّحين بسيوف وعصيّ، ولكأنّني لصّ. مع أنّي كنت أجلس، كلّ يوم، وسطكم، معلّماً في الهيكل، ولم تضعوا عليّ يدكم. ولكن هذه هي ساعتكم، ساعة سلطان الظلمة "

إنّه نور العالم الذي تبتغي الظلمات إطفاءه، ولكنّها لن تقوى إلاّ على حجبه، فترةً وجيزة. هكذا نشهد، صيفاً، كتلةً كثيفة من الغمام تخفي، فجأةً، الشمس التي لا تلبث أن تتجلّى من جديد، وهي أكثر سموقاً في السماء، وتألّقاً.

كان الجند على عجلةٍ في العودة منتصرين، لتلقّي أجرهم، فلم يبالوا بالردّ على يسوع، بل انطلقوا على الدرب الوعر المنحدر نحو المدينة، وهم يجرّون يسوع بحبل، مثلما يساق ثورٌ إلى المسلخ. ويعترف الإنجيليّ متّى بأنّ جميع التلاميذ، حينئذٍ، هجروه وفروّا. لقد كان

المعلّم يعارض كلّ مقاومة؛ وهو، المسيح، لم يلجأ إلى صعق أعدائه، بل مدّ رسغيه للوثـــاق، ولكأنّ المخلّص عاجز على تخليص نفسه.

ماذا كان بوسع التلاميذ أن يفعلوا ؟ لا شيء سوى التواري، لكيلا يُساقوا، هم، أيضاً، أمام السلطات التي كانوا، في الأمس، يحلمون في إزاحتها، إلاّ أنّها، اتّخذت، فجأة، على ضوء المشاعل وبريق السيوف، منظراً رهيباً، في خيالهم المضطرب. إثنان منهم، فقط، كانا يتعقّبان الموكب الحزين، وسنلقاهما في فناء قصر قيافا.

تلك الجلبة كانت قد أَيقظت شابّاً راقداً في غرفة طاحون. ودفعه فضول الشباب إلـــى الخارج، قبل أن يهب نفسه فرصة ارتداء ثوب، متلفّعاً بغطاء فحسب، مستجلياً مـــا يجـــري. وخُيّل للجند أنّه واحدٌ من التلاميذ لم يتسنّ لـــه الفرار، فحاولوا القبض عليه، ولكنّه ترك بين أيديهم غطاءه، وفرّ عارياً .

لم يُعرف، قطّ، من كان ذلك الشابّ المجهول، الذي توارى، في ثنايا الليل، بغتةً، مثلما ظهر. ربّما كان هو الفتى مرقس، الوحيد بين الإنجيليّين الذي دوّن، فيما بعد، هـــذه الواقعـــة الغريبة. وربّما لأنّه كان، في تلك الليلة، الشاهد الأوّل، على غير قصد، لبـــدء آلام يســـوع، توخّى أن يكون، يوماً، أوّل مؤرّخٍ لها، وقد فعل.

حنّان

سرعان ما اقتيد يسوع إلى قصر حنّان، حيث كان يسكن، أيضاً، صهره، قيافا، رئيس الكهنة. ومع أنّه كان قد انقضى من الليل معظمه، ومع أنّه كان شائعاً، منذ العشيّة، أنّ المجدّف سيؤتى به في الصباح الباكر، كان ما زال معظم القضاة نياماً، ولم يكن ممكناً الشـــروع فـــي المحاكمة، في الحال. إلاّ أنّ الرؤساء كانوا على عجلةٍ من إنهاء القضيّة في الصـــباح، لكـــيلا يفسحوا مجالاً للشعب أن يثور، ولا لبلاطس أن يُعمل في الأمر فكره. فأُنفـــذ بعـــض الجنـــد العائدين من جبل الزيتون لإيقاظ القضاة واستقدامهم. وفي تلك الأثناء، رغب حنّان العجـــوز، الذي قضى ليله ساهراً، في استجواب النبيّ الكاذب، لحسابه الخاصّ.

حنّان بن شيث، كان قد اضطلع، سحابة سبع سنوات، بوظيفة رئيس الكهنة، ومع أنّه أُقصي في عهد تيبيريوس، إلاّ أنّه كان ما يزال، فعلاً، علـــى رأس الملّـــة اليهوديّـــة. ذلـــك الصدّوقيّ، زعيم واحدةٍ من أرفع أسر السلطة الدينيّة وأوفرها غنـــىً، كـــان يمـــارس علـــى

جماعته، بواسطة صهره، سُلطةً لا تُنازع. خمسةٌ من أحفاده أصبحوا، فيما بعد، رؤساء كهنة، وواحدٌ منهم، المدعوّ حنّان، مثله، هو الذي سيأمر برجم يعقوب، أخي الربّ.

اقتيد يسوع، إذن، أمام حنّان، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يقف، فيها، نجّار الناصرة، وجهاً لوجه، أمام زعيم شعبه الدينيّ، وعدّوه الحقيقيّ الأكبر. حتّئذٍ، لم يكن قد التقى، في الهيكل، سوى موظّفين من درجةٍ دنيا، كتبة وفرّيسيّين. وها هو ذا أمام زعيم الجماعة، بصفته متّهماً، لا بصفته مقاضياً. كان ذاك هو الاستجواب الأوّل، في ذلك النهار، وكان على يسوع، في غضون سُوَيْعات أن يمثل أمام أربع سلطات : إثنين من أساطين الهيكل، حنّان، وقيافا، واثنين من سلاطين الدنيا، هيرودُس وبيلاطُس.

لقد توخّى حنّان، أوّلاً، معرفة من هم تلاميذ يسوع؛ وكان ذاك هو سؤاله الأوّل. إذ لم يكن الكاهن السياسيّ العجوز يعلّق كبير شأن على أساطير المسيحانيّة، وما كان يعنيه سوى استبيان فئات الشعب التي تتكوّن، من وسطها، الشيعة الجديدة، ومدى نفوذ التعليم الثوريّ في الشعب. بيد أنّ يسوع رمقه، ولم يُجِب. أوَكان، حقّاً، بائع الحمام يظنّ أنّ يسوع سيخون خائنيه؟

ثمّ استوضح حنّان عن فحوى تعليم يسوع، الذي أبى إعلانه له، مكتفياً بالقول :

– " لقد حدّثت الشعب جهاراً، وعلّمت في المجامع، وفي الهيكل حيث يلتئم اليهود. وليس لديّ أسرار، فعلامَ تستجوبني ؟ إسأل، بالأحرى، أولئك الذين سمعوني، فهم على علمٍ بما علّمت ".

و في الواقع، لم ينطوِ تعليم يسوع على أيّة أسرار. ولئن هو باح لتلاميذه ببضع وصايا لم يردّدها على مسامع الجماهير، إلاّ أنّه حرّضهم على أن يجأروا، على الأساطيح، بما قاله لهم خلف أبواب موصدة. غير أنّ حنّان تجهّم حيال ذلك الجواب الذي كان يفترض محاكمةً عادلة؛ ولا عجب إن التفت أحد الحرّاس إلى المتّهم، وصفعه، قائلاً : " أهكذا تجيب رئيس الكهنة ؟ "

تلك الصفعة كانت فاتحة الإهانات التي ستواكب المسيح حتّى الصليب. ولكنّ يسوع، الذي كان خدّه ما انفكّ مضرّجاً بالحمرة الذي أحدثته الصفعة، حدّق في المتوحّش الذي صفعه وقال:

– " إن كنت قد أسأت القول، فبيّن لي أين أخطأت. أمّا إن كنت قد تكلّمت بالصواب، فعلامَ تضربني ؟ "

ذلك الجواب المفعم عذوبة، أفحم الجنديّ، فلم يدرِ بما يجيب، وتبيّن لحنّان أنّ ذلك الجليليّ لم يكن مغامراً سوقيّاً، فباتت رغبته الكبرى التخلّص منه.

وعندما أدرك أنّه لن يقوى على انتزاع أيّ شيء منه، أعاده إلى قيافا، كي يقوم هذا، في الحال، بإعداد تمثيليّة محاكمةٍ نظاميّة.

صياح الديك

من الأحد عشر تلميذاً الذين فرّوا، اثنان فقط، خجلين من جبنهما، كانا قد عادا أدراجهما، وتعقّبا، عن بعد، وهما يتلطّيان بظلال الجدران، موكب المشاعل المتموّج. كانا سمعان بطرس، ويوحنّا بن زبدى.

يوحنّا الذي كان معروفاً لدى جماعة قيافا، دخل بيُسر إلى فناء القصر في الوقت عينه الذي دخل يسوع. أمّا بطرس، فكان أشدّ خجلاً ووَجَلاً، ولم يجرؤ على مواكبته، بل ظلّ واقفاً عند الباب. وإذ افتقده يوحنّا، الذي لم يكن راغباً في البقاء وحيداً، كلّم حارسة الباب وأقنعها، رغم ارتيابها، بالسماح لرفيقه بالدخول. وفيما كان يهمّ بطرس بالولوج تعرّفته المرأة، وسألت: "ألست أحد تلاميذ هذا الرجل الذي قُبض عليه وجيء به الآن؟"

و تظاهر بطرس باستنكار ذلك السؤال المهين، وأجاب :

" لا، لست أعرفه، ولست أفهم ما تقصدين"

ومضى فجلس إلى جانب يوحنّا، حول موقدٍ كان الجند قد أضرموا فيه ناراً، في فناء القصر، فقد كانت تلك الليلة باردة، مع أنّها كانت من ليالي نيسان. غير أنّ شكوك المرأة لم تتبدّد، فدنت من النار، وتفرّست ثانية في بطرس، وقالت :

– " أجل، أنت أيضاً كنت مع يسوع الناصريّ ! "

و مرّةً ثانيةً أنكر شافعاً إنكاره بأغلظ الأَيمان، مردّداً :

– " لقد قلت لك أنّني لا أعرف هذا الرجل "

و عادت المرأة إلى جوار الباب، وهي تهزّ رأسها، غير مصدّقة. وأثار عنف إنكار بطرس ريبة الجند، فراحوا يراقبونه عن كثب، وقالوا له :

– " من المحقّق أنّك أحد هؤلاء، فهذا واضح من لهجتك "

و راح يُنكر ويُقسم، مجدّداً، إلى أن قاطعه رجلٌ قريبٌ لملكُس الذي كان بطرس قد قطع أذنه، وصاح :

– " ألست أنت من شاهدته، قبل قليل في البستان، برفقة يسوع ؟"

ولكنّ بطرس أمعن تورّطاً في الكذب، وفي الادّعاء بأنّهم يشتبهون به، ونافياً، بمزيدٍ من الأقسام، كونه تلميذاً لذاك الرجل.

في تلك الأثناء كان يسوع يجتاز فناء القصر، موثق اليدين، وسط الحرس الذين كانوا يقتادونه إلى قيافا، فسمع أقوال بطرس، ورنا إليه، وحطّ عليه نَظر تيْنك العينين اللتين كان الجاحد قد رأى، فيهما، يوماً، ألق الألوهة، واللتين كانت عذوبتهما في تلك اللحظة أصعب احتمالاً من الازدراء. وقد ظلّت نفس بطرس الولهى جريحة تلك النظرة، أبداً، وستظلّ، حتّى الموت، ترى تَيْنَك العينَيْن الواسعتَيْن الحزينتَيْن، العذبتَيْن، اللّتَيْن استقرّت عليه نظرتهما، في ليلة الرعب تلك.

تلك النظرة كانت تقول، خيراً من ألف كلمة :

" أنت، أيضاً، يا من كان أوّل أوليائي، ذاك الذي وضعت فيه أكبر أمل، أنت الأقسى والأشدّ اندفاعاً، الأكثر جهلاً ولكن الأوفر إخلاصاً، أنت الذي سمّاني باسمي الحقّ، قرب قيصريّة، أنت، يا من كان يلقي خدّه على معطفي كي ينام، وغالباً ما قبّلني بفمه، أنت أيضاً، تجحدني، يا سمعان بطرس بن يونا، وها أنت تنكر معرفتي، أمام الذين يتأهّبون لقتلي. ألم يكن أَوْلى بك أن تتوارى، وتفرّ مثل الآخرين، طالما لا تملك قوّة مشاركتي ارتشاف الكأس التي طالما حدّثتك عنها ؟ امضِ، ولا أرينّك حتّى يوم أَتحرّر، ويوم يكون الإيمان قد جدّدك. إن كنت خائفاً، فعلامَ أنت هنا ؟ وإن كنت لا تخاف، فعلامَ أنكرتني ؟ لقد كان يهوذا أكثر صدقاً منك : فقد جاء إليّ مع أعدائي، ولم ينكر معرفته لي. إيه بطرس، لقد حذّرتك بأنّك ستتخلّى عنّي كالآخرين. ولكنّك الآن، أقساهم، جميعاً. ومع ذلك، فقد سامحتك، في قلبي، وإنّي أحبّك مثلما أَحببتك دائماً، فأنا هنا لكي أموت وأغفر. ولكن، أنت، يا بطرس، هل ستقوى، يوماً، على أن تغفر لنفسك ؟ "

تحت وطأة تلك النظرة طأطأ بطرس رأسه؛ كان قلبه يخفق خفقاتٍ متسارعة، ووجهه يحترق، ولكأنّ الموقد القريب منه غدا أفواه جهنّم. الألم والندم كانا يعتصرانه، فكاد يُغمى عليه، وأمسى جسده كلّه جليداً وناراً في آنٍ واحد. قبل لحظات كان قد قال أنّه يجهل يسوع، وفي الحقيقة، بدا له، حينئذٍ، أنّه يتعرّفه للمرَّة الأولى؛ ها إنّه يرى من هو يسوع : عينان محبّتان مليئتان عتباً، اخترقتاه ببرقهما، مثل سيف ملاك.

بمشقّة نهض وشخص نحو الباب متعثّراً، وما كاد يخرج إلى أحضان الفجر الخاوية، حتّى تعالى، من بعيد، صياح ديك. ذلك الهتاف الفرح والجريء كان الصرخة المفاجئة التي أيقظت بطرس من كابوسه، ولكأنّه ذكرى مباغتة لقولٍ سمعه في حياةٍ أُخرى، أو كأنّه عودة إلى بيت طفولتنا عندما ينبسط النهار الوليد على الريف وعلى البحيرة؛ أو كأنّه صوتٌ نُسي منذ زمان، يضيء ماضياً متمادي الطول، مثل بريقٍ في مطاوي الليل. وشوهد، في ضوء الفجر المبهم، رجلٌ يهرب، وقد أخفى رأسه بمعطفه، واهتزّت كتفاه اهتزازاً يائساً، بفعل نحيب ألمٍ لا عزاء له.

إبكِ، يا سمعان بطرس، طالما يهبك اللّه، الآن، نعمة الدموع. إبكِ عنك، وعنه، هناك. إبكِ فرار إخوتك، وخيانة أحدهم؛ إبكِ من أجل من يموت كي يخلّص نفسك المسكينة. إبكِ من أجل الذين سيخلفونك، وعلى غرارك سيجحدون محرّرهم، ولكنّهم لا يفتدون نفوسهم بالنـــدم؛ إبكِ من أجل الجاحدين والمنكرين، من أجل الذين سيقولون كما قلت أنت: "أنـــا لســـت مـــن أتباعه". ومن منّا لم يفعل، ولو مرَّةً واحدة، ما فعله بطرس. كم منّا من وُلـــدوا فـــي كنيســـة المسيح، ودعوا يسوع، في صلواتهم، بأفواههم الطفلة، وجثوا أمام صورته النازفة دماً، ثمّ جاء يوم قالوا فيه، مخافة هزء الناس : " أنا لم أعرفه قطّ ! "

أنت، على الأقلّ، يا سمعان المسكين، ومع أنّك بطرس، سكبت كلّ دمـــوع مآقيـــك، وأخفيت بمعطفك وجهك الخجل، المضطرب. وبعد أيّامٍ قليلة، سيقبّلك من جديد، القـــائم مـــن الموت، لأنّ نحيبك قد طهّر فمك الجاحد.

الثوب الممزّق

اسم قيافا الحقيقيّ هو يوسف؛ وما قيافا سوى لقب، وهو، من المصدر عينه الذي اشتقّ منه اسم كيفا، وهو لقب سمعان، أي بطرس. في صباح يوم الجمعة ذاك، كـــان ابـــن البشـــر مقحماً بين صخرين. سمعان بطرس (صخر) يمثّل الأصدقاء الخائفين، العاجزين عن إنقاذه، ويوسف (صخر) يمثّل الأعداء المصمّمين على إهلاكه، بأيّ ثمن. بـــين خيانـــة ســـمعان، وبغض يوسف، بين رأس كنيسةٍ حُمَّت ساعة موتها، ورأس الكنيسة التي ستولد، يحاكي يسوع حبّةً بين رحيَيْن.

كان السنهدرين ملتئماً، ينتظر. وإلى جانب حنان وقيافا اللّذيْن كانا يترأّســـانه، كـــان، ثمّة، يوحنّا والإسكندر، وكلّ صفوة الأرستقراطيّة اليهوديّة المتعجرفة. كان السنهدرين يتألّف، عادة، من ثلاثة وعشرين كاهناً، وثلاثة وعشرين كاتباً، وثلاثة وعشرين شيخاً، ومن رئيسين، ويبلغ مجموعهم واحداً وسبعين عضواً، أي ما يساوي تقريباً عدد تلاميذ يسوع. ولكـــن، فـــي ذلك اليوم، كان بعضهم غائبين، منهم من كان خوفهم من نشوب شغبٍ أقوى من نقمتهم على النبيّ الكاذب، ومنهم، وهم أقلّ عدداً، من لم تكن لديهم رغبةٌ في رفع أصابعهم تأييداً لإدانـــة يسوع، ولكنّهم ما كانوا يجرؤون على تبرئته، جهاراً. ومن بين هؤلاء الأخيرين لابدّ من إيراد اسميْ نيقودمس، تلميذ يسوع الليليّ، ويوسف الأريماثيّ الذي دفن يسوع بورَع.

و لكن رغم غياب هؤلاء، كان عدد القضاة أكبر ممّا يُقتَضى، من أجل إسباغ شبه شرعيّة على تصديق قرارٍ صيغ مسبقاً؛ وكانوا جميعهم، مندوبو الهيكل، والمدرسة، والمصرف، يترقّبون، في نفاد صبرٍ متساوٍ، لحظة تثبيت حكم الكراهية والموت. وكانت قاعة المجلس الكبرى، التي تكدّس فيها الجمهور باكراً، تبرز صورةً منفّرةً لغرفة أشباح، ولكأنّ النهار الوليد كان يلجها خجلاً، وبياض الفجر يضفي شحوباً حزيناً على لهب المشاعل الضارب إلى الحمرة. وفي ذلك الغَبَش الكئيب، كان القضاة ينتظرون. كانوا شيوخاً، بدينين، متجهّمين، قساة الجبين، صفيقي الوجوه، متحلّقين في نصف دائرة، جامدين في معاطفهم البيضاء، يداعبون لحاهم الموقّرة، ويسدّدون أنظاراً شرّيرة. ويخيّل لرائيهم أنّهم سحرة يترقّبون ضحيّة حيّة. الحيّز الآخر من القاعة كان يشغله زبانية أولئك القوم الجالسين : حرّاس يمسكون بأيديهم هراوات، وكلّ طغمة الخدم الدنيئة. وكان الجوّ كثيفاً وثقيلاً ولكأنّه مشبع برائحة القبور.

و دُفع يسوع، موثّق اليدين، وسط ذلك الوكر، مثلما كان يُدفع العبيد إلى الوحوش، في السيرك الرومانيّ. وكان حنان، الذي هزّه لقاؤه الأوّل مع الهرطوقيّ، قد لملم، على عجل، قبضةً من شهود الزور، من بين الرعاع الحاضرين، لكي يستطيع، إن دعت الضرورة، تدمير كلّ دفاعٍ محتمل. وقد استُهلّت الجلسة باستدعاء أولئك الشهود الذي أُحسن تلقينهم. وتقدّم اثنان منهم وأقسما أنّهما سمعا يسوع يتلفّظ بهذه الكلمات: "أستطيع تقويض هذا الهيكل الذي بنته أيدي البشر، وأعيد بناء هيكلٍ آخر، لن تشيّده أيدي بشر، في غضون ثلاثة أيّام".

هذا الإدّعاء، في ذلك الوقت، وأمام أولئك القضاة، كان من الخطورة بمكان، إذ لم يكن يعني سوى التدنيس والتجديف. ففي نظر الشعب اليهوديّ، كان هيكل أورشليم مقام الربّ الوحيد المقدّس. ومن ثمّ كان تهديد الهيكل يعادل تهديد اللّه، إله جميع اليهود. بيد أنّ ذلك الكلام لم يكن يسوع قد قاله، أو، أقلّه، لم يقله في هذه الصيغة، ولا بهذا المعنى. من المحقّق أنّه كان قد أنذر بأنّه لن يبقى، من الهيكل، حجرٌ على حجر، ولكنّه لم يعلن أنّه سيكون هو الفاعل. أمّا ما ورد عن هيكل سيدمّر ويعاد بناؤه، في غضون ثلاثة أيّام، فهو جزءٌ من خطابٍ آخر، تحدّث فيه المسيح، كنايةً، عن قيامته، وهذا الواقع من الصحّة بحيث تعذّر على شاهدي الزور التوافق على هذا الحديث المنقول مشوّهاً، بقصدٍ خبيث، بحيث تماديا في التناقش بشأنه. وكانت كلمةٌ واحدةٌ من يسوع كفيلةً بتسفيههما وإحراجهما. ولكنّ يسوع التزم الصمت.

و قد استثار هذا الصمت رئيس الكهنة، فنهض وهو يجأر : " ألا تجيب بشيء ؟ ألم تسمع شهادتهما ضدّك ؟ "

و لكنّ يسوع ظلّ صامتاً.

إنّ مواقف صمت يسوع مثقلة بالفصاحة الشديدة التأثير، بحيث تقوى علـــى إخـــراج قضاته من طورهم. لقد قابل بالصمت سؤال حنان الأوّل، وها هو يقابل بالصمت تعنيف قيافا، وسيلتزم الصمت، بعد قليل، أمام انتيباس وبيلاطس. فما قد يستطيع قوله، سبق له قوله ألـــف مرَّة ومرَّة؛ وما قد يستطيع إضافته لن يكون مفهوماً، ولن يفيد سوى في توفير حِججٍ جديـــدة لأعدائه، من أجل القضاء عليه. إنّ الحقائق الفائقة، بطبيعتها، يتعذّر التعبير عنها. وإذا ما شاء أحدٌ، بدافع الحبّ، إظهار ظلٍّ لها، فهذا الظلّ لن تدركه سوى الأذهان المعدّة مســبقاً لـــذلك، والتي يراودها به حسٌّ سَبْقيّ، فضلاً عن أنّها لن تنفذ إليه إلاّ عبر سُبل القلب السرّيّة، أكثر من نفاذها عبر وسيلة الكلام الذي سيظلّ، أبداً، ناقصاً، عليلاً.

يسوع لا يتكلّم، ولكنّه بعينَيْه الساجيتَيْن، يرقب، من حوله، الوجوه القلقة، المتشـــنّجة. ويصدر حكماً أبديّاً في أشباح القضاة أولئك، وبنظرةٍ واحدةٍ منه تنفذ إلى صميم النفس، يروز كلّ إنسان ويُدينه. وهل هي جديرةٌ، أو هل ستكون، يوماً، جديرةً بسماع أقوال يســـوع، تلـــك النفوس العليلة المتفسّخة، نفوس النفايات والعدم، الجريحة والمتعفّنة ؟ وأنّى لـــه أن يرتضـــي مهانة تبرير ذاته أمامها ؟ وهل من جبنٍ عصيٍّ عن الإدراك كفيلٍ بدفعه إلى ذلك ؟

...على غرار ملاك دانتي، يزدري يسوع " الحجج البشريّة " فيردّ بالصـــمت، أو، إن هو اضطرّ إلى الكلام، فهو يفعل ذلك بكلماتٍ صادقة، موجزة. واهتدى، أخيراً، قيافا، الـــذي ضاق ذرعاً بذلك الصمت الوقح، إلى وسيلةٍ يجبره بها على الإجابة، فقال:

– " أستحلفك باللّه الحيّ أن تقول هل أنت المسيح، ابن العليّ "

طالما اقتصروا على إجراءاتهم القضائيّة الماكرة، ناســـبين لـــــه اتّهامـــات كاذبـــة، ومستجوبينه حول أحداثٍ يعرفها الجميع، لم يجب يسوع بشيء. أمّا الاستشهاد باللّـــه الحـــيّ، حتّى وإن صدر عن فمٍ غير جدير، فلم يقوَ يسوع على مقاومته، لأنّه لا يســـتطيع أن يجابـــه بالرفض إلهاً حيّاً أبداً، حيّاً في كلٍّ منّا، وحاضراً حتّى في محكمةٍ حقيرة. ومع ذلـــك تـــردّد، برهةً، قبل أن يعمي قضاته بسنى إعلانه :

" إن قلت لكم ذلك، فلن تصدّقوني، وإن استجوبتكم فلن تجيبوني "

و حينئذٍ، لم يستجوبه قيافا فحسب، بل صاح الجميع، معاً، وقوفاً، مادّين أيادي هائجة: "أأنت، إذن، المسيح، ابن اللّه ؟"

و لم يكن بوسع يسوع أن ينكر، على غرار بطرس، الحقيقة الثابتة التي كانـــت علّـــة حياته وموته. فهو مسؤولٌ حيال شعبه وجميع الشعوب، مسؤول، أي يستطيع الإجابة، ويحسن الإجابة، ويجيب، أخيراً، عندما يُكلَّم مواجهةً. إلاّ أنّه، مثلما حدَث في قيصريّة، لـــم يشـــأ أن يسمّي نفسه باسمه الحقيقيّ، ولكن عندما سمّاه آخرون، لم يكذّبهم، ولو كلّفه ذلك حياته:

– "أنتم قلتم، وإنّني أُعلن لكم أنّكم سترون، يوماً، ابن الإنسان جالساً على يمين القدرة، وآتياً على غمام السماء".

لقد لفظ حكم إدانته بشفتيه. وأمام الوجوه البهيميّة المحيقة به، التي تصرف بأسنانها، وقد لوى الغضب أفواهها، أعلن ما لم يكن قد قاله إلاّ سرّاً لأقرب أصدقائه إلى قلبه. ولئن خانه هؤلاء فهو لن يخون أباه. لقد بات بوسعه تقبّل كلّ شيء، وإفراغ الكأس حتّى الثمالة : فما كان عليه قوله، قد قاله.

وبدا قيافا منتصراً، متصنّعاً هولاً لم يكن لديه منه أيّ إحساس – فذلك الصدّوقيّ لم يكن يؤمن بأيّة نهاية للعالم، ولم يكن يهمّه سوى مغانم الهيكل وأمجاده – فشقّ ثوبه، هاتفاً :

" لقد جدّف، لقد جدّف، فما حاجتنا، بعد، إلى شهاداتٍ أُخرى ؟ لقد سمعنا تجديفه من فيه. قولوا، بمَ تحكمون ؟ "

فردّوا، جميعهم، معاً : " لقد استحقّ الموت "

و هكذا، بلا مزيدٍ من تحقّق، ومن غير أيّ اعتراض، حكموا عليه بالموت، على أنّه نبيٌّ كاذب، ومجدّف.

و أُسدل الستار على المهزلة القضائيّة، وارتدى رئيس الكهنة ثوباً آخر، تاركاً أهداب الثوب الذي مزّقه تتموّج تموّج علَم معلناً انتصاره. لم يكن يعلم أنّه، في ذلك اليوم عينه، سينشقّ، مثل ثوبه، ثوبٌ أثمن منه؛ لم يكن يعلم أنّ فعلته البائسة الرمزيّة تلك كانت إنذاراً وإشارةً إلى إدانةٍ أُخرى. فالملّة التي كان زعيمها قد أُزيلت إلى الأبد. ولن يمارس خلفاؤه، الكهنة المخلوعون واللاشرعيّون، سوى خيال كهنوت. وفي غضون بضع سنوات سيمزّق، بدوره، ثوب المعبد اليهوديّ الفاخر المصنوع من مرمرٍ وصوّان، بيد روما الشرسة.

العينان المعصّبتان

بعد أن أصدر حكم الموت، اختلى السنهدرين في قاعةٍ أُخرى، كي يبحث عن وسائل الحصول، سريعاً، على تصديق الحكم من قِبَل الوالي، بغية تنفيذه في ذلك الصباح عينه. في تلك الأثناء، ما انفكّ يسوع مباحاً للرعاع المحتشدين في القصر. إنّ البهيمة البشريّة، عندما تضمن الإفلات من العقاب، لا تتذوّق متعةً أكبر من تعذيب كائنٍ مسكينٍ أعزل؛ ويروق لها العبث، بقدر ما تكون الضحيّة بريئة. إنّ غريزة الشراسة التي تظلّ كامنة في أعماق كلّ إنسان، غافية ولكن غير مروّضة، تستيقظ، حينئذٍ، وتتجلّى، فيصبح المحيّا مِشْفَراً، وتغدو الأسنان أنياباً، والأيدي مخالب، ولا تعود الحنجرة تصدر سوى صرخةٍ بهيميّة، عوضاً عن

الكلام البشريّ. وما إن تنثال قطراتٌ من الدم، حتّى تتزاحم الأفواه على ارتشافها، إذ ما من نشوةٍ تضاهي نشوة الدم، فالدم يهب من الطاقة أكثر ممّا يهب النبيذ الحلو، ورؤيته أمتع للعين من الماء الذي كان بنطس بيلاطُس كَلِفاً به

بيد أنّه يروق للشراسة أن تتموّه بزيّ العبث. النمور ذاتها تعبث أحياناً كالأولاد، والأولاد، بقدر ما تتيح لهم قواهم الصغيرة، قد يتمثّلون بالنمور شراسة. وهكذا، ريثما يوافق الوالي على موت أكثر إخوتهم براءة، استهلّ الجند الذين قبضوا على يسوع، التنكيل به. فقد أُتيح لهم أن يعبثوا بمليكهم، وأن يتسلّوا بإلههم. أَوَليست تلك التسلية من حقّهم ؟ فقد سهروا الليل كلّه، وكان الليل قارس البرد؛ لقد ساروا حتّى بستان الزيتون، متوجّسين خشية من بعض مقاومة، خشية لم تكن نافلة، إذ إنّ أحدهم فقد، في حومة الشغَب، أُذنه؛ وأخيراً تعيّن عليهم أن يقاسوا، حتّى الصباح، انتظاراً طويلاً، في فناء القصر. وبالإجمال، كانت لهم هذه القضيّة مناسبة تعبٍ جمّ، ولا سيّما وأنّ المدينة والهيكل يزدحمان بالغرباء في أيّام العيد تلك، ممّا يجعل كلّ شيء أشدّ مشقّة وعنتاً.

فلا بدْع إن هم روّحوا قليلاً عن أنفسهم. ولكنّهم حائرون من أين يبدأون. فالضحيّة مقيّدة، وأصحابها قد تواروا. غير أنّ لذلك الرجل عينَيْن لم يشاهدوا، قطّ، مثلهما من قبل، عينيْن تبدوان وكأنّهما تتطلّعان إلى ما وراء الأشياء، ومع ذلك تخترقك نظرتهما مثل أشعّة شمسٍ لا تُحتَمل. هذا الرجل المرهق، المبتلّ المحيّا بالعرق، والملطّخ بالنجيع، والموثّق اليدين، الذي لا شفيع له ولا مدافع عنه، والذي أصدرت بحقّه، قبل قليل، محكمة الشعب اليهوديّ العليا حكماً بالموت؛ هذه الخرقة البشريّة المعدّة لصليب العبيد واللصوص؛ دمية المهرجان هذه التي ألقيت بين أيديهم؛ هذا الرجل الذي لا يتكلّم، ولا يبكي، ولا يشكو، ولكنّه يرنو إليهم بشفقة، مثلما يرنو أبٌ إلى ابنه المعتلّ، أو مثلما يرنو صديقٌ إلى صديقه المصاب بالهذيان؛ هذا الرجل الذي أقيم هنا موضعاً للاستهزاء، يصدم فكر هؤلاء الأنذال بخوفٍ يفرض الاحترام.

و كان لا بدّ من أن يوفّر أحد الكتبة أو الشيوخ القدوة، ومرّ أحدهم بقرب يسوع، وبصق على وجهه. كان حريصاً على وصايا الشريعة التي تأمر بحفظ الجسد طاهراً من كلّ نجاسة، فأبى أن يدنّس يديه المغسولتين، شرعيّاً، من أجل الفصح، بمسّ أحد أعداء اللّه، ولا سيّما وانّه على مقربةٍ من الموت، فلكأنّه شرع يشارك في نجاسة الجثّة. ولكنّ دفقة بصاق تظلّ متاحة. فما البصاق سوى إحدى نفايات الجسد، وعلامة الازدراء المادّيّة.

و على ذلك الوجه الذي كان ينيره ضوء الصباح البكر، وانعكاس الألوهة السجينة، على ذلك المحيّا الذي تجلّى بنور الشمس ونور الحبّ، محيّا المسيح المصاغ من ذهب، غطّت بصقات اليهود أثر دم الآلام الأوّل.

أمّا تلك الطغمة الدنيئة من جنود المرتزقة والخدَم، فلم تكن تخشى تلويث أيديها، ولـــم تكن البصقات كافيةً لإرضاء رغباتها. وكان فعل معلّمي الشريعة قد حرّرها من سحر عينـــي المسيح الحزينتيْن والأخويّتَيْن. فأخذ من كان قريباً منه يصفعه، ومن لا يستطيع الوصول إلى وجهه، يضربه بقبضته حيثما تيسّر لـــه، وكانت الشتائم التي يقذفونه بها أبلـــغ جرحـــاً مـــن الضربات.

ذلك المحيّا الذي كان مثل بياض زهر الأُقحوان، متألّقاً مثل ذهب الشـــمس، غطّتـــه كدمات دكناء؛ وذلك الجسد الجميل الرشيق تهاوى، تحت صدمات ذلك الموج البشريّ الغازي. ثمالة النفس المريعة تصاعدت إلى شفاه أولئك القوم المهتاجين، ولكنّ يسوع لم يفُه بكلمة. لقد استطاع الردّ على الجنديّ الذي صفعه، بحضور حنان، ولكنّه لم يجد ما يقول لتلـــك البهـــائم المفلتة من عقالها.

و خطرت لأحدهم، كان أشدّ خبثاً أو أكثر طفولةً من سواه، خـــاطرة. فأخـــذ خرقـــة مرذولة، وجعل منها عصابة، غطّى بها عيني يسوع، وعقدها خلف رأسه، قائلاً: "فلنلعب لعبة "اليد الساخنة". إنّه يتباهى بكونه نبيّاً، فلنرَ هل سيتنبّأ بمن ضربه"

هل توخّى ذلك المسكين، بدافع رأفة قابعة في لاوعيه، أن يوفّر على المســـيح رؤيـــة إخوته وقد تحوّلوا وحوشاً، أو هل بات عاجزاً عن احتمال نظرة الحبّ فـــي تيْنـــك العينَـــيْن الوجيعتيْن ؟

و عُقدت حلقة، وأخذ هذا طوراً، وذاك تارةً أُخرى، يشدّ الثوب أو المعطف، وينـــزل ضربةً خفيفةً على الكتف، أو لطمةً في الظهر، أو عصا على الرأس، قائلاً :

" إيه، أيّها المسيح، تنبّأ : من الذي ضربك ؟ "

لمَ لا يجيب ؟ ألم يتنبّأ بدمار الهيكل، وبحروب، وكوارث، وبمجيء ابن الإنسان على الغمام، وبترّهات أُخرى من هذا القبيل ؟ والآن، لا يستطيع أن يحزر هذا الشيء البسيط، اسم شخصٍ قائمٍ على مقربة منه ! أيّ نبيّ هذا ؟ هل فقد، بغتةً، قدرته، أو هل كان لـــه قـــدرات، يوماً ؟ لقد تمكّن من خداع أولئك الجليليّين المساكين الحمقى، ولكنّنا، هنا، في أورشليم. ونحن هنا خبيرون بالأنبياء، وإن هم أخطأوا لصرعناهم. ويضيف الإنجيل : " وكانوا يوجّهون لـــه، أيضاً، الكثير من الإهانات والشتائم ".

غير أنّ قيافا والآخرين، الذين كانوا على عجلة من الفراغ من مهمّتهم، ارتأوا أنّ فترة العبث قد تمادت، وحان وقت اقتياد الملك الزائف أمام بيلاطُس، كي يصدّق الحكم. فللسنهدرين سلطة الإدانة، ولكن، ويا للأسف !، مذ أصبحت اليهوديّة تحت سلطة الحكم الرومانيّ، لم يعد حقّ تنفيذ أحكام الموت بيده.

و هكذا اتّجه، صوب قصر الوالي، رؤساء الكهنة، والكتبة، والشيوخ يتبعهم حرسٌ يجرّون يسوع بحبل، وجمهورٌ صاخبٌ ما انفكّ يتضخّم، على طول الطريق.

بنطس بيلاطس

منذ العام 26، كان الوالي المنتدب من قبل تيبيريُس إلى فلسطين هو بُنطس بيلاطس، الذي يجهل المؤرّخون، عنه، كلّ شيء، قبل قدومه إلى اليهوديّة. وتشير الدلائل إلى أنّه كان عبداً مُعتَقاً أو سليل أُسرة عبيدٍ مُعتقين.

لم يحتج سوى إلى سنوات قليلة، كي يشيع في نفوس محكوميه كرهاً شديداً له. ولا بدّ من الاعتراف بأنّ كلّ ما نعرفه عنه قد جاءناعن طريق يهود أو مسيحيّين، وهم أعداؤه الصريحون. ولكن يبدو أنّه ما عتّم أن أمسى بغيضاً حتّى في عيون أسياده، إذ إنّ حاكم سوريّة، لوشيُس فيتيلُّس، في العام 36، أرسله إلى روما، كي يدافع عن نفسه أمام تيبيريُس. ولكنّ الأمبراطور لقي حتفه قبل وصول بيلاطس إلى العاصمة. وثمّة تقليد قديم يفيد أنّ كاليغولا نفاه، وأنّه قُتِل في بلاد الغوليّين

كره اليهود له وُلد من الازدراء العميق الذي أبداه، منذ الوهلة الأولى، لذلك الشعب الصعب المراس، والعسير القياد، الذي بدا له، وهو الذي تربّى على الأفكار الرومانيّة، وكر أَفاعٍ سامّة، وطغمة رعاع قذرين حقيرين، لا يستأهلون أكثر من الترويض بعصيّ المرتزقة...

من خلال الأسئلة التي وجّهها إلى يسوع، يبدو بيلاطس من أتباع مدرسة الشكّ التي آلت إليها اللاتينيّة المنحطّة، مدرسة أولئك الذين أفسدتهم البيرونيّة، وتعبّدوا لإيبيقور؛ أو كأنّه أحد الموسوعيّين الهلّينيّين. لقد فقد الإيمان بآلهة الوطن، ولم يستطع الاعتقاد بوجود إلهٍ حقّ، أو بوجوب البحث عنه، وسط ذلك الرعاع القذر المؤمن بالخرافات، أو وسط ذلك الإكليرُس المشاغب الحسود، أو في ذلك الدين الذي كان يبدو مزيجاً هجيناً همجيّاً من إيحاءات الكهانة... الإيمان الوحيد الذي ظلّ ملتزماً به، أو الذي كانت وظيفته تفرض عليه التظاهر به، كان الدين الرومانيّ الجديد، الدين المدنيّ والسياسيّ كما كان في عهد الجمهوريّين، ولكنّه بات مرتكزاً بأكمله على عبادة الأمبراطور. من هذا الدين بالذات، ولد الخلاف الأوّل بين بيلاطس واليهود. ففي أثناء تبديل حرس حامية أورشليم، أمر الجند بدخول المدينة ليلاً غير نازعين

رسوم القيصر الفضيّة عن الرايات. وما إن تبيّن اليهود ذلك، في الصباح، حتّى استولى عليهم الهول، وتعالت جلبتهم. فقد كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يتخلّى فيها الرومانيّون عن مظاهر الاحترام الذي أبدوه دائماً لمعتقدات رعاياهم الفلسطينيّين. فقد كان رسم قيصر المؤلّه، المغروس إزاء الهيكل، لليهود، تحدّياً من قبل عبدة أوثان، ومبدأ رجس الخراب. وعمّ الغليان المدينة، وأُنفذ وفدٌ إلى قيصريّة للمطالبة بسحب رسوم الإمبراطور. ورفض بيلاطس، ولكن المطالبين حاصروا قصره خمسة أيّام وخمس ليالٍ. وعندما ضاق بهم ذرعاً، استدعاهم إلى المسرح الكبير، وأحاطهم، غدراً، بجندٍ ممتشقين سيوفاً عارية، مقسماً ألاّ يدع واحداً منهم يفلت، إن لم يكفّوا عن إزعاجه. ولكنّ اليهود، عوضاً عن الاستسلام والاسترحام مدّوا رقابهم لسيوف بيلاطس، فاستسلم، هو، أمام هذا العناد البطوليّ، وأمر بإعادة الأعلام إلى قيصريّة.

و إن لم تُنقص هذه الرحمة شيئاً من بغض اليهود للوالي الجديد، إلاّ أنّ ازدراء بيلاطس لليهود، ورغبته في الانتقام منهم، تفاقما لديه، وما لبث أن أدخل إلى قصر هيرودس حيث كان يقيم، في أثناء زيارته لأورشليم، لوحات نذريّة مكرّسة للإمبراطور. وتنامى الأمر إلى علم الكهنة، فذهل الشعب، واستشاط غيظاً، وطالب بيلاطس بسحب تلك الأصنام في الحال، وهدّده باللجوء إلى روما ورفع شكوى إليها عن كلّ مضايقاته، وعن أعمال التنكيل التي مارسها حتّئذٍ. ولكنّه، في هذه النوبة، أيضاً، لم ينحنِ، فرفع اليهود شكواهم إلى تيبيريُس الذي أمر بإعادة اللوحات إلى قيصريّة.

خسر بيلاطس جولتين، ولكنّه تغلّب في الجولة الثالثة. فهو، القادم من مدينة المياه الساخنة والأقنية، كان كلِفاً بالاستحمام، وتبيّن أنّ أورشليم كانت تفتقر إلى المياه، فقرّر بناء خزّان كبير، وحفرقناة طولها عدّة أميال. ولكنّ الأعمال كانت مكلفة جدّاً، وفي سبيل إنجازها، سلب مبلغاً وفيراً من خزينة الهيكل. لا ريب أنّ تلك الخزينة كانت مترعة – فقد كان جميع يهود الإمبراطوريّة، يتقاطرون لحمل تقادمهم إليها، أو كانوا يرسلونها إن تعذّر عليهم القدوم شخصيّاً – ولكنّ الكهنة أعلنوا أنّ الحرمات قد انتُهكت، واستثاروا الشعب، فثار، بحيث عندما وافى بيلاطس إلى أورشليم بمناسبة احتفالات الفصح، تجمّع آلاف البشر، وأشاعوا، حول قصره، الضوضاء. حينئذٍ بثّ، بين الجمع، العديد من الجنود المموّهين الذين أنزلوا هراواتهم على أكثر المشاغبين هياجاً، وما هي إلاّ لحظات حتّى فرّ الجميع، وتمكّن بيلاطس من التمتّع باستحماماته المتعدّدة، على حساب اليهود.

كان ذلك الحدث ما برح حديث العهد، ورؤساء الكهنة الذين تمرّدوا ثلاث مرّات على سلطته، وجهدوا في إزاحته، والذين كانوا يكرهونه كرهاً بليغاً بصفته رومانيّاً، ورمزاً للسيطرة الأجنبيّة ولعبوديّتهم، وفوق ذلك، وأكثر من ذلك، كانوا يمقتونه شخصيّاً، هو بنطس بيلاطس، مناوئ دينهم، وسارق مالهم، اضطرّوا، رغم كلّ ذلك، إلى اللجوء إليه، للتخفّف من

كرهٍ آخر، كان هو الأشدّ في قلوبهم الفاسدة. لقد أكرهتم ضرورةٌ قاسيةٌ لا سبيل إلى تجنّبها، إذ لم يكن ممكناً تنفيذ أيّ حكم بالموت، ما لم يصدّقه ممثّل قيصر.

فجر يوم الجمعة ذاك، كان بنطُس بيلاطُس متلفّعاً بثوبه الرومانيّ الفضفاض، يتثاءب، نعِساً، وينتظرهم في قصر هيرودُس، غير مرتاح إلى أؤلئك المزعجين الصَخِبين، الذين أجبروه، بنزاعاتهم، على الاستيقاظ قبل موعده المعتاد.

ما هي الحقيقة ؟

إنتهى، أخيراً، حشد المدَّعين والكتبة إلى الساحة المنبسطة أمام مقرّ الحاكم، وظلّوا خارجاً؛ فلوهم دخلوا بيتاً يحتوي خميراً، وخبزاً مخمّراً، لانتقلت إليهم العدوى طيلة النهار، ولتعذّر عليهم الاحتفال بالفصح. الدم البريء لا ينجّسهم، ولكن ينجّسهم الخمير!

و أُخطر بيلاطس، فظهر عند العتبة، وسأل بنبرة مفاجئة:

– بمَ تتّهمون هذا الرجل ؟

أولئك الذين يكلّمهم هم أعداؤه؛ ويبدو أنّ هذا الرجل المتّهم هو عدوٌّ لهم. غريزيّاً، إذن، وقف بيلاطس إلى جانبه، لا تعاطفاً معه – أوَ ليس يسوع، أيضاً، يهوديّاً كالآخرين، ويهوديّاً فقيراً ؟– ولكن إن تبيّن أنّه بريء، فلن يرضخ، هو بيلاطس، لنزوات أولئك الأوباش البغيضين.

و ردّ قيافا، في الحال، وكأنّه قد أُهين :

–إن لم يكن هذا مجرماً لما جئنا به إليك.

لم يكن لدى بيلاطُس وقت يبدّده في نزاعات الكهنة، ولم يظنّ أنّ الأمر يتعلّق بجريمةٍ كبرى، فأجاب بقسوة :

–خذوه، وحاكموه وفق شريعتكم.

من خلال هذه الكلمات تبدّت، لديه، رغبةٌ كمينةٌ في إنقاذ الرجل، ولو أنّه لم يُظهر، جهاراً، تعاطفه معه. لكنّ تنازل الوالي، الذي كان من شأنه، في ظروفٍ أُخرى، أن يثلج صدر قيافا وأزلامه، بدا لهم، في تلك النوبة، مريراً، لأنّ السنهدرين لا يستطيع أن ينفّذ سوى الأحكام الصغرى. وهم، يومها، كانوا يريدون تنفيذ الحكم الأكبر والأخطر. وعليهم، ويا للأسف، اللجوء إلى الساعد الرومانيّة، ولا يسعهم الاستغناء عنها؛ فأجابوا :

–تعلم جيّداً أنّنا لا نستطيع تنفيذ حكم إعدام.

أدرك، حينئذٍ، بيلاطس أيّ حكم قد أصدروه بحقّ ذلك البائس الماثل أمامه، فأراد معرفة الجريمة المتّهم بها : فما يبدو لأولئك المتزمّتين المسعورين جديراً بالعقاب الأقصى، قد يبدو خطأً طفيفاً في عيني رومانيّ. ولكنّ ثعالب الهيكل كانوا قد تأهّبوا لمواجهة هذه المعضلة.

كانوا موقنين بأنّهم لن يحصلوا على شيءٍ من بيلاطس، لو هم ادّعوا أنّ هذا الرجل يهدم دين آبائهم، ويعلن ملكوت اللّه. وإذن، فليدّعوا زوراً. ومن يرتكب عملاً شائناً، لا يستصعب إضافة أعمال شائنة أُخرى، إليه. وبيلاطس لا يُهزم إلاّ بسلاحه، وبمناشدة ولائه لروما وللأمبراطور، ولمبرّرات وظيفته عينها. وقد أجمع اليهود، مسبقاً، على إضفاء صبغةٍ سياسيّة على شكواهم. فإن هم ادّعوا أنّ يسوع مسيحٌ زائف، لابتسم بيلاطس ساخراً؛ ولكن إن أكّدوا أنّه مثير فتنة، يحرّض الشعب على روما، فلا حيلة له سوى تنفيذ حكم الموت فيه؛ فقالوا:

– لقد وجدنا هذا الرجل يحضّ أُمّتنا على الثورة، ويمنع أداء الجزية للقيصر، معلناً نفسه المسيح، ملك اليهود. إنّه يستفزّ الشعب، معلّماً في كلّ اليهوديّة؛ وقد انطلق من الجليل، وانتهى إلى هنا.

كلٌّ من هذه الأقوال كذبٌ وافتراء. فيسوع قد أمر بإعادة ما لقيصر لقيصر؛ ولم يحفل بشأن الرومانيّين. لقد قال إنّه المسيح، ولكن لا بمعنى ملك اليهود، السمج والسياسيّ، الذي قصدوه. وهو، أخيراً، لم يحرّض على الثورة، بل ابتغى أن يحوّل شعباً بائساً ومتوحّشاً إلى ملكوت القدّيسيّن الطوباويّ. هذه الاتّهامات، التي كان من شأنها أن ترتدي خطورةً قصوى، في نظر بيلاطس، لو هي كانت مبنيّة على أُسس راسخة، إنّما ضاعفت شكوكه. فهؤلاء الثعابين يمقتون روما، ويمقتونه، هو، شخصيّاً. وقد سعوا، غير مرَّة، إلى الإطاحة به، ولا يحلمون إلاّ بإزاحة محتلّيهم الوثنيّين، فهل يُعقل أن تدفعهم غيرة مباغتة إلى الوشاية بأحد متمرّدي أمّتهم ؟

لن يتحقّق بيلاطس إلاّ بعد استجواب المتّهم سرّاً. فعاد إلى مقرّه، وأمر بجلب يسوع؛ وترك جانباً التهم الثانويّة، وتصدّى للجوهريّ، مباشرة :

–هل أنت ملك اليهود ؟

و لكنّ يسوع لم يُجب، فأنّى له أن يُفهم ذلك الرومانيّ الذي يجهل وعود اللّه، ذلك الملحد البيرّونيّ (نسبة إلى الفيلسوف الإغريقي بيرّون، صاحب النظريّة الشكّيّة التي تقرّر أنّ كلّ حقيقة هي احتماليّة)، والذي يحصر الدين كلّه في عبادةٍ زائفة وشيطانيّة لرجلٍ واحد: تيبيريُس؟ وأنّى له ان يفسّر لذلك العبد المعتَق، الذي تثقّف على أيدي مدرّسي الفقه والبلاغة، في روما، أكثر مستنقعات تلك الأزمنة تعفّناً، أنّى له أن يفسّر له بأيّ معنى يستطيع أن يقول

عن ذاته أنّه ملك مملكةٍ لم تؤسّس بعد، وملكوتٍ روحيّ صرف، سيقوّض أركان كـلّ ملـكٍ بشريّ !

كان يسوع يقرأ في غور نفس بيلاطس، ولم يجبه أكثر ممّا أجاب حنان وقيافا. وتعذّر على الحاكم إدراك صمت ذلك الرجل، الذي يحوّم الموت فوقه. فقال :

-ألا تسمع ما يشهدون به عليك ؟

و ظلّ يسوع صامتاً. كان بيلاطُس يتمنّى، بأيّ ثمن، ألاّ يتيح النصر لأولئـك الـذين يمقتونه بقدر ما يمقتون هذا الرجل، فألحّ، أملاً في انتزاع نفيٍ من فمه يسمح لـه بـإطلاق سراحه.

-أأنت، إذن، ملك اليهود ؟

إن أنكر يسوع لخان ذاته، فقد اعترف، أمام تلاميذه وقضاته، أنّـه المسـيح؛ وأبـى الاستنجاد بالكذب سبيلاً للنجاة. إلاّ أنّه، بغية سبر فكر الرومانيّ، أجاب، جرياً علـى عادتـه، بسؤالٍ آخر:

– أتقول ذلك من عندك، أم آخرون قالوا لك ذلك عنّي ؟

فقال بيلاطس، وكأنّه يردّ إهانة :

– أيهوديٌّ أنا ؟ أبناء أمّتك ورؤساء الكهنة هم الذين أسلموك إليّ. فما الذي فعلته ؟ هل أنت، حقّاً، ملك اليهود ؟

هذه الإجابة، لولا عنف مطلعها، تبدو توفيقيّة، ولكأنّ بيلاطس يقول : ألا تعلـم، إذن، أنّني رومانيّ، ولا أؤمن بما يؤمن به أعداؤك ؟ الكهنة هم الذين يتّهمونك، لا أنا. ولكن لا بدّ لهم من تسليمك إلى سلطتي؛ وخلاصك في يديّ. قل لي أنّ ما يؤكّدونه ليس صحيحاً، تظفـر بحرّيّتك.

لم يكن يسوع ساعياً إلى الفرار من الموت، ولكنّه عزم على محاولـة تنـوير ذلـك الوثنيّ. فكلّ شيء لدى الآب مستطاع. وعسى أن يكون بيلاطس المهتدي الأخير على يد ذلك المحتضر، وقال يسوع :

– سلطتي ليست من هذا العالم. ولو هي كانت من هذا العالم لناضل أتباعي كـي لا أُسلم إلى اليهود. ولكن، حقّاً، ليست سلطتي من هذه الدنيا.

و دُهش خادم تيبيريُس. فالفرق بين "الدنيا" و"العلاء" يلتبس عليه. ففي العـلاء آلهـة محسنون، وآخرون حاسدون للبشر، إن كان لمثل هذه الآلهة، حقّاً، وجود. وفي الجحيم تقـيم ظلال الأموات، هذا إن بقي منّا شيء، بعد أن تُفني الجسد النارُ أو الديدان. الواقع الوحيد هو ههنا : الأرض الرحبة بكلّ ممالكها. ومن جديد، سأل بيلاطس :

– أملك، أنت، إذن ؟

لا داعي للإنكار. ما أعلنه يسوع للآخرين، سيقوله، أيضاً، لهذا الأعمى :

– أجل، أنا ملك. من أجل ذلك وُلدت، ومن أجل ذلك جئت إلى العالم : لكي أشهد للحقيقة. وكلّ من يخصّ الحقيقة يسمع صوتي.

حينئذٍ، أجاب بيلاطس، وقد ضاق ذرعاً بذلك اللغَط الصوفيّ، بجملته الشهيرة :

– وما هي الحقيقة ؟

و لم ينتظر إجابة، بل نهض ليرحل. ذلك الرومانيّ المتشكّك، الذي طالما حضر نقاشات فلسفيّة لا نهاية لها، واقتنع، بعد سماعه الكثير من السفسطات المتناقضة، والنظريّات الماورائيّة، والمماحكات، أن لا وجود للحقيقة – أو، إن هي وُجدت، فلن يُعطى البشر معرفتها– ولم يتخيّل، لحظةً واحدة، أنّ بوسع ذلك العبريّ النكرة، الماثل أمامه كمجرم، أن يهبه إيّاها.

لقد قُيّض لبيلاطس، في ذلك اليوم من عمره، أن يشاهد وجه الحقيقة، الحقيقة السميا المتجسّدة، ولم يستطع رؤيتها. الحقيقة الحيّة، الحقيقة القادرة على بعثه إنساناً جديداً، ماثلة أمامه، مرتديةً جسداً وثوباً بسيطاً، وقد صُفِع وجهها، وقُيّدت يداها. ولكنّه، في كبريائه، لم يستطع حتّى أن يخمّن أيّ حظّ فائق أُتيح له، حظّ سيحسده عليه ملايين البشر، عقب موته. ولا ريب أنّه كان سيعدّ مجنوناً كلّ من يخبره كم سيذيع اسمه، ولو مصحوباً بالحقارة واللعنة، في جميع العصور، ولدى كافّة الشعوب، بفضل هذا اللقاء، وبفضل الشرف الرهيب الذي أتاح له محادثة يسوع وتسليمه للصلب.

بيلاطس مبتلى بعمى لا شفاء له، ولكنّ المسيح، في ذلك اليوم عينه، سيغفر له، كما غفر للآخرين. ولا ريب أنّ العميان يدرون، أقلّ من سواهم، ما يفعلون.

كلوديا بروكولا

لحظة كان بيلاطس يتأهّب للخروج كي يردّ على اليهود المزمجرين، نافدي الصبر، اعترضه خادمٌ أنفذته زوجته، حاملاً هذه الرسالة : " إيّاك وهذا البارّ، فقد تألّمت كثيراً، اليوم، في الحلم، بشأنه "...

لم يذكر أيٌّ من الإنجيليّين الأربعة كيف تلقّى الوالي شفاعة زوجته غير المتوقّعة.

عن تلك المرأة لا نعرف سوى اسمها: كلوديا بروكولا. وإن كان هذا الاسم صحيحاً، فقد تكون منتمية إلى أسرة كلوديا، الشهيرة والنافذة في روما. وهي، بلا ريب، كانت تتفوّق

محتداً ومركزاً على زوجها؛ وربّما كان بيلاطس، وهو مجرّد عبد مُعتَـق، مـديناً لنفوذهـا بولايته، الخطيرة الشأن، على اليهوديّة.

لو كان الأمر كذلك، وإن كان بيلاطس يحبّ زوجته، لم يكن بوسعه ألاّ يبالي بطلبها. ويبدو أنّه أحبّها، بقدر ما يستطيع أن يحبّ إنسانٌ من نمطه، إذ إنّه التمس من الأمبراطور إذناً خاصّاً باصطحابها إلى آسية، إذ كان القانون الروماني يمنع الولاة من اصطحاب زوجاتهم إلى أماكن وظيفتهم.

دوافع توسّط كلوديا تظلّ، بفضل إيجاز رواية الإنجيل، غامضة. حسب متّى كان حلمٌ قد أضناها بشأن يسوع. ولا ريب أنّها كانت قد سمعت، منذ بعض الوقت، أحاديث عن ذلـك النبيّ الجديد. وربمّا هي شاهدته، في تلك الأيّام، وقد راق لخيالها الرومانيّ المتوقّد ذلك الرجل الشديد الاختلاف عن سائر اليهود، والذي لا يمتّ بصلة إلى الديماغوجيّ السوقيّ، أو الفرّيسيّ المرائيّ.

لم تكن تفهم اللغة الشائعة في أورشليم، ولكن لا ريب أنّ أحد رجال القصر قـد نقـل إليها بعض كلمات يسوع التي أقنعتها بأنّه، رغم ما يُشاع عنه، لا يسـعه أن يكـون مجرمـاً خطيراً...

في تلك الحقبة كان الرومانيّون، ولا سيّما النساء، قد شرعوا يميلـون إلـى أسـاطير الشرق وعباداته التي كانت أكثر إرضاءً لرغبتهم في الخلود الشخصيّ، من الـدين اللاتينـيّ العتيق، الذي بات تجارة أضاحٍ شرعيّة، لغاياتٍ سياسيّة ونفعيّة. وفي رومـا كانـت نبـيلاتٌ كثيراتٌ قد اطّلعنَ على أسرار ميثرا، وأوزيريس، والأمّ الكبـرى، وبعضـهنّ نـزعنَ نحـو اليهوديّة. وفي أيّام تيبيريُس طُرد جميع اليهود المقيمين في روما من العاصمة لأنّ بعضـهم غرّروا بسيّدةٍ نبيلة تدعى فولفيا، وجعلوها تعتنق اليهوديّة، ويبدو أنّها لم تكن الوحيـدة التـي اعتنقتها.

ليس بدعاً أن يكون الفضول قد دفع كلوديا، من جرّاء إقامتها في اليهوديّة، إلى التوغّل في معرفة عقائد الشعب الذي يحكمه زوجها؛ ومن جرّاء شغفها بكلّ جديد، مثل كلّ النسـاء، سعت إلى الإلمام بالتعليم الجديد الذي كان يكرز به ذاك النبيّ الجليليّ الذي كثـر، حولـه، اللغَط في أورشليم. ومن المحقّق أنّها أيقنت أنّ يسوع كان "بارّاً"، وبالتالي بريئاً. والحلم الذي راودها في تلك الليلة – حلم مريع، إذ إنّه "عذّبها" – قد رسّخها في قناعتهـا، ولا عجـب، إن هي، واثقة من سلطانها على بيلاطس، وجّهت له تلك الرسالة المتوسّلة.

حسبنا، نحن، أنّها دعت " بارّاً "، ذاك الذي كان اليهود يسعون إلى قتله. فهي، مع قائد المئة في كفرناحوم، والمرأة الكنعانيّة، طلائع النفوس الوثنيّة التي آمنت بيسوع، فلا بـدع إن كرّمتها الكنيسة اليونانيّة تكريم القدّيسين.

و قد دعّمت سفارةُ كلوديا ميلَ بيلاطس التلقائيّ نحو الحياد، لا بل نحو الرأفة، من جرّاء بغضه لقيافا، وربّما أيضاً من جرّاء ما سمعه من المتّهم. لم تقل كلوديا " أنقذه "، بل قالت لا تمسّه بسوء. وهذا ما كان ينزع إليه. ربّما ساور بيلاطس شعورٌ مبهم بخطورة ما سيجري، وعلى أيّة حال، لم يكن راغباً في المساهمة في موت ذلك المتسوّل الغامض، مدّعي الملك. كانت كلمته : فليحاكموه، هم. ولكن اليهود أبوا. وحينئذٍ خطرت له وسيلة أُخرى للتملّص من مأزقه. فعاد إلى يسوع وسأله هل هو جليليّ.

و عثر بيلاطس على الخلاص. فيسوع غير خاضع لسلطته القضائيّة، بل لسلطة هيرودس أنتيباس. ولحسن الطالع، كان هذا الأخير موجوداً في أورشليم التي يؤمّها، كالمعتاد، للفصح. لقد وجد الوالي منفذاً قانونيّاً يمكّنه من تلبية طلب زوجته. وفضلاً عن ذلك، بفعله هذا، كان يقوم ببادرةٍ طيّبة حيال اليهود، إذ كلّف واحداً منهم بالحكم الحاسم. وهو، أخيراً، أقحمَ في مأزقِ التتررخس الذي كان يمقته بكلّ قلبه، ويتّهمه، بحقّ، أنّه جاسوس تيبيريُس.

لم يهدر بيلاطس وقتاً، بل أمر الجند باقتياد يسوع إلى هيرودُس، في الحال.

المعطف الأبيض

القاضي الثالث الذي مَثُل يسوع أمامه كان ابن هيرودس الكبير من إحدى نسائه الخمس. وكان جديراً بأبيه، يضاهيه شراسةً حتّى حيال ذويه. فعندما شكا بعض أفراد الرعيّة أخاه من أمّه، أرخيلاوس، سعى إلى نفيه، وخطف زوجة أخٍ آخر له. في السابعة عشرة من عمره، شرع يملك، بصفة تتررخس،على الجليل وبيرية، وطمعاً في الظفر بحظوة لدى تيبيريُس، تطوّع ليكون له مخبراً سرّيّاً عن فعال وأقوال إخوته، والأعيان الرومانيّين في فلسطين. وفي أثناء رحلةٍ له إلى روما، شُغِف بهيروديا، التي كانت، في آنٍ واحد ابنة أخيه أريستوبلس، وزوجة أخيه هيرودس[1]، وأقدم، بلا وازعٍ من ضمير، على ارتكاب جريمة تحريمٍ مزدوجة، إذ أقنعها، هي وابنتها سالومي، بالمضيّ معه. وقد لجأت زوجته الأولى، ابنة الحارث، ملك النبطيّين، إلى أبيها الذي شنّ عليه حرباً، وهزمه فيها.

في تلك الأثناء كان اسم يوحنّا المعمدان قد شرع يذيع في أوساط الشعب؛ وقد أطلق يوحنّا عبارات استنكار تدين الزانيَيْن، ممّا حمل هيروديا على دفع زوجها إلى اعتقاله وسجنه

---

[1]: المؤرّخ فلافيوس يوسيفُس، أيضاً، يدعوه هيرودس، في حين أنّ الإنجيليّ مرقس يدعوه فيليبّس (المترجم)

في قلعة مكرونت. ويعلم الجميع كيف أنّ التتررخُس، وقد ألهبت حواسّه رقصةٌ ماجنةٌ أدّتها أمامه ابنة هيروديا التي كانت ما زالت فتاة صغيرة، وربّما أوحت له بجريمة سفاح أُخرى، اضطرّ إلى أن يقدّم لها رأس يوحنّا على طبقٍ من ذهب.

غير أنّ طيف النبيّ، حتّى بعد قطع رأسه، ما انفكّ يؤرّقه، وعندما شاع الحديث عن يسوع ومعجزاته، قال هيرودُس لحاشيته :

– إنّما هذا هو يوحنّا المعمدان، وقد بُعث حيّاً.

و يبدو أنّه كلّف عيونه بمراقبة يسوع، وربّما خطر له أن يذيقه مثل مصير سابقه ، غير أنّه بعد إعمال الفكر قرّر، بدافع التطيّر أو بدافع السياسة، أن ينأى عن الأنبياء؛ وأدرك أنّه من الأَوْلى قسر يسوع على مبارحة مملكته. وقد جاء يسوع، يوماً، فرّيسيّون، على الأرجح بتحريض من هيرودس، وقالوا له :

– غادر هذه البلاد، فهيرودس يبتغي قتلك.

و ردّ يسوع :

– امضوا، وقولوا لهذا الثعلب أنّ عليّ أن أسير اليوم، وغداً، وبعد غد، فما من نبيّ يموت خارج أورشليم.

و ها هوذا، وقد دنا أجله، يمثُل، في أورشليم، أمام "الثعلب"، ذلك الخائن، الجاسوس، الزاني، مرتكب المحرّمات، قاتل يوحنّا، وعدوّ الأنبياء، و لكأنّه الأكثر جدارةً بالحكم على البراءة. ولكن يسوع كان قد أحسن وصفه، فهو ثعلب، وليس نمراً، ولا تبلغ به القحة أن يحلّ محلّ بيلاطس. ويذكر لوقا أنّه سُرّ، سروراً عظيماً، برؤية يسوع، التي طالما رغب فيها، لأنّه سمع عنه، وكان يأمل أن يشهد إحدى معجزاته....

كان يخيّل إليه أنّ يسوع هو صانع معجزات متجوّل، قادر على أداء ألاعيب سحره أنّى شاء. كان يمقته مثلما كان يمقت يوحنّا؛ كان يمقته، خوفاً منه : فللأنبياء قدرات لا يدركها ولكنّها ترعبه؛ وربّما كان قطع رأس يوحنّا وبالاً عليه. هو، أيضاً، كان راغباً في أن يُقتَل يسوع، على ألاّ يكون متواطئاً في قتله.

عندما تبيّن له أنّه لن يشهد أيّة معجزة، استجوب يسوع مطوّلاً، ولكنّ يسوع لم يُدلِ بأيّ جواب. كان قد قطع الصمت أمام حنان، وقيافا، وبيلاطس، ولكنّه سيلتزم به أمام هذا الدجّال المتوّج. حنان وقيافا كانا عدوّيه الصريحين، وبيلاطس كان أعمى يظنّ أنّه ينقذه بتردّده، أمّا هذا الثعلب الجبان، فلا يستأهل حتّى الإهانة.

كان رؤساء الكهنة والكتبة يخشون – وكانوا في خشيتهم محقّين – ألاّ يجد قاتل يوحنّا لديه من الجرأة ما يجعله يقتل يسوع، فواكبوا ضحيّتهم وهم يصبّون عليه أعنف التهم. هذه

الادّعاءات الهوجاء، التي قابلها صمت المدّعى عليه، أضرمت حنق أنتيباس الكمين، فبعد أن شتم، هو وجنده، الصامت الإلهيّ، ألقى على كتفيه معطفاً رائعاً وأعاده إلى بيلاطس.

هو أيضاً، على غرار الرومانيّ بيلاطس، ولكن لأسباب أُخرى، يأنف إدانة من عمّده يوحنّا، والذي ربّما كان يوحنّا نفسه، منبعثاً من الموت كي ينتقم. ولكنّه، عندما ردّه، أسبغ عليه خلعة، هي شهادةٌ غير واعية على أنّه المسيح. فالمعطف الناصع البياض، هو، كما يخبرنا فلافيوس يوسيفُس، رداء ملوك اليهود؛ ويسوع متّهم بسعيه إلى أن يكون ملك اليهود. لقد شاء هيرودُس الخبيث تسفيه ادّعاء يسوع، بسخرية الهديّة، ولكنّه، في الآن عينه، بإضفائه عليه هذا البياض، رمز السلطان والبراءة، وجّه "الثعلب" إلى بيلاطس رسالة تثبت، على غير قصدٍ منه، رؤيا كلوديا بروكولا، واتّهام قيافا، واعتراف المسيح.

الموت لهذا

ظنّ بيلاطس أنّه تخفّف من الوقر الذي شاء خصومه إلقاءه على منكبيه. ولكنّه عندما شاهد يسوع عائداً متلفّعاً بذلك المعطف الأبيض الملكيّ، أدرك أنّ عليه توطين العزم، مهما غلا الثمن.

إنّ ضراوة أولئك الذين كانوا يوحون له ريَباً، لأسباب عديدة، وشفاعة زوجته، وأجوبة المتّهم، وتمنّع أنتيباس، كلّ ذلك كان يحمله على أن يُمسك، عن اليهود، الحياة التي كانوا يطالبون بها. ربّما، فيما كان يسوع يُقتاد إلى التتررخُس، كان قد استجوب أحد أفراد حاشيته حول مدّعي الملك، وكانت الأجوبة التي تلقّاها، في هذا الشأن، قد ثبّتته في عزمه. فلا شيء، في خطابات يسوع، كان كفيلاً بإثارة شكوكه. بل كان من شأن أشياء كثيرة أن ترضيه، أو، أَقلّه، كانت تبدو له في مصلحة سلطة روما.

يسوع كان يدعو إلى حبّ الأعداء، والرومانيّون، في اليهوديّة، كانوا يعامَلون معاملة الأعداء. لقد أعلن : طوبى للفقراء، وإذن، كان يحرّض عل الاستسلام، لا على الثورة. كان ينصح بإعادة ما لقيصر لقيصر: أي بدفع الجزية للأمبراطور؛ كان يعارض تشبّث الفرّيسيّين بالشكليّات الذي كان يجعل علاقة الرومانيّين برعاياهم شائكة جدّاً؛ لم يكن يحفل بالسبت، وكان يجلس على مائدة العشّارين والوثنيّين؛ وأخيراً، كان يعلن أنّ ملكه ليس من هذا العالم، بل من عالمٍ على جانبٍ كبير من البعد والماورائيّة، بحيث لا يسعه أن يهدّد تيبيريُس وخلفاءه. ولا ريب أنّ بيلاطس، بعد أن أُحيط علماً بكلّ ذلك، قال في نفسه، بسطحيّة المتشكّكين، ولا سيّما أولئك الذين يدّعون أنّهم سياسيّون محنّكون، أنّه سيكون رائعاً، له ولروما، أن يتبع يهودٌ كثيرون يسوع، عوضاً عن التأهّب للثورة، في تجمّعات الغيورين السرّيّة.

لقد وطّن العزم، إذن، على إنقاذ يسوع، ولكنّه كان يودّ أن يضيف إلى تسامحه، نكهة سخرية، يغيظ بها رؤساء الكهنة أولئك الذين ثاروا عليه ثلاث مرّات، والذين يمعنون الآن في مضايقته، كي يجعلوا منه جلاّدهم. وسيظلّ، حتّى آخر الشوط، يتظاهر باعتبار يسوع ملكاً على اليهود. ها هوذا مليككم، الملك الذي تستأهلونه، أيّها الشعب الماكر، البائس. نجّار قرية، متشرّد، متسوّل، مأفون، يحلم بملكٍ يتخطّى الأرض، ويجرّ، في إثره، بضع عشرات من الصيّادين، والفلاّحين، والنسوة. انظروا ما انتهى إليه، انظروا ما صنعتم به. وعلامَ قتلُه ؟ احتفظوا به : إنّكم الشعب الجدير بهذا الملك. سأفعل مثل ما تفعلون، سألهو، لحظةً، بتعذيبه، ثمّ سألقي به خارجاً.

و بعد أن أمر بإخراج يسوع، ظهر عند الباب، وقال لرؤساء الكهنة، وللآخرين المتراصّين، وقد تشنّجت وجوهم، ترقّباً لسماع الحكم :

– لقد قدّمتم لي هذا الرجل، وكأنّه مثير تمرّد. وها أنذا، بعد أن استجوبته، بحضوركم، لم أجد فيه أيّة من الجرائم التي تعزونها إليه. وكذلك هيرودُس، بدليل أنّه أعاده لنا. فهو، إذن، لم يرتكب ما يستحقّ، عليه، الموت. سأُنزل، به، إذن، عقاباً، ثمّ أحرّره.

لم يكن ذاك هو الجواب الذي كان ينتظره الرعاع النافدو الصبر، الصاخبون، الـذين تفجّرت من أشداقهم الفاغرة صيحة بهيميّة :

– الموت لهذا !

إنّ إنزال بضع جلداتٍ بعدّو إله الجيوش، وإله التجارة الخطير، لن يكون سوى عقابٍ مفرطٍ في الضآلة. شيء آخر كان يبتغيه قتلة الهيكل، فقد جاؤوا طالبين دماً، لا رأفة.

– الموت لهذا !

هكذا كان يجأر حنان وقيافا، ومعهما كانت تصفر الأفاعي الفرّيسيّة. وهكذا كان يصيح تجّار القطيع المقدّس، وصرّافو العملات المقدّسة، والحمّارة (أصحاب الحميـر فـي السـفر) وحمّالو القوافل.

– الموت لهذا !

هكذا كان يردّد الكتبة المتلفّعون بمعاطفهم اللاهوتيّة، والبائعون، وأصـحاب حانـات المدينة العالية، واللاويّون، وخدّام الهيكل، ووكلاء المرابين، وسُعاة الكهنة، وطغمة من الصبية الخسيسين الذين احتشدوا أمام مقرّ الحاكم.

و ما إن بدأ الصخب يخفت قليلاً حتّى سأل بيلاطس :

– ماذا أفعل بيسوع المدعوّ المسيح ؟

و أجاب جميعهم :

– فليُصلب !

و لكنّ الحاكم صمد :

– أيّ شرّ اقترف ؟

فازداد صياح الحاضرين عنفاً :

–ليُصلَب ! فليُصلب !

كان يسوع الشاحب، والساجي، في بياض معطف السخرية، يرنو، برقّة، إلى الجمهور الحريص على أن يهبه ما طلب في قلبه، منذ زمن بعيد. إنّه يموت من أجلهم، يحدوه رجـاءٌ إلهيّ في إنقاذهم بموته، وهم يواجهونه بالصياح، ولكأنّه يريد الهروب من مصـيرٍ ارتضـاه. أصحابه غائبون، متوارون، كلّ شعبه يريد صلب جسده، ووحده، إنسانٌ غريب، رومانيّ عابد أصنام، يدافع عن حياته. لمَ لا يرأف هو، أيضاً، ويودعه بين يدي جلاّديـه ؟ ألا يلحـظ أنّ تعاطفه الزائف لا يُفيد إلاّ في إطالة أمد احتضار الضحيّة، وجعله أقسى مرارة ؟ يسـوع قـد

أحبّ، فلا بدّ من بغضه. لقد أنهض الموتى، فلا بدّ من قتله؛ يريد أن يخلّص، فلا بدّ من أن يبتغي الجميع شنقه. إنّه بريء، فلا بدّ من أن يُضحّي به المجرمون.

غير أنّ بيلاطس العنيد، لا يستسلم إلى نباح الجمهور، ولا إلى توسّل يسوع الصامت. إنّه يودّ إنقاذه بأيّ ثمن؛ وهو، في هذه النوبة أيضاً، يأبى الاستسلام لأولئك المسعورين القذرين. لم يستطع أن يحمّل أنتيباس مسؤوليّة الإعدام الكريهة؛ وهو عاجز، أيضاً، عن إقناع شعب النمور والبغال هذا، ببراءة مليكه المسكين. فهم توّاقون إلى رؤية الدم، وراغبون، في يوم العيد هذا، بالتمتّع بمشهد صَلْب. وخطر لبيلاطس : سأروي غليل رغبتهم، بإعطائهم جثمان قاتل، عوضاً عن جسد بريء.

بار ربّان

– " أقول لكم إنّني لا أجد عليه مأخذاً. ولكن جرت العادة أن أُطلق لكم سجيناً، بمناسبة العيد. فمن تريدون أن أُطلق : بارابّاس، أم يسوع المدعوّ المسيح ؟"

لقد أُخِذ الشعب على حين غرّة، فلم يعرف ما يجيب به. حتّئذٍ، كان المطلوبَ اسمٌ واحد، ضحيّةٌ واحدة، عقابٌ واحد. كان كلّ شيء صافياً مثل شمس منتصف نيسان الصباحيّة هذه. وإذ بالوثنيّ، بغية إنقاذ صانع الفضائح هذا، رغماً عنّا، يدفع اسماً جديداً، ويشوّش كلّ شيء. يريد ضرب المذنب بالعصيّ، عوضاً عن صلبه. إنّه يقدّم لنا، الآن، مجرماً آخر بدلاً من ذاك الذي نطالب به. ولكن، لحسن الطالع، ما زال الشيوخ، والكتبة، والكهنة، هنا، متأهّبين لمنع إفلات يسوع. وفي مثل ومضة برق همسوا للجمهور بما ينبغي قوله. وبالتالي، عندما سأل بيلاطس ثانية :

–أيّاً من الاثنين تريدون أن أُطلق ؟

أجابوا، جميعهم، بصوتٍ واحد؛

–أطلق بارابّاس، والموت لهذا !

الرجل الذي عرضه الرومانيّ على الكَلِفين بالصلب، كبش فداء، لم يكن نذلاً نكرة. فالتقليد الشائع يظهره قاطع طرق، وممتهن إجرام. غير أنّ لقبه، بارربّان، الذي يعني ابن الرابيّ، أو، بالحريّ، تلميذ المعلّم، إذ إنّ تلاميذ الرابيّين كانوا يُدعون، أيضاً، أبناءهم، ينبّهنا إلى أنّه كان ينتمي – بالولادة أو بالتربية – إلى طبقة معلّمي الشريعة. ويقول الإنجيليّان مرقس ولوقا بصراحة، أنّه كان متّهماً بارتكاب جريمة قتل، في أثناء شغب، وبالتالي كان قاتلاً سياسيّاً، ويُرجّح أنّ بارابّاس، الذي تثقّف، في مدارس الكتبة، على التحسّر على الملك، وبُغض المحتلّين، كان أحد الغيورين، وقد قُبض عليه في إحدى الفِتَن الفاشلة، التي كثرت في تلك

السنين. فهل كان ممكناً أن يرضى بتلك الصفقة المنافية للمنطق التكتّل الصدّوقيّ الفريسيّ، الذي كان يقاسم الغيورين مشاعرهم، ولو أنّه كان يخفيها، عن سياسة، أو عن صغارة ؟

مع أنّه كان قاتلاً، بل لأنّه كان قاتلاً، كان بارابّاس وطنيّاً، وشهيداً، ومضطهَداً، في حين أنّ يسوع، الذي لم يقتل أحداً، كان ينوي ارتكاب ما هو ما أدهى من القتل : نسف التوراة، وتقويض الهيكل.

-أطلق سراح بارباس والموت لهذا !

في هذه الكرّة، أيضاً، لم يفلح بيلاطس، لا في إنقاذ يسوع، ولا في إنقاذ ذاته. كان عليه أن يدرك أنّ زعماء اليهود لن يتخلّوا عن ذلك الجسد الذي طبعوا فيه دمغة أضراسهم. كانوا، يومها، يحتاجون إليه حاجتهم إلى الهواء والخبز. هو وحده كان كفيلاً بإشباع جوعهم. وما كان بوسعهم أن يأكلوا، ما لم يروا ذلك المسيح النغْل، مثبتاً بأربع مسامير، على خشبتين.

كان بنطس بيلاطس جباناً : يخشى ارتكاب الظلم، ويخشى إغضاب زوجته، ويخشى إرضاء أعدائه، ولكنّه، في الآن عينه، لا يجرؤ على توفير الأمان ليسوع، ولا يجرؤ على أمر جنوده بتبديد ذلك الحشد الصلف الصاخب، ولم يجرؤ على أن يفرض، بأمرٍ حاسم، إطلاق سراح البريء، لا القاتل. لقد كان من شأن رومانيٍّ حقّ، رومانيٍّ أصيل، أن يرضي المدّعين، في الحال، تفادياً لهدر دقيقةٍ واحدةٍ في الدفاع عن هاذٍ نكرة، أو أن يقرّر، أساساً، براءة الرجل، ووضعه تحت حماية الأمبراطوريّة السامية.

إنّ بيلاطس، بكثرة حِيَله، وتسويفاته، واستجواباته البليدة، ومقارباته، وأنصاف حلوله، وشكوكه، وقراراته الفاشلة التي يسارع إلى سحبها، استُدرج، بتؤدة، إلى حيث كان يأبى السقوط. لم يحسم النقاش، فوراً، بنَعَمٍ أو لا، وقد ضاعف ذلك قحة زعماء اليهود، وهياج الشعب. ولم يعد، أمامه، سوى واحدٍ من دربَيْن : عار الاستسلام بعد الكثير من المواربات والمقاومة، أو المخاطرة بإحداث شغب، قد ينقلب، في تلك الأيّام التي تؤوي فيها أورشليم ثلث اليهوديّة، ثورةً عارمة.

لقد دوّخته صيحات الجماهير، وأمواج أفكاره الجبانة، ولم يجد من حيلةٍ سوى العودة إلى استشارة من كان يتوجّب عليه، أو يرغب في إحكام سلطته عليهم :

– ماعليّ، إذن، أن أفعل بيسوع المدعوّ المسيح ؟

-إصلبه! فليُصلَب !

-و لكنّه لم يقترف شرّاً.

-إصلبه، إصلبه !

أنّى لذلك الغريب البغيض أن يعلم هل ارتكب يسوع شرّاً، أم لم يرتكب ؟ فهو حسب إيماننا، دجّال، ومجدّف، وعدوّ الشعب، وينبغي أن يموت. حتّى لو لم يفعل شيئاً، عليه أن يموت، فأقواله أشدّ خطراً من أشنع إثم.

-إصلبه ! إصلبه !

و صاح بيلاطس :

خذوه، أنتم واصلبوه، فلست أجد، لديه، ذنباً.

-نحن لدينا شريعة، وحسب هذه الشريعة يجب أن يموت، لأنّه جعل نفسه ابن اللّه.

صمتُ يسوع يطغى على الصخب البهيميّ. إنّهم يحاربون من أجل جسده، وهو يكاد لا يراه. منذ الأزل يعلم أنّ مصيره قد حُدّد، وأنّ، في هذا اليوم، أَجَلَه. صراع غير متكافئ! فمن جانب، وثنيٌّ يجهله، ولا يستطيع فهمه؛ يدافع عنه، لا حبّاً به، بل بغضاً، لا بصراحة، بل بالمماحكة والحيلة؛ يخشى الثورة أكثر من خشية ارتكاب الظلم؛ ويعاند، بدافع الكبرياء، لا بدافع يقين إنقاذ بريء. ومن جانبٍ آخر، كهنوت مهدّد، وبورجوازيّة مهانة، ودهماء يمكن دفعها إلى الأسوأ، مثل كلّ دهماء، فمن لا يستطيع توقّع نتيجة المواجهة؟

بيد أنّ بنطس بيلاطس لا يستسلم. إنّه يسلم باراباس إلى المتواطئين معه، ولكنّه لا يتخلّى عن يسوع. بل يعود إلى فكرته الأولى : إخضاعه لعقوبة. فربّما، عندما سيشاهدون آثار الكدمات، سيكتفون بهذا القدْر من التعذيب، ويدعون وشأنه البريء الذي يشهد، بنفس القدر من الشفقة، راعياً حقيراً، وقطيعاً جموحاً.

لقد أعلن الحاكم أنّه لم يأخذ عليه ذنباً، ومع ذلك يُنزل به الضربات. هذا التناقض، هذا العدل الأعرج، هذه التسوية، هي من أساليب بيلاطس المعهودة؛ غير أنّ هذه المحاولة الجديدة، لن تلقى سوى فشلٍ جديد، وعارٍ آخر، قبل الهزيمة الأخيرة.

و بُحّ اليهود وهم ما انفكّوا يهتفون :

-فليُصلَب !

و عاد بيلاطس إلى دار الحكم، وأسلم يسوع إلى الجند الرومانيّين، كي يجلدوه.

تتويج ملك

لم تكن حثالة العساكر المرتزقة، التي تشكّل، في الأقاليم، الجزء الأكبر من الفِرَق، تنتظر أكثر من ذلك. حتّئذٍ، كان حرس الحاكميّة قد اضطرّوا أن يُشاهدوا، في صمتٍ وسكون،

ذلك السجال الاستعماريّ الغامض، الذي لم يستخلصوا منه سوى أمرٍ واحد : لم يكن رئيسهم يبلي فيه البلاء الحسن.

لقد لهوا، برهةً، بمراقبة سِحَن اليهود الكشرة وإيماءاتهم، ثمّ اتّضح لهم أنّ الوالي، المرتبك والمتجهّم، كان يتخبّط، عبثاً، وسط ذلك الحشْر. وكانوا يراقبونه، مراقبة كلابٍ لصيّادٍ فاشل، يسعى يمنة ويساراً، ولا يوطّن النفس على إطلاق النار، مع أنّ الطريدة في متناول يده.

وها قد بات، أخيراً، بوسعهم القيام بعملٍ ما، وشرعوا، هم أيضاً، يتمتّعون. فإنزال العصيّ على صُلْب يهوديّ يمقته اليهود أنفسهم، كان عبثاً لا خطر فيه ولا نَصَب؛ بل فقط ما يكفي لتنشيط الأيدي، وشدّ الأعصاب التي قلّصها برد الصباح.

واستُدعي الفوج كلّه إلى فناء القصر، وانتُزع عن يسوع المعطف الملكيّ الأبيض، خلعة هيرودُس، التي أصبحت الغنيمة الأولى، ثمّ خُلع عنه سائر ثيابه. واختيرت العصيّ، التي تنازعها أكثر الجند صلابةً، وبراعةً في الجلد، بحركاتٍ عنيفة، جميلة، وفق أصول الفنّ.

ووُثّق يسوع، وهو نصْف عارٍ، إلى عمود، لكيلا تخفّف أيّة حركة منه شدّة الضربات؛ وكان يدعو، في صمتٍ، أباه، مصلّياً من أجل أولئك الجند الذين كانوا يجهدون، ويعرقون، في ضربه. ألم يكن قد قال : أحبّوا مبغضيكم، أحسنوا إلى من يضطهدكم، قدّموا الخدّ الأيسر لمن يصفعكم على الخدّ الأيمن ؟ وهو، في تلك اللحظة، لا سبيل له إلى مكافأة جلاّديه، سوى بدعائه إلى اللّه أن يغفر لهم. إنّهم سجناء، وخاضعون مثله، ويجهلون من هو ذاك الذي يجلدونه ببهجةٍ بريئة؛ هم أنفسهم قد جُلدوا، أحياناً، من جرّاء مخالفتهم النظام، ولذلك لم يستغربوا أن يأمر الوالي، وهو زعيمٌ رومانيّ، بمعاقبة هذا المجرم المنتمي إلى جنس المحكومين الأدنى.

أُضربوا بقسوة، أيّها الفيلقيّون ! فهذا الدم الذي شرع ينثال من الجروح يُسكَب من أجلكم أيضاً، إنّه الدم الذي يستقطره البشر من ابن الانسان. ففي العشاء الأخير، كان لدمه مظهر الخمرة؛ وفي بستان الزيتون، كان ينسكب الدم مصحوباً بالعرق، نابعاً من كَمَدٍ روحيٍّ وداخليٍّ صرف. وها هي ذي، اليوم، أخيراً، أيدٍ بشريّة تُسيل الدم من عروق المسيح: أيدي الجند الخشنة، التي تخدم أولياء السلطة والأغنياء، وتستخدم السوط، وستغرس المسامير. هذا الظهر المكمّد، المنتفخ، المدمّى، بات جاهزاً للالتصاق بالخشب؛ وستضاعف جروحه آلامه عندما سيمدّد على عارضةٍ خشنة. والآن، بات بوسعكم التوقّف عن الضرب : فقد أمسى رواق الغريب الجبان، مضرّجاً بالدم، الذي ستُغسَل اليوم، آثاره، ولكنّها ستظلّ تتجلّى، أبداً، على يدي بنطس بيلاطس البيضاوين، حتّى بعد غسلهما.

الضربات التي أُمر بها، قد أُنزلت حسب الأصول، ولكنّ شهيّة الفيلقيّين ما زالت مسنونة، وهم يأبون أن يتخلّوا، سريعاً، عن ضحيّتهم. كلّ ما فعلوه، حتّئذٍ، كان تنفيذ أمر،

وهم، الآن، يريدون إشباع نزوة. وإن كان عليهم أن يصدّقوا نبّاحي الساحة، فهذا الماثل أمامهم، يدّعي أنّه ملك، فلمَ لا يلبّون رغبته، وفي الآن عينه، يثيرون حفيظة الذين يعارضون ملكيّته؟

لقد نزع أحد الجند معطفه الأروجواني – دثار الفيلقيّين القرمزيّ – وألقاه على الكتفين المضرَّجتين بالدم. ووقعت أنظار آخر على حزمة الشوك، التي ستشعل في، المساء، موقد الحرس، فضفر من فِنْدين إكليلاً توّج به جبين يسوع. ووضع ثالث، عنوةً، قصبة في يده اليمنى. وشرعوا، واحداً فواحداً، يجثون أمامه، في استهزاء سمج، وهم يصيحون :

–سلام، يا ملك اليهود!

و لكنّهم لم يكتفوا، جميعهم، بهذا التكريم الساخر. بل إنّ أحدهم أنزل صفعةً على الخدّ الذي كان ما يزال ظاهراً عليه أثر أصابع خدّام قيافا؛ وبصق آخر على عينيه؛ وآخر، أكثر حذقاً، استلّ القصبة من يده، وضرب بها رأسه، بحيث توغّلت الأشواك في جبينه، راسمة عليه إكليل لآلئ حمراء.

لم يكونوا قد فرغوا من اختراعاتهم الممتعة، عندما سارع الوالي، وقد اجتذبه الصخب الفرِح، وأمر بإعادة اقتياد الملك المنهك بالضرب إلى الخارج. فقد كان الفيلقيّون، بمهزلتهم، قد خدموا نوايا رئيسهم التهكّميّة. وابتسم بيلاطُس، وأخذ يسوع من يده، وجرّه إلى شرفة دار الولاية المبلّطة، وأظهره للجمهور، هاتفاً :

– ها هو ذا الرجل !

غسل اليدين

–ها هو ذا الرجل !

و أدار المسيح، وأظهر كتفيه للشعب النابح، كي يرى الجميع دمغات العصيّ الداكنة، وآثار النجيع.

و لكأنّي به يقول :

– تأمّلوه، مليككم، الملك الوحيد الذي تستحقّونه، في جلاله الحقّ، وفي الزيّ اللائق به! إكليله من شوك، ومعطفه الأرجوانيّ، إنْ هو إلاّ دثار أحد المرتزقة ! وصولجانه قصبة. إنّها الأوصاف الجديرة بملك الكرنفال هذا، الذي أنكره، افتئاتاً، شعبه، شعبكم اللئيم. أمتعطّشون أنتم إلى الدم ؟ ها هوذا الدم. أنظروا إليه كيف يتجمّد حول الجراح، وكيف ينثال،

قطرةً قطرةً، من إكليل الشوك. دمٌ مسكين لإرواء غليلكم، ويجب أن يكفيكم لأنّه بريء، وأنتم مدينون لي بفضل إسالته، من أجل إرضائكم، والآن، امضوا في سبيلكم، فقد أصممتموني، بما يكفي.

ولكن لا هذه الكلمات ولا ذلك المنظر هدّأت هياج اليهود. كان يلزمهم ما يفوق كثيراً الجلد والمهزلة، لكي ينطلقوا بسلام. لقد ظنّ بيلاطس أنّ بوسعه التلاعب بهم، ولكنّه سيتبيّن، سريعاً، أنّ الوقت ليس وقت مزاح. لقد حاول مقاومتهم، فتحطّم مرّتين؛ وسيحطّم، في هذه المحاولة، رأسه، فآثار دم، وهزليّة جند، ليست كافية لمعاقبة عدّو اللّه، العقاب الذي يستأهله. إنّ اليهوديّة لا تفتقر لا إلى أشجارٍ، ولا إلى مسامير، والأصوات الجشّاء تردّد، مثل جوقة:

-"فليُصلَب" !

لقد تلكّأ بيلاطس في تبيّن أنّه تورّط في مأزقٍ لا مخرج له منه. فكلّ قراراته يقاومها عنادٌ لم يحسب له حساباً. وقد أملى عليه، إلهامٌ أخير، قوله المأثور :

-ها هوذا الرجل.

هو نفسه لا يدرك مغزى هذا الإعلان الذي يتخطّاه. ولا يرى أنّه عثر على هذه الحقيقة التي كان يبحث عنها. إنّها نصف الحقيقة، ومع ذلك هي أعمق من كلّ تعاليم فلاسفة روما والإغريق. وهو لن يستطيع تفسير كون يسوع هو، حقّاً، الرجل، رمز الإنسانيّة المتألّمة، والمهانة، التي خانها زعماؤها، وخدعها أسيادها، والتي يصلبها، كلّ يوم، ملوكٌ يلتهمون رعاياهم، وأغنياء يستمطرون دموع الفقراء، وكهنة يفكّرون في بطونهم، أكثر ممّا يفكّرون في اللّه. يسوع هو رجل الآلام الذي تنبّأ به أشعيا، رجل البؤس الذي ينبذه الجميع، ويُجمعون على قتله؛ هو، أخيراً، الابن الوحيد لله الوحيد، الذي ارتدى هيئة إنسان، والذي سينزل ثانيةً على الأرض، في مجد القدرة، والشمس الجديدة، وتألّق أبواق القيامة، ولكنّه، اليوم، في نظر بيلاطُس، كما في نظر أعدائه، ليس سوى إنسانٍ بائس لا يساوي شيئاً، وجسد يصلح للعصيّ والمسامير. إنّه رجلٌ، وليس الرجل، إنّه معرّض للموت، وليس الله. ماذا ينتظر بيلاطس إذن، بعد أن سمع ألغاز أقواله المستعصية على الفهم، كي يسلّمه إلى الجلاّد؟

غير أنّ بيلاطس لم يقرّر الاستسلام بعد. ففي حضور هذا الرجل الصامت، يشعر الرومانيّ برعبٍ يتعاظم في داخله، لم يعهد له مثيلاً، قطّ. ويتساءل من هو، إذن، هذا الذي يطالب بموته شعبٌ بأسره، والذي يعجز، هو، عن إنقاذه، وعن تسليمه للموت ؟

و للمرّة الأخيرة، يلتفت نحو يسوع قائلاً :

-قل لي، أخيراً، من أين أنت ؟

و لكن يسوع لا يجيب.

-ألا تجيب بشيء ؟ ألا تعلم أنّ لي سلطة إنقاذك، وسلطة صلبك ؟

و حينئذٍ رفع الملك المهان رأسه، وقال :

–ما كان ليكون لك عليّ أيّ سلطان، لو لم يُعطَ لك من فوق. ومن أجل هذا، فإنّ الذي أسلمني إليك يحمل وِزْر خطيئةٍ أثقل من خطيئتك "

قيافا وعصابته هم المجرمون الحقيقيّون الوحيدون، أمّا الآخرون، فما هم إلاّ كـــلابٌ تُستَفزّ، أو آلات طيّعة. وما بيلاطس، الذي يقاوم، سوى أداة بغض الكهنة، والمشيئة الإلهيّة.

و لكنّ الوالي، في حيرته واضطرابه، وفي عجزه عن العثور على وسيلةٍ تقطع القيـــد الذي يكبّله، يردّد :

هوذا ملككم :

و صاح اليهود الذين أثارتهم الإهانة، هذه النوبة، بهياج :

–إن أنت أطلقت سراح هذا الرجل، فلست صديقاً لقيصر. فكلّ من يجعل نفسه ملكـــاً يعلن أنّه عدوّ قيصر.

أخيراً، عثروا على نقطة الضعف حيث يستطيعون النيل من ذلك الرعديـــد. فمصـــير ذلك الوالي الرومانيّ الرفيع الرتبة كان يعتمد، في تلك الحقبة، على رضى قيصر. وكان مـــن شأن وشايةٍ من هذا النمط القضاء عليه ، إن قام بدسّها عليه محامون خبثاء، متـــوفّرون فـــي الوسط اليهوديّ، ولكن رغم هذا التهديد، طرح بيلاطس سؤاله الأخير، والأكثر سخفاً:

–هل عليّ، إذن، أن أصلب ملككم ؟

و إذ اتّضح لرؤساء الكهنة أنّهم قد أشرفوا على الفوز، أجابوا بالفرية الكبرى :

–لا ملك لنا إلاّ قيصر.

و واكب الشعب صيحة زعمائه الكاذبة هذه، بصيحةٍ صادقة:

–الموت لهذا ! إصلبه !

و استسلم بيلاطُس. وكان لا بدّ له من الاستسلام لتفادي ثورةٍ كفيلةٍ بإلهاب اليهوديّة.

و خيّل إليه أنّه مرتاح الضمير؛ فقد فعل كلّ ما وسعه لإنقاذ هذا الرجل، الذي يـــأبى إنقاذ نفسه.

لقد حاول أن يوفّر له الخلاص بتسليمه إلى حكم السنهدرين الذي لا يملك سلطة تنفيذ حكمٍ بالموت؛ ثمّ بإرساله إلى محكمة هيرودُس؛ وبتأكيده أنّه لم يأخذ عليه جُرمـــاً؛ وبعرضـــه إطلاق سراحه عوضاً عن باراباس؛ وحاول إنقاذه عندما أمر بجلده راجياً أن يكون هذا العقاب المهين كافياً لإخماد غضب اليهود؛ ولاستثارة الرأفة في تلك القلوب المتحجّرة. بيد أنّ كلّ هذه المحاولات انتهت إلى فشل. وما كان ليرضى بأن يثور إقليمٌ بكامله، إكراماً لهذا النبيّ الصعب المراس، وهو يأبى المخاطرة بأن يُشكى إلى قيصر، ويُعزل بسبب هذا الرجل.

كان بيلاطس يظنّ أنّه بريء من قتل هذا البريء. ولكي يحتفظ كلّ امرئ بصورة مرئيّة وجديرة بالذكرى عن براءته، أتى بطست ماء، وغسل يديه على مرأى من الجميع، قائلاً :

–إنّني بريءٌ من دم هذا الصدّيق؛ وعليكم يقع وزره.

فردّ الشعب كلّه :

–فليكن دمه علينا وعلى أبنائنا.

وحينئذٍ أطلق لهم برأبّا، وأسلم يسوع إلى الجند، كي يُصلب.

غير أنّ الماء الذي سكبه على يديه غير كافٍ لغسلهما. فيداه ما برحتا، حتّى اليوم، ملطّختين بالدم، وستظلاّن كذلك إلى الأبد. فقد كان بوسعه إنقاذ ذلك الرجل، ولم يشأ. إنّ مراوغاته، والجبن المتعدّد الأشكال المتمكّن من نفسه المسمّمة بالتشكّك والسخرية، هي التي دفعت بيسوع إلى الجلجلة. لو أنّه ظنّه مجرماً، ووافق، حقّاً، على قتله، لكان أقلّ حقارة. ولكنّه يعلم أن ليس على يسوع جرم، وأنّ يسوع هو صدّيق، على نحو ما قالت له كلوديا بروكولا، وعلى نحو ما أعلن وكرّر، هو نفسه.

لا عذر لمسؤولٍ يأمر بقتل صدّيق بريء، درءاً للأذى عن نفسه، في حين أنّ وظيفته هي حماية الأبرياء من القتلة. لقد ادّعى بيلاطس أنّه فعل ما وسعه لانتزاع يسوع من براثن القتلة؛ ولكنّ ادّعاءه كاذب. لقد حاول انتهاج دروب كثيرة، ولكنّه لم ينهج الدرب الوحيد الكفيل بالإفضاء به إلى غايته. لم يبذل ذاته، ولم يضحّ بنفسه؛ وأبى أن يعرّض للخطر كرامته ومصيره. اليهود يمقتون يسوع، ولكنّهم يمقتون، بنفس المقدار، بيلاطس الذي، بشتّى الأساليب، أغاظهم وأهانهم. وكان الأَوْلى به، عوضاً عن اقتراح استبدال يسوع برجل الفتنة بارابّان، أن يقدّم نفسه، بنطس بيلاطس، والي اليهوديّة، ولربّما كان الشعب قبل المقايضة. فما من ضحيّة سواه كانت كفيلة بإرضاء نقمة اليهود. لم يكن من الضروريّ أن يموت، بل كان حسبه تحدّي التهديد بالوشاية به إلى قيصر، فربّما كان من شأن تيبيريُس أن يعزله من منصبه، أو أن ينفيه، ولكنّه كان قد حمل إلى منفاه، مع زوال حظوته، عزاء البراءة وسعادتها. ولا سيمّا وإنّه لن يتفادى، سوى سنواتٍ قليلة، هذا المصير التعيس، الذي حمله خوفه منه إلى تسليم يسوع، ضحيّة فداء، إلى أيدي أعدائه. فسيشي به اليهود والسامريّون؛ وسيعزله والي سوريّة، وسينفيه كاليغولا إلى بلاد الغاليّين، وسيواكبه إلى منفاه طيف الصامت الأكبر، الذي قُتل بموافقته. عبثاً أمر ببناء خزّان الماء الجميل، في أورشليم، وملأه؛ وعبثاً اغتسل بهذا الماء على مرأى الجماهير. فذلك الماء يهوديّ، عَكِر، وملعون، ماءٌ لا قدرة له على التنظيف. وما من وضوءٍ كفيلٌ بمحو الآثار التي خلّفها دم المسيح الإلهيّ على يديه.

عشيّة السبت

كانت الشمس تصعّد في سماء نيسان العارية، وقد أوشكت بلوغ أوج مسيرتها : وكان قد هُدِر معظم فترة الصباح في الجدال، وحان وقت حثّ الخطى، إذ كانت وصيّةٌ موسويّة قديمة تمنع بقاء جثث المعدومين، في أماكن العذاب، بعد غروب الشمس؛ ونهارات نيسان ما برحت قصيرة.

و ما كان قيافا ليعهد راحة، مع أنّ طغمات النابحين المسعورين كانت متكاتفة معه، ما لم تُقيّد قدما المتشرّد قيداً دائماً، وما لم تثبّت بمسامير حديديّة على الصليب. إنّه ما انفكّ يذكر دخوله، لأيّامٍ قليلةٍ خلت، وسط اهتزاز سعف النخيل، وبهجة التراتيل. إنّه واثق من المدينة، ولكنّ المدينة، في هذه الأيّام، تضجّ بالقرويّين القادمين من كلّ صوب، والذين لا يقاسمون زبانية أرجاء الهيكل مصالحهم وأهواءهم؛ ولا سيّما أولئك الجليليّين الذين يحبّون يسوع، وقد واكبوه إلى هنا، وقد يحاولون القيام بهجومٍ مباغتٍ، من شأنه، ربّما، الحؤول دون الاحتفال بعيد ذلك اليوم المقام على شرفٍ خاصّ، أو إرجاؤه.

بيلاطس، أيضاً، يتطلّع، بنفاد صبر، إلى إبعاد ذلك البريء المزعج عن نظره وعن فكره، آملاً، بعد تنفيذ العقاب، أن ينسى تلك النظرات، وتلك الأقوال، وخاصّة ذلك الضيق الحارق الذي يحاكي إلى حدٍّ كبير، تأنيب الضمير. ومهما غالى في غسل يديه ومسحهما، يبدو له أنّ ذلك الرجل، بصمته، يحكم عليه بعذابٍ أشنع من الموت نفسه؛ لا بل يخيّل إليه أنّه ماثلٌ مثول المجرمين، أمام ذلك المجلود المدنف. ولكي يتخفّف من حنقه على أولئك الذين كانوا السبب الحقّ، يملي على أحد الكتبة حجّة الحكم، التي تدوّن على لوحة يتعيّن على المحكوم حملها معلّقة على رقبته، والتي ستثبت في أعلى الصليب. وقد أملاها على هذا النحو : يسوع الناصريّ، ملك اليهود. ودّون الكاتب هذه الكلمات، في ثلاث لغات، بحروفٍ جميلة حمراء على خشب مبيّض.

واشرأبّت أعناق وجهاء اليهود الذين تلبّثوا هناك لتسريع المهمّة، وقرأوا الكتابة الساخرة، فحمحموا، قائلين لبيلاطُس : لا تكتب "ملك اليهود" بل "من ادّعى أنّه ملك اليهود" .

و لكنّ الوالي، بكلمةٍ مقتضبة، قطع النقاش :

– ما كتبته، فقد كتبته.

تلك هي كلمات بيلاطس الأخيرة التي نقلها لنا التاريخ، وتلك هي أعمقها. (ولكأنّي بلسان حاله يقول) : إنّني مجبر على تسليمكم حياة هذا الرجل، ولكنّني لا أنكر ما قلت : إنّ يسوع ناصريّ، أي إنّه، أيضاً، قدّيس؛ وهو ملككم، الملك البائس الذي يليق ببؤسكم، وأودّ أن

يعرف الجميع كيف يعامل جنسكم اللئيم القدّيسين والملوك، ولذلك أمرت بكتابة هذه الكلمات بالعبريّة، واليونانيّة، واللاتينيّة. لقد ضقت باحتمالكم ذرعاً، و"ما كتبت فقد كتبت".

إلاّ أنّ الجند كانوا قد ألبسوا الملك ثيابه، ثياب الفقراء، وعلّقوا في عنقه، الحجّة؛ وآخرون جاؤوا، من مستودع الولاية، بالصلبان الضخمة المصنوعة من خشب الصنوبر، وبالمسامير، والمطارق، والكمّاشات... وانطلق الموكب.

في الطليعة سار، ممتطياً حصاناً، قائد مئة، ذاك الذي يدعوه تاشيتُس، بإيجازٍ رهيب، "منفّذ الموت". ومن خلفه، وسط الفيلقيّين المسلّحين، سار يسوع واللصّان اللّذان حُكِم عليهما بالصلب، في ذلك اليوم. كلٌّ منهم كان يحمل صليبه على ظهره، وفقاً للقانون الرومانيّ. ومن خلفهم كانت تُسمع أصواتٌ مبهمة، ووقع خطوات الرعاع، الذين كان يُضخّم حشدَهم، مع كلّ خطوة، مزيدٌ من الفضوليّين والمتواطئين.

إنّها عشيّة السبت، ويوم التهيئة، وبيرمون الفصح الأخير. آلاف جزّات صوف الحملان امتدّت على الأساطيح، تحت الشمس. ومن كلّ بيت كان يتصاعد خطٌّ رفيع من الدخان يزدهر في الهواء مثل وردة تتفتّح، ثمّ يتوه في سماءٍ تدوّي بأَصداء العيد. ومن الأزقّة كانت تصل إلى مفارق الطرق عجائز شرّيرات، وهنّ يتمتمن باللعنات؛ وأطفالٌ قذرو الوجوه يهرولون متأبّطين رُزَماً؛ ورجالٌ ملتحون يحملون على أكتافهم جدياً أو زقّ نبيذ، وحمّارون يجرّون بالمقود بهائمهم المطأطئة الرؤوس؛ وشابّاتٌ يصوّبن أنظارهنّ الوقحة الحزينة على الغرباء الذين كانوا يسيرون بحذر، وسط جلبة العيد.

الجميع منشغلون؛ فبعد غروب الشمس، سيُلغى حكم الكدّ اليوميّ الذي فُرض على آدم، لفترة أربع وعشرين ساعة، وسيُثلج قلوب القوم التفكير بيوم الراحة والعيد، حيث ستلتئم كلّ أسرةٍ حول الأب، وتأكل بسلام، وتشرب من كأسٍ واحدة، خمرة الشكر، وسيكون اللّه شاهداً على هذه البهجة، إذ ستنطلق نحوه من كلّ البيوت، دعوات المزامير. الفقراء، في ذلك اليوم، يغشاهم شعور بما يشبه الغنى، وبمحاكاة الأغنياء. أَمّا الأغنياء، فبعد صدقاتٍ غير مألوفة، يشعرون أنّهم شبه كرماء؛ والشبّان والفتيات يغدون أكثر تأهّباً للحبّ.

و في كلّ مكان كانت تشاهد تلك الفوضى السلميّة، وذلك الانهماك، اللّذان يسبقان الاحتفالات الشعبيّة الكبرى... وطوفان من النور كان يتدفّق من الشمس الشرقيّة الكبيرة على التلال الأربع.

سمعان القيرينيّ

وسط مناخ العيد هذا، والانهماك الشعبيّ به، يتقدّم، وئيداً مثل موكب جنائزيّ، موكب حاملي الصلبان الكئيب. كلّ شيء يتحدّث عن الفرح والحياة، من حولهم، هم الماضين إلى عذاب الموت الحارق. كلٌّ يتطلّع، بشوق، إلى المساء لالتقاء من يحبّ، وللجلوس إلى المائدة المعدّة، وليرتشف خمرة الأيّام السعيدة، الخمرة النفّاذة الصافية، وليترقّب، وهو مستلقٍ على سريره، أكثر السبوت اشتهاءً. أمّا أولئك الثلاثة، فقد فُصلوا، إلى الأبد، عمّن يحبّونهم؛ وسيستلقون على خشب الخزي، ولن يرتشفوا سوى جرعة من نبيذٍ مرّ، وسيُلقى بهم، باردين، على الأرض الباردة.

تنحّى المارّة أمام حصان قائد المئة، وتوقّفوا لإلقاء نظرة على البائسين اللاهثين، المتصبّبين عرقاً تحت الوقر الرهيب. وبدا اللصّان أكثر صَلَفاً وصلابة؛ أمّا الأوّل، رجل الآلام، فبدا، مع كلّ خطوةٍ يخطوها، أنّه لن يقوى على الخطوة التالية. ذاك الذي أنهكته أحداث الليل الرهيبة، والاستجوابات الأربعة، والصفعات، والهراوات والقضبان؛ الذي شوّهه الدم، والعرق، والبصقات، ونَصَب الجهد الأخير، ما عاد يشبه، في شيء، الشابّ الجريء الذي نظّف مغارة لصوص الهيكل، بالسياط.

محيّاه الجميل المتألّق شوّهته انقباضات التشنّج؛ وعيناه المضرّجتان بالدموع الحبيسة، اختبأتا في أعماق محجريهما، وعلى كتفيه الممزّقتين التصقت ثيابه بجروحه، مضاعفةً آلام استشهاده. وساقاه، على نحوٍ خاصّ، كانتا تتألّمان من ذلك الإعياء، وترزحان تحت وقر الجسد والصليب. "الروح متأهّب، أمّا الجسد فواهن". ومنذ عشيّة الأمس، عندما بدأ نزاعه، كم من الضربات قد أوهنت هذا الجسد ! قبلة يهوذا، وفرار الأصدقاء، والحبل الذي قيّد المعصمين، وتهديدات القضاة، وعبث الحرَس الشرس، وجبن بيلاطس، وصرخات الموت، وإهانات الفيلقيّين، وتلك المسيرة، تحت الصليب، وسط هزء من يحبّهم، وازدرائهم.

الذين يشهدون مروره، لا يحفلون به. إنّه سيُصلب، ولا بأس في ذلك. جلُّ ما يفعله من يحسنون القراءة هو محاولة تفسير اللوحة المدلاّة على صدره. إلاّ أنّ كثيرين يعرفون اسمه، أو قد سبق لهم أن رأوه، فيدلّون الجيران إليه بأصابعهم، بزهوٍ، ورضىً. والبعض يندسّون في مؤخّر الموكب، كي يتمتّعوا، حتّى النهاية، بالمشهد المتجدّد أبداً، مشهد موت إنسان. وربّما كان تضاعف عددهم لو لم يكن ذلك اليوم، يوم ازدحام شديد. أولئك الذين كانوا قد شرعوا يضعون فيه رجاءهم، باتوا يحتقرونه، لأنّه لم يفلح في إثبات قوّته، فقُبض عليه مثل أيّ مجرم تافه، ولكي يكسبوا رضى الكهنة والشيوخ المختلطين بالموكب، انطلقوا يقذفون المسيح الزائف، أثناء مروره، بشتائم مُحكمة الحبك. وثمّة، أيضاً، قلّةٌ ممّن انقبضت قلوبهم،

وهم يشهدون ما آلت إليه حال ذلك الرجل، سواء من جرّاء ما كان ينتابهم من شعورٍ لا يعرفون له اسماً، نابعٍ من شفقة الجماهير الطبيعيّة حيال المحكومين؛ أو لأنّهم احتفظوا، في قلوبهم، ببقيّة حبٍّ لذلك المعلّم الذي كان طيّباً مع الفقراء، وكان يشفي المرضى، ويعلن عن ملكٍ عادل ومقدّس شديد الاختلاف عن الممالك التي تمزّق الأرض. ولكنّ هؤلاء هم الأقلّ عدداً، ويكادون يخجلون من العطف الخفيّ الذي يشعرون به حيال رجلٍ ظنّوه أقلّ عرضةً لكراهيّة الآخرين، وأشدّ سطوة. بيد أنّ معظم الآخرين كانوا يضحكون، مسرورين، وهادئين، ولكأنّ هذا الموكب الجنائزيّ جزء من العيد الوشيك.

و كانت بضع نساء يتبعنَ الموكب، سائراتٍ في مؤخّره، وفي شبه عزلة، وقد أخفين رؤوسهنّ بأثوابهنّ. إنّهنّ يبكين، ويخفين دموعهنّ لئلاّ تبدو، لأعداء يسوع، دموعاً مجرمة.

كان الموكب يقترب من باب البساتين، عندما تعثّر يسوع، وقد نفدت قواه، وانهار على الأرض، حيث لبث مستلقياً تحت الصليب. وغدا وجهه، بغتة، في مثل بياض الثلج. وقد غطّى عينيه جفناه المقرّحان. ولولا النفَس اللاهث المتسرّب من فمه شبه المطبق، لظُنّ أنّه مات.

و توقّف الجميع. وتشكّلت حلقة لزيزة، نابحة. وامتدّت وجوهٌ وأيدٍ نحو يسوع. اليهود الذين كانوا يتبعونه، انطلاقاً من بيت قيافا، أبوا أن يصدّقوا؛ وراحوا يجأرون :

– إنّه يمثّل. أنهضوه. إنّه مراءٍ. عليه أن يحمل صليبه حتّى نهاية الشوط. تلك هي الشريعة. ارفسوه بأرجلكم، رفس الحمير، ودعوه يستأنف السير.

و آخرون كانوا يهزأون :

– انظروا الملك الأعظم الذي كان يريد فتح الممالك. إنّه عاجزٌ عن احتمال عارضتين من الخشب، هو الذي كان يريد ارتداء شكّة القتال. كان يدّعي أنّه أكثر من رجل، وإذا به، أقلّ من امرأة، ويغمى عليه لدى أدنى تعب. كان يجعل المقعدين يمشون، ولا يقوى على الوقوف ! اسكبوا كأس نبيذ بين أسنانه، علّه يستعيد قواه.

غير أنّ قائد المئة، مثل بيلاطس، كان على عجلةٍ من إنجاز تلك المهمّة المقيتة. وقد أدرك، وهو الرئيس الخبير بالبشر، أنّ ذلك المسكين لن يقوى على جرّ صليبه حتّى الجلجلة، فجال، بعينيه، باحثاً عمّن يستطيع حمله عنه. وفي تلك اللحظة، كان عائداً من الحقل، رجلٌ من قيرين، يدعى سمعان. كان قد اندسّ بين الحشد، وأخذ يرقب، في تأثّرٍ وذهول، ذلك الجسد الممدّد، مسحوقاً تحت العارضتين. وأبصره قائد المئة، وإذ تبيّن صلابته وقوّته، ناداه قائلاً :

– إحمل هذا الصليب، واتبعنا.

و امتثل القيرينيّ، من غير أن يفوه بكلمة، ربّما بدافع العطف، ولكن، على أيّة حال، مرغماً، إذ إنّ الجنود الرومانيّين، في البلدان المحتلّة، كانوا يملكون حقّ الاستعانة بأيٍّ كان. و

قد كتب أريانُس، بهذا الشأن: "إن فرض عليك جنديٌّ عملاً، فاحتزر من المقاومة أو التذمّر، وإلاّ انهالت عليك العصا".

عن ذلك الرجل الرؤوف الذي أعار كتفيه القرويّتين المتينتين، للتخفيف عن كتفي يسوع، نحن لا نعلم شيئاً. ولكنّنا نعلم أنّ ابنَيْه – روفس والإسكندر – كانا مسيحيّين، ومن المرجّح أنّ والدهما قد هداهما بروايته لهما عن الموت الذي كان عليه شاهداً مرغماً.

و أنهض جنديّان الرجل الملقيّ أرضاً، ودفعاه إلى الأمام. واستأنف الموكب مسيرته تحت شمس الظهيرة. ولكنّ اللصّين كانا يدمدمان قائلين إنّه ليس عدلاً أن يُنزع الحمل عمّن تظاهر بالسقوط، وألاّ يُنزع عنهما. كان ذلك تحيّزاً خطيراً، ولا سيّما وأنّ خطابات الكهنة كانت تؤكّد أنّ أكثر الثلاثة جرماً هو يسوع. ومنذ تلك اللحظة، غدا حتّى رفيقا محنته يحسدانه، ويمقتانه، وسيشتمانه، حتّى بعد أن يُسمّرا، إلى جانبيْه، كلٌّ على صليبه.

الخشب الرطب

كان الشعب، الذي يتضخّم، مع كلّ خطوة، برفدٍ من العاطلين عن العمل، يواصل دربه نحو الجلجلة. والنسوة اللواتي كنّ قد نأين عن المحكوم، دنونَ منه، وقد دنت الساعة التي لن يُتاح لهنّ فيها حتّى مسّه بأناملهنّ، وسِرْن إلى جانبه، وما عدنَ يخفينَ انتحابهنّ، غير هيّابات الكهنة الذي كانوا ينظرون إليهنّ شزْراً.

و إذ بات يسوع الذي تحرّر من صليبه، يستطيع، أقلّه، الكلام، التفت إلى المنتحبات وقال:

– "يا بنات أورشليم لا تبكينَ عليّ، بل ابكينَ على ذواتكنّ، وعلى أولادكنّ؛ فها هي ذي آتية الأيّام التي يُقال فيها : طوبى للعواقر، وللأرحام التي لم تحمل، وللأثداء التي لم ترضع! حينها سيشرعون يقولون للجبال : اهبطي علينا، وللتلال : غطّينا. فلئن كانوا يعاملون هكذا الخشب الرطب، فما سيكون شأن الخشب الجافّ؟"

كان الألم يشعّ في كلّ جسمه الذي سيُعلّق، بعد لحظات، على الصليب بمسامير، مثل خروف يجوّفه الجزّار معلّقاً على عارضة حانوته. ولكنّه كان يعلم أنّه سيعود، بعد بضعة أيّام، كي يشارك تلاميذه الطعام، وأنّه سينحدر، أخيراً، كي يجلس، مع الناهضين من الموت، إلى مائدة الملكوت الأبديّة. نحيب النسوة هو علامة حبّ لا يرفضها، غير أنّ الحريّ بهنّ ألاّ ينتحبنَ عليه، بل على ذواتهنّ، لأنّهنّ يتألّمن، وسيتفاقم ألمهنّ، وعلى أبنائهنّ الذين سيشاهدون العلامات، والمذابح، والدمار التي تنبّأ بها. وإذ تحتلّ فكرَه هذه الأيّام، وهي أقرب بكثير ممّا

يظنّه علماء الشريعة الذين جاؤوا كي يتذوّقوا نزاعه، يضيف، إلى تطويبات الجبل، تطويبةً غير متوقّعة، ومريعة :

– طوبى للعواقر، لأنّهنّ لن يتألّمنَ في أبنائهنّ.

الدم الذي طالب به اليهود لن يلبث أن يرتدّ عليهم، وستطفح به شوارع هذه المدينة عينها التي تتقيّأ، في هذه الساعة، المسيح، خارج الأسوار. ومن بيت قيافا، لن تدع النار حجراً على حجر. ولن يكون، حينذاك، من الرعب مخرج، فالمحاصَرون سيذبح بعضهم بعضاً، فيما فيالق تيطس، في الخارج، تنتظر، متأهّبةً للمجزرة. وفي يأسهم سيستجيرون بالتلال الصامتة، اتّقاءً من سيوف القتلة، والرومانيّين. غير أنّ التلال المكوّنة من حصى، مثل قلوب قاتلي الآلهة، لن تعيد سوى صدى العويل...

العقاب يقترب : فإن كان هكذا يُصنع بالخشب الرطب، فما عساهم يفعلون بالخشب الجافّ ؟

الخشب الرطب هو الذي ما برح حيّاً، ملتصقاً، عبر جذوره، بالأرض الرطبة، الذي يتلقّى المطر على أوراقه، وطيور السماء على أفنانه. إنّه الشجرة التي ما زالت تزهر تحت حرارة الشمس وهبوب الريح. النبتة الطيّبة التي تهب الحاجّ ظلّها، والجائع ثمارها، والمقرور أغصانها. إنّها صورة القدّيس الذي يقتسم مع الجميع مواهبه، ويمتلك تحت قشرته، نفساً حيّة.

و على نقيض ذلك، الخشب الجافّ هو الشجرة العقيمة، التي قطعها الفلاّح بفأسه، والجذع الميت الذي يتعفّن على البيدر، لأنّ لبّه فسد، فلم يعد خشبه يصلح إلاّ للنار. إنّه الرجل الذي لا يجدي نفعاً، والبخيل، والخاطئ الذي لا يؤتي ثمراً صالحاً، والذي استعاض عن الروح الحيّ بمستنقعٍ آسنٍ، في داخله. وسيقذف به الديّان، على حدّ قول يوحنّا، في نارٍ لا يُطفأ لها لهيب.

و لئن كان أبناء النساء اليهوديّات وأزواجهنّ، يصلبون البريء الذي يهب الحياة، فكيف سيعاقَب المسيئون الذين يهبون الموت ؟

في تلك الأثناء، انتهوا إلى مكان الجمجمة، وشرع الجند، بمعاولهم ورفوشهم، يحدثون الحُفَر التي سيزرعون فيها الصلبان.

إغفر لهم

توقّف قائد المئة خارج الأَسوار العتيقة، وسط عشب بساتين الضاحية الفتيّ. فمدينة قيافا لا تحتمل عذابات داخل أسوارها، لئلاّ يُنجّس هواؤها المعطّر بفضائل الفرّيسيّين، ولئلاّ توجَع قلوب الصدّوقيّين الرقيقة. ولذلك تطرد المحكومين قبل موتهم.

توقّف الموكب عند قمّة أكمةٍ كلسيّةٍ صلعاء تحاكي جمجمة. هذه المحاكاة تؤهّل المكان للإعدامات، غير أنّ الدافع الرئيس لاختيار ذلك المكان هو وقوعه عند ملتقى طُرُق يافا ودمشق، المزدحمة دائماً بالحجّاج، والتجّار، وسعاة البريد، والقرويّين، ولأنّه يحسن أن ينتصب الصليب حيث يستطيع كثيرون رؤيته، ليكون لهم عبرةً مريعة.

تحت أشعّة شمس الظهر العالية، التمع الحجر الأبيض الذي هاجمته الفؤوس بعضّاتها المدوّية. وفي الحقول المجاورة كانت الزهور التي تفتّحت قبل الأوان تنعم بالهواء الفاتر؛ والعصافير المغرّدة، المختبئة في ثنايا أشجار الكرز، تشقّ عنان السماء بزقزقاتها التي تحاكي أسهماً فضيّة... ما أعذب العيش في تلك البساتين المرويّة، قرب بئر، وسط عبير الأرض التي تستيقظ وتكتسي، بانتظار قمر الحصاد، وسط من يحبّوننا ! يا لأيّام الجليل، أيّام السلام، والصداقة، والشمس فوق البحيرة والكروم، أيّام الحرّيّة والنور التي أُنفقت على الطرقات مع من يحسنون الإصغاء، والتي كانت تختتم ببهجة العشاء ! أيّام تبدو أبديّة بقدر ما كانت سريعة العبور !

لم يعد لك أيّ رفيق، يا يسوع المدعوّ المسيح. هؤلاء الجنود الذي يُعدّون لك السرير المريع، هؤلاء اللصوص الذين يشتمونك، أولئك الكلاب الذين ينتظرون دمك، ليسوا سوى ظلالٍ خارجة من ظلّ اللّه الكبير. إنّك وحيد، مثلما كنت وحيداً في الليل. وهذه الشمس التي تدفئ ظهور جلاّديك، لا تسطع من أجلك؛ وما من دربٍ ستسلكه، بعدُ؛ فتشرّدك قد انتهى، وبات بمكنتك الإخلاد إلى الراحة. هذه الجمجمة الحجريّة هي محطّتك الأخيرة. وهنا، بعد لحظات، سيُنتزع روحك الحبيس من سجنه.

محيّا الله البشريّ مبلّل بعرقٍ جليديّ. وضربات الفؤوس توجعه وكأنّها تهوي على رأسه. والشمس التي طالما أحبّها، صورة الأب العادل حتّى حيال الأشرار، تبهره الآن، وتجعل جفنيه أشدّ قسوة. عبر جسده كلّه يسري انحطاط، وارتعاش، ورغبة في الاسترخاء يقاومها بكلّ نفسه؛ أَوَ لم يعِد بالتألّم، بالقدر الضروريّ، وحتّى النهاية ؟ وفي الآن عينه يبدو له أنّه يحبّ، بحنانٍ أشدّ اضطراماً، أولئك الذين سيهجرهم، حتّى أولئك الذين يعملون لموته. ومن أعماق قلبه، مثل نشيد انتصار على الجسد المتعب المضنى، تتفجّر تلك الكلمات التي لن ننساها أبداً :

– يا أبتِ، إغفر لهم، لأنّهم لا يدركون ما يفعلون

لم ترتفع إلى السماء طلبةٌ أكثر إلهيّةً، منذ وُجد بشر، ومذ شرعوا يصلّون. إنّها ليست صلاة إنسان، بل صلاة إلهٍ لإله. إنّ البشر الذين لا يغفرون حتّى البراءة للبريئين، لم يتخيّلوا، قطّ، قبل ذلك اليوم، إمكانيّة طلب الغفران لمن يذيقونك الموت. غفران يتخطّى، بلا قياس، قدرة البشر الطبيعيّة، ما لم تدعمها النعمة، أو ما لم يسمُ بها التمثّل بالمسيح.

لأنّهم لا يدركون ما يفعلون. هذا المبرّر يحدّ من اتّساع الصفح، ولكن تقتضيه ضرورة عدم الصفح عن الشرّ المرتكب بإرادةٍ مطلقة، في معزلٍ عن ضمان التوبة. إنّ جهل البشر من الاتّساع بحيث نادرون هم الذين يدرون، حقّاً، ما يفعلون. فالفساد الأرضيّ، والتقليد، والعادة، والأهواء التي تتخفّى وترتوي في ظلمة الدم، تلك هي دوافع أفعالنا الحقيقيّة. إنّ الإرادة خاضعة حتّى عندما نتظاهر بأنّها هي الآمرة، والضمير لا يبرز إلاّ في النهاية، عندما لا يبقى سوى الرماد والخزي.

كان يسوع قد علّم ما ينبغي معرفته، ولكن كم هم الذين كانوا يعرفون ؟ حتّى أخصّاؤه، الوحيدون العالمون بأنّ يسوع هو المسيح، غلبهم الخوف، وأظهروا، بهربهم، أنّهم لا يعرفون ما يفعلون. وكم بالأحرى كانوا لا يعلمون ما يفعلون، أولئك الفرّيسيّون الخائفون على مراتبهم، وعلماء الشريعة الخائفون على امتيازاتهم، والأغنياء القلقون على مالهم، وبيلاطس الهَلِع على منصبه، واليهود الذين خدعهم رؤساؤهم، والجنود المطيعون لضبّاطهم. لا أحد منهم كان يعلم من هو المسيح، ولمَ جاء إلى العالم، ولمَ يُقتل. بعضهم سيعلمون، بعد لأي، وبشفاعة ضحيّتهم السامية.

على عتبة الموت أكّد يسوع تعليمه الأكثر إلهيّةً وصعوبة : حبّ الأعداء. وبات بوسعه مدّ يديه للمطرقة. الصلبان قد نُصبت، ودعّمت بالحجارة لكيلا تنهار تحت وقرها؛ وسُدّت الثغرات بالتراب الذي ضغطه البشر بأرجلهم.

و قدّمت نساء أورشليم للمحكوم كوباً يحتوي مزيجاً من خمر، وبخور، ومرّ، رأى فيه الجلاّدون خدَراً للضمير. فهؤلاء الذين يُنزِلون بالآخرين العذاب، يتظاهرون بالرأفة، لكي يمعنوا في الإهانة، ويظنّون أنّهم إن أَنقصوا من العذاب ذرّةً، تعاظم حقّهم في إذاقة الثمالة. ولكنّ يسوع ما إن تذوّق هذا الشراب المرّ كالحنظل حتّى رفضه؛ كان يؤثر على هذا الشراب كلمة مؤاساة، ووحده استطاع قولها أحد اللصّين اللّذيْن جُرّا معه إلى الجلجلة.

البخور والمرّ المقدّمان له في ذلك اليوم، لا يفوحان بعطر البخور والمرّ اللّذين حملهما له، في بيت لحم، المجوس القادمون من أعماق المشرق. وقد استُعيض عن الذهب الذي أنار عتمة المذود القذر حديد المسمار الرماديّ، الذي سيُخضَّب بالدم القاني. وهذا الخمر المرّ الذي

يبدو مسموماً، ما أبعده عن خمرة عرس قانا، وعن الخمرة التي ارتشفها مساء الأمس، سوداء وفاترة، كأنّها دم جرح نازف.

أربعة مسامير

في قمّة تلّة الجمجمة، ترتسم على صفحة السماء الفسيحة العاشقة الصلبان الثلاثة عالية، قاتمة، منبسطة الأذرع، مثل جبابرة مستعدّين للعناق. إنّها لا تلقي ظلاًّ، وتوشّيها انعكاسات الشمس المتألّقة. إنّ جمال العالم، في ذلك اليوم، في تلك الساعة، من السنى بحيث يتعذّر التفكير بالآلام. تلك السواري الخشبيّة أليست جديرةً بأن تُزيَّن بزهور البراري وبأن تعلّق عليها، من الواحد إلى الآخر، حبال أوراق مخضلّة، وأن توارى تحت جدرانٍ من الخضرة، وأن يجلس في ظلّها إخوة متصالحون ومتعاطفون ؟

و لكنّ الكهنة، والكتبة، والفرّيسيّين، ومحبّي الأفراح القاسية، الذين جاؤوا كي يسنّوا شهيّتهم، بمنظر المحتضرين الثلاثة، يضجّون نفاد صبر، و يأخذون على الرومانيّين بطأهم، ساخرين.

أصدر قائد المئة أمراً، فتقدّم من يسوع جنديّان، وبحركاتٍ عنيفة مباغتة، نزعا عن ظهره كلّ ثيابه، كي يكون، حسب التعبير العتيق، "كمن يلج الحمّام". وما كاد يجرّد من ثيابه، حتّى دُسّ حبلٌ تحت كلٍّ من إبطيه، وشدّ إلى أعلى الصليب. في وسط الجذع، وتدٌ يقوم مقام مقعد يجد عليه الجسد المدلّى سنداً مؤقّتاً وأليماً. وصعد جنديّ يحمل مطرقة على سُلّمٍ مُتكأة على أحدى ذراعي العارضة، وأخذ اليد التي طالما شفت المرضى، وداعبت رؤوس الأطفال، ومدّها على الخشب، وزرع وسط راحتها مسماراً طويلاً ذا رأسٍ مسطّح يسهل طرقه. وضرب الحدّاد المبتدئ ضربةً قويّةً اخترقت اليد، وألحقها بثانيةٍ وثالثةٍ كفيلتين بتثبيت المسمار بإحكام، بحيث لا يبقى منه بارزاً سوى رأسه. وتفجّر،من اليد المثقوبة، قليلٌ من الدم ملطّخاً اليد الطارقة. ولكنّ العامل النشيط لم يكترث للأمر، وواصل طرقه على السندان الرقيق حتّى أتمّ عمله. وحينئذٍ انحدر لكي يعيد الكرّة على اليد الأُخرى.

و صمت الجميع أملاً في سماع عويل الرجل الملعون. ولكنّ يسوع التزم الصمت أمام جلاّديه مثلما صمت أمام القضاة.

و ها قد جاء دور القدَميْن. وهذه المهمّة يمكن الاضطلاع بها، من غير حاجة إلى استخدام سلّم، فالصلبان الرومانيّة ليست بالغة العلوّ، بحيث إن تركت أجساد المحكومين طويلاً، هرعت الكلاب والثعالب لنبش أحشائها.

و ثنى الجنديّ ركبتَيْ يسوع، بحيث، التصق أخمص القدم بالخشب. وجسّ، وقاس كي يُقحم المسمار بين أحد عظمَيْ القدم؛ وأنزل ضربةً قويّةً على إحدى القدمين، محكماً بَرْشَمة المسمار. وبالطريقة عينها ثبّت القدم الأُخرى. وألقى نظرةً على ما فعل، ومطرقته في يده، كي يتأكّد أنّه قام بمهمّته على أتمّ وجه، ولم يهمل شيئاً. ثمّ لمّ من الأرض حجّة الحكم التي كانت قد انتزعت من عنق يسوع، وارتقى السلّم ثانية كي يثبّتها في أعلى الصليب، فوق الرأس المكلّل بالشوك.

و هبط، أخيراً، مستوضحاً هل فرغ رفاقه من مهامّهم. اللصّان احتلاّ مكانهما، وكلّ صليب حمل ضحيّته؛ وبات بوسع الجند أن يرتاحوا ويقتسموا ثياباً لم يعد المعلّقون في أعلى الصلبان يحتاجون إليها. هذه الغنائم هي حقّ المنفّذين ومغنمهم الزهيد. كان على أربعة جنود اقتسام ثياب يسوع، وقد جعلوا منها أربع حصص، ولكن بقي الثوب غير المخيّط، الذي لا يسوغ تمزيقه؛ وقد ارتأى أحد الرجال، وهو مقامرٌ سابقٌ، الحلّ، إذ ألقى في خوذته زهر النرد، وأجرى القرعة. ولم يبقَ لملك اليهود، من متاع الدنيا، سوى شوك الإكليل الذي تُرِك على رأسه، لمزيدٍ من المهانة.

لقد تحقّق كلّ شيء؛ من يديه إنثال الدم، بطيئاً، على الحضيض؛ ودم رجليه صبغ بلونٍ قانٍ أسفل الصليب. لن يهرب بعد الآن، وفمه الشتّام سيظلّ، عمّا قريبٍ، فاغراً، بفعل النزاع، ولكنّه سيظلّ خاوياً من أيّة كلمة إلى الأبد. بوسع القتلة أن يرضوا عن ذواتهم، وعن المنفّذين الأجانب : فمسمّم الشعب، وعدوّ الهيكل والتجارة، قد ثُبّت بأربعة مسامير متينة على شجرة العار. وغدا بوسع معلّمي أورشليم، منذ هذا المساء، الإخلاد إلى سباتٍ أوفر سكوناً.

وتعالت، من الجمع المحتشد حول الجلجلة، ضوضاء من الضحكات الشيطانيّة، وهتافات الفرح، والهزء الشرس. فها هوذا، في العلى، طائر الشؤم، مثل البومة المسمّرة بأجنحتها على عارضة باب الفلاّح. ذلك الفقير الذي لم يطمح في أكثر من ثوبٍ واحد، ها هو ذا في عريٍ تامّ؛ والمشرّد الذي لم يكن له حجر يسند إليه رأسه، بات له وسادة جميلة من خشب؛ والدجّال الذي كان يخدع القوم بعجائبه، فقدَ حرّيّة اليدين كي يعجن طيناً يعيد إلى العميان الرؤية. وغدا عرش الملك إسفيناً من الخشب القاسي؛ وشُنِق مبغض أورشليم، إزاء المدينة المقدّسة؛ ومعلّم التلاميذ الكُثُر لا رفيق له سوى لصّين يشتمانه، وأربعة جنود سئمين. أُدعُ، إذن، أباك، علّه ينقذك، أو استدعِ فيلقاً من الملائكة ينتزعونك من حيث أنت، ويبدّدوننا بسيوفهم الناريّة. حينئذٍ سنؤمن، نحن أيضاً، أنّك المسيح، وسنعبدك، معفّرين وجوهنا بالتراب.

و كان بعض الكهنة يهزّون أكتافهم ويقولون : أنت يا من يدمّر الهيكل ويعيد بناءه في ثلاثة أيّام، أنقذ نفسك ! وإن كنت، حقّاً، ابن اللّه، انزل عن الصليب !

هذه الصيحة تذكّر بكلمة إبليس في الصحراء. فالكهنة، مثل إبليس، يبتغون معجـــزة. ولكم طالبوا بعلامة! ولسان حالهم يقول ستكون إشارةً عظيمة إن أنت أفلحـــت فـــي انتـــزاع المسامير الأربعة، وفي النزول عن الصليب، فيما تلتهب السماء بعظمة الآب الذي سيُحلّ بنـــا الضربات، نحن قاتلي الآلهة. ولكنّك ترى أنّ المسامير متينة الإحكام، ولا تتزحزح، ولا نصير يظهر لك لا على الأرض، ولا في السماء.

الكتبة، أيضاً، كانوا يهزؤون به، والشيوخ، والجند أنفسهم، الغريبون عن الموضوع، وحتّى اللصوص الذين كانوا يتألّمون مثله :

– لقد خلّص آخرين، ولا يستطيع إنقاذ نفسه؛ أوَ ليس هو ملك إسرائيل ؟ إن كان هو المسيح، مختار اللّه، فلينزل عن الصليب، كي نرى ونؤمن. إنّه يستسلم لله. فإن كان الله يريد، حقّاً، استقباله، فليحرّره، فهو من قال : أنا ابن الله.

كان يعلن أنّه جاء كي يهب الحياة، وها هوذا لا يستطيع الإفلات من الموت ! تبـــاهى بأنّه ابن اللّه، والله لا يفعل شيئاً كي يفكّ بكره عن الصليب. إذن، كان، دائمـــاً، كاذبـــاً، ولـــم يخلّص أحداً. ليس اللّه أباه، وإن هو كذب في هذا الشأن، فقد كذب في كلّ ما ســـواه، وهـــو يستحقّ مصيره. هذا دليلٌ ناقل، ولكنّه جاء جليّاً وظاهراً للجميع، وضميرنا مرتاح إلى أقصى ما تُتاح الراحة. في هذه الساعة، لو كانت المعجزة ممكنة، لما ظلّ هنا معلّقاً ومحتضراً؛ ولكنّ السماء فارغة، والشمس، مصباح اللّه، تنيرنا لكي نشاهد، بوضوحٍ أكبر، تشـــنّجات وجهـــه، ولهاث حنجرته.

يؤسفنا جدّاً ألاّ يأذن لنا الرومانيّون بتأديب المجدّفين وفقاً لطريقتنا القديمة، وإلاّ لكنّـــا نقعنا غليلنا بجَلدك، واحداً فواحداً؛ ولكان نال كلٌّ منّا نصيبه من المتعة بقذف رأسك بحجـــارة محكمة التسديد، ولغطّيناك بالكدمات الدكناء، وبالدم، ولألبسناك ثوباً من حجارة، ولوارينـــاك تحت تلّة من الحصى. ذات مرَّة، أمام الزانية، ألقينا هذه الحجارة أرضاً، ولكن الآن، لم يكـــن أحدٌ منّا ليتخاذل، ولكنتَ دفعتَ الثمن عن نفسك وعنها. للصليب جانبٌ حســـن، ولكنّـــه أقـــلّ توفيراً لمتعة المشاهد. ويا ليت هؤلاء الأجانب قد أتاحوا لنا أن نُنزل ضـــربة مطرقـــة ! ألا تجيب ؟ أفقدت الرغبة في الوعظ ؟ ألا تستطيع النزول ؟ وعلامَ لا تكترث باجتذابنا إليك ؟ إن كان علينا أن نحبّك، أظهر لنا، أوّلاً، أنّ اللّه يحبّك بحيث لا يحجم عن إجراء معجزةٍ كبـــرى، بانتزاعك من براثن الموت.

و لكنّ المصلوب الإلهيّ ظلّ صامتاً. إن آلام الحمّى التي أخذت تنشب به، أقلّ فظاعةً من أقوال إخوته، التي تصلبه، مرَّةً أُخرى، على صليب الجهل المريع.

دِسْماس

كان اللصّان اللّذان صُلبا مع يسوع يمقتانه، مذ كُلِّف آخر بحمل صليبه عنه، في أثناء الطريق. لم يكن أحدٌ يعبأ بشأنهما، أو يكترث لكونهما سيموتان ميتته عينها. كان يُسام، هو أيضاً، العذاب، ولكن كان الناس يهتمّون بوجوده، ويتقاطرون لرؤيته، ولكأنّه الوحيد. من أجله جاء كلّ أولئك القوم ذوي الشأن، المثقّفين، والأغنياء. من أجله كانت النساء يبكين، وكان قائد المئة نفسه يتأثّر. كان هو ملك العيد، ذلك الدجّال الريفيّ، وكان يجتذب اهتمام الجميع، مثل مليك حقّ. وما كانا ليُعطيا الخمر الممزوج بالمرّ، لو لم يمجّه هو.

و لكنّ أحد اللصّين، عندما سمع قول رفيقهما المحكوم المحسود : إغفر لهم لأنّهم لا يدركون ما يفعلون، صمت بغتةً. فهذه الصلاة كانت له جديدة كلّ الجدّة، وتنبئه بمشاعر غريبة كلّ الغرابة عن فكره وعن كلّ حياته، بحيث انطلقت به، دفعةً واحدة، إلى حقبة عمره الأكثر غرقاً في النسيان، إلى طفولته الأولى، عندما كان، هو أيضاً، بريئاً، مؤمناً بإله يمكن التماس السلام منه، مثلما يلتمس الفقير الخبز على باب الغنيّ. ولكنّه لم يعثر، في أيّة زاوية من ذاكرته، على مثل هذه الصلاة، على مثل هذا الطلب غير المألوف، والذي لا يُعقل في فم من يُساق إلى الموت. ومع ذلك نفذت هذه الكلمات إلى قلب اللصّ الجافّ، والتقت فيه شيئاً يودّ الإيمان به، ولاسيّما في تلك اللحظة، قبل المثول أمام قاضٍ أكثر رهبةً من كلّ قضاة المحكمة. صلاة يسوع هذه وجدت مكاناً لها، على نحوٍ غير منتظر، وسط أفكارٍ لم يكن بوسعه التعبير عنها بكلمات، ولكنّها كانت تبدو له، أحياناً، مثل ومضات بروقٍ في ظلمات مصيره. هل هو كان، حقّاً، مدركاً لما يفعل ؟ وهل فكّر به الآخرون، وقاموا بما يتوجّب عليهم تجاهه كي ينتزعوه من براثن الشرّ ؟ وهل وُجد كائنٌ واحدٌ يحبّه، فيطعمه عندما يجوع، ويوفّر له رداءً عندما يلذعه القرّ، ويزوّده بكلمةٍ صداقة عندما تقتحم التجارب نفسه المتألّمة الوحيدة ؟ ولو هو ظفر بمزيدٍ من الخبز والحبّ، هل كان ارتكب الجريمة التي أفضت به إلى الجلجلة ؟ ألم يكن، هو أيضاً، في عداد من لا يدرون ما يفعلون، وقد أعمته الحاجة، وتُرك وحيداً وسط الأهواء المتربّصة ؟

ألم يكونوا لصوصاً، مثله، اللاويّون الذين يتاجرون بالتقادم، والفرّيسيّون الذين يخدعون الأرامل، الأغنياء الذين، لكثرة الربا، يستنزفون دماء المساكين ؟ لقد كانوا حكموا عليه بالموت، ولكن أيّ حقّ بقتله كانوا يملكون، وهم الذين لم يفعلوا شيئاً لإغاثته، وتلوّثوا بمثل ذنبه ؟

هذا ما كان يُجيله في قلبه ريثما يُرفع على الصليب. مع دنوّ الموت –وأيّة ميتة– لدى سماعه تلك الصلاة المدهشة من فم من لم يكن لصّاً، ومع ذلك حُكم عليه بعقاب اللصوص، ولدى مشاهدته البغض الذي كان يشوّه وجوه أولئك الذين حكموا عليه، هو أيضاً، تحرّكت نفسه الجريحة، وانتابته مشاعر لم يعهد مثلها منذ طفولته، ولم يكن يعرف لها اسماً، ولكنّها كانت تحاكي الندم والحنان.

و عندما صُلِب الثلاثة، استأنف اللصّ الآخر شتم يسوع، رغم المعاناة، والنزاع، ومن فمه المحاط بالشعر واللعاب، كان يجهد في تقيّؤ تحدّيات كتحدّيات اليهود :

– ألست المسيح ؟ خلّص، إذن، ذاتك، وخلّصنا.

فلو هو كان ابن اللّه، أفما كان حاول إنقاذ رفاق محنته ؟ ولمَ لم تأخذه الرحمة ؟ إذن أولئك على حقّ، وإنْ هو إلاّ دجّال، وابن لا أحد، مهجور، وملعون. وكانت خيبة رجاء ذلك اللصّ الهائج، تضاعف حنَقه، رجاء اكتفى بذرّ قرنه، مثل حلم في خلاص عجيب. فاليائس يأمل في المستحيل، وهو في خيبة أمله، بدا وكأنّه قد تعرَّض لخيانة.

ولكنّ اللصّ الطيّب الذي كان يسمعه ويسمع شتائم الشعب، التفت نحوه، وقال :

– ألا تخشى اللّه، أنت أيضاً، وقد حُكم عليك بمثل عذابه ! إنّ ما نقاسيه، نحن، عدل، فهو جزاء ما اقترفت أيدينا؛ أمّا هو فلم يأتِ شرّاً.

لقد انتهى اللصّ، وعن طريق الشكّ في خطئه، إلى يقين: براءة ملتمس الغفران، الذي يكتنفه سرٌّ علويّ. نحن ارتكبنا أفعالاً – لم يدعُها جرائم – يعاقبها البشر " ولكنّ هذا لم يفعل شرّاً"، ومع ذلك يُعاقَب مثلنا. فعلامَ شتمه ؟ ألا تخشى عقاب اللّه لإهانتك بريئاً ؟

و عاد إلى ذاكرته ما كان الناس يتحدّثون به عن يسوع : أشياء قليلة، وغير واضحة في ذهنه. ولكنّه كان قد تكلّم عن ملكوت سلامٍ سيعود، هو، كي يفرضه على العالم. وحينئذٍ في توثّب إيمان، ولكأنّه يستشفع بقرابة الدم المنثال، في آنٍ واحد، من يديه المجرمتين، ومن يدي يسوع البريئتين، تلفّظ بهذه الكلمات :

– يا يسوع أذكرني اليوم، عندما ستكون في ملكوتك !

لقد تألّمنا معاً. أفلن تتعرّف من كان جارك على الصليب، الوحيد الذي دافع عنك، حين كان الجميع يهينونك ؟

و يسوع الذي لم يكن قد أجاب أحداً، أمال رأسه، بقدر ما استطاع، نحو اللصّ المسكين، وقال :

– حقّاً أقول لك، اليوم ستكون معي في الفردوس.

ما كان بوسعه وعده بشيءٍ أرضيّ. فما جدوى أن يُفكّ عن الصليب، وأن يتسكّع بضع سنواتٍ أُخرى، محطَّماً، مُعدماً، على دروب العالم ؟ وفي الواقع، هو لم يلتمس، مثل اللصّ

الآخر، أن يُنقَذ من الموت، ولكنّه تمنّى أن يتذكّره يسوع، عقب موته، عندما سيعود ممجّداً، ويسوع لم يَعده بحياةٍ جسديّة فانية، بل، وبلا تلكّؤ، " في هذا اليوم عينه "، بحياة الفردوس الأبديّة.

لقد خطئ، وكان خطؤه، في عيون الناس، خطيراً. لقد سلب الأغنياء قليلاً من ثرواتهم؛ وربّما سلب فقراء... ولكنّ يسوع أبدى، دائماً، للخطأة المبتلين بعلّة أبشع من علل الجسد، انحيازاً، إن لم يكن ظاهريّاً، إلاّ أنّه كان يتوخّى إظهاره. أوَ لم يأتِ كي يعيد، إلى دفء الحظيرة، النعجة التائهة المرتطمة بالأشواك ؟ أوَلا يجد الأشرارُ عقابهم في فسقهم نفسه؟ وأولئك الذين يظنّون أنفسهم صالحين، ويدينونهم، أليسوا أشدّ فساداً ؟ ولا يظفر جميعهم بالصفح... ولكن حَسْبُ أحدهم لفتة ندم، وكلمة أسفٍ واحدة. وقد كانت صلاة اللصّ كافية له.

اللصّ الطيّب هو الإنسان الأخير الذي هداه يسوع، وهو بعد في جسده المادّيّ. إنّه آخر التلاميذ وأوّل الشهداء، إذ يذكر إنجيل بطرس (المنحول) أنّ اليهود عندما سمعوا أقواله "اغتاظوا منه وأمروا ألاّ تكسر ساقه لكي يلقى حتفه وسط التشنّجات"، فكسر الساقين كان بمثابة عطفٍ على المحكومين، لتقصير أمد معاناتهم. ولكن لأنّ هذا المحكوم دافع عن المسيح وآمن به، حُرم من هذه اللفتة، واضطرّ إلى شرب الكأس حتّى الثمالة، نظير المعلّم.

نحن لا نعرف عنه شيئاً سوى اسمه الذي احتفظ به إنجيلٌ منحول، وقد قبلته الكنيسة في عداد قدّيسيها، اعتماداً على وعد المسيح، وهو مكرّم تحت اسم " دِسماس ".

الظلمات

تنفُّس يسوع انقلب حشرجة. ولكي يستنشق قليلاً من الهواء، كان صدره يتّسع في اختلاجٍ مضنٍ. مطارق كانت تنشب بصدغَيْه. وخفقانٌ عنيفٌ وسريعٌ كان يطيح بقلبه المحطّم. وكانت حمّى ظمأ المصلوبين تحرق كلّ كيانه : دمه كان يسري في عروقه سريان النار. وكان جسده مشدوداً في وضعٍ مريع : مسمّراً على العارضتين، لا يستطيع حراكاً، معلّقاً بيديه اللّتين كانتا تتمزّقان إن هو استرخى؛ وإن هو حاول الصمود كان التعب ينتاب، سريعاً، جذعه الوجيع. ذلك الجسد الشابّ الإلهي الذي طالما لقي عنتاً في احتواء نفسٍ موغلةٍ في الكبر، قد أضحى الآن، محرقةً من الآلام، تضطرم فيها، مجتمعةً، كلّ آلام العالم.

كان الصلب، حقّاً، كما اعترف جلاّد اغتيل قبل المسيح، أشدّ العذابات شراسة، العذاب الذي يوفّر أطول عذاب وأبشعه. إن حدث الكزاز أشاع خدَراً مريحاً يسرّع الموت. ولكنّ البعض كانوا يقاومون، فيتفاقم ألمهم، ويمتدّ إلى اليوم التالي، أو إلى أبعد منه، ولا يفلح ظمأ

الحمّى، واحتقان القلب، وتصلّب الشرايين، والغمّ الممزِّق المتفاقم، في النيل منهم. ولكنّ معظم المصلوبين يقضون نحبهم، في غضون اثنتي عشرة ساعة.

كان دم جروح يسوع الأربعة قد تجمّد حول رؤوس المسامير، ولكنّ كلّ هزّة كانت تفجّر دفقاً جديداً رفيعاً من الدم الذي كان يتخثّر على الصليب وينساب، قطرةً قطرة. الرأس كان يميل جانباً بالعنق الوجيع؛ والعينان، العينان المعرّضتان للموت، اللتان كان اللّه يرنو إلى الأرض من خلالهما، كانتا مغرورقتين بماء النزاع الشفّاف؛ والشفتان الرطبتان، اللتان شقّقتهما الدموع، وجففّهما العطش، وقلّصهما التنفّس العسير، كانتا تظهران عواقب القبلة الأخيرة، قبلة يهوذا.

هكذا مات إلهٌ أعتق المحمومين من حمّاهم، وروى العطاش بماء الحياة، وأخرج الأموات من أسرّتهم وأكفانهم؛ وأعاد إلى المشلولين الحركة، وطرد إبليس من نفوسٍ يسكنها الوحش؛ إلهٌ بكى مع الباكين، وبدلاً من معاقبة الأشرار بعثهم إلى حياةٍ جديدة؛ وعلّم بشِعْر أمثاله و معجزات أَفعاله، ذلك الحبّ الكامل الذي لم يكن بوسع البهائم المتمرّغة في الكرى والدم اكتشافه، أبداً. لقد دمل جروحاً، فأُشرعت الجروح على جسده؛ وسامح المجرمين: فسمّره المجرمون، وهو بريء؛ وأحبّ البشر، بلا حدود، حتّى الذين، ماكانوا يستأهلون حبّه؛ فثبّته البغض حيث يعاقب البغضُ البغضَ. لقد كان أشدّ عدلاً من العدل فاقتُرِف بحقّه أكثر المظالم افتئاتاً وبطلاناً. دعا البهائم إلى القداسة، فوقع بين أيدي الأبالسة. وجاء بالحياة، فكوفئ بموتٍ مهين.

كان لا مفرّ من كلّ ذلك، لكي يهتدي البشر، ثانية، إلى درب الفردوس الأرضيّ؛ ولكي يرتقوا من النشوة البهيميّة إلى نشوة القدّيسين؛ ولكي ينهضوا من الوهن الجامد الذي يبدو حياة، في حين أنّه انسلاخٌ عن سخاء ملكوت السماوات.

فلينحنِ فكرنا على سرّ هذه الصورة الذي لا يُهتك له حجاب، وخاصّة فليحذر قلبنا من نسيان الثمن الباهظ الذي دُفع سداداً لديننا الجسيم. سحابة تسعة عشر قرناً، بكى، ولو مرَّة واحدة في حياتهم، لذكرى ذلك اليوم، وذلك الاستشهاد، أولئك الذين تأهّلوا لولادةٍ ثانية في المسيح، ولمعرفته، ولحبّه، وللظفر بحبّه. ولكنّ دموعنا كلّها، مجتمعةً، مشكّلةً محيطاً مرّاً، لن تعادل قطرةً واحدة من القطرات التي هبطت، ثقيلة، حمراء، على مكان الجمجمة.

لقد قال ملكٌ بربريّ على شعبٍ بربريّ، وهو يفكّر بهذا الدم المنساب، أقوى كلمة تفجّرت، يوماً، من فم مسيحيّ. فقد كانت قصّة الآلام تُتلى على مسامع كلوفيس، وكان ذلك الزعيم الشرس يتأوّه ويبكي : وفجأةً، ضاق ذرعاً، فوضع يده على غمد سيفه، وهتف : آه! لو كنت هناك مع جندي ! قولٌ ساذج، قول جنديّ وعنيف، يناقض قول يسوع لبطرس في بستان الزيتون، ولكنّه قولٌ جميلٌ بكلّ الجمال اللامعقول الثاوي في حبٍّ منيع وبريء. إذ لا يكفي أن

تنتحب على ما أُعطى أكثر من الدموع، ولا بدّ لنا من النضال، ولا بدّ من أن نكافح فينا كلّ ما يفصلنا عن المسيح، وأن نناهض، فيما بيننا، أعداء المسيح.

فلئن كان، فيما بعد، ملايين البشر قد بكوا، وهم يسترجعون ذكرى ذلك اليوم، يوم الجمعة، إلاّ أنّ جميع المحيقين بالصليب – ما خلا النساء – كانوا يضحكون. وأولئك الضاحكون لم يموتوا جميعهم، بل خلّفوا أبناء، وأبناء إخوة؛ وكثيرون من هؤلاء تلقّوا العماد، ولكنّهم ما انفكّوا، حتّى اليوم، يضحكون، على مقربةٍ منّا، وسيضحك أحفادهم حتّى اليوم الذي لن يقوى، فيه، سوى كائنٍ واحد على الضحك. وإن فشلت الدموع في محو الدم، فأيّ عقابٍ سيفتدي ذلك الضحك الرهيب ؟

شاهدوا، مرَّة أخيرة، أولئك الذين يضحكون حول الصليب، حيث كانت أكثر الآلام التهاماً تُنشبُ أنيابها بالمسيح.

ها هم جماعاتٌ كالعناقيد على سفوح الجلجلة، مثل قطيع من التيوس الغاضبة. أنظروا إليهم جيّداً، حدّقوا في وجوههم، فرداً فرداً. وستتعرّفونهم لأنّهم خالدون. انظروا كيف تمتدّ خطومهم التي تشتمّ، ورقابهم الملتوية، وأنوفهم الحدباء المعقوفة، وعيونهم الجشعة تحت حواجبهم الكثَّة. انظروا كم هم مريعون في أوضاعهم التلقائيّة، أوضاع قايينيّة لا ترحم. أحصوهم جيّداً، إنّهم جميعهم موجودون، شبيهون بأولئك الذين نعرفهم، وإخوةٌ للذين نصدفهم، كلّ يوم، في شوارعنا.

في المقام الأوّل، ثمّة الكاهن الممتلئ الكرش، القاسي القلب، بأذنيه العريضتين المكسوّتين بالشعر، والفم الكبير المشحم، الذي ينقلب، أحياناً، فوهة شتائم؛ يزاحمه الكاتب المتغطرس، الأرمص (الذي يتجمّع في أصول هدب عينيه وسخ أبيض)، الذي تلوّن وجهه بصفار البراز، راتق الأكاذيب، ومتجشّئ الحبر والقيح؛ وها هم طهاة الآلهة الذين يتقدّمهم وزن أمعائهم المحشوّة وقذارتها، أولئك الوحوش الذين يغتنون بالجوع، ويسمنون وسط المجاعات، ويستنبطون مالاً من صبر الفقراء، وجمال العذارى، وعرق العبيد؛ وساكّو النقود المريبون، الخبيرون في التنكيد والغشّ، الذين يعيشون كي يسلبوا الآخرين ممتلكاتهم؛ ورجال القانون الماهرون في استخدام الشريعة لمعاقبة البريء. ووراء أساطين المجتمع البشريّ الرفيعة هذه، دهماء النصّابين، والرعاع السفهاء، والتافهون القذرون : الكلاب الجائعة التي تلتقط طعامها تحت الموائد، وتحتكّ بسيقان من لا يرمي لها كسرة، أو لا يرفسها.

هؤلاء هم أعداء المسيح الأبديّون، الذين يحاكون، اليوم، كهنة أعياد الفحش الدنيئة. لقد لفظوا، في وجه يسوع، لعابهم وحمأة أعماق نفوسهم. ربّما أحدهم ارتكب الفاحشة في هذه الليلة، وأقسم كذباً في الليلة السابقة؛ وآخر أنجب نغلاً؛ وآخر كال بمكيالٍ مغشوش؛ وآخر قال للباكي : كلاّ.

إنّ زبد البشريّة الجشع القذر هذا ينفث من قلبه النتِن، احتقاره لمخلّصه، وينصبّ بضراوة على من يسامحه، ويكيل الإهانة للمسيح المحتضر من أجله. لم يشاهَد، قطّ، بمثل هذا الجلاء وهذه المأساويّة، تعارض الخير والشرّ، البراءة والخزي، النور والظلمات، كما شوهد في ذلك اليوم الذي يتعذّر إصلاحه.

و يبدو أنّ الطبيعة نفسها أرادت إخفاء هول ذلك المشهد، فأظلمت السماء التي كانت، حتّئذٍ، صافية؛ وتعالى من وراء التلال ضباب كثيف، وامتدّ، شيئاً فشيئاً، إلى كلّ أرجاء الأفق. ودنت كوكبة غيومٍ سوداء من الشمس التي كانت قد أدفأت أيدي القتلة، وأحاقت بها، وحاصرتها، وأخيراً غطّتها بحجابٍ صفيقٍ من الظلمة. "و حتّى الساعة التاسعة غشت الظلمة البلاد كلّها".

" لما شبقتني "

كثيرون، أرعبهم هبوط الليل الغامض، هذا، ففرّوا من الجلجلة، صامتين. ولكن لم يفرّ الجميع. فالهواء كان ساكناً؛ ولم يكن المطر قد شرع ينهمر، وما زال يُشاهَد، في الظلّ، بياض الأجساد الثلاثة المعلّقة. فعلامَ هجر المسرح قبل الصيحة الأخيرة ؟ كان أولئك العنيدون يتوخّون الارتواء من هذا الموت، وينصتون، لعلّهم يسمعون بطل الرواية المقيت يمزج حشرجته ببضع كلمات.

و كانت آلام المصلوب تتفاقم، في كلّ دقيقة. جسده المرهف، الذي أرهقه النزاع، كان يتهافت. وأعتى من ذلك كان ألم روحه الذي ما برح سجين الجسد. لقد بدا له أنّه هُجِر إلى الأبد، وأنّ نفس الطفل الإلهيّ التي كانت تقطنه، قد شاخت بغتة، شيخوخة فاقدة الذكرى. لقد نأى الجميع عنه : رفاق السنوات السعيدة، ونجيّو حنانه، والرفاق المساكين الذين كانوا يرنون إليه بحبّ، والأطفال الذين يقدّمون شعر رؤوسهم لمداعبته؛ والذين شفاهم بمعجزة فتأثّروا خطاه، والتلاميذ الذين وفّر لهم نفساً جديدة. أمّا بالقرب منه فلم يبقَ سوى شرذمة من أكلة لحوم البشر، المتنسّمين رائحة موته.

وحدهنّ النساء لم يهجرنَه. على حدة، بعيداً عن الصليب، خشية القوم النابحين، كانت مريم أمّه، ومريم المجدليّة، ومريم التي لكليوبا، وسالومي أمّ يعقوب ويوحنّا، –و ربّما أيضاً، حنّة زوجة كوزا، ومرتا– يراقبنَ نهايته. وقد امتلك المصلوب قدراً كافياً من القوّة كي يوكل إلى يوحنّا الإرث الأكثر قدسيّة الذي تركه على الأرض : العذراء المتألّمة. ولكن، فيما بعد، من خلال حجاب دموعه، لم يعد يرى أحداً، وظنّ نفسه وحيداً في موته مثلما كان وحيداً في

أكثر ساعات حياته علنيّةً. حتّى الآب بدا وكأنّه قد اختفى. أين كان، إذن، ذلك الأب العطوف الذي كان يكلّمه واثقاً من الظفر بجوابٍ وعون. لمَ لا يعطيه إشارة عن حضوره، ولمَ لم يُعطِه، أقلّه، نعمة استدعائه إليه، ويُعفِه من المماطلة القاسية ؟

و حينئذٍ سُمعت، في صمت الظلمات، هذه الكلمات :

–إيلي، إيلي، لما شبقتني ؟ يا ربّ، يا ربّ، لمَ تخلّيت عنّي ؟

كان ذلك هو مطلع مزمورٍ طالما أنشده لنفسه، لأنّه كان يرى فيه نبوءات عديدة تتعلّق بحياته وموته. لم يعد يملك من القوّة ما يمكّنه من تلاوته بالكامل، كما كان يفعل في الصحراء، ولكن كانت تتردّد، في نفسه المضطربة، الدعوات الموجعة : "إلهي، إلهي، لمَ تخلّيت عنّي ؟ لمَ نأيت عنّي، ولم تساعدني، ولم تسمع تأوّهي؟... آباؤنا وضعوا فيك رجاءهم؛ لقد رجوا فأعتقتهم... أمّا أنا فدودة، لا إنسان، خزيٌ عند البشر، ومزدرىً من الشعب. جميع الذين يرونني يسخرون بي، ويفغرون الشفاه، ويهزّون الرؤوس قائلين : "إلى الربّ سلّم أمره، فلينجّه، ولأنّه يحبّه فلينقذه". أنت من البطن أخرجتني، وعلى ثديي أمّي طمأنتني. إلى عنايتك أُوكلتُ منذ ولادتي، وأنت إلهي القويّ مذ كنت في بطن أمّي. لا تتباعد عنّي، فقد اقترب الضيق، ولا معين. ثيران كثيرة أحاطت بي، ثيران شديدة حاصرتني؛ فغرتْ أشداقها عليّ، مثل أسودٍ مفترسة مزمجرة. مثل الماء انسكبتُ، وتفكّكتْ جميع عظامي. مثل الشمع صار قلبي، وذاب في وسط أحشائي. كالخزف المشويّ في النار جفّت قوّتي، ولساني التصق بحنكي، وفي تراب الموت أضجعتني. كلابٌ كثيرة أحاطت بي، وزمرةٌ من الأشرار أحدقت بي. ثقبوا يديّ ورجليّ. وأحصوا كلّ عظامي، وهم يحدّقون فيّ ويتأمّلونني. يقتسمون بينهم ثيابي، وعلى ردائي يقترعون. وأنت، أيّها الأزليّ، لا تنأ عنّي، أنت يا قوّتي، أسرع إلى نُصْرتي. "

تضرّعات هذا المزمور النبويّ، التي تذكّر "برجل الآلام" الذي وصفه أشعيا، تتصاعد من قلب المصلوب الجريح مثل انحسارٍ أخير لبشريّته المحتضرة.

بيد أنّ الذين كانوا على مقربةٍ من الصليب ظنّوا أنّه كان ينادي إيليّا، النبيّ الحيّ أبداً، الذي كان مرتبطاً، في المخيّلة الشعبيّة، بظهور المسيح:

–إنّه يدعو إيليّا.

في تلك اللحظة، أخذ جنديّ اسفنجة، وبلّلها بالخلّ، وأدناها، على طرف عصا، من شفاه يسوع. ولكنّ اليهود قالوا :

–دعه. ولنرَ هل سيأتي إيليّا وينقذه.

ووضع الجنديّ عصاه جانباً، تجنّباً للصدام مع اليهود. ولكن، بعد برهة – والوقت يبدو طويلاً بلا حدود في تلك الظلمات وذلك الانتظار – سُمع صوت المسيح وكأنّه آتٍ من بعيد :

–أنا عشطان.

و أخذ الجنديّ ثانية الاسفنجة، وغطّها في مزيجٍ من الخلّ والماء، وقدّمها للفم الجافّ الذي كان قد صلّى، من أجله أيضاً، وبلّ يسوع شفتيه، وهتف : لقد تمّ.

ذاك الذي طالما نقع الظمأ، ترك، في العالم، نبع حياةٍ لن ينضب أبداً، حيث سينقلب التعب قوّة، والتعفّن شباباً. ولكنّه، هو، طيلة حياته، قاسى عطش حبٍّ لا يرتوي. وها هوذا الآن، أيضاً، في الحمّى الناشبة به، لا يعاني عطشاً إلى الماء، بل إلى كلمة رأفةٍ تحطّم وحدته الساحقة. وقد أعطاه الجنديّ الرومانيّ، عوضاً عن ماء السيول الجليليّة الصافي، وعوضاً عن خمرة العشاء الأخير، قليلاً من مشروبه الحامض. بيد أنّ هذه المبادرة السريعة والمتعاطفة من قِبَل ذلك العبد المغمور قد روت عطشه، إذ تبيّن، في ظلّ الموت، قلباً يرأف بقلبه.

و لئن كان غريبٌ لم يرَه، قطّ، قبل ذلك اليوم، قد فعل شيئاً، ولو زهيداً، تعاطفاً معه، ففي ذلك الدليل على أنّ الآب لم يتخلَّ عنه. لقد فرغت الكأس، واستُهلكت المرارة كلّها. ومع النهاية تبدأ الأبديّة. ولملم يسوع قواه الأخيرة، وأطلق، في الظلمات، هذه الصيحة العظيمة:

–يا أبتاه، بين يديك أستودع روحي.

لقد دعوتك لأنّه بدا لي، في حلَك العذابات، أنّك تخلّيت عنّي. ولكنّك استجبت بواسطة الجنديّ المسكين. استجبت بالسكون الذي يخدّر الآلام الأخيرة، الآن وقد أوشكتُ أن استيقظ فيك. ليس صحيحاً أنّك هجرتني. عندما كنت أدعوك، لم أكن أنا المتكلّم، بل دم الإنسان الذي كان يلتهب في عروقي وينثال من جروحي. إنّني أعلم أنّك حاضر، متّحد بي في الأبديّة. أنت أبي وأنا ابنك. وأيّة أيدٍ أحبّ وآمن من يديك أستطيع أن أَستودعها نفسي ؟

و أطلق يسوع صيحةً كبيرةً أُخرى، وأسلم الروح. تلك الصيحة كانت من القوّة بحيث حرّرت الألوهة من الجسد، وتردّد صداها في غياهب الظلمة، وتاهت في مجاهل الأرض. ويروي الإنجيليّ متّى، أنّه، في إثر تلك الصيحة، " انشقّ حجاب الهيكل إلى قسمين، من الأعلى إلى الأسفل، والأرض اهتزّت، والصخور تشقّقت، والقبور تفتّحت، وقدّيسون كثيرون كانت أجسادهم تثوي فيها، بُعثوا أحياء؛ وبعد خروجهم من القبور، ظهروا لكثيرين". ولكنّ قلوب الشهود كانت أقسى من الصخور: إنّ هؤلاء الأموات، المرتدين من الحياة مظاهرها فحسب، لم يبعثوا، تلبيةً للنداء الأخير.

منذ نحو تسعة عشر قرناً، أُطلقت تلك الصيحة، والبشر ضاعفوا مئة مرَّة ضوضاء وجودهم لكيلا يسمعوا. ولكن في ضباب مدننا ودخانها، وفي الليل الذي لاتني دجنّته تتفاقم

ادلهماماً، حيث يشعل البشر نيران بؤسهم، ما انفكّت صيحة الفرح والتحرير اليائسة هذه، هذه الصيحة اللامتناهية، التي تدعو، أبديّاً، كلاًّ منّا، تدوّي في نفس من لم يقوَ على النسيان.

المسيح مات. مات على الصليب تنفيذاً لمشيئة البشر، ولاختيار الابن، ولموافقة الآب؛ النزاع انتهى، وعمّ اليهودَ السرور. لقد كفّر وقضى نحبه، وبات علينا، منذئذٍ، أن نكفّر، نحن، وتكفيرنا لم ينتهِ بعد.

ماء ودم

مات المسيح كما شاء زعماء شعبه، ولكنّ صيحته الأخيرة لم توقظهم. يقول الإنجيليّ لوقا إنّ بعضهم ابتعدوا وهم يقرعون صدورهم، ولكن هل كان في تلك الصدور قلوبٌ تخفق، حقّاً، للقلب الكبير الذي توقّف عن الخفقان ؟ إنّهم لا يتلفّظون بكلمة، ويحثّون الخطى نحو منازلهم، نحو وجبة طعامهم، ويعتريهم من الجَزع أكثر ممّا يعتريهم من حبّ.

و لكنّ غريباً، قائد المئة "بترونيْ، الذي شاهد الآلام صامتاً، استيقظ، وتصاعدت إلى فمه الوثنيّ كلمات كلوديا بروكولا:

–حقّاً، كان هذا الرجل بارّاً.

إنّه يجهل اسمه الحقيقيّ، ولكنّه موقن أنّه لم يكن مجرماً، وهو الرومانيّ الثالث الذي يشهد لصالح براءة من سيصبح، بعمل التلاميذ، الرومانيّ الأبديّ.

... وخشي اليهود أن يُفسَد فصحهم إن لم تُسحب الجثث في الحال. فالمساء يقترب، وما تكاد تتلألأ النجوم، حتّى يبدأ السبت العظيم. لذلك أنفذوا إلى بيلاطس رسلاً طالبين كسر سيقان المحكومين، ودفنهم. كسر السيقان كان اكتشافاً شرساً ابتدعته الضراوة كي تخفّف عذاب الصلب : ضرباً من الحظوة في حالات الاستعجال. وما إن تلقّى الجند الأمر حتّى جاؤوا اللصّ الشرّير، وكان أمنع بنيةً من رفيقيه، وما زال حيّاً، فأنزلوا به ضربات حطّمت ركبتيه وفخذيه.

أمّا يسوع، فكان الجند قد شهدوا موته، ولم تكن لديهم حاجة إلى الإجهاز عليه. بيد أنّ أحدهم، حسب رواية الإنجيليّ يوحنّا، كي يطمئنّ قلبه، أَنزل ضربة حربةٍ قويّة في جنبه، ودهش عندما رأى دماً وماءً ينثالان من الجرح.

وفق تقليد قديم، كان هذا الجنديّ يدعى "لونجينس" ويُقال أنّ قطرات من ذلك الدم انسكبت على عينيه العليلتين، فبرئتا في الحال. ويروي السنكسار أنّ "لونجين" آمن بيسوع منذ ذلك اليوم، وتنسّك ثمانيةً وعشرين سنة في قيصريّة، إلى أن قُطعت هامته، بسبب إيمانه.

كلوديا بروكولا، وقائد المئة الرؤوف، بتروني، ولونجين، هم الوثنيّون الأوائل الـذين آمنـوا بالمسيح، في اليوم عينه الذي كانت أورشليم تنبذه.

غير أنّ اليهود لم ينسوه، جميعهم الآن، وقد مات، حقّاً، وبلا رجعة، الآن وقـد بـرد جثمانه وتجمّد مثل كلّ جثمانٍ حقّ، الآن وقد أصبح جثماناً أصمّ، لا يُخشى منه أذىً، جسـداً لاروح فيه، قلباً متوقّفاً عن الخفقان، فماً أخرس، خرج من بيوتهم التي اختبأوا فيها، منذ ليلـة الأمس، أصدقاء الساعة الخامسة والعشرين، موالون فاترون، وتلاميذ سـرّيّون، ومعجبـون متوارون يضعون، ليلاً، النور تحت المكيال، ويختفون في النهار، عندما تسطع الشمس. لقـد عرفنا، جميعنا، هؤلاء الأصدقاء، أصدقاء حذرين، يرتعدون خشيةً من أقاويل الناس، يتبعونك ولكن من بعيد، ولا يستقبلونك إلاّ عندما يتأكّدون أنّ أحداً لا يراكما معاً؛ ويقدّرونك، ولكن لا يعترفون بهذا الإعجاب إلاّ لأنفسهم، ويحبّونك، ولكن ليس بالقدر الذي يحدوهم إلى مساعدتك بفلس، أو إلى التضحية، في سبيلك، بساعة نوم. ولكن عندما تحمّ ساعة موتك، الذي قد يكون سببه بخلهم وجبنهم، حينئذٍ يبدأ احتفالهم. فهم الذين يسكبون أكثر الدموع تألّقاً، دموعٍ احتفظوا بها لهذا اليوم بالذات؛ وهم الذين يجدلون بأيديهم الماهرة أكاليل الزهـور، وزهـور البيـان الجنائزيّ. ويا للسلوك المرهف، والاندفاع، والترصّن المصطنع التي يـؤدّون بهـا مهمّـتهم الجديدة، مهمّة البكّائين المأجورين! إنّهم أساتذة تاريخ الوفيّات، وشواهد القبور، والتـذكارات. ويخيّل لمن يشاهد إيماءاتهم وحركاتهم أنّه لم يكن للمُتوفّى أصدقاء أخلص منهم. وينهمر على النفوس الطيّبة غيث من الرأفة على أولئك المساكين الباقين على قيد الحياة، والـذين يبـدون وكأنّهم فقدوا نصف روحهم، أو، أقلّه، ربعها.

و قد توفّر للمسيح أصدقاء من هذا النمط، كي يضاعفوا معاناة استشهاده، في الحيـاة والممات. إثنان منهما ظهرا منذ مساء يوم الجمعة : شخصان رصينان وقوران، وجيهان فـي المدينة وفي المجلس سيّدان غنيّان (وغالباً ما يكون أمثال هؤلاء الأَصـدقاء المُخفِقـين مـن الأغنياء)، بالإجمال اثنان من أعضاء السنهدرين : يوسف الأريماتيّ، ونيقودمس. ولكي يتجنّبا تلويث أيديهما بدم يسوع، تغيّبا عن جلسة السنهدرين، واحتبسا في بيتيهما، وربّما أطلقا مـن صدرهما الودود بعض تأوّهات، ظانّين أنّهما، بذلك، ينقذان سمعتهما وضميرهما. وقد ذهلا أنّ التواطؤ، حتّى إن كان سلبيّاً، هو دعم للقتلة، وأنّ الامتناع من قِبَل من يملك حقّ المعارضـة، أقلّه بالكلام، يتساوى والموافقة. يوسف الأريماتيّ ونيقودمس، كانا، إذن، قد أسهما، حتّى فـي غيابهما وتواريهما، في جريمة قتل المسيح. ولئن كان ألمهما اللاحق يخفّف من مسـؤوليّتهما، إلاّ أنّه لا يلغيها.

و لكنّهما، في المساء، عندما باتا في مأمنٍ من اشتباه زملائهما الذين غـادروا مكـان الجمجمة، راضين، وأمنوا، أيضاً، من خطر التورّط في نظر المجتمع الكهنوتيّ والبورجوازيّ

لأنّ الميت قد مات ولم يعد قادراً على إيذاء أحد، خطر للتلاميذ الليليّين، "المتخفّين خشيةً من اليهود"، أن يخفّفوا من وجع ضميرهم، بتوفير طقوس الدفن للمحكوم.

أشدّهما جرأة، يوسف، "تجرّأ" – على حدّ تعبير الإنجيليّ مرقس، الذي يبرز هذا الحدث غير المألوف لدى ذلك الأرنب المرتدي ثوباً فضفاضاً – فمثُل أمام بيلاطس، وطلب منه جثمان يسوع. ودهش بيلاطس أن يكون يسوع قد قضى نحبه، في هذا المدى القصير، إذ غالباً ما كان المصلوبون يقاومون الموت طيلة يومين، فاستدعى قائد المئة "بترونـي" الذي أشرف على الإعدام، وبعد أن سمع تقريره "أعطى" الجثمان لعضو السنهدرين. وكان الوالي، في ذلك اليوم، كريماً، إذ ألف الضبّاط الرومانيّون تقاضي ثمن الجثمان حتّى من ذوي المحكوم. ربّما لم يشأ بيلاطس رفض حظوةٍ لشخصٍ غنيٍّ مبجّل، أو ربّما كانت تلك المجّانيّة ثمرة نفاد صبر أكثر منها ثمرة مجاملة. فقد كان اليهود قد أقضّوا مضجعه طيلة الصباح بسبب ذلك الملك، فليدَعوه الآن وشأنه، بعد أن قضى نحبه!

و راح يوسف يبحث عن كفنٍ أبيض جميل، ولفائف، ثمّ يمّم شطر مكان الجمجمة. وفي أثناء الطريق التقى نيقودمس الذي كان يشاركه القصد عينه. نيقودمس، أيضاً، لم يكن ضنيناً، بل جاء بمئة رطل من المرّ والصبر للحنوط، محمولة على كتف عبد.

و لمّا إنتهيا إلى الصليب، وفيما كان الجند يفكّون مسامير اللصّين كي يلقوا بهما في حفرة عامّة، تولّيا إنزال يسوع عن الصليب.

العطور في الصخر

كانت الشمس التي أسدل عليها الضباب ثوب الشحوب، قد غابت. أمست الظلمة كثيفةً وحزينة، وحلّ ليلٌ خاوٍ من فرح شفَقٍ يهبط على عالمٍ فقدَ الكائن الوحيد القادر على إضاءته. على بياض الجلجلة الذي غشاه الظلّ برز بياض الجثمان العاري. وقد استعان الجلاّدون على إنجاز مهمّتهم، بأنوار المشاعل، التي لم يكن اشتعالها يبعث أيّ دخان في الهواء الساكن. وبفضل هذا الضوء الدامي، شاهدوا آثار انسياب الدم على الخشب إلى الأرض التي عُبِثَ بتربتها.

بمساعدة نيقودمس وآخرين، انتزع يوسف، بجهد، مسامير القدمين، المحكمة التثبيت. وكان السلّم ما زال موجوداً، فصعد أحدهم وانتزع مسامير اليدين، مسنداً الجسد على كتفه، وأنزلوه وألقوه على ركبتيْ الأمّ الوجيعة التي كانت قد وضعته، وجاءت به إلى الوجود. ثمّ

مضوا به إلى البستان القريب، حيث كانت مغارةٌ مُعدّةً من أجل دفن يسوع. كان البستان يخصّ الثريّ يوسف، الذي أمر بحفر المغارة فيه كي تكون له ولذويه مدفناً؛ ففي ذلك العهد كان لأسرة كلّ يهوديٍّ ميسور قبرٌ بعيدٌ عن سائر القبور، ولم يكن محكوماً على الأموات باختلاط مقابرنا الإداريّة، المؤقّتة، الهندسيّة الشكل، الديمقراطيّة مثل كلّ بربريّتنا الحديثة، الصلِفة.

في البستان، امتاح الدافنان الموقّران ماءً، وغسلا الجثمان. ولم تكن المريمات الثلاث: العذراء، والمتعبّدة، والمُحرَّرة، قد غادرنَ المكان الذي مات فيه ذاك الذي أحببنَه. وإذ كنّ أوفر خبرةً من الرجال، فقد جهدنَ في أن يكون التكفين جديراً به، وإن تمّ ليلاً وسريعاً. وقد حرصنَ على أن ينزعنَ عن هامته إكليل فيلقيّي بلاطس المهين، وعلى استخراج الأشواك العالقة بجسده، وعلى تمشيط شعره الملتصق بالدم، وعلى إغلاق عينيه اللتين طالما رنتا إليهنّ برقّةٍ طاهرة، وفمه الذي لم يستطعنَ، يوماً، تقبيله. دموعٌ كثيرة انهمرت على المحيّا، الذي استعاد، في شحوب الموت الساكن، رقّة ملامحه القديمة، وهذه الدموع قد غسلته بماءٍ أطهر من ماء بئر يوسف.

كان الجسد كلّه مُلطّخاً بالعرق، والدم، والغبار. ومن اليدين، والقدمين، والجنب، ما انفكّ يقطر سائلٌ دامٍ. وقد غُسل الجسد كلّه، وضمّخ بالطيوب، وملئت، أيضاً، بلا تقتير، الثقوب السوداء التي أحدثتها المسامير. منذ ذلك المساء النذير، حيث سكبت الخاطئة على قدمي الغفّار ورأسه، إناء الناردين، لم يتلقّ جسد يسوع سوى اللكمات والبصاق. ولكنّه، اليوم، وللمرّة الثانية، بُلّل بالطيوب، وبدموعٍ أعذب من العطر.

عندما غطّت المئة رطلاً التي جاء بها نيقودمس، يسوعَ، بمعطَفٍ عَطِر، رُبط الكفن حول الجسد بأربطةٍ طويلةٍ من الكتّان، وشدّ الرأس بوشاح، وبعد أن قبّل الجميع الجبين، أُسدل على الوجه حجاب.

كانت المغارة جديدة ولم تُستخدَم من قبل. فيوسف الأريماثيّ، الذي لم يقوَ على استضافة المسيح، حيّاً، في أحد بيوته الكثيرة، قد تنازل له، بعد أن خفّت نقمة العالم، عن المسكن المظلم الذي كان قد حفره في الصخر من أجل إيواء جثمانه في المستقبل. ثمّ تلا عضوا السنهدرين، بصوتٍ جهوريّ، وفقاً للتقاليد، المزمور الجنائزيّ. وأخيراً، بعد أن أرقدا حملهما الأبيض، أغلقا المدخل بحجرٍ ضخم، وابتعدا، واجمَيْن.

و لكنّ النسوة لم يتبعنَهما، فقد كنّ عاجزات عن الانفكاك عن تلك الصخرة التي تفصلهنّ، إلى الأبد، عن ذاك الذي أحببنَه أكثر ممّا أحببنَ جمالهنّ. فكيف لهنّ تركه وحيداً، في ليلٍ مزدوج، ليل الموت وليل اللحد، وهو الذي قاسى وحدة النزاع المرهقة؟ كنّ يصلّين بصوتٍ خفيض، أو يذكرنَ إحدى كلمات المحبوب أو حركاته. وإن حاولت إحداهنّ تعزية

الأُخرى، إزدادت هذه نحيباً. أحياناً كنّ ينادينه باسمه، متّكئات على الصخرة، ويبحنَ له، بعد أن سدّ الموت والكفن أُذنيه، بما لم يجسرنَ، من قبل، على البوح به، عندما كان حيّاً؛ ساكباتٍ، أخيراً، في ظلال بستان يوسف الرطبة القاتمة حبّاً أكبر من الحبّ، ما عاد قلبهنّ قادراً على احتوائه.

ثمّ غلبهنّ القرّ ورهبة الليل، فذهبنَ بدورهنّ، وفي عيونهنّ حرقة، متعثّرات بالأشواك والحجارة، موطّنات العزم على العودة حالما ينتهي الفصح.

تحرير النائمين

كان جسد المسيح الجريح يرقد على سريرٍ من العطر في قلب الصخر. بيد أنّ روحه، المتحرّر من عبء الجسد، لم يجد إلى الراحة سبيلاً. كان قد بلّغ الأحياء الرسالة السعيدة، ودفع حياته ثمناً لهذا التبليغ. وبات عليه، الآن، أن يحمل الرسالة إلى الأموات الذين ينتظرونها منذ قرونٍ في أعماق الجحيم.

عن هذا الهبوط إلى الجحيم لا نملك أيّ وحيٍ موثوق. غير أنّ أحد أقدم الكتب المزيّفة، أي إنجيل بطرس، يقول إنّ شهود القيامة "سمعوا صوتاً من السماء يقول : هل أعلنت الطاعة للنائمين؟ وتعالى، من الصليب، هذا الجواب: "أجل". وتؤكّد رسالة بطرس الثانية تبشير النائمين هذا: "لقد أُميت، حسب الجسد، ولكنّه، بالروح، بُعث إلى الحياة. وبالروح مضى يبشّر الأرواح السجينة التي كانت متمرّدة، في حين كان حلم اللّه صابراً، في أيّام نوح، منتظراً بناء السفينة... لذلك بُشّر الأموات، أيضاً، بالإنجيل، كي يستطيعوا، بعد أن يُدانوا، كما يُدان البشر، عمّا يتعلّق بالجسد، العيش وفق اللّه، في ما يتعلّق بالروح". وبولس الذي أُطلع على أمورٍ إلهيّة أكثر ممّا أتيح له أن يبوح، يؤكّد أنّ يسوع "انحدر، أيضاً، إلى أغوار الأرض الدنيا". وقد أيّد قانون الإيمان، تأييداً قاطعاً، اليقين المسيحيّ القديم.

لطالما حلمت مخيّلات الشعوب الغابرة بالانحدار إلى الجحيم، ولكنّ أبطال هذه الروايات كانوا يتوخّون إعطاء الدليل على جرأتهم، أو الاطلاع على أمرٍ لا يعني سواهم، أو إنقاذ كائنٍ غالٍ عليهم وحدهم، من الموت. ولكن لم يبتغِ أحدٌ منهم إنقاذ الأموات المنسيّين، وإطلاق سراحهم من أسر قوى الجحيم، وحمل رسالة حياةٍ سميا، إليهم أيضاً.

في تخيّلات الأساطير الشعبيّة، هذه، المُغرقة في الروح البشريّ، لاشيء يذكّر بانحدار المسيح إلى الينبوس، فما يحدو المسيح هو عدلٌ إلهيّ لا يعرف تقسيمات الزمن البشريّة. فبين الراقدين رقاد الأرض، ليس، ثمّة، فقط المتوحّشون الذين لم يعرفوا سوى بهائمهم ونسائهم؛ والأشرار الذين لوّثوا نفوسهم بكلّ الشهوات، ولوّثوا أيديهم بدماء إخوتهم؛ والكسالى الذين

تدفّأوا بشمسٍ لم يتعرّفوا فيها صورة الأب العطوف؛ والأغنياء الذين لم يعبدوا سوى الامتلاك والتجارة؛ والملوك الذين لم يكونوا رعاةً، بل ملتَهمِين لشعوبهم؛ وعابدو الأوثان الذين تخيّلوا التمكّن من الظفر بحظوةٍ إلهيّة بفضل عباداتهم صوراً حجريّة، أو بتمرّغهم في القصوف والعربدة، بتقتيلهم البشر والبهائم، بعد أن أعمت بصيرتهم خرافات منكرة؛ والراضون عن أنفسهم الذين استكانوا إلى حرفيّة الشرائع البدائيّة الفظّة، وظنّوا أنفسهم كاملين، في عالمٍ كامل، عازفين عن كلّ أملٍ، أو حتّى أيّ تطلّع إلى تجدّدٍ مستقبليّ.

و كانت ثمّة، قلّةٌ مشتّتةٌ في مقبرة الأجيال اللامحدودة، ممّن لم ينعموا بالوحي الكامل، ولكنّهم بلغوا طهارة حياةٍ، بعيدةٍ، لا ريب، عن الكمال، ولكنّها تشبهه بقدر ما يشبه رسم الظلّ الأسود الجسد الحيّ الملوّن. منهم من لم يقتصروا على إصدار الشرائع الأولى، وعلى إبرام المعاهدات البشريّة المؤقّتة، بل جعلوا هذه الشرائع والمعاهدات أفضل كمالاً، لا بل تخطّوها. أعظمهم كانوا قد لمّوا شمل شعوبٍ منقسمة إلى قبائل شرسة. فجعلوا منها أُمّة واحدة، حيث، في داخلها، على الأقلّ، قد خُفّف وكُبح حقّ الحرب بلا رحمة؛ وآخرون حرّروا شعوبهم من العبوديّة، أو لقّنوا الفنون التي تجعل الحياة أقلّ مشقّة، أو التي تصرفنا، ولو لحظة، عن الألم. ومن وسط لجّة الأوباش، بين حينٍ وحين، نهض رجل، من معدنٍ نبيل، لم يضنّ على الفقير بالخبز والنار، وعرف كيف يروّض جسده، ويُخضع أهواءه الدنيئة، وحاول، بارتباكٍ وجهد، الخضوع لشريعةٍ داخليّة تحاكي حدْساً بالقداسة. وأخيراً، وسط الشعب الذي اختاره يسوع شعباً له، كان هناك آباء، رعاة قطعانٍ وأُسر؛ والمشرّعون الذي أصغوا على الجبل، وسط اللهب، إلى وصايا الأزليّ؛ والأنبياء الذين أعلنوا، عبر قرونٍ عديدة، وبحبٍّ ورجاءٍ جمّين، مجيء محرّر، يذيب مظالم العالم وآلامه، مثلما تبدّد ريحُ الشمال ضبابَ السهل الصفيق.

من أجل هؤلاء القوم، طلائع القداسة قبل القدّيسين، والمحسنين إلى البشر قبل المخلّص، والمبشّرين بيسوع، وممهّدي سُبله، وبذور مسيحيّين قبل المسيح، كان النزول إلى الينبوس ضرورةً يفرضها العدل والحبّ. ذاك الذي تخيّلوه ولم يعرفوا اسمه، والذي انتظروه، ولم يُعطوا رؤيته على ضوء الشمس، قد ذكرهم، حالما استيقظ على الحياة الحقّة، وانحدر كي يحرّرهم ويقتادهم معه إلى مجده.

ثمّة نصٌّ مُختَلَق قديم يصف هذا النزول وما واكبه: أبواب منزوعة، وابليس مهزوماً، وأبرار العهد القديم مبتهجين، وجماعة الطوباويّين القليلة العدد صاعدة إلى السماء. وفيما هم يلتقون، في العلى، أخنوخ وإيليّا اللّذين لم يموتا على الأرض مثل سائر البشر، يشهدون رجلاً عارياً مدمّى، حاملاً على كتفيه صليباً. إنّه اللصّ التائب الذي حقّق له يسوع ما وعده به على الجلجلة. هذه التخيّلات كلّها أكثر جمالاً ممّا هي موثوقة. ولكنّ التقليد المسيحيّ، وإن لم يدّعِ معرفة قصّة الهبوط إلى الجحيم، وأسماء المحرّرين، قد آمن بتبشير الأموات، واستطاع طيف

فرجيليوس، بعد ثلاثة عشر قرناً، تذكير دانتي، وسط دخان جهنّم، بمجيء "القـدير، المكلّـل بعلامة النّصر".

من تحبثون عنه ليس ههنا

شمس النهار، وهي لنا شمس الربّ، لم تكن قد أشرقت، بعد، عندما عادت النسوة إلى البستان. ولكن، من جهة الشرق، على التلال، كان يتعالى رجاءٌ أبيض، خفيفٌ مثل انعكـاس عالمٍ مكسوٍّ بالفضّة والزنبق، وسط كوكبة النجوم المرتجفة، متغلّباً، رويداً رُويداً، على وميض الليل ولألائه. وكان الفجر الساجي يذكّر بنوم الأبرياء، والهواء الصافي المؤاتي يبدو متـأثّراً بطيران الملائكة. شحوبٌ شفّاف، وفرحٌ محتشم، ورعشاتٌ بريئة كانت تؤذن بالنهار البكر.

كانت النسوة يسرنَ مستغرقات في حزنهنّ، في الهواء الصباحيّ، مفتوناتٍ بإلهام لـم يستطعنَ تبريره. أهنّ جئن لينتحبنَ على الصخر، أو ليشهدنَ، للمرّة الأخيرة، ذاك الذي عرف السبيل إلى الاستيلاء على القلوب من غير جرحها ؟ أو من أجل تطييب جسد الضحيّة بعطورٍ أنفذ من عطور نيقودمس ؟ وكنّ يتساءلنَ، فيما بينهنّ :

– من الذي سيزيح لنا الحجر عن القبر ؟

كنّ أربعاً، إذ رافقت حنّة زوجة كوزا، وسالومي، مريم التي من بيت عنيـا، ومـريم المجدليّة، ولكنّهنّ لم يكنّ سوى نسوة أوهنهنّ الحزن.

و لمّا انتهينَ إلى القبر أذهلتهنّ الدهشة. فقد كان مدخل المغارة مشرعاً على الظـلام وراحت أجرؤهنّ، وكأنّها تشكّ بعينيها، تبحث عن عتبة المغارة بيدٍ مرتجفة. وعلـى ضـوء النهار الذي كان يزداد وضوحاً، مع كلّ لحظة، اكتشفنَ الحجر مسنداً على الصخور المجاورة.

و عقد الخوف ألسنتهنّ، فالتفتنَ، وكأنّهنّ يبحثنَ عمّن يستطيع إخبارهنّ بما حدث فـي غضون الليلَتيْن السابقتَيْن. وتبادر إلى ذهن مريم المجدليّة أن يكـون اليهـود سـرقوا جسـد المصلوب، وكأنّهم لم يرتووا من العذابات التي أنزلوها به، وهو حيّ؛ أو لعلّهم اغتاظوا بسبب ذلك الدفن الذي عدّوه أكثر تكريماً ممّا يستأهل خارجٌ عن الدين القويم، فقذفوا به فـي حفـرة الخزي الموقوفة على المرجومين والمصلوبين ؟

بيد أنّ كلّ ذلك لم يكن سوى حدْس. وربّما كان يسوع ما برح هنـا موثّقـاً بأربطـة معطّرة. لم يتجاسرنَ على الدخول، إلاّ أنّهنّ ما استطعن توطين العزم على العودة قبل الظفر بأخبارٍ موثوقة. وما كادت الشمس تنبلج أخيراً، فوق التلال، وتضيء مدخل المغـارة، حتّـى تجرّأن وولجنَها.

بادئ الأمر لم يريْنَ شيئاً، ثمّ اجتاحهنّ رعبٌ جديد، عندما شاهدنَ، على يمينهنّ، شاباً متّشحاً بالبياض، كان ثوبه، في العتمة، يتألّق كالثلج، جالساً، وكأنّه يترقّبهنّ :

– لا ترتعبنَ : إنّ الذي تبحثنَ عنه ليس ههنا، بل هو قد قام. فلمَ تبحثنَ عن الحيّ بين الأموات ؟ أما تذكرنَ ما قاله في الجليل : أنّه سيسلم إلى أيدي الخطأة، وسينهض في اليوم الثالث ؟

كنّ يسمعنَ، مذهولات، ولا يُحِرْنَ جواباً. فواصل الشابّ قوله :

–امضينَ إلى إخوته، وأبلغنَهم أنّ يسوع قد قام وأنّهم سيرونه قريباً.

و في الحال غادرت النساء الأربع المغارة وهنّ مرتعدات، رهبةً وفرحاً، وركضنَ إلى حيث أُرسلنَ. بعد أن خطوْنَ بضع خطوات، وكدنَ يصبحنَ خارج البستان، توقّفت مريم المجدليّة، فيما واصلت الأخريات سعيهنّ شطر المدينة، ولم ينتظرنها. هي نفسها لم تعرف لمَ تلبّثت. ربّما لم تقنعها أقوال الغريب، ولم تتأكّد، كفاية، من فراغ اللحد. ألا يمكن أن يكون قد خدعهنّ أحد المتواطئين مع الكهنة ؟

و التفتت، بغتة، فرأت، على مقربةٍ منها، بين الخضرة والشمس، رجلاً. ولكنّها لم تتعرّفه، حتّى عندما خاطبها :

– يا امرأة، علامَ تبكين ؟ عمّن تبحثين ؟

و ظنّت مريم أنّه بستانيّ يوسف الأريماثيّ، وقد وافى، باكراً، ليعمل.

– إنّني أبكي لأنّهم أخذوا ربّي، ولستُ أعلم أين وضعوه. وإن كنتَ، أنت، من فعل ذلك، فقل لي أين وضعته كي آخذه.

تأثّر الرجل بهذا الهوى البريء، بهذه السذاجة الصبيانيّة، ولم يُجب إلاّ بكلمة واحدة، باسمٍ واحد، اسمها، وقد تلفّظ به، بحنين، بذلك الجرْس المؤثّر الذي لا يُنسى، الذي طالما ناداها به:

– مريم !

حينئذٍ، ولكأنّها استيقظت بغتةً، استعادت اليائسةُ الكائنَ المفقود :

–رابّوني ! يا معلّم !

وهوت على قدميه الغارقتين في العشب الرطب، وضمّتهما بيديها متأمّلة الاحمرار المزدوج الناجم عن المسامير.

و لكنّ يسوع قال لها :

–لا تلمسيني، فإنّني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن امضي إلى إخوتي، وقولي لهم إنّي ماضٍ إلى إلهي وإلهكم، وإنّي سأسبقهم إلى الجليل.

و ابتعد بغتةً عن الراكعة، ونأى في البستان، تكلّله الشمس. وظلّت مريم تشيّعه بعينيها إلى أن غاب. ثمّ نهضت، مضطربة الوجه، وقد أعماها الفرح، وركضت إلى حيث كانت رفيقاتها، اللائي انتهينَ، قبل لحظات، إلى البيت الذي كان يتوارى فيه التلاميذ، وروينَ لهم، بكلماتٍ لاهثة، الأمر الذي لا يُصدّق : القبر المفتوح، والحارس المرتدي البياض، وقيامة المعلّم.

و لكنّ الرجال الذين ما انفكّوا مشوّشين بهول الكارثة، والذين بدوا طيلة أيّام الخطر تلك، أكثر نسياناً، وأقلّ تأهّباً من النسوة، رفضوا تصديق أخبارٍ على هذا القدر من الغرابة، وظنّوا أنّها لا تتعدّى كونها هذياناً، ورؤى نسوة. فكيف يمكن أن ينهض بعد يومين ؟ صحيحٌ أنّه أنبأ بعودته، ولكن ليس في مثل هذه السرعة : فلا بدّ من أن تحدث أشياء مريعة كثيرة، قبل هذا اليوم.

كانوا يظنّون أنّ المعلّم سينهض مع جميع الأموات، في آنٍ واحد، وأنّه سيأتي في المجد ويشيد الملكوت. أمّا اليوم، فلم يحِن الأوان، ولا يمكن لتلك الأحلام المتهوّسة أن تكون واقعيّة.

و في تلك الأثناء وصلت، مبهورةً من التأثّر والجري، مريم المجدليّة، لتؤكّد أنّ ما روته الأخريات صحيح، كلّيّةً. وأضافت أنّها رأته بعينيها، وكلّمته؛ ولم تتعرّفه، بادئ الأمر، إلى أن تلفّظ باسمها، وأنّها لمست قدميه بيديها، وشاهدت آثار الجراح فيهما. كان هو، حيّاً، كالسابق؛ وقد كرّر على مسامعها توصية الرجل المجهول : اذهبي إلى إخوتي كي يعلموا أنّني نهضت، حسب وعدي.

و اهتزّ، أخيراً، سمعان بطرس ويوحنّا، واندفعا خارجاً، راكضَيْن نحو بستان يوسف. يوحنّا، وهو الأكثر شباباً، وصل، أوّلاً، إلى القبر، وانحنى على المدخل فرأى على الأرض اللفائف، ولكنّه لم يدخل، حتّى لحق به سمعان، لاهثاً، واندفع داخل المغارة. كانت الأغطية البيضاء منثورة على الأرض، والغطاء الذي لُفّ به رأس الجثمان مطويّاً. وحينئذٍ دخل يوحنّا، وشاهد، وآمن. لم يتلفّظا بكلمة بل قفلا، سريعاً، عائدَيْن إلى البيت، وكأنّهما يتوقّعان أن يشهدا يسوع وسط سائر التلاميذ.

و لكنّ يسوع، بعد أن غادر مريم، ابتعد عن أورشليم.

عمّاوس

عقب هدنة الفصح العلنيّة، استعاد الجميع عمل الأيّام المسكينة الرتيبة.

إثنان من أصدقاء يسوع، ممّن كانوا في بيت الرسل، كان عليهما أن يمضيا، في ذلك اليوم، لمتابعة أعمالهما في عمّاوس، القرية الصغيرة الواقعة على بعد ساعتي مسير عن أورشليم. وقد انطلقا، فور عودة سمعان ويوحنّا من القبر. كلّ تلك الأخبار المدهشة كانت قد أذهلتهما، ولكن لم تُدخِل في خَلَدهما قناعةً تامّة بصحّة حَدَثٍ غير متوقّع، وبمثل هذه الضخامة. كانا رجلين لا يسلّمان إلاّ بما هو ملموس، ثابت، ولا يستسلمان للخداع. فإن لم يكن جسد المعلّم في القبر، ألا يمكن أن يكون قد خُطِف ؟ وما كانا يستطيعان تصديق كلّ ما سمعا.

كليوفاس ورفيقه كانا يهوديّيْن طيّبيْن، ممّن يتركون فسحةً للمُثُل، في فكرٍ مزدحم بالهموم المغرقة في المادّيّة. ولكنّ تلك الفسحة كانت ضيّقة، وكان على المُثُل أن تُحشَر فيها وتتوافق معها، وإلاّ طُردت طرد ضيفٍ مزعج. هما أيضاً، على غرار معظم التلاميذ، كانا يتوقّعان مجيء محررٍ يأتي، أوّلاً، لتحرير إسرائيل، وبالإجمال كانا ينتظران مسيحاً هو ابن داود لا ابن اللّه؛ فارساً محارباً ، لا راجلاً بائساً؛ آفةً تحلّ بالأعداء، لا صديقاً يداعب الأطفال والمرضى. كانت أقوال المسيح قد أذابت، بعض الشيء، سمّ مسيحانيّتهم الجسديّة، ولكنّ الصليب أوقعهما في حيرة. كانا يحبّان يسوع، وقد تألّما لآلامه، بيد أنّ هذه النهاية غير المنتظرة، المخزية، الخالية من المقاومة والمجد، كانت تتعارض كثيراً مع ما توقّعا، وخاصّة مع ما كانا يتطلّعان إليه. كانا قد تفهّما، بجهدٍ، وارتضيا، على مضض ، كونه مخلّصاً متواضعاً، يمتطي حماراً مسالماً، عوضاً عن فرس قتال، وكونه، إلى حدٍّ ما، أكثر رقّةً، وأقلّ جسديّة ممّا كانا يتمنّيان. أمّا أن يكون المحرّر عاجزاً عن تحرير الآخرين ونفسه، وألاّ يفعل المخلّص شيئاً لكي يخلّص ذاته، وأن يكون ملك اليهود قد مات بمشيئة العديد من اليهود على صليب اللصوص وقاتلي الآباء، فتلك كانت خيبة أمل لا تُحتمل، وفضيحة لا تُغتفر. كانا يشفقان، بصدقٍ شديد، على المصلوب، ولكنّهما كانا ينزعان إلى تخمين أنّه أساء الظنّ بهويّته الحقيقيّة. هذه النهاية – ويا لها من نهاية! – كان لها في نفوس أولئك القوم العمليّين الضيّقة الآفاق، وقع الإفلاس.

عن كلّ هذه الأشياء كانا يتحدّثان تحت شمس الظهيرة العذبة. وكان نقاشهما يحتدم أحياناً، إذ لم يكونا، دائماً، متّفقيْ الرأي. وبغتةً، شاهدا، بطرف العين، ظلاًّ على الأرض؛ فقد كان رجل يلحقهما، وكأنّه يتسقّط أقوالهما. فتوقّفا، كما هو مألوف، لتحيّة المسافر الذي واصل سيره معهما. لم يبدُ لهما وجهه غير مألوف، ولكنّهما مهما أنعما التحديق فيه، كان شيء ما يمنع عيونهما من تعرّفه. ولم يبادر المسافر إلى الردّ على تساؤلاتهما الصامتة، بل سألهما :

– عمّ كنتما تتحدّثان وأنتما تسيران ؟

و أجاب كليوفاس، الذي كان يبدو الأكبر سنّاً، في شيءٍ من الدهشة :

– أأنت الغريب الوحيد في أورشليم، بحيث لم تُحِط علماً بالأمور التي جـرت، فـي الأيّام الأخيرة ؟

و سأل الغريب :

– أيّة أمور ؟

– ما يتعلّق بيسوع الناصريّ الذي كان نبيّاً قديراً، فعلاً وقولاً، أمام الشعب وأمام اللّه، والذي قضى عليه كهنتنا وحكّامنا بالموت صلباً. فقد كنّا، نحن، نأمل أن يكون هو من يفتـدي إسرائيل؛ ولكن هذا هو اليوم الثالث لما حدث. وقد أرعبتنا نسوة ذهبنَ هذا الصباح، بـاكراً، إلى القبر، فوجدنَه فارغاً، وقلنَ إنّهنّ رأينَ رؤى، وأنّ يسوع حيّ. وشخص اثنان منّا إلى القبر ووجداه خاوياً، وفقاً لما قالت النسوة، أمّا يسوع فلم يشاهداه.

فهتف الغريب

– ما أحمقكما، وما أبطأ إيمانكما بما قاله الأنبياء! أوَ لم يكن لزاماً أن يقاسي يسـوع كلّ هذه الآلام قبل دخولـه في مجده؟ ألا تذكران ما أُعلن منذ موسى ؟ ألـم تقـرآ حزقيـال ودانيال؟ ألا تعرفان أناشيدنا للربّ، ووعوده لنا ؟

وبنبرةٍ تكاد تكون نبرة استنكار، راح يتلو الأقوال القديمة، ويشرح النبوءات، ويـذكّر بملامِح رجل الآلام. وكانا يصغيان إليه، طائعَيْن، يقظَيْن، لا يُحيران جواباً. فقد كـان يـتكلّم بحرارة، وكانت الإنذارات القديمة تتّخذ، في فمه، حرارةً جديدة، ومعنى من الوضوح بحيـث بدا عجباً ألاّ يُفهم هكذا من قبل. هذه الأقوال كانت، لهما، مثل صدى أقوال مماثلة، سـمعاها قديماً، ولكن على نحوٍ مبهم، مثل صوتٍ من وراء جدار.

في تلك الأثناء بلغا أولى بيوت عمّاوس، وتظاهر المسافر بوداعهما، وكأنّه عازم على مواصلة سيره. ولكنّ الصديقين باتا عاجزين عن الانفصال عن الرفيق الغامض. فتوسّلا إليه أن يمكث معهما. وكانت الشمس المائلة إلى المغيب تذهّب البراري، بمزيدٍ من الدفء، ولكـنّ الظلال الثلاثة كانت تتمادى طولاً فوق رغام الطريق.

– ابقَ معنا، فالمساء يدنو، والنهار يميل إلى الغياب. ومن المؤكّد أنّك، أنت، أيضـاً، تعِبٌ وجائع. وأخذاه من يده، وأدخلاه إلى البيت الذي كانا يقصدانه.

و عندما جلسوا إلى المائدة أخذ الضيف الجالس بينهما الخبز، فكسره، وأعطـى كـلاًّ منهما قطعة. حينئذٍ فتحت عيونهما، في مثل استيقاظٍ مفاجئ، يحدثه انبسـاط الشـمس علـى السرير. فارتعشا، كلاهما، ونهضا، شاحبين، وتعرّفا ذاك الذي لم يفهماه، وقالا فيـه سـوءاً. ولكن قبل أن يتمكّنا من تقبيله، خرج يسوع من البيت، واختفى.

لم يستطيعا تعرّفه بفضل قسمات وجهه، وأقواله، ونور عينيه، وجرْس صوته. ولكن كان حسبه أن يأخذ الخبز ويقتسمه، مثلما يقتسم الأب مع أبنائه، مساءً، إثر عناء يوم كـدٍّ أو

سفر؛ وفي إيماءة الحبّ هذه، الإيماءة التي عهدوها في أعشية سابقة، اكتشفا، أخيراً، يديه، يدين جريحتين، مباركتين. وتبدّد الضباب، ووجدا ذاتيهما، وجهاً لوجه، أمام الناهض من الموت. لم يتعرّفا الصديق، ولم يلتقيا المعلّم؛ ولكن من خلال وظيفة من يخدم خادمه، ويعطي الخبز – حياةً، ورجاء حياة – من خلال تلك الوظيفة التي تفيض حبّاً، رأياه، للمرَّة الأولى.

ومع ما كانا عليه من سَغَبٍ ونَصَب، استعادا طريق أورشليم حيث وصلا ليلاً. وكانا يقولان، خجلين :

–أَلم يكن قلبنا يضطرم، في داخلنا، عندما كان يحدّثنا، ويشرح لنا الكتب ؟ فعلامَ لم نستطع تعرّفه حينذاك ؟

كان التلاميذ ما زالوا ساهرين. وقبل أن يلتقطا أنفاسهما، روى المسافران لقاءهما بيسوع، وما قاله لهما، وكيف لم يتعرّفاه إلاّ عند كسر الخبز. وردّاً على هذا التأكيد الجديد صاحت أصوات كثيرة، معاً :

– أَجل ! لقد نهض المعلّم وظهر، أيضاً، لبطرس.

بيد أنّ هذه الظهورات الأربعة، وهذه الشهادات الأربع، لم تكن كافية لإزالة كلّ ريبة؛ فقد خُيّل للبعض أنّ هذه القيامة السريعة التي تمّت ليلاً، على نحوٍ خفيّ ومبهم،هي ضربٌ من الهلوسة الناجمة عن الألم، والرغبة في واقعٍ حقّ. فمن الذي ادّعى رؤيته سوى امرأةٍ غريبة الأطوار، كانت، ذات يوم مسكونة؛ ورجلٍ محموم انقلب كلّ كيانه، مذ أنكر المعلّم؛ ورجلَيْن بسيطين لم يكونا تلميذَيْن حقيقيّين، ويبدو أنّ يسوع آثرهما، اليوم، على أعزّ أصدقائه، لسببٍ لا يدركه أحد. فربّما خدع مريمَ طيفٌ؛ وبطرس أراد النهوض من مهانةٍ كانت تفقده صوابه؛ والآخران ربّما كانا ماكرَيْن، أو حالميْن. ولئن كان المسيح قد نهض حقّاً، فعلامَ لا يُظهر نفسه لجميعهم وهم مجتمعون ؟ ولمَ تفضيل بعضٍ على بعض ؟ ولمَ هذا الظهور على بعد ستّين غلوة من أورشليم ؟

كانوا يتخيّلون القيامة ولكأنّها إِحدى علامات اضطراب العالم الأقصى، عند اكتمال الزمن. ولكنّهم، الآن، وقد وجدوا أنفسهم في مواجهة قيامته الوحيدة، في حين لم يتغيّر من العالم شيء، ورأوا الحياة تعود إلى جسدٍ انتزعها منه الجلاّد، ففكرة القيامة هذه، التي انتقلت من المستقبل البعيد الذي وضعوها فيه، إلى الحاضر الماثل، كانت تصدم جميع التصوّرات التي تنسج لحمة تفكيرهم. هذه المفارقة كانت تسكنهم، أيضاً، على غير علمٍ منهم، و ها هم يكتشفونها، الآن، بفضل المقاربة المباغتة بين نظامين من الأحداث التي كانت، حتّئذٍ، تقيم على مستويين مختلفين : المعجزة والحياة اليوميّة.

إن كان يسوع قد قام من الموت، فهو، حقّاً، اللّه، ولكن هل يُعقل أن يُفرض على اللّه الحقّ، وعلى ابن اللّه، مثل هذا الموت المخزي ؟ وإن كان لديه من القدرة ما يمكّنه من

الانتصار على الموت، فلمَ لم يصعق قضاته، ولم يُخزِ بيلاطس، ولم يجمّد أيدي الذين سمّروه ؟ وبأيّ سرٍّ غير معقول ارتضى الكلّيّ القدرة أن يُجَرّ إلى مهانة الضعفاء ؟

هكذا كان يتكلّم، فيما بينهم، بعض التلاميذ الذين سمعوا ولم يفهموا. كانوا حذرين مثل جميع السفسطيّين، فلم يجازفوا بإنكار القيامة إنكاراً صريحاً، في وجه المتحمّسين، ولكنّهم كانوا يتحفّظون في حكمهم، ويجترّون بينهم وبين أنفسهم حجم الممكن والمستحيل، راغبين في دليلٍ واضحٍ لا يفلحون في ترجّيه.

في غمرة انفعالات ذلك اليوم، لم يتناول أحدٌ منهم طعاماً. ولكنّ النسوة أعددنَ وجبة، فجلسوا إلى المائدة. وتذكّر سمعان وجبة يوم الخميس المنصرم :

-إفعلوا هذا لذكري

وغشى عينيه دفقٌ من الدموع فيما كان يكسر الخبز ويقتسمه.

أليس لديكم طعام ؟

ما كادوا يفرغون من ازدراد اللقمة الأخيرة، حتّى ظهر يسوع عند عتبة الباب، طويلاً وشاحباً، وأجال نظره فيهم، واحداً فواحداً، وبصوته الشجيّ حيّاهم :

- السلام لكم.

لم يُجب أحد. فقد تغلّب الاضطراب على الفرح، حتّى لدى من كانوا قد رأوه من قبل. على جميع الوجوه، تقريباً، قرأ الناهض من الموت ارتياباً، وسؤالاً لا يجسر أن يعبّر عن نفسه بكلمات :

- هل أنت هو، حقّاً ؟ أو إنّك طيفٌ قادمٌ من مسكن الأموات لإغوائنا ؟

و قال ذاك الذي كان ضحيّة الخيانة :

- لمَ أنتم مضطربون ؟ وما هي الأفكار التي تولد في قلوبكم ؟ انظروا إلى يديّ ورجليّ، انظروا إليّ، والمسوني.

و مدّ نحوهم يديه، مبدياً، على ظهريهما وراحتيهما، آثار المسامير. وفتح ثوبه كي يشاهدوا، في جنبه، ما أحدثته طعنة الحربة من تمزيق. ونهض بعضهم من أسرّتهم، وجثوا أمامه فرأوا ثقوب قدميه العميقة. ولم يجرؤوا على لمسه، خشية أن يتلاشى بغتة مثلما ظهر. وإن هم قبّلوه، فهل سيشعرون بجسدٍ فاتر، صلب، أم ستمنى أيديهم بخيبة فراغ طيف زائف؟

لقد كان هو، هو، بمحيّاه وصوته، وبآثار الصلب التي لا تُدحَض. ومع ذلك، كان شيءٌ في منظره قد تغيّر، لم يقووا على وصفه. حتّى أكثرهم جموحاً كانوا مكرهين على الإيمان بأنّ المعلّم كان أمامهم، ولكنّ شكوكهم الأخيرة كانت تعربد في فكرهم، وتبقيهم واجمين، وشبه خائفين من الوثوق بمشاعرهم، ولكأنّهم سيستيقظون بين لحظةٍ وأُخرى، وينغَمسون، من جديد، في عالم الواقع المألوف الذي افتقدوه، بعد إذ زعزعته كارثةٌ مجلجلة. سمعان، أيضاً، كان صامتاً، فما عساه أن يقول، من غير أن تخونه دموعه، لمن رمقه بتلك النظرة، في فناء قصر قيافا، فيما كان يقسم أنّه لم يعرفه، قطّ ؟

و لكي يزيل آخر شكوكهم، استوضح يسوع :

– أليس لديكم طعام ؟

هو، لم يكن، بعدُ، في حاجةٍ إلى طعام، سوى ذاك الذي التمسه، عبثاً، طيلة حياته. ولكنّ أولئك الجسديّين كانوا في حاجةٍ إلى برهانٍ جسديّ. فمن لا يؤمن إلاّ بالمادّة، ومن يتغذّى بالمادّة، يلزمه إثباتٌ مادّيّ. كانوا قد تناولوا الطعام معاً، في المساء الأخير، واليوم سيأكل معهم، ثانية :

– أليس لديكم طعام ؟

كانت قد فضلت قطعة سمك مشويّ، فدفع بطرس الطبق إلى المعلّم الذي دنا من المائدة، وتناول سمكاً مع كسرة خبز. و كان الجميع يحدّقون فيه، ولكأنّهم لم يشاهدوه، قطّ، يأكل.

و لمّا فرغ من تناول الطعام، رفع عينيه وقال لهم :

هل اقتنعتم، أم إنّكم لم تفهموا بعد ؟ هل تظنّون أنّ شبحاً قادرٌ أن يأكل كما فعلتُ، بحضوركم ؟ لطالما أخذت عليكم قسوة قلبكم، وقلّة إيمانكم. وها أنتم ما برحتم كما كنتم، وأبيتم تصديق من شاهدوني، مع أنّي لم أُخفِ عنكم شيئاً ممّا كان ينبغي أن يتمّ في هذه الأيّام. ولكنّكم، أنتم، صمٌّ، وفاقدو الذاكرة، تسمعون وتنسون، تقرأون ولا تفهمون. ألم أنبئكم، وأنا بينكم، بأنّ كلّ ما كُتب ينبغي أن يتحقّق، وكذلك كلّ ما أعلنته لكم : أي أنّ على المسيح أن يتألّم، وأنّه سينهض من الموت في اليوم الثالث، وأنّه، باسمه، ستُبشّر الشعوب كلّها، ابتداءً من أورشليم، بالغفران والتوبة. وها أنتم، الآن، شهودٌ على هذه الأشياء، وسأفي بالوعود التي قطعها لكم أبي، بفمي. جوبوا، إذن، العالم، وبشّروا كلّ خليقة بالإنجيل. لقد أُعطيتُ كلّ قدرة في السماء، وعلى الأرض. ومثلما أرسلني الآب، أرسلكم أنا. امضوا، إذن، وعلّموا الشعوب، ولقّنوها ممارسة ما أوصيتكم به. فمن آمن خلص، ومن أبى الإيمان، يُدان. سأمكث هنا، وقتاً قصيراً، ثمّ نلتقي في الجليل، ومن بعدُ، سأبقى معكم، حتّى آخر الدهر.

و بقدر ما كان يتكلّم كان الأمل يُضيء، من جديد، وجوه التلاميذ، وتتألّق عيونهم، وكأنّهم في نشوة. كانت ساعة عزاء، عقب إرهاق الأيّام السابقة. حضوره الذي لا يمكن الارتياب فيه كان يؤكّد أنّ المستحيل بات واقعاً محقّقاً، وأنّ اللّه لم يتخلّ عنهم، ولن يتخلّى، من بعدُ، أبداً. أعداؤه الذين كانوا يبدون منتصرين كانوا، في الواقع، مهزومين. والحقّ المبين ولَج، طائعاً، في إطار النبوءات. لقد كانوا يعرفون، من قبل، هذه الأمور التي قالها لهم، ولكنّها ما كانت تعيش فيهم، حقّاً، إلاّ لحظة كان فمه يردّدها.

و إن كان الملك قد عاد، فالملكوت قريب. وإخوته، لن يكونوا، بعدُ، موضع سخرية واضطهاد، بل سيملكون، معه، إلى الأبد. تلك الكلمات أدفأت أكثرهم فتوراً، وأنعشت ذكرى خطاباتٍ أُخرى، وساعاتٍ أُخرى تغمرها الشمس. لقد هبّوا فجأة، واستعادوا اندفاعهم السالف، واجتاحتهم رغبةٌ عارمة في التعانق، والتحابّ، واستبعاد كلّ فرقة. وبما أنّ المعلّم قهر الموت، فهم، أيضاً، لن يعرفوا الموت؛ وبما أنّه استطاع الخروج من مغارة الموت، فوعوده هي وعود إله، وسينفّذها حتّى آخرها. إنّهم لم يؤمنوا سُدىً، وليسوا وحيدين؛ ولم يكن الصلب سوى يوم ظلمة، لكي يضيء نورٌ، أشدّ سطوعاً، كلّ الأيّام التي ستولد.

توما التوأم

ذلك المشهد لم يشهده توما، الملقّب بالتوأم. وفي اليوم التالي هرع أصدقاؤه يبحثون عنه، وهم ما زالوا متوثّبين اندفاعاً، من جرّاء خطاب يسوع. وقالوا له : لقد رأينا الربّ؛ إنّه هو حقّاً؛ وقد كلّمنا، وشاركنا الطعام مثل أيّ كائنٍ حيّ.

كان توما واحداً ممّن حفَر فيهم خزي الجلجلة اضطراباً عميق الغور. كان قد أعلن، ذات مرّة، أنّه متأهّب للموت مع معلّمه، ولكن، عند اقتراب الجند، فرّ، على غرار الآخرين، في بستان الزيتون. وقد غشت الظلمات التي امتدّت على مكان الجمجمة إيمانه الذي أظلم. فهو، رغم كلّ الإنذارات لم يتصوّر، قطّ، أنّ يسوع سيموت هذه الميتة. على قمّة المهانة، كان معلّمه قد استسلم في مثل سلبيّة نعجةٍ لا حول لها ولا طَوْل. وهذه الفكرة كانت توجعه أكثر من فقد من كان يحبّه. هذا التكذيب لكلّ آماله قد جرحه وكأنّه اكتشاف خداع، وكان، في نظره، مبرّراً حتّى لعار الهجران. توما، مثل كليوفاس وأَضرابه، كان مفرط الحساسيّة، انطلقت به خفقة جناح، لدى دعوة يسوع الأَخّاذة، عالياً جدّاً، إلى عالم لم يكن عالمه. لقد اجتاحه الإيمان خلسةً، مثل اندفاعٍ مُعْدٍ. ولكن ما إن أُخمد اللهب الذي كان يضرمه كلّ يوم –أو بدا له أنّه أُخمد – تحت مكيال البغض، حتّى انطفأت نفسه وتجمّدت، واستعادت طبيعتها

الأولى، تلك التي كانت تنشد، بواسطة الحواسّ، الأشياء المحسوسة، وترجو، من المادّة، تغيّرات مادّيّة، وتتوقّع، من المادّة وحدها، تأكيدات وتعزيات مادّيّة. عيناه كانتا ترفضان رؤية ما لم تلمسه يداه، ولذلك كان محكوماً عليهما بالاّ تشاهدا غير المرئيّ. فهذه النعمة هي وقفٌ على المؤمنين بإمكانيّتها. كان يرجو الملكوت، ولا سيّما عندما كانت أقوال يسوع وحضوره تفرض السماء على قلبه الأرضيّ، ولكنّ الملكوت الذي كان يرجوه لم يكن ملكوت أرواح صرف، تتطاير وسط سُحُب أثيريّة، بل ملكوت بشرٍ أحياء، ممتلئين دماً حارّاً، كفيلين بالأكل والشرب على موائد صلبة، ملكوت تحكمه شرائع عادلة، على أرضٍ أوفر جمالاً، باسم الله.

إثر فضيحة الجلجلة، لم يكن توما مستعدّاً للإيمان بالقيامة، تصديقاً لأقوال الآخرين. فقد خُدع بقسوة، مرّةً أولى، بحيث لم يكن مستعدّاً للوثوق برفاقه في الخديعة. ومن ثمّ أجاب من زفّوا إليه النبأ، وهم جذلون :

– إن لم أَرَ، في يديه، جراح المسامير، وإن لم أضع إصبعي في هذه الجراح، وإن لم أدسّ يدي في جنبه، فلن أومن أبداً.

لقد بدأ بقول: " إن لم أَرَ "، ولكنّه استدرك، في الحال، فالعيون ذاتها قد تخدع، وكثيرون هم الذين بهرتهم رؤى. وسعى فكره إلى التجربة المحسوسة، إلى البرهان القاسي، المريع: وضع الإصبع حيث كانت المسامير، ووضع اليد كلّها حيث طعنت الحربة؛ لقد سلك سلوك الأعمى الذي يخطئ أقلّ من المبصر، أحياناً.

لقد أنكر الإيمان، وهو رؤية النفس العليا؛ وأنكر النظر، وهو حسّ الجسد الأكثر إلهيّة، ولم يثق إلاّ باليد، بالجسد الذي يلمس جسداً. وهذا الإنكار المزدوج خلّفه في دجى الليل، في العمى المتعثّر، إلى أن أعاد إليه نورَ العينين والقلب، النور الذي صار بشراً، بتنازل حبّه اللامحدود.

غير أنّ جواب توما، هذا، قد جعل منه واحداً من أكثر البشر شهرةً، في جميع العصور. فمن شأن الله تخليد الذين يهينونه. إنّ جميع الريّابين الذين لا يساوي ثلاثة منهم فلساً، ومتحذلقي جميع المنابر وجميع الأكاديميّات، والأغبياء الفاترين المحشوّين أوهاماً وآراء مسبقة، ومبتدعي الفتاوى، والسفسطيّين، والكلبيّين، وأسراب قمْل العلم، والذين، في دار العلم، يفرغون مراحيضها، وكلّ المصابيح الخافتة، التي تغار من الشمس، كلّ جماعات البطّ التي تنكر على النسر تحليقة، كلّ هؤلاء قد اختاروا توما، التوأم، شفيعاً حارساً. إنّهم لا يعرفون عنه سوى أنّه لا يؤمن ما لم يلمس. وجوابه هذا يبدو لهم هيمالايا كلّ حكم بشريّ. وإن راق لآخرين الرؤية في العتمة، والإنصات في الصمت، والكلام في الوحدة، والحياة في الموت، فهذا يفوقهم، ويتخطّى قدرات رأسهم الصغير الموصد. الواقع الذي يدّعونه هو المجال الذي لن يبارحوه. وهم، في واقع الأمر، ينشدون الذهب الذي يعجز عن إشباع الجوع، والأرض

التي لن يحتلّوا منها سوى ثقب، والمجد، تلك الهمسة الزائلة في صمت الأبديّة، والجسد الـذي لن يكون سوى حمأة تعجّ بالدود، والاختراعات المدهشة المدوّية، التي، بعـد أن تسـتعبدهم، ستسرّع اكتشافهم المريع للموت. هذه هي "الوقائع" التي يتلذّذ بها المتعبّدون لتوما. ولكن، لـو خطر لهم، يوماً، أن يقرأوا ما حدث بعد هذا الجواب، لربّما شكّوا، هم أيضاً، بذاك الذي شـكّ بالقيامة.

ثمانية أيّام بعد ذلك، كان التلاميذ ملتئمين في البيت عينه، وتوما معهم. لقد أمل، فـي غضون تلك الأيّام، أن تُقيّض له، أيضاً، رؤية الناهض من الموت، وكان، أحياناً، يرتعد خشية من أن يُحرم هذه النعمة بسبب ما قاله. ولكن ها إنّ يسوع يظهر، بغتة، عند العتبة :

–السلام معكم.

و دخل باحثاً، بنظره، عن توما. لقد جاء من أجله، من أجله وحده، لأنّ ما يحمله لـه من حبّ هو أقوى من كلّ إهانة. ناداه باسمه، ودنا منه كي يراه، وجهاً لوجه :

–ضع هنا إصبعك، وانظر يديّ. ومدّ يدك وضعها على جنبي، ولا تكن غير مـؤمن، بل آمن.

لم يُطع توما، لأنّه لم يجرؤ على وضع إصبعه في الثقب، ويده في الجرح. واكتفـى بالقول : " ربّي، وإلهي ".

بهذه الكلمات التي تبدو مجرّد تحيّة، اعترف توما بهزيمته، وهي أجمـل مـن كـلّ انتصار. ومنذئذٍ غدا، بكلّيّته، للمسيح. حتّئذٍ، كان يُجلّه، بصفته الكمال البشريّ، ولكنّـه الآن، اعترف به إلهاً، بل "إلهه".

و حينئذٍ أجابه يسوع، لكي يكون له شكّه، دائماً، مصدر وجع:

–لأنّك رأيت، آمنت، طوبى لمن لم يروا، وآمنوا!

و ها هي ذي تُعلن التطويبة الأخيرة، الكبرى : طوبى لمن لم يروا، وآمنوا. فوحـدها الحقائق التي تنطوي على قيمةٍ مطلقة، رغم نبّاشي الجِيَف، هي التي تستعصي على الرؤيـة الجسديّة، وتفلت من جسّ الأيدي البشريّة. هذه الحقائق تأتي من العُلى، وتنفذ إلى النفس، بـلا واسطة. فمن كانت نفسه موصدة من كلّ جانب، لا يتلقّاها، ولن يراها إلاّ عندما يصبح جسده، مع بوّابيه الخمسة المرتابين، خرقةً بالية ملقاة على سرير، ريثما تتعفّن في أحشاء الأرض.

إنّ توما قدّيس، ولكنّه لم ينعم بهذه التطويبة. وتروي أسطورة قديمة أنّ يـده ظلّـت، حتّى مماته، ملطّخة بالدم. هذه الأسطورة صادقة بكلّ حقيقة رمزها المريع، إن نحن رأينا في الجحود ضرباً من جريمة قتل. إنّ العالم يعجّ بمثل هؤلاء القتلة، الذين بدأوا فقتلوا نفسهم.

الناهض من الموت المنبوذ

الأوّلون الذين اتّبعوا يسوع في حياته الأولى، تثبّتوا، أخيراً، من حياته الثانية الأبديّة. لقد رقد، رقاد جثمان إنسان، في حنوط نيقودمس، في كفن يوسف؛ وبعد يومين استيقظ، إلهاً. ولكن أيَّ شكٍّ عنيد كان عليه أن يقهر قبل إثبات واقع عودته الذي لا يُدحض.

إلاّ أنّ أعداء يسوع، كي يُزيحوا من دربهم هذا الحجر الضخم، الحائل دون إنكارات أُخرى، اتّهموا هؤلاء التلاميذ أنفسهم، المذهولين المرتبكين، بابتداعهم، طوعاً أو كُرْهاً، أسطورة القيامة هذه.

حسب ادّعاء قيافا وأترابه، خطف التلاميذ الجثمان، ليلاً، ثمّ أشاعوا نبأ القبر الخاوي، لكي يدفعوا صوفيّين على جانبٍ كبير من السذاجة إلى الإيمان بقيامة يسوع، ولكي يتيحوا لناصبي الشراك مواصلة مهمّتهم الخبيثة، باسم الدجّال الميت. ويروي متّى أنّ اليهود اشتروا، بأغلى ثمن، شهوداً يؤكّدون أنّهم شاهدوا بطرس والمتواطئين معه، يحملون على أكتافهم جثماناً كبيراً ملفوفاً بأقمشة بيضاء. لقد ابتغى اليهود هدفاً، فاختلقوا، من أجله، الوسيلة.

إنّ الحديثين، بفضل ما بقي لديهم من احترام لمن جعلوا دمهم ملاطاً للكنيسة التي لن تقهر، أو مع قناعاتهم بوهن فكر الشهداء الأوّلين، أحجموا عن ادّعاء الخديعة. فلا بطرس ولا رفاقه كانوا من القماش الذي يُفصَّل منه ممثّلون هزليّون، وبهلوانيّون. وإلاّ للزم إسباغ الكثير من الخبث على الجهلة المفتونين، الذين يبدون مخدوعين أكثر منهم خادعين، والكفيلين بأن يكونوا حمقى، ضحايا رؤاهم الخاصّة أو خداع الآخرين، لا أن يكونوا، هم أنفسهم، دجّالين.

و يؤكّد الزاهدون في الأسرار الوقورون، أنّ أملاً شديداً كان يراود التلاميذ في رؤية يسوع ناهضاً من الموت، حسب وعده. وهذه القيامة كانت من الضرورة الملحّة، في سبيل موازنة خزي الصليب، بحيث انزلقوا إلى الإعلان عنها، واعتبارها وشيكة، بل كادوا يُكرهون على ذلك. وحينئذٍ، في جوٍّ الانتظار الخرافيّ هذا، كانت رؤيا امرأةٍ هيستيريّة، أو حلم رجل هاذٍ كافيَيْن لانتشار خبر الظهورات، وسط جماعة الأحياء الصغيرة المفجوعة. بعضهم لم يستطيعوا تخيّل أن يكون المعلّم خدعهم، فسارعوا إلى تصديق من ادّعوا أنّهم رأوه منذ موته، وبتكرارهم إعلان نزوات مخيّلاتهم المضطرمة، انتهوا إلى الإيمان بها إيماناً حادّاً، وبفرض هذا الإيمان على الأكثر سذاجة. فوحده هذا الإعلان عن ألوهة المسيح، اللاحق لموته، كان كفيلاً بالحفاظ على وحدة من تبعوه، وبتأسيس التجمّع الدائم الأوّل المؤسّس للكنيسة الشاملة.

غير أنّ هؤلاء الذين يبتغون من وراء تُهَم الحمق والغشّ، تقويض قناعات الجيل المسيحيّ الأوّل، ينسون أموراً كثيرة، هي على جانبٍ كبير من الخطورة.

ينسون، في المقام الأوّل، شهادة بولس. فشاول الفرّيسيّ، الذي تثقّف في مدرسة غمالئيل، استطاع أن يشهد – عن بعدٍ، وبصفته عدوّاً – موت المسيح، ومن المحقّق أنّه اطّلع، على افتراضات معلّميه الأوّلين، حول القيامة المزعومة. ولكنّ بولس، الذي تلقّى الإنجيل من فم سمعان ويعقوب الملقّب بأخي الربّ، بولس المعروف في جميع كنائس اليهود والوثنيّين، كتب في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين: "مات المسيح من أجل خطايانا، ودُفِن، ونهض في اليوم الثالث، وظهر لبطرس، ثمّ للاثني عشر، ثمّ ظهر لأكثر من خمس مئة من الإخوة المجتمعين، لا يزال معظمهم أحياء، وبعضهم ماتوا ". وهذه الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين معترفٌ بأصالتها حتّى من قِبَل أكثر الباحثين عن التزوير حنقاً وارتياباً. ولا ريب أنّها كُتبت قبل ربيع عام 58، وهي، إذن، أقدم من أقدم إنجيل. كثيرون ممّن عرفوا يسوع حيّاً –وعددهم ليس محصوراً في واحدٍ أو أثنين– كانوا ما زالوا على قيد الحياة، حينذاك، وكان بوسعهم تكذيب الرسول ودحضه بيُسر. وكانت كورنثس على أبواب آسيا، يقطنها العديد من الآسيويّين الذين تربطهم علاقات دائمة باليهوديّة، وكانت رسائل بولس، رسائل عامّة، تتلى في المجالس الجماعيّة، وتُنسخ وتُنفَذ إلى الكنائس الأُخرى. ولا ريب أنّ شهادة بولس العلنيّة، الصريحة، قد وصلت إلى أورشليم، حيث كان بوسع أعداء يسوع، وكثيرون منهم ما برحوا أحياء، آنذاك، معارضتها بشهادات مناقضة. ولو علم بولس بأنّ ثمّة من يستطيع دحض شهادته، لما تجرّأ، قطّ، على كتابة هذه الكلمات. وبما أنّه أمكن، بعد وقتٍ وجيزٍ من الحدَث، تأكيد معجزةٍ تُناقض، بهذا القدر، المعتقدات الشائعة، ومصالح الأعداء اليقظين، تأكيداً علنيّاً، ففي ذلك الدليل على أنّ القيامة لم تكن حلم بعض المهووسين، بل يقيناً يتعذّر نفيه، ويسهل إثباته. خارج رسالة بولس، ليس لدينا أيّ ذكر عن ظهور يسوع لخمس مئة أخٍ، ولكن، لا يسعنا، لحظةً، افتراض أنّ بولس، وهو واحدة من أعظم النفوس المسيحيّة الأولى ومن أطهرها، قد استنطبه من عنده، وهو الذي طالما اضطهد من آمنوا بالقيامة. وإنّه لمن المرجّح، ترجيحاً فائقاً، أنّ هذا الظهور للخمس مئة قد جرى في الجليل، على الجبل الذي تكلّم عنه متّى، وأنّ بولس عرف بعضاً ممّن كانوا شاهدي عيان عليه.

و ليس هذا كلّ شيء، فالإنجيليّون يوردون، في شيءٍ من الاضطراب، ولكن في كثيرٍ من البراءة، ذكريات رفاق يسوع الأوائل، ويعترفون، ربّما عن غير قصد، أنّ التلاميذ لم يكونوا يتوقّعون القيامة، بل، على نقيض ذلك، عانوا مشقّةً في تصديقها، وأنّهم ظلّوا يشكّون طويلاً، حتّى في حضور الناهض من الموت. فعندما جرت النسوة، صباح يوم الأحد، لإنباء التلاميذ بأنّ القبر خاوٍ، ويسوع حيّ، اتّهمهنّ التلاميذ بالجنون. وعندما ظهر لهم، فيما بعد، في الجليل، "رأوا وسجدوا، ولكنّ بعضهم ارتابوا " حسب قول الإنجيليّ متّى. وفي المساء، في

البيت، شكّوا في عيونهم، وظلّوا مرتابين، إلى أن شاهدوه يأكل. وتوما ظلّ يشكّ إلى أن انتصب جسد يسوع في مواجهة جسده.

كان توقّعهم رؤيته حيّاً، من الوهن، بحيث كان تأثير ظهوره الأوّل هو الرعب : "ظنّوا أنّه روح ". لم يكن من السهل خداعهم بقدر ما صوّرهم خصومهم. وكانوا من البعد عن فكرة عودته إلى ما بين الأحياء، بحيث ما كادوا يرونه، حتّى ظنّوا أنّه كائنٌ آخر. وظنّت مريم المجدليّة أنّه البستانيّ. كليوفاس ورفيقه لم يعرفاه على طريق عمّاوس. سمعان والآخرون، عندما جاء إلى ضفّة البحيرة " لم يعرفوا أنّه يسوع ". فلوهم كانوا ينتظرونه حقّاً، بفكرٍ متيقّظ، ورغبةٍ ملتهبة، أكان يعتريهم مثل هذا الهلع؟ الانطباع الذي يبرز من مطالعة الإنجيل هو أنّ أصدقاء المسيح، كانوا بعيدين عن اختراع عودته، لا بل إنّهم تقبّلوها، تحت ضغط وضوحٍ منتصر، وعقب الكثير من التردّد. وبالإجمال إنّ ما حدث يناقض تماماً محاولات من ابتغوا اتّهام التلاميذ بالسذاجة والخداع.

و لكن لمَ هذه الريبة كلّها ؟ ولمَ لم تفلح إنذارات يسوع في اقتلاع النفور اليهوديّ القديم من فكرة الخلود، من تلك النفوس البطيئة المتمرّدة ؟ إنّ الاعتقاد بقيامة الأموات ظلّ، طيلة قرون، غريباً عن ذهن العبريّين الزمنيّ. وإنّنا نجد آثاراً لهذا الاعتقاد لدى قلّة من الأنبياء، أمثال يوشع ودانيال، ولكنّه لا يتجلّى، حقّاً، بوضوحٍ، إلاّ في مقطع من تاريخ المكّابيّين. وفي زمن المسيح، كانت لدى الشعب فكرة مبهمة عنه، ولكأنّه معجزة قصيّة تتدرج في تدابير نهاية العالم، ولكنّها لن تتحقّق قبل يوم الانقلاب الأكبر. الصدّوقيّون كانوا ينفون القيامة نفياً قاطعاً، والفرّيسيّون كانوا يسلّمون بها، لا على أنّها امتياز فرديّ، بل بصفتها مكافأةً بعيدةً وجماعيّةً لكلّ الأبرار. وعندما قال أنتيباس، المشبع الذهن بالخرافات، عن يسوع، أنّه يوحنّا الناهض من الموت، فهو كان يعني، عبر صورة ديناميكيّة، أنّ النبيّ الجديد كان يوحنّا آخر.

إنّ النفور من التسليم بمثل هذه المخالفة المذهلة لشرائع الموت كان من الرسوخ لدى اليهود بحيث أنّ تلاميذ الناهض من الموت أنفسهم، ومع أنّ معلّمهم كان قد أعلن عن قيامته، لم يكونوا مستعدّين للاعتراف بها، إلاّ في أعقاب امتحانات، وامتحانات معاكسة، مع أنّهم كانوا قد شاهدوا ابن أرملة نائين، ينهض لدى سماعه كلمة المسيح القديرة، وكذلك ابنة يئير، وأخا مرتا ومريم. ولكن كان مألوف الاثني عشر وقدرهم أن يسيئوا الفهم، وينسوا. كانوا مشبعين بالأفكار الجسديّة بحيث لا يقوون على ثني ذهنهم نحو الإيمان بهذا الانتقام المُسبق من الموت. ولكن عندما توطّدت قناعتهم، كان يقينهم من الثبات والمنعة بحيث نبت، من بذار أولئك الشهود الأوائل المكرهين، حصادٌ لا يحصى من المنبعثين إلى حياة الإيمان، ولم تفلح القرون في حصده.

لا نميمة اليهود، ولا تُهم شهود الزور، ولا ارتياب التلاميذ، ولا شراك أعداءٍ عديمي الرحمة، ولا سفسطات أنغال توما، ولا نزوات الهراطقة، ولا مساخر الأذهان المدّعية التي لها مصلحةٌ مباشرةٌ في موت العدوّ النهائيّ، ولا مواربات المنظّرين وتردّدهم، ولا هجمات النقد الرفيع والدنيء، استطاعت أن تجتثّ من قلوب ملايين البشر هذا اليقين بأنّ الجسد الذي فُكّ عن الصليب ظهر في اليوم الثالث، لكي لا يعود إلى الموت أبداً. الشعب الذي اختاره المسيح، هو أسلمه إلى الموت بأمل الانعتاق منه، ولكنّ الموت رفضه مثلما رفضه اليهود، ولم تُسَوِّ البشريّة، بعدُ، حسابها مع المصلوب الذي خرج من اللحد لكي يُظهر قلبه الذي عرّته، إلى الأبد، الحربة الرومانيّة.

إنّ صغار النفوس الذين يأبون الإيمان بحياته الأولى، وحياته الثانية، وحياته الأبديّة، ينسلخون عن الحياة الحقّة، حياة هي انتماء سخيّ، واستسلام حبّ، ورجاء في اللامرئيّ، ويقين في غير المنظور. إنّ هؤلاء الأموات في مظهر الأحياء الجديرين بالرثاء، يرفضونه، مثلما رفضه الموت. وأولئك الذين يجرّون على الأرض الصبور عبء جيفتهم التي ما برحت ساخنة تتنفّس، يهزأون من قيامته. وهؤلاء الأموات الذين يتنكّبون عن الحياة سيُحرمون من الولادة الثانية، ولكنّهم لن يحرموا، في اليوم الأخير، القيامة المريعة، التي لا تُنقض ولا تُرَدّ.

العودة إلى البحر

اختُتمت المأساة بالألَم الأقصى والفرح الأقصى. وعاد كلٌّ إلى المكان المُعدّ له. عاد الابن إلى الآب، والمَلِك إلى الملكوت، ورئيس الكهنة إلى حمّامات الدم، وجوقة المرنّمين إلى الصمت، والصيّادون إلى شباكهم.

تلك الشباك التي تعفّنت في المياه، وتمزّقت على جؤجؤ السفينة، وثُقبت تحت وِقْر أعباء غير مألوفة؛ التي طالما أُصلحت، ورُتقت، وأُعيد رتقها ونسجها، بحيث أنّ صيّادي البشر الأوّلين تركوها، بلا أسف، وراءهم، على ضفّة كفرناحوم، جاء آخرون فأعادوا إصلاحها، تحدوهم حكمة من لا يهجرون بيوتهم بحجّة أنّ الأحلام قصيرة، والجوع يدوم ما دامت الحياة. وكانت زوجة سمعان، ووالد يوحنّا ويعقوب، وأخو توما قد احتفظوا بالشباك، فقد تستعيد هذه الأدوات فائدتها، فضلاً عن أنّها تذكّر بالمسافرين، ولكأنّ صوتاً كان يردّد أنّهم عائدون. إنّ الملكوت جميل ولكنّه قضيّة مستقبل؛ أمّا البحيرة فهي جميلة، اليوم، وتزخر بالأسماك. والقداسة مقدّسة، ولكنّ الإنسان لا يعيش بالروح، والجائع يؤثر سمكة فوق مائدته، على ملكوتٍ مستقبليّ.

وتغلّبت، مؤقّتاً، حكمة الذين لا يحبّون الارتحال، المتجذّرين في البيت الذي رأوا فيه النور، تجذّر الطحلب في الصخر. فقد عاد صيّادو البشر، واستعادوا شباكهم العتيقة. كانوا قد تلقّوا أمر العودة من ذاك نفسه الذي كان قد اجتذبهم بعيداً، كي يجعل منهم شهود آلامه ومجده. لم ينسوه، بل كانوا يتحدّثون عنه باطّراد، فيما بينهم، وإلى من كانوا راغبين في السماع. ولكنّ العائد كان قد قال : ستجدونني في الجليل. وهم غادروا أورشليم، تلك الغانية التي يسيطر عليها عشّاق قتلة، وقفلوا عائدين إلى البلد العذب حيث كان قد استولى عليهم، بقوّة الحبّ، لصّ النفوس. كم كانت جميلةً تلك البيوت التي أبلتها الرطوبة، والمزدانة ببياضاتها وكأنّها أعلام بيضاء، والأعشاب الجديدة النابتة في أسفل الجدران، والموائد التي لمّعتها أيدي الشيوخ، والتنّور الذي كان، كلّ أُسبوع، يطلق من فمه الشرر؛ والقرية التي تكاد تكون بحريّة، حيث تمرح عصابات صبيان صغار قاتمي البشرة، وعراة، وشمسها التي تهبط عموديّاً على ساحة السوق، والأكياس والسلال القابعة في ظلّ العنابر، ورائحة السمك التي ينشرها النسيم، مع كلّ فجر. ولكنّ البحيرة كانت تتميّز بالجمال، بمياهها الفيروزجيّة التي تتوشّى باللون الزمرّديّ في الطقس الجميل، وبالصفار المشوب بالقرميديّ في الأصائل الغائمة؛ وتصبح حوضاً لبنيّ اللون، مجعّداً وممزوجاً بالياقوت ساعة الشفَق؛ ظلاًّ مترجرجاً موشّى بالبياض في الليالي المتلألئة بالنجوم؛ وظلاًّ فضّيّاً قلقاً في الليالي المقمرة. على هذه البحيرة الحانية، اكتشفت عيونهم، للمرَّة الأولى، سنى الهواء والماء، وهما أنبل من الأرض الثقيلة، وأكثر إخاءً من النار. ولطالما كانت لهم السفينة، بأشرعتها على شكل مربّع منحرف، ومقاعدها المهترئة، ومقبض دفّتها القرمزيّ، أغلى من البيت الآخر، الذي ينتظرهم ثابتاً، أبيض، على الشاطئ. ساعات السأم والرجاء التي لا تنتهي، التي يقضونها في مراقبة انعكاسات الماء، وحركات الشباك، والغيوم، كانت قد ملأت القسط الأكبر من حياتهم البسيطة الفقيرة.

إلى أن استدعاهم معلّمٌ أشدّ فقراً وقوّة، للاضطلاع بعملٍ محفوفٍ بالمخاطر، يفوق الطبيعة. و قد دأب أولئك المساكين، الذين انتُزعوا من عالمهم المألوف، على الاحتراق في ذلك اللهب؛ ولكنّ حياتهم الجديدة عصرتهم، عصر العناقيد، في الدنّ، لكي تفجّر، من قلوبهم، دموع الرأفة والحبّ؛ ولكي يذرفوا دموعاً صادقة كان لا بدّ من انتصاب الصليب على مكان الجمجمة. ولكي يُدفأ رجاؤهم من جديد كان لا بدّ من أن يعود المصلوب كي يتناول الخبز معهم.

عادوا، لا يحملون سوى ذكرياتهم المسكينة، التي أثبتت أنّها كافية لتغيير العالم، وقد شاؤوا، قبل الانصراف إلى المهمّة الموكلة إليهم، رؤية أحبّتهم من جديد، في الأمكنة التي كانت غالية عليهم. عادوا، مختلفين كلّ الاختلاف عمّا كانوا سابقاً، أكثر قلقاً وحزناً، كأنّهم غرباء، وكأنّهم شاهدوا، بأعينٍ أكثر طهراً، أرضاً جديدة متّحدة بالسماء اتّحاداً لا فكاك عنه.

ولكنّ الشباك كانت هناك، معلّقة على الجدران؛ والسفن الراسية كانت تتأرجح على وقع ارتداد الأمواج. وارتدّ الصيّادون، عن حنين أو عن حاجة، صيّادي البحيرة.

سبعةٌ من تلاميذ المسيح التقوا، ذات مساء، في مرفأ كفرناحوم : سمعان المدعوّ بطرس، وتوما التوأم، ونثنائيل الذي من قانا، ويعقوب ويوحنّا، واثنان آخران. وقال بطرس:

-إنّي ماضٍ للصيد.

و ردّ أصدقاؤه :

- و نحن ماضون معك.

و استقلّوا سفينة وأقلعوا، ولكنّهم، في تلك الليلة، لم يصطادوا شيئاً. وعند مطلع النهار، يمّموا شطر الشاطئ، نادمين على تلك الليلة التي أنفقوها سُدًى. وعندما دنوا من الشاطئ، رأوا، من خلال بياض الفجر المبهم، رجلاً بدا وكأنّه ينتظرهم. "و لكنّ التلاميذ لم يعرفوا أنّه يسوع".

و سألهم الرجل المجهول :

-أيّها الشباب، أليس لديكم طعام ؟

فأجابوا بالنفي. فقال لهم :

-ألقوا الشباك على يمين السفينة فتجدوا.

وأذعنوا، وسرعان ما امتلأت الشبكة حتّى شقّ عليهم جرّها. فارتعدوا، لأنّهم تبيّنوا من هو. وقال يوحنّا لبطرس :

-إنّه الربّ.

و من غير أن يتفوّه بكلمة، سارع بطرس إلى ارتداء ثوبه، لأنّه كان عارياً، وارتمى في الماء كي يصل إليه قبل الآخرين. وكانت السفينة على مسافة مئتي ذراع من الشاطئ. وسرعان ما أحاط السبعة بالربّ، ولم يستوضحه أحد عن هويّته، لأنّهم تعرّفوه.

على الحصباء شاهدوا جمراً مضطرماً وفوقه سمك وخبز. وقال لهم يسوع : هلمّوا كلوا. وللمرّة الأخيرة، كسر الخبز ووزّعه، وكذلك اقتسم السمك. وعندما فرغوا من الطعام التفت نحو سمعان، الذي كان قد التزم الصمت، ولكنّه، في مواجهة تلك النظرة، شحب لونه :

-يا سمعان بن يونا، هل تحبّني أكثر من هؤلاء ؟

لدى سماعه هذا السؤال المفعم حناناً، والذي، مع ذلك، كان يضنيه، انتاب الجاحدَ شعورٌ بأنّه محمول إلى مكانٍ آخر، قرب موقدٍ آخر، وذكر ما سأله آخرون، وما أجاب به، وذكر نظرة الماضي إلى حتفه، والدموع التي ذرّفها في تلك الليلة. ولم يجرؤ على الإفصاح بالجواب الذي كان يرغب في الإدلاء به. فمن شأن "نَعَم" في فمه، أن تبدو قحةً وتبجّحاً؛ في حين أنّ قول "كلاّ" سيكون شائناً وكاذباً.

–أنت تعلم، يا ربّ، أنّني أُحبّك.

لست أنا من يعترف بذلك، بل أنت من يعلم، أنت من يعلم كلّ شيء، وينفذ إلى أكثر القلوب انغلاقاً. "أُحبّك"، ولكن، أمام الآخرين الذين يعرفون، كيف أجرؤ أن أُضيف: "أكثر من الجميع"؟ فقال له يسوع: "إرعَ خرافي".

و للمرَّة الثانية سأله :

–يا سمعان بن يونا، أتحبّني حقّاً ؟

و لم يتوفّق بطرس، في اضطرابه، سوى إلى هذا الجواب :

–يا ربّ، أنت تعلم أنّني أُحبّك.

علامَ تعذّبني ؟ ألا تعلم، من غير أن أُصرّح بذلك، أنّني أُحبّك كما لم أُحببْك، قطّ، من قبل، وانّني متأهّب لبذل حياتي كي لا أُنكر حبّك ؟

حينئذٍ قال يسوع :" إرعَ خرافي ".

و للمرّة الثالثة سأله: "يا سمعان بن يونا، أتحبّني حقّاً؟" ولكأنّه يبتغي أن يمحو الإنكارات الثلاثة بوعودٍ جديدةٍ ثلاثة. غير أنّ بطرس الذي لم يعد يُطيق هذا العذاب، كرّر، وهو يكاد يبكي:

– و لكنّك، يا ربّ، تعلم كلّ شيء، وتعلم أنّني أُحبّك.

انتهى الامتحان، وقال يسوع مجدّداً :

– "إرعَ نعاجي. الحقّ الحقّ أقول لك إنّك، إذ كنت شابّاً، كنت تمنطق نفسك، وتذهب حيث تشاء، ولكنّك، متى شخت، ستمدُّ يديك، وآخر يمنطقك، ويذهب بك إلى حيث لا تشاء"، إلى الموت، إلى صليبٍ شبيهٍ بذاك الذي سمّروني عليه. فاعلم، إذن، ما أقصد بقولي "تحبّني ". حبّي والموت صنوان. لأنّني أحببتكم قتلوني، وبسبب حبّكم لي سيقتلونكم. ففكّر، يا بطرس، بالعقد الذي تبرمه معي، وبالقدَر المُقيّض لك. بعد الآن لن أكون إلى جانبك لكي أُنهضك من كبوتك، ولكي أعيد لك سلام الصفح، بعد سقطة الجُبْن. بعد الآن، كلّ تخاذل، وكلّ خيانة سيكونان ألف مرَّة أخطر. فأنت مسؤولٌ عن كلّ القطيع الذي أوكل إليك حراسته، وفي نهاية كلّ جهودك المضنية، ستُكافأ، مثلي، بعارضتين خشبيّتين وأربعة مسامير، وبالحياة الأبديّة. فاختر : هذه هي المرَّة الأخيرة التي يُتاح لك، فيها، الاختيار، وهو خيارٌ أبديّ، خيارٌ لا نكوص عنه، ستؤدّي لي عنه حساباً مثلما يؤدّي العبد الحساب لسيّده. أمّا الآن، وقد علمت، ووطّنت عزمك، فتعالَ معي :

اتبعني !

و أطاع بطرس، ولكن حانت منه التفاتة فرأى في إثره يوحنّا، فسأل يسوع :

– و ماذا سيكون من أمر هذا، يا ربّ؟

– لو شئت أن يبقى إلى أن أجيء، فماذا يعنيك ؟ أمّا أنت فاتبعني "

لسمعان الأوّلويّة والعذاب؛ وليوحنّا الخلود والانتظار. سَمِيُّ سابق المجيء الأوّل، سيكون المبشّر بالمجيء الثاني. مؤرّخ نهاية العالم سيتعرّض للاضطهاد، والسجن، والوحدة، ولكنّه سيحيا أطول من الآخرين، وسيستطيع أن يرى بعينيه تفكّك الحجار عن الحجار على تلّة أورشليم الملعونة. وفي صحرائه المدوّية سيرى، وسط النور الساطع، وليل البحر الجمّ، العودة الأخيرة.

اتّبع بطرس المسيح، وصُلب من أجل المسيح، وترك خلفه سلالةً أبديّةً من نوّاب المسيح. ولكنّ يوحنّا لم يعرف إلى راحة الموت سبيلاً. إنّه يشاركنا انتظارنا، معاصراً لكلّ الأجيال، صامتاً كالحبّ، خالداً كالرجاء.

الغمامة

عادوا، ثانيةً، إلى أورشليم، تاركين، وللأبد، شباكهم : إنّهم حجّاج سفرٍ، تتخلّله مراحل دامية.

في المكان عينه الذي انحدر إليه يسوع، محاقاً بمجد العالم، تحت ظلال الأفنان المزهرة، عليه أن يصعد، مجدّداً، إلى السماء. سحابة أربعين يوماً، منذ يوم القيامة – بقدر الأيّام التي أنفقها في الصحراء، إثر تمثيل رمز الموت في الأردنّ – سيقيم بين البشر. مع أنّ جسده هو جسده القديم، كانت حياته تبدو، لشدّة ما كانت فوق الأرض وفوق البشر، التسامي الأقصى، في عالم الأجساد والمظاهر. لقد بات جاهزاً للعودة، روحاً صرفاً، إلى روح الآب، الذي انبثق منه لثلاثين سنة خلت، كي يُشرع للأرض المظلمة، طاقة نور سناء السماوات.

ما عاد يشارك التلاميذ حياتهم، مثلما كان يفعل في السابق، لأنّه انسلخ عن حياة البشر، ولكنّه ظهر لهم غير مرَّة، لكي يؤكّد لهم وعوده القصوى، وربّما لكي يوكل إلى أكثرهم جدارةً أسراراً لم تكتب قطّ، ولكنّها تُنوقلت طيلة عهد الرسل، وفيما بعد...

رأوه للمرَّة الأخيرة على جبل الزيتون، حيث، قبل موته، كان قد أنذر بدمار المدينة وهيكلها، وأعلن عن علامات عودته، وحيث كان إبليس، قبل أن يولّي الإدبار مهزوماً، قد تركه غارقاً في العرق والدم. كانت تلك واحدةً من أواخر أمسيات أيّار، وكانت الغيوم، مثل أرخبيلٍ ذهبيّ يسبح في ذهب الغروب، تتصاعد من الأرض إلى السماء، تصاعد عطر تقدمة.

ومن المدينة البعيدة، التي ما برحت سليمة، كان يتعالى غبارٌ دخانيّ، تبرز من خلاله واجهاتٌ وبروج، على تلّة الهيكل البيضاء.

و كرّر التلاميذ السؤال الذي وجّهوه إلى يسوع، ليلة النبوءتين. ولسان حالهم يقول : الآن وقد عاد، ما عسانا ننتظر، بعدُ؟ أما حان الأوان، يا ربّ، كي تعيد الملك لإسرائيل ؟

كانوا، يريدون التحدّث عن ملكوت الله، الذي، في فكرهم، وفي فكر الأنبياء، لا ينفصل عن مملكة إسرائيل، إذ من اليهوديّة يستهلّ الله ترميم الأرض.

–ليس لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة؛ فقد احتفظ بها اللّه في سلطته؛ ولكنّكم ستتلقّون القوّة عندما سيحلّ الروح عليكم، وستشهدون لي في أورشليم، وفي كلّ اليهوديّة والسامرة، وحتّى أقاصي العالم.

تكلّم يسوع هكذا، ورفع يديه ليباركهم، وفيما كان يرمقهم، ارتفع عن الأرض، وعلى نحو ما حدث في يوم التجلّي، غطّته غمامة متألّقة، وأخفته عن أبصارهم. ولكنّهم لم يستطيعوا إشاحة أبصارهم عن العلاء، وظلّوا يحدّقون في السماء، وقد جمّدهم الذهول، عندما جاءهم رجلان في لباسٍ أبيض، وقالا :

– أيّها الجليليّون، علامَ تحدّقون في السماء. إنّ يسوع الذي خُطِف من بينكم إلى السماء، سيعود على نحو ما شاهدتموه يمضي إلى السماء.

و بعد أن سبّحوا صامتين، عادوا إلى أورشليم، ينيرهم فرحٌ كئيب، وهم يُعملون الفكر في اليوم الجديد : اليوم الأوّل من اضطلاعهم بمهمّةٍ ما انفكّت، بعد ألفي عام، غير منجزة.

لقد باتوا، منذئذٍ، وحيدين في مواجهة عالمٍ معادٍ، لا يحصى لأفراده عدد. ولكنّ السماء لم تعد منفصلة عن الأرض كما كانت قبل مجيء المسيح. وسُلّم يعقوب الرمزيّ، لم يعد حلم شخصٍ وحيد، بل هو مثبتٌ على الأرض التي يدوسونها، وثمّة، فوقُ، شفيعٌ لا ينسى من كانوا، يوماً، إخوته. " سأبقى معكم حتّى منتهى الدهر " : ذلك كان أحد وعوده الأخيرة. لقد صعد إلى السماء، ولكنّ السماء ليست، فقط، تلك القبّة الخاوية، حيث تظهر وتغيب غيوم العواصف، سريعةً، وضاجّةً، مثل الأمبراطوريّات، وحيث تتوقّد النجوم، في صمت، مثل نفوس القدّيسين. إنّ ابن الإنسان ما برح وسطنا، في العالم الذي شاء تحريره، منصتاً إلى أقوالنا عندما هي تنبع، حقّاً، من أعماق نفسنا، ومنصتاً إلى دموعنا، التي، قبل أن تكون ماءً مالحاً ينهمر من مآقينا، كانت دم قلبنا. إنّه ضيفٌ طيّب، غير مرئيّ، لن يتخلّى عنّا أبداً، إذ غدت الأرض، بمشيئته، تمهيداً لملكوت السماوات، وهي، منذ الآن، جزءٌ من السماء. الأرض القاسية، مرضعتنا، تلك الكرة التي ليست أكثر من نقطة في اللامحدود، ولكنّها تنطوي على الرجاء في اللانهائيّ، قد استعادها المسيح، ليجعل منها ملكه الأبديّ. وهو، اليوم، مرتبطٌ بنا، بقدر ما كان مرتبطاً يوم كان يأكل خبز ريفنا. فما من وعدٍ إلهيّ يمحى. وقطرات غمامة أيّار

التي أخفته عنّا، لم تتبخّر بعد، ونحن، كلّ يوم، نرفع أبصارنا الكليلة، نحو تلك السماء عينها التي ارتقى إليها، ومن حيث سينحدر في تألّق مجده المهيب.

صلاة إلى المسيح

إنّك ما زلت، كلّ يوم، بيننا، وستبقى معنا إلى الأبد.

إنّك تحيا بين ظهرانينا، على مقربةٍ منّا، على أرضٍ هي أرضك وأرضنا، على هذه الأرض التي استقبلتك طفلاً بين الأطفال، وخاضعاً للحكم، وسط لصوص. إنّك تحيا مع الأحياء، على أرض الأحياء الذين أحببتهم، وما زلت تحبّهم. إنّك تحيا حياةً غير بشريّة على أرض البشر، ربّما غير مرئيّ ممّن يبحثون عنك، وربّما في مظهر فقيرٍ يبتاع خبزه، ولا يُلقي أحدٌ عليه نظرة. ولكن، ها قد حان الوقت الذي يتعيّن عليك، فيه، أن تتجلّى، من جديد، لجميعنا، وأن تعطي هذا الجيل علامةً حاسمة، لا تُدحَض. إنّك ترى، يا يسوع، حاجتنا، وترى كم هي جسيمة؛ ولا يسعك إلاّ أن تدرك كم حاجتنا ملحّة لا تحتمل الإرجاء، وكم مضنية هي وحقيقيّة: مجاعتنا، وفاقتنا، وقنوطنا. وتعلم أنّنا لم نعد نقوى على انتظار تدخّلك، وعودتك.

فليكن، ولو لقاءً وجيزاً، مجيئاً مباغتاً تليه عودةٌ مباغتة، ظهوراً واحداً، ظهوراً وغياباً، كلمةً واحدةً لدى وصولك، وكلمةً واحدةً عند ذهابك، علامةً واحدةً، إشعاراً وحيداً، برقاً في السماء، شقّاً لباب السماء؛ ضوءاً في الليل، سنًى في العتمة، ساعةً واحدةً من ساعات أبديّتك، لفظةً وحيدةً من صمتك.

إنّنا في حاجةٍ إليك، إليك وحدك، لا لأيّ سواك. أنت وحدك، لأنّك تحبّنا، تستطيع أن تشعر نحونا، نحن المتألّمين، بالرأفة التي يأنسها كلٌّ منّا تجاه ذاته. أنت، وحدك، تستطيع أن تشعر بشدّة حاجتنا إليك، حاجة جمّة، في هذا العالم، في هذه الساعة من العالم. لا أحد سواك،لا من الأحياء، لا أحد ممّن يرقدون في حمأة المجد، يستطيع أن يمنحنا الخير المنقذ، نحن المحتاجين، نحن الغارقين في إملاقٍ مريع، في أكثر ضروب الفاقة هولاً : فاقة النفس.

الجميع يحتاجون إليك، حتّى الذين يجهلونك، والذين يجهلون هم أكثر حاجةً ممّن يعرفون. يظنّ الجائع أنّه ينشد خبزاً، وهو جائعٌ إليك. ويخيّل إلى الظمآن أنّه يبتغي ماءً، وهو عطشٌ إليك؛ ويتوهّم العليل أنّه يرغب في الصحّة، في حين أنّ علّته هي غيابه عنك. كلّ من ينشد الجمال، في هذا العالم، ينشدك أنت، وهو لا يدري، فأنت الجمال الكلّيّ الكامل. وكلّ من يستقري، بفكره، الحقّ، يقتفي خطاك، فأنت الحقيقة الوحيدة الجديرة بأن تُعرَف. ومن يمدّ

ذراعيه نحو السلام، يمدّهما نحوك، فأنت السلام الوحيد الذي تستكين فيه القلوب. إنّهم ينادونك، ولا يعلمون أنّهم ينادونك، وصيحتهم أكثر إيلاماً من صيحتنا، بما يتعذّر وصفه.

نحن لا نهتف باسمك كي نزدهي برؤية وجهك كما رآه الجليليّون واليهود، ولا لكي نتمتّع بمشاهدة عينيك، ولا بدافع جنون كبريائنا الذي يبتغي الفوز عليك بالتوسّل. نحن لا نطلب المجيء العظيم، في مجد السماء، وفي نور التجلّي، وفي أبواق الملائكة وكلّ طقوس اليوم الأخير السامية. فنحن متواضعون جدّاً، كما تعلم، في اعتدادنا الصاخب ! نحن لا نريد سواك، وسوى شخصك، وجسدك المسكين المثقوب، المرتدي قميص عاملٍ فقير. نريد أن نرى تيْنك العينين اللتين تخترقان الجسد، اللتين تشفيان عندما تجرحان بغضبهما، اللتين تُدميان عندما ترنوان بحنان. ونريد أن نسمع صوتك الذي يُرهب الشياطين، ويسحر صغار الأولاد.

أنت تعلم كم الحاجة حارقة، في زمننا هذا، إلى نظرتك وإلى كلمتك. وأنت تعلم أنّ نظرةً واحدة منك كفيلة بزعزعة نفوسنا، وأنّ صوتك كفيل بانتزاعنا من مزبلة بؤسنا اللامحدود. إنّك لتعلم أفضل منّا، وعلى نحوٍ أعمق منّا، أنّ حضورك ملحّ، في هذا الجيل الذي لا يعرفك.

أنت جئت، للمرّة الأولى، كي تخلّصنا؛ ووُلدت لكي تخلّصنا؛ وتكلّمت لتخلّصنا؛ وصُلبت لتخلّصنا : فنّك، ومهمّتك، ورسالتك، وحياتك، هي الخلاص. ونحن، في هذه الأيّام الرماديّة الخبيثة، في هذه السنين التي غدت ركام هول ووجع، نحتاج إلى الخلاص، بلا تلكّؤ.

لو كنت إلهاً غيوراً، فظّاً، إلهاً حقوداً، إلهاً عادلاً فحسب، لما تقبّلت صلاتنا. فكلّ ما كان بوسع البشر أن يسيئوا به إليك، قد فعلوه، وقد أساءوا إليك، بعد موتك، أكثر ممّا أساءوا في حياتك؛ نحن جميعنا، والمتكلّم كالآخرين، قد أسأنا إليك. ملايين من أمثال يهوذا قد قبّلوك، بعد أن باعوك، وليس مرَّة واحدة، وليس فقط بثلاثين من الفضّة؛ فيالق من الفرّيسيّين، ومن أمثال قيافا حكموا عليك أنّك مجرم، أهلٌ للصليب. وملايين المرّات صلبتك أفكارهم. رعاعٌ أبديّ يصفعك، ويبصق في وجهك؛ الخدم، والسيّافون، وجند محتكري المال والسلطة اللاشرعيّون، قد جرّحوا كتفيك، وأدموا جبينك؛ آلافٌ من أمثال بيلاطس، لابسو الثياب السوداء أو الحمراء، ما كادوا يفرغون من استحمامهم، وتسريح شعورهم، وحلق ذقونهم، وتعطّرهم، حتّى أسلموك آلاف المرّات إلى الجلاّدين، بعد أن أقرّوا ببراءتك؛ أفواهٌ مخمورةٌ لا تحصى طالبت بإطلاق سراح لصوصٍ مشاغبين، ومجرمين، وقتلة معروفين، لكي تُجرّ، أنت، إلى الجلجلة، وتثبّت على خشبةٍ بمسامير صاغها الخوف، ودقّها الحقد.

لقد صفحت عن كلّ شيءٍ، ودائماً، وأنت الذي عاش بين ظهرانينا، تعلم أعماق طبيعتنا البائسة. إنّنا أوراق في مهبّ الريح؛ إنّنا جلاّدو ذواتنا؛ سقطاء هجينون يتمرّغون في الشرّ، كما يتمرّغ السكّير في قيئه، والأبرص في تفسّخه. لقد نبذناك، لأنّك كنت أكثر طهراً

ممّا نحتمل. وأدنّاك لأنّك كنت إدانةً لحياتنا. أنت نفسك قلت :" لقد أقمتُ وسط العالم، وأعلنت لهم ذاتي في الجسد، ووجدتهم، جميعهم، سكارى، ولم يكن أحدٌ منهم مرتوياً؛ وإنّ نفسي تتألّم عن أبناء البشر، لأنّهم عميانٌ في قلوبهم ". كلّ الأجيال شبيهة بتلك التي صلبتك، وأيّاً كان الشكل الذي ستأتي في زيّه، سترفضك: " إنّها تشبه أولاداً جالسين في ساحة عامّة، يصيحون لرفاقهم : "زمّرنا لكم فلم ترقصوا، وأنشدنا المراثي، فلم تبكوا". هكذا نحن فعلنا، سحابة ستّين جيلاً.

البشر، اليوم، أكثر ثملاً، ولكنّهم أشدّ ظمأً. فما من جيلٍ قد قاسى ظمأً حارقاً إلى خلاصٍ فائق الطبيعة كما نقاسي. لم تكن الدناءة، يوماً، بمثل دناءتها اليوم، ولم يكن الحرق يوماً، كاوياً، كما هو اليوم. الأرض جهنّم تتنازل الكواكب فتضيئها. والبشر غارقون في قارٍ من قذارة ودموع، يطفون منه، أحياناً، مشوّهين مسعورين، كي يرتموا في الدم، آملين الاغتسال فيه. ها قد فرغ البشر، للتوّ، من اغتسالٍ مريعٍ بالدم، و بعد كلّ ما أحدثوه من إبادة، ثابوا إلى دِمَنهم الغاصّة بالأقذار والبراز. لقد تلت الحروب الأوبئة، والأوبئة تلت الزلازل. وتعفّن، تحت رداءٍ من تراب يعجّ بالديدان، قطيعٌ كثيف من الجيف، يضمّ من البشر ما كان يكفي قديماً لإنشاء مملكة. ومع ذلك، ولكأنّ كلّ هؤلاء الأموات ليسوا سوى دفعةٍ على حساب الدمار الشامل، ما انفكّوا يتقاتلون ويقتلون. الأُمم الغنيّة تحكم بالجوع على الأُمم الفقيرة. والمتمرّدون يقتلون من كانوا، بالأمس، أسيادهم؛ والأسياد يصرعون المتمرّدين بيد مرتزقيهم؛ ويستغلّ ديكتاتوريّون جُدُد دمار جميع الأنظمة والدساتير كي يقودوا أمماً بكاملها إلى المجاعة، والمجازر، والانحلال.

إنّ الحبّ البهيميّ، حبّ كلّ إنسانٍ لذاته، وكلّ شيعةٍ لذاتها، وكلّ شعبٍ لنفسه، ما برح أكثر عمىً وهولاً، بعد سنواتٍ غمر فيها البغضُ الأرض بعظام القتلى. إنّ حبّ الذات، بعد الهزيمة الشاملة المشتركة، قد ضاعف الكراهية : كراهية الصغار للكبار، وكراهية غير الراضين للقلقين، وكراهية الخدّام لأسيادهم المستعبِدين، وكراهية جماعاتٍ يحدوها الجشع والطموح لجماعاتٍ منحطّة، وكراهية طبقاتٍ مهيمنةٍ لطبقاتٍ مستعبدةٍ لها، وكراهية شعوبٍ خاضعة للنير، لشعوبٍ تضع النير على أعناقها. إنّ الحاجة النهمة إلى الإفراط، قد ولّدت الافتقار إلى الضروريّ؛ والرغبة الملحّة في اللذّة انقلبت عذاباً؛ والاندفاع الأهوج إلى الحرّيّة قد أثقل القيود.

خلال السنوات الأخيرة جُنّ الجنس البشريّ، الذي كان يتلوّى بفعل هذيان مئة حمّى، ودوّى العالم كلّه بانقصاف الصروح المنهارة، والأساطين التي غارت في الوحل؛ والجبال نفسها تهيل من قممها جُرُفاً حجريّاً يحوّل الأرض كلّها إلى سهلٍ متساوٍ وخبيث. والذين نجوا

من التلوّث، بفضل سلام الجهل، انتُزعوا عنوةً من أراضيهم البائرة، وجُـرّوا، فـي صـخب المدن، نحو التلوّث والألم.

فوضى في كلّ مكان، إعصارٌ بلا هدف، جيشانٌ يفسد الهواء، قلقٌ غير راضٍ عن كلّ شيء وعن الذات. والبشر، الثملون بكلّ الأهواء، تلتهمهم رغبة الإيذاء؛ ولا ينعتقون من هـذا الهوى الذي لا مجد فيه، إلاّ من أجل التماس الموت، بكلّ الوسائل. المخـدّرات التـي تـؤتي الهلوسة وتؤجّج الشهوة، واللذّات التي تحرق ولا تنقع غليلاً، والكحول، والقمـار، والأسـلحة تدمّر، كلّ يوم، آلافاً، ممّن أفلتوا من الإبادة القسريّة.

طيلة أربع سنواتٍ كاملة، لُطّخ العالم بالدم، كي يُقرّر من سيمتلك أوسع رقعة أرض، وأوفر مالٍ في خزائنه. ولكنّ هذا الاختبار المريع لم يؤتِ فائدةً لأحد. فقد عاد كلّ شعب، وهو أشدّ فقراً وجوعاً من قبل، واطّرح عند حمأة أقدام ربّ التجارة، كي يضحّي لـه بسـلامه، وبحياة الآخرين، والآن، أكثر من قبل، تستولي على أذهان البشر التجارة المقدّسـة، والعملـة الإلهيّة. من يملك القليل يطمح في الكثير، ومن يملك الكثير يتطلّع إلى المزيد، ومـن يملـك المزيد يبتغي كلّ شيء. وبعد أن اعتادوا على تبذير السنوات الشرهة، أصبح حتّى أكثر الناس زهداً، نهمين، وحتّى أكثر الناس استسلاماً، ماكرين؛ والأكثر استقامةً مارسوا السرقة، والأكثر طهراً تعاطوا تجارة المحظورات. تحت اسم التجارة يمارَس الربا، وتحت شـعار الصـناعة الكُبرى، تُرتكب القرصنة واللصوصيّة. المختلسون والمبتزّون يُكلَّفون بحراسة المال العـامّ، والاحتيال هو دستور جماعتهم الصغيرة المستغلّة. واللصوص الذين بقوا وحـدهم يتقيّـدون بالعدل، ما عادوا يرحمون حتّى اللصوص. وقد رسّخ حبّ التظاهر بالغنى هذه الفكـرة فـي جميع الرؤوس : أن لا قيمة، على الأرض التي تحرّرت، أخيراً، من السماء، إلاّ للذهب، ولما يُشترى بالذهب.

في هذا المستنقع النتن، كلّ المعتقدات تذبل وتموت. ودينٌ واحدٌ يسيطر على العـالم، دينٌ يعترف بالثالوث الأسمى: القوّة، والمال، والفسق... هذا هو الدين السائد علـى الأرض، الذي يمارسه، ويُقرّ به، جميع الأحياء. الأُسرة القديمة تتفكّك، والزواج يدمّره الزنـى وتعـدّد الزوجات؛ وإنجاب الأبناء يبدو لكثيرين لعنةً يتحتّم تفاديها بكلّ أساليب الخداع، وبالإجهـاض الإراديّ؛ والدعارة تحلّ محلّ الحبّ الحلال؛ وبات للّـواط مـدّاحوه، ومـواخيره؛ والبغايـا العموميّات والسرّيّات يحكمنَ شعباً من المنهوكين والمبتلين بداء الزهريّ.

ليس، بعدُ، ممالك ولا جمهوريّات. وما الأنظمة الحاكمة سـوى واجهـاتٍ ومظـاهر زائفة. تسلّطيّة الأثرياء والديماغوجيّة، وهما صنوان بالروح، ويتطلّعان إلى هدفٍ واحد، وتقوم على خدمتهما الرداءة المأجورة، تتنازعان السيطرة على الجماهير الهائجة... ولقـد أُخضـع العالي إلى السفليّ، والنوعيّة للكميّة، والروح للحمأة.

أنت تعلم ذلك، يا يسوع المسيح، وترى أنّ ملء الأزمنة قد حان، وأنّ هذا العالم لا يستأهل إلاّ أن يُعاقب بطوفان نار، أو أن يُخلّص بشفاعتك. وحدها كنيستك، الكنيسة المؤسّسة على صخرة بطرس، الوحيدة التي تستحقّ اسم كنيسة، الكنيسة الوحيدة الشاملة، ما برحت تطفو فوق محيط العالم الهائج اللزج، تزيدها الهجمات منعة، والبدَع عظمة، والدهور شباباً، ولكنّك أنت من ينصرها بروحه، تعلم كم هم، حتّى بين من وُلدوا في أحضانها، الذين يعيشون خارج شريعتها.

لقد قلت: "من كان وحيداً فأنا معه، وإن حرّك حجراً وجدني، وإن حزّ خشباً كنت هناك". ولكن من أجل اكتشافك تحت الحجر، وفي قلب الخشب، لابدّ من إرادة نشدانك، ومن القدرة على رؤيتك. والواقع هو أنّ معظم البشر، اليوم، لا يريدون العثور عليك، ولا يقوَوْن عليه. وإن لم تضع يدك على رؤوسهم، ولم تُسمِع صوتك في قلوبهم، سيستمرّون في البحث عن ذواتهم فحسب، ولن يجدوها، فما من أحدٍ يمتلك ذاته ما لم يمتلكك. نتوسّل إليك، إذن، أيّها المسيح، نحن الجاحدين، المذنبين، نحن الذين ما برحوا يذكرونك، ويجهدون في العيش على مثالك، مع أنّنا، دائماً، بعيدون عنك جدّاً؛ نحن الأخيرين، القانطين، العائدين من رحلاتٍ بعيدة، ووهادٍ سحيقات، ندعوك أن تهبط، مرَّة أُخرى، بين البشر الذين قتلوك، والذين يقتلونك كلّ يوم، كي تعيد لنا، جميعاً، نحن جرحى الظلمات، نور الحياة الحقّة.

غير مرَّة، بعد قيامتك، ظهرتَ لأحياء، وأظهرتَ وجهك، وكلّم صوتُك من كانوا يظنّون أنّهم يبغضونك، والذين كانوا كفيلين بحبّك، حتّى ولو لم تكن ابن الله. النسّاك في صحاراهم، والمتوّحدون، والقدّيسون، شاهدوك وسمعوك، ومنذئذٍ، لم يطلبوا سوى نعمة الموت الذي يقرّبهم منك. كنت نوراً وكلاماً على درب بولس، ناراً ودماً في كهف فرنسيس، حبّاً يائساً وكاملاً في زنزانتي كاترين وتيريزا. لقد عدت من أجل واحد، أفلا تعود من أجل الجميع؟ لقد استحقّ القدّيسون رؤيتك، بحقّ رجائهم الملتهب؛ أمّا نحن، المدانين، فلا شفيع لنا سوى قنوطنا وبؤسنا. نفوسهم استدعتك بقدرة البراءة؛ ونفوسنا تصرخ إليك من أغوار وهننا المحبَط. وإن كنت تبعث السكينة في وَجْدهم، فلمَ لا تلبّي دموعنا ؟ ألم تقل إنّك جئت من أجل المرضى، لا من أجل الأصحّاء ؟ لم تكن، قطّ، رسالتك ضروريّةً كما هي اليوم، ولم تكن، قطّ، منسيّةً ومزدراةً كما هي اليوم. ملكوت إبليس بلغ ازدهاره، وخلاص جميع من يبحثون عنه، متلمّسين متعثّرين، لن يتمّ إلاّ في ملكوتك.

التجربة الكبرى أوفت على نهايتها. بنأيهم عن الإنجيل وجد البشر الدمار والموت. وتحقّقت أقوالٌ ووعودٌ كثيرة. وليس لدينا، نحن اليائسين، سوى أمل عودتك. فإن لم تعد كي توقظ النيام القابعين في حمأتنا الجهنّميّة، فذلك يعني أنّك ترى أنّ عقاب خيانتنا ما زال ضئيلاً

و خفيفاً، وأنّك لا تريد تغيير شيءٍ من نظام شرائعك. ولتكن مشـــيئتك، الآن وأبـــداً، علـــى الأرض وفي السماء.

ولكنّنا نحن، الأخيرين، ننتظرك، وسننتظرك كلّ يوم، رغم عدم استحقاقنا، ورغم كلّ مستحيل. وكلّ الحبّ الذي سيسعنا التعبير عنه، في قلوبنا المحطّمـــة، ســـيكون لـــك، أيّهـــا المصلوب، الذي سيم العذاب حبّاً بنا، والذي يعذّبنا اليوم بكلّ قدرة حبّه العنيد.